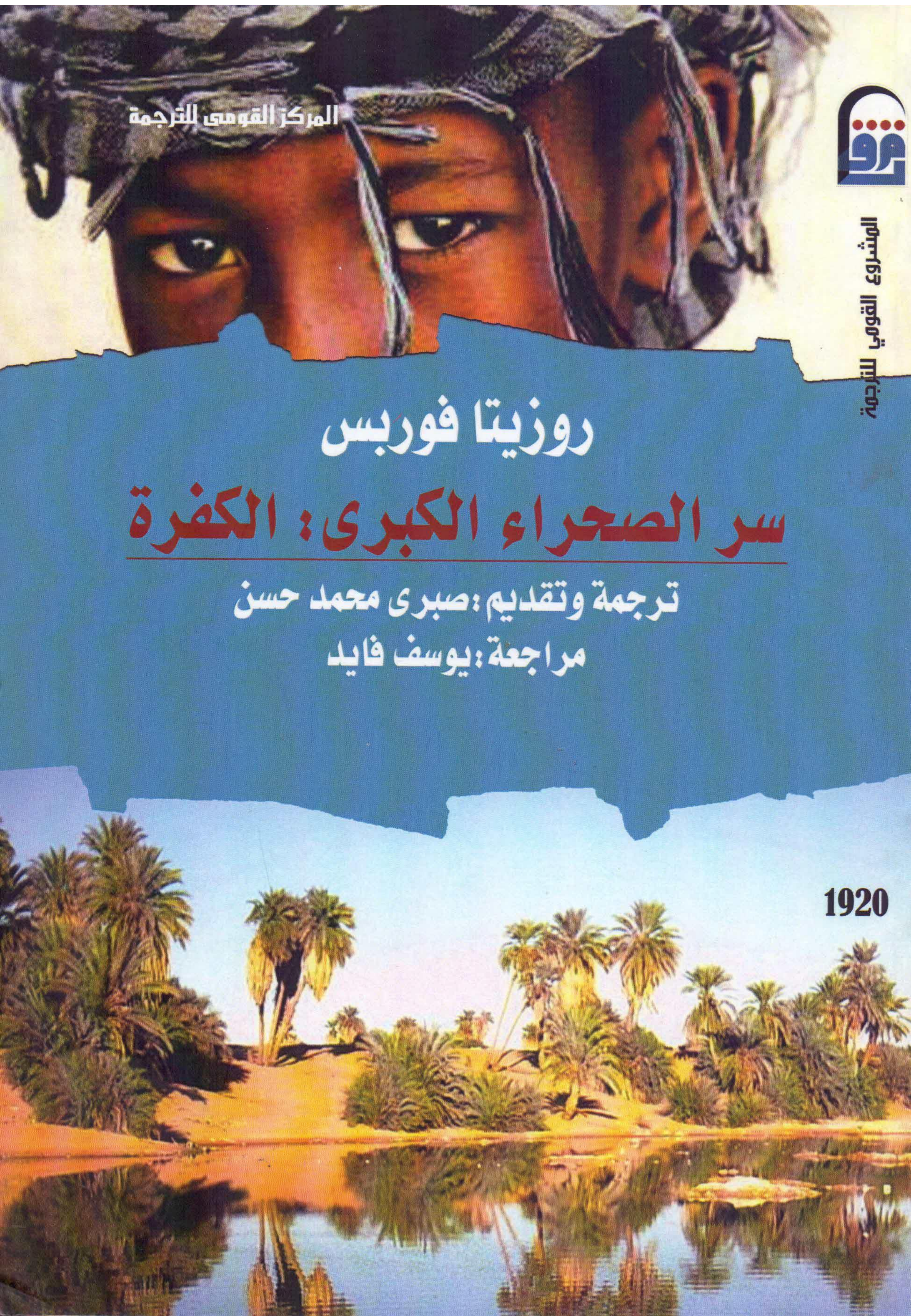


المركز القومى للترجمة

المشروع القومي للترجمة

روزيتا فوربس

سر الصحراء الكبرى: الكفرة

ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن

مراجعة: يوسف فايد

1920



هذه هى الرحلة التى قامت بها روزيتا فوربس فى شتاء عامى ١٩٢٠- ١٩٢١، وعبرت فيها الصحراء الليبية على ظهر جمل؛ بحثًا عن واحة الكُفرة التى كانت تقع ضمن سيطرة السيد إدريس السنوسى، الذى أصبح فيما بعد ملكًا لليبيا، وقد سافرت روزيتا فوربس بصحبة أحمد باشا حسانين الرحالة المصرى، الذى كانت معارفه وخبراته عاملاً حيويا فى نجاح هذه المغامرة.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

سر الصحراء الكبرى: الكُفرة

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1920
- سر الصحراء الكبرى: الكفرة
- روزيتا فوربس
- صبرى محمد حسن
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

The Secret of the Sahara :Kufara
By: Rosita Forbes

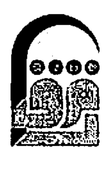
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

سر الصحراء الكبرى: الكُفرة

تـأليـــــف: روزيتـــا فـــوربس

تـرجمـــة وتقديم: صبرى محمــد حــسن

مـراجعـــــة: يوســـف فايـــد



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فوربس، روزيتا

سر الصحراء الكبرى: الكُفرة: تأليف: روزيتا فوربس ، ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن ، مراجعة: د/يوسف فايد

ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٣

٤٨٠ ص ، ٢٤ سم

١ – الصحراء الكبرى

(أ) حسن ، صبرى محمد (مترجم ومقدم)

(ب) فايد ، يوسف (مراجع)

(ج) العنوان ٩١٦/٢٢٧

رقم الإيداع ١٣٤٢٨ / ٢٠١٢

الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 - 977- 216 - 185- 0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

إهــداء

أهدي هذا الكتاب إلي محمد بك حسانين

تذكارا لساعات خطرة ومرحة، ومعارك يائسة أو مضحكة، وعن الفشل والنجاح فى الصحراء الليبية

مقدمة الترجمة

روزيتا فوربس وسر الصحراء

جرت أحداث ووقائع هذه الرحلة فى منطقة متاخمة لحدود مصر الغربية، التى قال خبراء ذلك الزمان (١٩٢٠) العسكريون إنها "شبيهة بأبى ذنيبة، فالدلتا هى رأس مصر، أقصد رأس أبى ذنيبه، أما الذيل فهو وادى النيل الطويل الملتوى. وعليه فإن مصر - من بين كل الدول - هى الأكثر تعرضًا للهجوم... ولن تستطيع مطلقًا الدفاع عن حدودها" وعليه ومن باب الاسترضاء والمهادنة "قدم محمد على باشا الدعم والمعونة لمشايخ أولاد على لكى يقوموا بحراسة حدوده"

فمن هى صاحبة هذه الرحلة وما هى وقائعها وأحداثها؟

اسمها بالكامل جوان روزيتا فوربس؛ وهى رحالة وكاتبة ولدت فى اليوم السادس عشر من شهر يناير من العام ١٨٩٣ فى لينكولن Lincoln، التى تربت ونُشىءت فيها تنشىءه تقليدية، تمتعت خلالها بالقراءة والكتابة. وقد تزوجت روزيتا فوربس من العقيد رونالد فوستر فوربس وترحلت معه فى الهند، والصين وأستراليا، وجنوب أفريقيا. لكنهما طُلِّقا فى العام ١٩١٧، وفى العام ١٩١٩ - أى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى - قامت روزيتا فوربس بجولة حول العالم؛ انتهت هذه الجولة فى شمال أفريقية، وهو ما يعد أول ملتقى لروزيتا بالعالم العربى. عاشت هذه السيدة مع الشخصيات المحلية واختلطت بهم وكانت تتردد على الأسواق الشرقية وتصادق العرب والأفغان والهنود، والطجيك، والأوزبك والقازاق والتقت هذه السيدة ببعض الشخصيات البارزة فى كل من القاهرة، ودمشق، وبيروت، وأبدت اهتماما بالعرب دام معها بقية حياتها. ويصف الكتاب المعنون "جوالون بلا مرشد" الذى صدر فى العام ١٩١٩ تلك الرحلة التى قامت بها هذه السيدة حول العالم.

روزيتا وآرثر توماس

فى العام ١٩٢١ تزوجت روزيتا من العقيد آرثر توماس ماكجراث، لكنهـا واصلت الاحتفاظ بالاسم روزيتا فوربس، ليكون اسمًا مهنيًا لها، وواصلت ترحالها مثلما كانت تفعل من قبل، غير أن خططها التى وضعتها للسفر إلى جنوب الجزيرة العربية بصحبة والد كيم فيلبى باءت بالفشل، والسبب فى ذلك أن سـلطات عـدن رأت أن الرحلة تمثل خطورة عليها، وكبديل عن هذه الرحلة، قامت بالتجوال خلال أراضى الحبشة، بصحبة هارولد جونز، وهو مصور سـينمائى. قامـت روزيتـا فوربس هى وزوجها الثانى آرثر توماس ماكجراث بكثير من الأسفار، وعندما كانا فى لندن حظيا باهتمام كبير. وترحلت روزيتا فوربس فى العام ١٩٣٠ فـى بـلاد إيران التى سافرت إليها عن طريق المرور خلال كـل مـن سـورية وفلـسطين والعراق والأردن. كما ترحلت أيضًا فى أمريكا الجنوبية وروسيا، وكينيا وسـاحل العاج.

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى كانت روزيتـا فـوربس تقـود سـيارات الإسعاف فى فرنسا وحصلت على ميداليتين من الحكومة الفرنسية، وأثناء الحـرب العالمية الثانية ساعدت فى المجهود الحربى عن طريق إلقـاء المحاضـرات فـى أمريكا. واستقرت خلال السنوات الأخيرة من عمرها مع زوجها فى جزر البهامـا وتوفيت فى برمودا فى اليوم الثلاثين من شهر يونيو من العام ١٩٦٧. ولـم تحـظ بالشهرة التى حظيت بها جرترود بل Bell فى العالم العربى، لكنها كانت رحالـة واسعة الحيلة جرى تسجيل حياتها المليئة بالمغامرات فى كتابين من كتب السيرة.

روزيتا فوربس فى عيون الآخرين

اشتهرت هذه السيدة بحق بترحالها فى الأجزاء الخطيرة من العالم. واقع الأمر أن هذه المرأة الإنجليزية الجسورة اعتادت - على امتداد سنوات طويلة - زيارة الأماكن النائية والخطيرة. وخاطرت أيضًا بالذهاب إلى أماكن أخرى ممنوعة.

هناك من يقول: إن أفغانستان جرى غزوها مرات عدة: الاسكندر الأكبر، - على سبيل المثال - سيَّر قواته الإغريقية بين جبالها، وجنكيز خان هرول خلال شوارعها هو وجحافل قواته. وجاء بعد ذلك الراج Raj البريطانى القوى ليأمر طائراته الحربية بالتحليق فوق مملكة الناسك المعزولة. وعلى الرغم من ذلك كله، لم يستطع أى أحد تجريد الأفغان من أسلحتهم بلا مجهود سوى روزيتا فوربس.

روزيتا فوربس وبيشاور

بدأت روزيتا رحلتها من بيشاور، تلك المدينة الساحرة، الخارجة فى معظمها على القانون، والتى تقع مثل بيضة الحمام على قاعدة ممر خيبر القريب منها. تعين على روزيتا فوربس بطبيعة الحال المغامرة بالدخول إلى أسواق العاديات فى المدنية، حتى تتحرى الشائعات الذائعة عن "أسرار بيشاور التى يعرفها الناس جميعًا". ومع ذلك، فإن رغبه روزيتا كانت تذهب إلى ما وراء الخطيئة الثقافية لتلك البلدة الحدودية سيئة السمعة. من هنا استأجرت هذه الرحالة الشجاعة سائقًا وسيارة، وألقت بحقائبها فى شنطة السيارة، وارتدت قفازها، ووضعت قبعتها الرائعة على رأسها، وركبت السيارة، متجهة إلى كابول، ثم مزار شريف لتصل فى نهاية المطاف إلى سمرقند البعيدة. وأسفرت هذه الرحلة عمَّا يعد أبهج الرحلات التى أجريت فى فترة الثلاثينيات من القرن العشرين. والسبب فى ذلك أن عينى روزيتا فوربس الفاحصتين لم يغب عنهما شيئًا على الإطلاق. تحدثت روزيتا فوربس مع البدو الرُّحل، وتناولت الطعام مع أفراد الأسر المالكة، وكشفت عن

قصص ملأت كتابين. ومن يمن الطالع أن صورها وأحسن قصصها لا تزال تجمع هنا فى الكتاب المعنون "الطريق الممنوع". هذا الكتاب البهيج، لا يزال عامرًا بالحياة، وله سحره الخاص، شأنه فى ذلك شأن مؤلفته المغامرة الجميلة.

أسفرت هذه الرحلة فى عشرينيات القرن العشرين عن سفر يعد من أشهر أسفار المغامرة فى ذلك التاريخ، بحكم أن الكتاب عامر بالملاحظات السياسية والمقابلات المهمة التى جعلت من هذه المرأة رحالة شهيرة بحق وفوق ذلك أن هذه السيدة تقدم للقارئ أيضًا مقطوعات شعرية عن جمال عالم الصحارى التى تجولت خلالها.

سر الصحراء: الكفرة

فى شتاء العام ١٩٢٠-١٩٢١ وضعت روزيتا فوربس خطة للقيام بعبور الصحراء الليبية على ظهر جمل بحثًا عن واحة الكفرة التى كانت تقع ضمن حدود السيد إدريس السنوسى (الذى أصبح فيما بعد الملك إدريس السنوسى) وحتى ذلك الوقت كان جرهارد رولفز Rohlfs، هو الأوربى الوحيد الذى زار واحة الكفرة؛ كان ذلك فى العام ١٨٧٩. تنكرت روزيتا فوربس فى زى مسلمة، وأطلقت على نفسها اسم خديجة، لكن لغتها العربية لم تكن بجودة لغة السيدة/ آن بلنت، صاحبة كتاب الحج إلى نجد(*)، وأحست روزيتا فوربس أنها مضطرة إلى الادعاء بأن أمها شركسية الأمر الذى يبرر عيوبها اللغوية. سافرت روزيتا فوربس بصحبه أحمد حسانين، الرحالة المصرى، الذى كانت معارفه وخبرته أمرًا حيويًا فى نجاح هذه المغامرة. كانت رحلتهما التى قاما بها بواسطة الإبل شاقة وخطرة فى بعض الأحيان. الرواية التى أوردتها روزيتا فوربس عن الرحلة فى كتابها: سر الصحراء: الكفرة، الذى صدر فى العام ١٩٢١ تدل على صدق مزاعم هذه السيدة بأنها مستكشفة جادة.

(*) هذا الكتاب من منشورات المركز القومى للترجمة فى جمهورية مصر العربية، وترجمه إلى العربية الدكتور صبرى محمد حسن.

محتويات الكتاب

ينقسم الكتاب إلى خمسة عشر فصلاً، إضافة إلى خريطة وأربعة ملاحق.

أوردت المؤلفة الفصل الأول تحت عنوان: 'الإقدام على المغامرة الكبرى'؛ وخصصت الفصل الثاني لما أسمته 'ترتيبات الهروب'، لكن 'الهروب من إجدابيا' كان عنوان الفصل الثالث. وأوردت المؤلفة الفصل الرابع تحت عنوان 'عبر الصحراء بصحبة شيب'. 'نجاحنا في الوصول إلى جالو' هو عنوان الفصل الخامس. وأعطت المؤلفة الفصل السادس عنوانًا هو 'عيد الميلاد في الصحراء'. 'مرشد زائف في طريق خال من الماء' هو عنوان الفصل السابع. أما 'البحيرة التي في الصحراء' فهو عنوان الفصل الثامن. وأعطت المؤلفة الفصل التاسع عنوانًا هو 'الخيانة في هواري'. 'الولائم في المكان المقدس' هو عنوان الفصل العاشر. وأفردت المؤلفة الفصل الحادي عشر لـ - 'مدائن الكفرة'. وأوردت المؤلفة الفصل الثاني عشر تحت عنوان 'الهرب من تاج'. 'خلال الجبال' هو عنوان الفصل الثالث عشر؛ ويتناول الفصل الرابع عشر 'الكثبان الرملية الخادعة'. والفصل الخامس عشر هو 'نهاية الرحلة'.

تنهي المؤلفة فصول الكتاب بخريطة توضح خط سير الرحلة، وتتبع هذه الخريطة بأربعة ملاحق هي بحد ذاتها وثائق مهمة من الناحية التاريخية، أول هذه الملاحق يتناول المذهب السنوسي، وكيف نشأ، وكيف حاد عن أهدافه وتحول إلى أهداف أخرى؛ وتورد المؤلفة ذلك كله مدعومًا بالوثائق.

وفي الملحق رقم ٢ تورد المؤلفة نص رسالتي الترحيب اللتين صدرتا في كل من بسيمة وتاج ترحيبًا بمقدم روزيتا فوربس.

وفي الملحق د تورد المؤلفة ترجمة لمخطوط الرسالة التي وجهها سيدي بن علي السنوسي مؤسس المذهب السنوسي إلى أهل واجنجا ودارفور في السودان.

أحمد حسانين

ترى لماذا اختارت روزيتا فوربس رفيقا لها فى هذه الرحلة؟ هل كان الرجل صاحب خبرة عن السنوسيين؟ وهل صحيح أنه اكتسب هذه الخبرة خلال عمله فى سكرتارية تالبوت فى العام ١٩١٦؟ وهل من الصحيح أن الرجل كان "أخلص محالف لها طوال هذه الرحلة"؟ أم أن كياسة الرجل ولباقته وفصاحته كانت تنقذ الموقف فى كثير من الأحيان عندما كانت "لغتى العربية تخوننى؟" وهل صحيح أن أحمد حسانين كان أحد أبناء علماء الأزهر الشريف؟

استفادت روزيتا فوربس من الخبرة التى اكتسبتها من رحلتها إلى الحبشة، وزودت الكتاب بست وستين صورة، زادت الرحلة وضوحًا، ولا أبالغ إن قلت إنها أصبحت الآن فى عرف الوثائق شديدة الأهمية فى هذه الرحلة الثمينة، وبخاصة فى ضوء مصاعب النقل والتنقل فى ذلك الوقت على ظهور الإبل حاملين معهم ماءهم، ومؤنهم وعلف ماشيتهم.

قطعت روزيتا فوربس هى وقافلتها ورفيقها أحمد حسانين هذه الرحلة فى ستة وستين يومًا منها اثنان وعشرون يومًا فى شهر ديسمبر، وواحد وثلاثون يومًا فى شهر يناير وثلاثة عشر يومًا فى شهر فبراير. قطعت القافلة ١٥٦٢ كيلو مترًا طوال هذه الفترة منها: ٥٢٣ كيلو مترًا فى شهر ديسمبر، ٥٧٥ كيلو مترًا فى شهر يناير ثم ٤٦٤ كيلو مترًا فى شهر فبراير، أى بمتوسط سير يومى حوالى ثلاثة وعشرين كيلو مترًا فى اليوم الواحد، فى أرض وعرة التضاريس، وطقس شديد الحرارة نهارًا شديد البرودة ليلاً.

خط سير الرحلة

بدأت الرحلة من إجدابيا فى اليوم الثامن من شهر ديسمبر عند الساعة السادسة صباحًا وتوقفت القافلة عند الساعة التاسعة والنصف واستأنفت مسيرتها ثانية عند الساعة الحادية عشرة والنصف للتوقف من جديد عند الساعة الثانية بعد الظهر. وبذلك تكون القافلة قد قطعت المسافة من إجدابيا إلى الوادى الفارغ فى ثلاثة أيام قطعت خلالها ستة وخمسين كيلو مترًا، أى بمتوسط سير مقداره ١٧,٥ كيلو مترًا.

وتتحرك القافلة من الوادى الفارغ فى اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر لتصل إلى عجيلة بعد حوالى سبعة أيام قطعت خلالها ١٦٨ كيلو مترًا، أى بمتوسط سير يقدر بحوالى ٢٨ كيلو مترًا فى اليوم.

ومن عجيلة، تتحرك القافلة فى ١٨ ديسمبر قاصدة بطّافل لتصلها فى اليوم الرابع والعشرين من الشهر نفسه قاطعة بذلك أربعة وعشرين كيلو مترًا.

وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر تتحرك القافلة قاصدة بسيمة لتصلها بعد أحد عشر يومًا قطعت خلالها ٣٠٨ كيلو مترات.

وتتحرك القافلة فى اليوم السادس من يناير، من بسيمة قاصدة ناج، فى منطقة واحة الكفرة لتصلها فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير، أى بعد ثمانية أيام قاطعة بذلك ١٥٢ كيلو مترًا.

وتنطلق القافلة من تاج يوم الثالث والعشرين من يناير لتصل إلى هواويرى فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير، قاطعة بذلك خمسة وثلاثين كيلو مترًا.

وتستأنف القافلة سيرها بعد ذلك قاصدة منطقة بئر ذاكار لتصلها بعد أربعة أيام قاطعة بذلك ١٦٢ كيلو مترًا.

وتواصل القافلة سيرها من بئر ذاكار على امتداد أربعة عشر يومًا لتصل إلى واحة جغبوب في يومى الحادى عشر والثانى عشر من شهر فبراير قاطعة بذلك مسافة ٥٦٦ كيلو مترا.

وفى اليوم الثالث من شهر فبراير تبدأ القافلة رحلتها إلى واحة سيوة المصرية.

كانت هذه، هى المحطات التى انطلقت القافلة منها وإليها، لكن المؤلفة حرصت منذ البداية على تحديد ارتفاعات هذه المحطات عن مستوى سطح البحر، وتوقيع زوايا هذه المحطات عن طريق استعمال البوصلة. ترى ما سبب ذلك؟ أهو تَوَخّى الدقة فى المعلومات؟ أم أن ذلك لتسهيل مهمة أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية الذين سيقومون بدراسة هذه المعلومات والاستفادة منها؟ ولماذا حاولت المؤلفة جاهدة إحصاء عدد الأبيار، وتحديد نوعية مياهها ومدى صلاحيتها؟ وما هو السبب وراء تحديد المؤلفة لعدد الزوايا التابعة للطريقة السنوسيه، على امتداد خط سير الرحلة؟ وهل كان ذلك من باب العلم بالشيء؟ ألم يستفد الفرنسيون من هذه المعلومات الدقيقة والموثقة، عندما شرعوا فى تهديد تجارة السنوسيين فى العبيد والسلاح؟ وكيف نجح الفرنسيون فى العام ١٩٠١ فى قتال السنوسيين، بغية تقليل الضغط الواقع على الفرنسيين من ناحية الجنوب؟ الرحلة فيها إجابات على كل هذه التساؤلات.

لغة الكتاب

استعملت المؤلفة كلمات عربية كثيرة: مثل Gherds (غرود) التى وردت فى السطر العاشر من الصفحة رقم ١٤١ من النص الإنجليزى، وهى تعنى "الكثبان الرملية"؛ واستعملت أيضا كلمة 'جبل' Gebel فى السطر الثانى عشر من الصفحة رقم ١٤٢؛ وكلمة 'زمزميه' Zemzimaya فى السطر التاسع عشر من صفحة ١٤٣؛ وكلمة 'قبة' فى السطر الخامس عشر من صفحة ١٤٣؛ وكلمة 'نبات الحلفا' Halfa فى السطر ٣٥ من الصفحة ١٥٧؛ كما استعملت كلمة 'حطب' Hattab فى السطر رقم ١ من الصفحة رقم ١٥٨. واستعملت أيضا كلمة 'قارة'

Gara، وهى فصيحة، وتعنى 'قسم من الأقسام الرئيسية التى ينقسم إليها اليابس'.واستعملت أيضًا كلمة 'بعيد ' ودونتها بأحرف رومانية Bayid. واستعملت أيضًا كلمه 'ضرُب'، بضم الضاد وضم الراء، على أنها كلمة ليبية، وأظن أنها فصيحة فقد قرأت فى المعجم الوسيط 'ضرب الشيء عليه: ألزمه إياه، ويقال: ضرب عليه خراجًا ونحوه: فرضه وقدَّره'. واستعملت المؤلفة أيضًا كلمات مثل 'فلفل'، 'أذان' Azzan. 'منبر'، 'عصيدة' Asida، 'زيت' Zeit، 'بقسماط' Bucksumat، 'ليف' بمعنى 'ليف النخل'. استعملت المؤلفة أيضًا كلمة Kismet المأخوذة عن الكلمة التركية عربية الأصل Qisma بمعنى 'القسمة والنصيب'.

على الصعيد التركيبى أوردت المؤلفة فى السطر الثانى عشر (عدًّا من نهاية الصفحة) من الصفحة رقم ٢٧٣ التعبير Girba water على لسان يوسف الطباخ، بدلاً من التعبير Water Gieba، فى إشارة ذكية منها إلى أن هذه الشخصية لا تتقن الإنجليزية.

استعملت المؤلفة أيضًا تراكيب يغلب عليها الطابع المصرى مثل: 'هى مجنونة' Heya Magnuna، 'مين دا؟' التى تستعمل ردًا على من يطرق بابًا من الأبواب.

المفردات الليبية

استعملت المؤلفة مفردات ليبيه كثيرة، تعد مفاتيح مهمة فى فهم مضمون الرحلة.

برَّكان: بتشديد الراء وفتحها، كلمة عامية ليبية تعنى 'رداء قطنيا أو حريريًا طويلاً ترتديه النساء وهو قريب من الملس أو الشال المصرى.'

زاوية: Zawia: يمكن أن تكون دعوه، ويمكن أن تكون الجماعة القائمة على أمر الدين والعقيدة وقد تشير أيضًا إلى إخوانية من الإخوانيات السنوسية.

مكرون: حلوى بشكل البسكويت تصنع من دقيق اللوز وبياض البيض والسكر.

تُبَّه: Tobh بضم التاء وتشديد الباء وفتحها: الثوب النسائى اليدوى عند الليبيين

جرْد: بكسر الجيم وتسكين الراء: زى وطنى ليبى مصنوع من الصوف.

يُفاضل: يجالس ويتسامر، عامية ليبية

نُجَّه: بضم النون وتشديد الجيم وفتحها: خيمة.

الجِبْلى: بكسر الجيم وتسكين الباء، ويصح فيه أيضًا 'القبلـى' وهـى الـريح الجنوبية القوية المحملة بالرمال

البلاد: عامية ليبية بمعنى 'القرية' أو 'الموطن'.

زريبة: Zariba أو Zareba، وهى عربية الأصل، وتـدل علـى 'حظيـرة مرتجلة تقام من بعض النباتات الشائكة فى السودان وغيره من البلاد الإفريقية.'

هاتيا: مفردة ليبية عامية تعنى 'منخفض يحتوى على أشجار متشابكة'.

المرابط: عامية ليبية إذا ما استعملت صفة دلت علـى 'القداسـة' ، وإذا مـا استعملت اسمًا أعطت معنى 'قبر'

قُبَّه: القبر الذى تعلوه قبة.

الفيشه: كلمه ليبية، تدل على حبَّة من قرع القلل تـستخدمها المـرأة الليبيـة تعويذه بغية الإبقاء على حب الرجل لها.

الداريايان: صيحة ليبية تستخدم عند توقيف الإبل وهى تعنى "لقد وصـلنا أيهـا الكُسالى".

اللغبى: عامية ليبيه بمعنى 'عصير التمر المتخمر' ، والذى يتخمر بعد أربـع وعشرين ساعة مكونًا بذلك مشروبًا روحيًا قويًا جدًا.

واجد: كلمة بدوية بمعنى 'كثير'

مركاس: عامية ليبية بمعنى 'مقر'

تُوكل: عامية ليبية بمعنى 'كوخ مستدير'

جنكت: نوع من الحلوى يعد من اللبن المخثَّر المضاف إليه المنفحة

الموغن: عامية ليبية بمعنى "قمْع".

حاوية: عامية ليبية بمعنى "فتحة واحدة من فتحتى سرج حمل الأمتعة".

باسور: عامية ليبية بمعنى "هودج".

الحملة: بفتح الحاء وتسكين الميم "الإبل المخصصة لحمل الأمتعة".

أوردت المؤلفة كلمة Jarfa فى السطر التاسع من الصفحة ٢٥٤ من النص الإنجليزى، وصحيحها Jaata وهى تعنى "الجوال المصنوع من الجلد".

استعملت المؤلفة فى السطر التاسع من الصفحة ٦٩ كلمة Specs، وهى كلمة إنجليزية عامية لتدل بها على "النظارات". كما استعملت الكلمة Inferno التى استعملها دانتى فى ملحمته "الكوميديا السماوية" للدلالة على "جهنم"، فى وصفها للحرارة الشديدة التى لقيتها وهى فى الأراضى الليبية.

وفى إطار هذا السياق هل الاسم الصحيح هو "الكفرة" أم "الكُفارة"، بضم الكاف وفتح الفاء، لتلك الواحة التى كانت تسمى "تازير" فى الماضى؟ الليبيون يردون على هذا السؤال فى ثنايا الرحلة.

وهنا أرانى أتساءل: هل قصة هذه الرحلة مجرد "سرد بسيط" لما حدث؟ أم أنها تعد – بشكل أو آخر – سجلاً علميًا من سجلات الاستكشاف؟ وهل تغيرت روح هذه القصة بتغيير حالة مؤلفتها النفسية، التى دونت بعض أحداثها حينًا عند الغروب وتحت أغصان أدغال ذكية الرائحة، أو عندما كانت تكوم نفسها داخل كيس نوميا فى الليالى شديدة البرودة؟ أو فى حال انفعالها وهى راكبة على جمل؟ وهل يمكن اعتبار هذه الرحلة يوميات من النجاح والإخفاق طوال ستة وستين يوما، فى عالم غريب على من قامت بها؟

وقائع هذه الرحلة تعطى من يجيد قراءتها إجابات شافية عن هذه التساؤلات.

الدكتور/ صبرى محمد حسن

تصدير

أحس أن هذه القصة الليبية بحاجة إلى شيء من التوضيح؛ لأن هذه القصة- في ظل الظروف العجيبة التي اكتنفتها - ليست هي ذلك الكتاب الشامل الذي تبلور بعد العودة من هذه المهمة، التي يستطيع الرحالة بعدها استعراض الأمور كلها بشكل شامل. قراءتي لكتب الرحلات تجعلني في كثير من الأحيان أسائل نفسي، "وماذا حدث بعد ذلك؟" أو "أتعجب، وماذا كان إحساسه في تلك اللحظة؟" حسن، الكتاب الذي نحن بصدده هو مجرد سرد بسيط "لما حدث بعد ذلك". الكتاب لا يدعي - بأي حال من الأحوال - أنه سجل علمي من سجلات الاستكشاف، وسبب ذلك، في ظل الظروف المشددة للسرية والتنكر، هو أن استعمال القسم الأكبر من الأدوات يعد ضربا من الأمور المستحيلة.

روح هذه القصة تتغير تتغير الحالة النفسية من ناحية وأسلوب أو طريقة تطوير القصة من ناحية أخرى. لقد كُتبت هذه القصة بطرق غريبة - وفي أوقات كثيرة غير الأوقات العادية- تحت أغصان دغل زكية الرائحة عند الغروب ساعة أن كان **العبيد** ينصبون خيمتنا، أو عندما كنت أتكوم داخل كيس الوقاية من البراغيث، في الليالي شديدة البرودة. كنت أكتب في بعض الأحيان، عندما أنفعل، وأنا راكبة على جمل وأحتمي ببركان(*)! لقد جرى إتمام الفصل الأخير من هذه القصة، مرتين في أسوأ الأحوال، في ظل ظروف إنسانية صعبة على أمل عودة كراسات المذكرات بصورة أو أخرى إلى الحضارة من جديد، وأن يعرف الناس تفاصيل هذه الرحلة إلى آخر لحظة من لحظاتها. الرحلة عبارة عن يوميات من

(*) البرّكان: بتشديد الراء وفتحها، كلمه عاميه ليبيه تعنى "رداء قطنيا طويلا ترتديه النساء". (المترجم)

النجاح والإخفاق. بضعة أشهر فى عالم غريب، وتوضح مدى تشربى واستيعابى لروح ذلك العالم. ونظرًا لأن الأشياء الكبيرة والصغيرة فى الحياة، لا يمكن فصلها عن بعضها، بحكم تداخلها مع بعضها البعض، فقد كنت مهمومة وأنا فى ليبيا، من منطلق أن حذائى الوطنى كان مليئًا بالثقوب، وكنت أعجب أيضًا من طول المدة التى سأظل أرتدى فيها هذا الحذاء. هذه القصة تسجل هاتين الحالتين النفسيتين السابقة واللاحقة، لأن هاتين الحالتين كانتا مهمتين فى ذلك الوقت على وجه التحديد.

من الطبيعى لهذه الرحلة الشاقة غير المنطقية أن تجعل صاحبها مدينًا لأناس كثيرين ويصعب تحديد من هو صاحب الفضل الأكبر.

لقد أهديت قصة مغامرتنا إلى أحمد بك حسانين رفيقى فى هذا الكشف الجغرافى، نظرًا لأن الخبرة التى اكتسبها ذلك الرجل عن السنوسى - خلال عمله فى سكرتارية بعثة تالبوت Talbot فى العام ١٩١٦ - كانت لا تقدر بثمن؛ إضافة إلى أن أحمد بك حسانين كان أخلص محالف لى طوال هذه الرحلة. كانت كياسة الرجل ولباقته وفصاحته تنقذ الموقف فى كثير من الأحيان، عندما كانت لغتى العربية تخوننى، وكنا نضحك ونتشاجر مع بعضنا خلال المصاعب التى كانت تواجهنا.

كان كثير من الضباط الذين كانوا يخدمون فى الصحراء الغربية، قد أمدونى قبل وقت طويل من تحول رحلتى إلى الكفرة من حلم مستحيل إلى حقيقة محتملة، بقدر كبير من معارفهم عن واحة السنوسى، تلك المعارف التى جمعوها من حواراتهم الواعية مع شيوخ البدو والتجار، فى الوقت الذى جاءتنى فيه - من الخرطوم، ومن الفاشر، ومن القاهرة - خرائط وتقارير عن الطرق، كانت مفيدة إلى أبعد الحدود.

أدركت عندئذ أنه كان بوسعنا الاستفادة على نحو كبير من كتابات رولفز Rohlfs الواعية والقيمة عن موضوع ترحاله فى الشمال الإفريقى، لكن الحظ لم

يكن حليفنا إذ لم يكن معنا سوى ما كتبه عن "الكفرة" Kufra، والــذى لــم يكــن يحتوى على وصف كبير لهذه الواحة، و كان رولفز أول أوروبى يزورهــا. أورد هذا المستكشف الألمانى الكبير، فى أحد أعداد مجلة الجمعيــة الإفريقيــة الطريــق الدقيق الذى سار فيه بدءًا من جالو Jalo. لو كنا عرفنا ذلك الطَريق، لوصلنا إلـــى تيسربو Taiserbo على الرغم من الخطأ فى طبيعة الحياة النباتية المـــذكورة فـــى الخريطة(١). اقتفينا أثر رحلة رولفز فى بلدة بُسيمة Buseima، حيث كان بعـــض سكانها يذكرون رولف باسم مصطفى بك. وفى هوارى Hawari حكى لنا شـــيوخ كثر قصصنا عن مغامراته هناك وفى بوما Buma، لكننا لم نستطع العثور فى أى مكان، على أى أثر يدل على زيارة ستكر Stecker لتلك الواحات. وعلى العكـــس من ذلك، تأكد لنا بصورة قاطعة من كل من الشيخ محمد المدنى، والشيخ بورجيـــا Bu Regea، وسيدى عمر فى بلدة بُسيمة، والشيخ موسى سكويرين Squaireen، والشيخ منصور بو بدر Badr، والشيخ موسى غاربيل Gharibeel والشيخ سيدى زرُّوق Zarrug فى هوارى، أن رولفز لم يكن معه شخص أوروبى آخـــر. كـــان ستكر يشغل منصب مسَّاح الجماعة، وفى ضوء الفارق الذى حدده لموقع بلده بوما Buma، وما كنا نراه نحن بشأن هذا الموقع، كان علينا القيام بتحريات واسعة عن الأفراد الذين شاركوا فى البعثة (الرحلة) الألمانية؛ لكن فى الوقت الذى جمعنا فيـــه معلومات قيمة كثيرة عن رولفز Rohlfs، فإن كل الدلائل التى قُدِّمت لنا أكدت أن الرجل لم يكن معه ستكر فى كل من هوارى، وبوما، أو حتى عنـــدما عـــاد إلـــى بُسَيمة. كان الرجل يوصف فى تلك المناسبات كلها على أنه كان "بصحبة طباخـــه المدعو على، وحصان كبير."

---

(١) توضح خريطة مصلحة المساحة المصرية (مقياس ١ : ٢٠٠٠٠٠٠) الصادرة فى العام ١٩١٢، والتى أعيدت طباعتها فى العام ١٩١٦، منطقة تيسربو الخضراء على أنها تمتد عبر خط طول ٢٢° وتلامس خط عرض ٢٦°. وسوف يتضح من خريطة طريقنا أننا سرنا عبر هذه الزاوية دون العثور على كوسوبيا Kusobeya أو أى أثر من آثار الحياة النباتية.

هذا الاستقبال الحافل الذى لقيته من صاحب السعادة السيناتور دى مـــارتينو، حاكم مستعمرة سيرنايكا (ليبيا حاليًا)، جعلنى أحس بالندم لعدم بقائى فترة أطول فى مستعمرته العجيبة. وأنا مدينة بالفضل للسيناتور مـــارتينو، وللجنـــرال داى ڤيتـــا Vita، وكافالييرى كويرولو، رئيس المكتب السياسى فى بنغازى، ومدينة لهم أيضًا بالفضل فى الرحلة البهيجة التى قمت بها إلى إجدابيا Jedabia وكمية المعلومـــات التى لا تقدر بثمن، عن البلد الذى سهلوا لى زيارته تسهيلاً كبيرًا.

كل من سيقرأ هذه الرحلة، سيدرك على الفور وبصورة واضحة، أن نجـــاح الرحلة بكاملها بعد المساعدة السخية التى قدمها لـــى الإيطـــاليون فـــى مـــستعمرة سيرنايكا (ليبيا حاليًا)، كان يعتمد على حسن نية الأمير محمد إدريـــس الـــسنوسى وأخيه سيد رضا Rida. إذ يستحيل تمامًا على أى أوروبى أن تطأ أقدامـــه أرض ليبيا بدون إذن من الأمير أو وكيله. رحّب بنا السادة ترحيبًا كريمًا ذكرنا بالتحيـــة العربية التى تُقال للضيف "ملكى هو ملكك". لقد لبوا كل ما طلبناه، مضاعفًا مائـــة مرة. كان سيدى إدريس وشقيقه مسرفين فى إكرامنا، ومبالغين فى مساعدتنا، وهو ما يجعلنا نحس بأننا مدينون لهم إلى الأبد.

ونظرًا لتعبير الناس عن دهشتهم جراء حتمية مواجهتنا لأى شكل من أشكال المعارضة فى ليبيا، لمجرد حصولنا على جواز سفر من قبل سيدى إدريس، فأنـــا يتعين علىَّ هنا أن أوضح أننا لم نحصل على أى إذن من الأمير شخصيًا. الرســـالة المشار إليها هنا فى هذه الرحلة كانت مجرد رسالة عابرة، رسالة شخصية تعـــرب عن استعداد الأمير للقائنا واستقبالنا. يزاد على ذلك، أنه كان معنا جواز سفر مـــن سيد رضا، يرخص للست خديجة، تلك المسلمة التى تعمل لصالح الإسلام، ولصالح السنوسى، هى وأحمد محمد بك حسانين، بزيارة البلاد. هذه الوثيقة ضـــمنت لنـــا أحسن الترحيبات من الطبقات الرسمية على الرغم من المؤامرات التـــى حاكتهـــا أسرة بازاما وأسرة عبد الله، والتى أحسب أنها كانت سببًا فى المغامرات التى قمنـــا بها فى هذه الرحلة.

وبفعل حسن نية هؤلاء السادة، عثرنا على الكثير من الأصدقاء والمحـــالفين في بلدهم، وبخاصة محمد قميش، ويوسف الحمرى، اللذان صحبانا على امتداد ألف ميل من الصحراء، إلى أن وصلنا مكانا ما يقع إلى ناحية الشرق من ممر مناســب Munasib، في قبضة إدارة مناطق الحدود، وهنا تتوتر الأحداث، لأن قلة قليلة من البريطانيين هم الذين يعرفون مدى مسئولية إدارة مناطق الحدود في الخارج!

مصر شبيهة بأبي ذنيبة، وإن شىءت فقل: أبي رأس؛ فالــدلتا هــي رأس مصر، أقصد رأس أبي ذنيبه، أما الذيل فهو وادى النيل الطويل الملتوى. وعليــه فإن مصر - من بين كل الدول - هى الأكثر تعرضا للهجــوم... ولــن تــستطيع مطلقًا الدفاع عن حدودها! لذا قدم محمد على باشا الدعم والمعونة لمــشايخ أولاد على لكى يقوموا بحراسه حدوده. وقبل الحرب قام حرس الحدود المصرى ببنــاء قلاعه على طول شاطئ البحر المتوسط والبحر الأحمر، تــم قــام بــدفع مواقعــه الخارجية جنوبا إلى الصحراوات، لكن ظهرت أثناء الحرب قوة أكثر كفــاءة مــن حرس الحدود. والآن تعد إدارة مناطق الحدود مملكة داخــل مملكــة، وتعــد إدارة مناطق الحدود مسئولة عن سلامة "كل الأراضى التى لا يرويها النيل"، الواقعة فيما بين السودان والبحر المتوسط، والبحر الأحمر وبرقة. وهذه المنطقة مقــسمة إلــى أربع مقاطعات، ويحكمها حاكم عسكرى في القاهرة، هو العميد هنتر الــذى يقــوم الحكام والمسئولون بالمهام المتشابكة والمعقدة التى يقوم بها المــدافع، والقاضــى، والمرشد، والمعلم، والصديق لعشرات الآلاف من البدو، الذين يمكن أن يشكلوا في أى وقت من الأوقات شوكة في ظهر مصر. هــذه المنظمــة الكفئــة للغايــة، أو بالأحرى ذلك الجزء من هذه المنظمة الذى يعمل في الصحراء الغربية، هو الــذى أدار باله علينا قبل أن نصل إلى سيوة، ونحن مدينون لهذا القسم من هذه المؤسسة، وبخاصة العقيد ماكدونيل، حاكم الصحراء الغربية، والعقيد فــورث، قائــد ســلاح الجمال، بما هو أكثر مما يجرى التعبير عنه في إشارة من هذا القبيل.

واقع الأمر، أنى اكتشفت – على غير وعى منى – أنى أورد قائمة طويلة لأنسب الفضل لأهله، من منطلق أنى دونت أسماء أصحاب هذا الفضل عبر الصحراء الشرقية، وأن أصحاب الفضل هؤلاء، وهذا من حسن حظى، قد حذفوا بصورة مؤقتة الكُفْرة من قائمة اندفاعاتهم السريعة داخل الأراضى الجرداء، والتى جرت العادة أن تضيف إلى الخريطة الإفريقية المعروفة حوالى مائتى ميل أو ما يقرب من ذلك.

هناك اسم واحد مرتبط باسم أصحاب الفضل هؤلاء، لأنه يظهر على كثير من الطرق الصحراوية- إنه اسم الدكتور بُول Ball، مدير المساحة فى مصر، وبعد أن تشجعنا بفضل تعاطفه معنا، وبفضل خبرته، وضعنا أمامه كل الملاحظات والرسوم التى جمعناها، وقد صنع الرجل منها خريطة للرحلة التى قمنا بها. وأنا هنا أرى أن شكر قرائى وامتنانهم لما حدث سيكون مثل شكرى وامتنانى لكل هؤلاء!

روزيتا فوربس

أبو مينيس،

مارس ١٩٢١

سر الصحراء الكبرى: الكفرة

الفصل الأول

الإقدام على المغامرة الكبرى

بدأت المغامرة من إجدابيا، التى تبعد حوالى ١٩٠ كيلو مترًا عن بنغازى فى اتجاه طيران الغراب. وإجدابيا عبارة عن مجموعة مبعثرة من المنـــازل الرمليـــة، تحيط بها جدران الشرق الغريبة الخالية من النوافذ، ومع ذلك تعد إجـــدابيا مقـــرًا لأسرة السنوسى العريقة. وصلنا إجدابيا فى اليوم الثامن والعشرين من العام ١٩٢٠ الميلادى، بعد تجربة طرق وأساليب متعددة عبر تلك الرقعة الحجرية من الصحراء الواقعة فى الجنوب الغربى من بنى غازى، عاصمة برقة Cyrenaica. وإجـــدابيا عبارة عن رقعة من الأرض انمسطحة المهجورة حمراء الرمال، تتخللها صـــخور، وحُزَم من عشب خشن رمادى اللون، هو بمثابة غـــذاء لقوافـــل الإبـــل النـــادرة، ويستخدمه البدو وقوذا لنيرانهم. ولا وجود للطرق الممهدة فى إجدابيا، لكن المدقات الوعرة هى التى تربط القلاع الإيطالية المبعثر بعضها عن بعض، والتى تقوم على أمرها سرايا من الارتريين الأقوياء والجماعات العربية غيـــر العاديـــة. ويرتفـــع الألتبيانو Altipiano فى الجنوب وسط تكوينات من الصخر الوردى اللون، وهـــو ما يثير الذكريات العجيبة أثناء غروب الشمس. فيما عدا ذلك يصبح ذلك المـــشهد البعيد مملاً ورتيبًا للغاية اللهم باستثناء مخيمات الأواغير Auwaghir التى تطالعنا بين الحين والآخر. مخيمات الأواغير، على العكس من "بيت الشَّعْر"، الـــذى لـــدى العرب السوريين والجزائريين، هى أفقر المخيمات، فهى مصنوعة من رقع الخيش مختلف الألوان؛ هذه الخيام منخفضة الأسقف تمامًا، إلى حد أن الإنسان لا يستطيع الوقوف منتصب القامة حتى عندما يكون فى وسط الخيمة.

وفى موسم الجفاف، وحيثما توجد الآبار، تشاهد حشود من قطعان الأغنام والماعز والإبل، تقدر أعدادها بالآلاف. أما بعد فصل الأمطار فيتجمع ماء كثير على الأرض الصخرية وتستطيع الحيوانات الشرب منه، وعليه فإن هذه المنطقة تكشف عن شكلها المهجور.

أما بنغازى فهى بلدة بيضاء صغيرة تقع على حافة كاسرات أمواج البحر المتوسط، ولا يحميها الميناء أو الحاجز المبنى لحماية البلدة من أمواج البحر. وقد أودى الجوع والمرض بحيوانات قسم كبير من سكان هذه البلدة أثناء الحرب كما أن أسواق البلدة تكاد تكون مهجورة ويمر من حين لآخر، حمار عليه شراريب قرمزية اللون ويحمل حملاً من التمر الطازج خلال منطقة سيدى شابى، حيث توجد المستودعات والمحلات الأوروبية هى والدكاكين الوطنية المحلية بجوار بعضها البعض. وهذه بضعة إبل قادمة من الريف وهى تكاد تكون مدفونة تحت جوالات الحبوب الضخمة التى تحملها على ظهورها. وفى المساء، يتجمع عدد من التجار الملتحين فى مقهى صغير قريب من المسجد، فى حين يمر العسكر الممقوتون بطرابيشهم قرمزية اللون، وأغطية رؤسهم المتأرجحة وهم يدخنون السجائر الإيطالية، لكن حياة البلدة تقتصر على الحى الأوروبى الذى يحتوى على الفندق ومكاتب الحكومة.

وأكبر البنايات البيضاء شرقية الطابع، هى منزل الحكومة الذى يزين واجهته الفخمة عقدان مغربيان. على الرغم من اختلاف هذا المنزل اختلافاً تاماً عن بنايات إجدابيا الخالية من النوافذ، فإن هذا المكان هو الذى رأيت فيه لأول مرة السيد محمد إدريس بن السيد المهدى السنوسى، ذلك الرجل الذى يستشعر الناس سلطته وراء حدود ليبيا ومستعمرة برقة وكان الإيطاليون هم والسنوسى قد أقروا قبل ذلك بأيام قلائل المعاهدة المؤقتة لعام ١٩١٦، وكانت هناك فى بنغازى احتفالات بتتويج الأمير الجديد، الذى كان يمضى أياماً قلائل فى العاصمة وهو فى طريقه إلى إيطاليا لزيارة ملك إيطاليا.



THE AUTHOR AS A BEDUIN SHEIKH.

كان هناك استقبال رسمي، وكانت تتحرك على درج السلم العريض مجموعة كبيرة من مرتدى الأزياء الرسمية الإيطالية السوداء، المزينة بالأوشحة الإيطالية الزرقاء الزاهية، والميداليات اللامعة المتلألئة زاهية الشرائط. في البداية، دخل الحاكم، السيناتور دى مارتينو، وهو يرتدى الزى الأخضر الذهبى لفارس من فرسان مالطة، ومعه الجنرال دى فيتا، بزيناته الرائعة الفخمة. كان يمشى بين هذين الرجلين شخص يهيمن على المجموعة لكنه أوجد لدينا انطباعًا بأنه بعيد تمامًا عما يجرى. كان ذلك الشخص يرتدى ملابس بيضاء، كان يرتدى قفطانًا من الحرير، وبرنسًا(*) يجرجر من خلفه، والكوفية الفاخرة تتدلى من تحت عقال ذهبى، خال من المجوهرات أو التطريز ممثلاً لمكانة الرجل، إنه سيدى إدريس الذى تقدم إلى الأمام ببطء متكئًا على عصا لها مقبض من الفضة. غمغم ضابط إيطالى في أذنى، "زيدى عليه لحية أطول من لحيته، وبعدها تصبح صورته مثل صورة المسيح!". كان الضابط الإيطالى على صواب فيما قال. هذا الزعيم المتقشف لواحدة من أعظم الإخوانيات الدينية على مستوى العالم، كانت عيناه الحالمتان مثل عينى نبى من أنبياء الماضى. كان فى وجهه الطويل تجاويف تحت عظمتى الخدين. وكانت شفتاه شاحبتين، فى حين كانت بشرته الزيتونية مثل الشمع. نظر إلى الأمام، نظرة حالمة، كاشفًا عن جبهته العريضة؛ كانت تلك النظرة أبعد بكثير عن الاحتفال الذى جرى إعداده تكريمًا له، كانت تلك النظرة ترمى إلى عوالم أبعد بكثير عن صحراواته المهجورة. ربما كان مثل الناصرى(**) الذى كان يسير بين محاربى روما القدماء!

التقيت الأمير فى اليوم التالى فى مأدبة غداء أقامها عمر باشا على شرف الأمير. كنا قد تحادثنا، قبل وصول الضيوف الآخرين، أنا بعامية مصرية غير متقنة، وهو بعربية الحجاز الفصيحة. كان الأمير يجلس فى الثياب البيضاء

(*) البرنس Burnus ويصح فيه أيضًا Burnious عبارة عن ثوب فضفاض ذو قلنسوة. (المترجم)
(**) البروتستانتى الناصرى: أحد أفراد طائفة بروتستانتيه ظهرت عام ١٩٠٨. (المترجم)

الفضفاضة نفسها، على كرسى فى مقدمة الغرفة، وكان الإخوان يجلسون بجانبه على شكل صف طويل، وهم الذين سيرافقونه إلى إيطاليا. كان شكلهم يسترعى الانتباه وهم يرتدون ثيابهم متعددة الألوان بمناسبة هذا الاحتفال. وكان يبرز من بينهم الجنرال على باشا العبديه، تلك الشخصية الملتحية المبهجة، بطقم أسنانه الذهبى، تلك اللمسة من الحداثة، التى تتباين تباينًا غريبًا مع قفطانه قرمزى اللون، وبرنسه الفخم غامق اللون المطرز بالفضة. كان المكرّم شاروف باشا الغريام يجلس بجوار الجنرال على باشا؛ معروف أن شاروف باشا كان مدرسًا لسيدى إدريس، لكنه أصبح الآن مستشاره المقرب. كان لون ثوبه الوطنى Jerd بنيًّا غامقًا، وكان طرف الثوب يغطى رأسه من فوق مُعْرَّقة Ma-araka، لكن قفطانه ذا الكمين الطويلين المطرزين، كان وردى اللون. وكان وجهه جادًّا يوحى بالصرامة وكان يولى المحيطين به اهتمامًا أكثر من الآخرين.

تعثرت فى اختيار كلمات التحية، ورحت أستعملها بصيغة الجمع غير المألوفة، وكنت أتعجب فيما إذا كان ذلك الرجل الشارد إلى بعيد وغير المهتم، يصغى إلى ما كنت أقوله. رفعت العينان المتأملتان فجأة وتهلل وجه الرجل مبتسمًا. إذا كانت الرحمة والرقة هى رمز الحضرة الملكية، فإن تاج سيدى إدريس يتمثل فى ابتسامته! والبدوى فى مقابل هذه النظرة يسجد لكى يُقَبّل التراب الذى داست عليه هاتان القدمان! تكلمنا بعد ذلك عن رحلتى ودعا الرجل بالبركة بصوته الواهن، وكان لا يزال يبتسم ويقول "أدعو الله أن يحقق لك ما تبتغين!". حاولت أن أحكى له عن حبى للصحراء، وعن سعادتى الغامرة، عندما كنت أستطيع من خلال سرير المخيم الضيق، النظر إلى الرقعة المثلثة من ضوء النجوم التى إلى الخلف من باب خيمتى. قال: "أنا، أيضًا لا أطيق البقاء فى مكان واحد أكثر من شهر. وبعده يتحتم أن أنتقل إلى مكان آخر، لأنى أحب عبق الصحراء". صحيح أن الصحراء لها عبق، على

الرغم من عدم وجود زهر أو شجر أو حتى عود من العشب على بعد أميال. هذا هو جوهر الأرض غير المطروقة التى لها بريق خاص!

تغذينا على أكوام من الطليان المشوية بكاملها والمحشوة بكل أنواع الأشياء- الأرز، الزبيب، اللوز- وعلى مكسرات لزجه غريبة أحببتها، وعلى أطباق من الحلوى المعدة من الحليب المخثّر بالمنفحة والسكر، والأحسن من ذلك كله هو القهوة العربية اللذيذةَ غليظة القوام، لكن الأمير أكل القليل وتحدث أقل من ذلك القليل. التعاليم السنوسية، تحرم الشراب، وتحرم التدخين، كما تحرم استعمال الذهب كزينة للرجال، وعليه جرى بعد تناول الغداء، توزيع كاسات الشاى الحلو المنعنع على الإخوان. الذين لم يلقوا بالاً بأى شكل من الأشكال لإخوانهم الضيوف، المكونين من الحاكم، والجنرال، وقبطان الطراد الصغير الذى تقرر له نقل السنوسى وأنا معه إلى إيطاليا. أجلسنى عمر باشا بجوار الأمير، الذى تحول فجأة إلى أتباعه الموقرين، "تعالوا وحيوا هذه السيدة"، قال هذا الكلام، وفى الحال وبطاعة بلا نقاش مثل طاعة الأطفال، هبوا واقفين من كراسيهم المنخفضة وتحركوا على شكل مجموعة فى اتجاهى. غمغموا قائلين "السلام عليكم" وهم يصافحون يدى دون أن يرفعوا أعينهم، لكنهم كانوا يحيونى تحية مسلم لمسلم!

كانت بنى غازى فى عيد فى تلك الأيام. كانت هناك احتفالات كثيرة- استعراض، وليمة غداء كبيره فى قصر المحافظ على شرف **حليف جديد** لإيطاليا- وعليه لم أتمكن من رؤية سيدى إدريس مرة ثانية حتى الليلة الأخيرة من مقامه فى بنغازى، عندما أقيم حفل استقبال عام جلب سيولاً من أعيان العرب فضلاً عن عدد كبير من الأوروبيين لمشاهدة الألعاب النارية التى كانت تطلق من الشرفات الواسعة فى مسكن سعادته. رأيت الأمير واقفًا على انفراد بعيدًا عن الجماهير التى تتجاذب أطراف الحديث، وكان إخوانه قريبين منه، وكانوا يتساءلون فيما بينهم وبين أنفسهم عن رأيه فينا. كان نصف الضيوف من عرقه وسلالته، لكن مملكته الحقيقية لم تكن

هنا، وإنما بين عشرة آلاف بدوى، يمتطون صهوات جيادهم أو يركبون جمالهم بناء على أمر منه، هؤلاء من بين مائة ألف حاج يتعلمون الشريعة فى زواياه! وقفت مع الأمير فى شرفة تغمرها نسمات الهواء ورحنا ننظر من علٍ على رقصة بدائية كان الجنود الأحباش يؤدونها. كان هناك حوالى ألف شخص أسود، وكان كل واحد منهم ممسكًا بشعلة موقدة، وكان الجميع يصيحون صياحًا مجنونًا فى ضوء القمر، ويترنمون بأغانى النصر والشجاعة. والأشياء الثلاثة التى يتباهى بها أى رجل فى الحبشة هى قتل الأسد، أو قتل الفيل، أو قتل عدوه! هذه الرقصة التى شاهدناها، ربما كانت تحتفى بشيء أو آخر من هذه الأشياء. وبالتدريج، راح الراقصون يتشكلون فى دوائر عاصفة وصاخبة، وهم يكومون شعلاتهم على شكل أكوام مشتعلة فى وسط المكان، وارتفع غناؤهم أكثر من ذى قبل، فى ظل هبوب الريح. كان سيد إدريس منشرح الصدر، وقال: "سترين احتفالات من هذا القبيل فى بلدى، لكن لن تكون هناك منازل. لن تفوتك هذه الاحتفالات".

جاء موعد إطلاق المدفع الأخير، إيذانًا برحيل الأمير إلى إيطاليا، وبعدها ركب حسانين بك وأنا معه فى السيارة التى أعارتنا الحكومة إياها. عندما وافق أحمد محمد حسانين، فى بداية الأمر، على مرافقتى إلى الصحراء الليبية، التى كانت معرفته للغة والدين والعادات والتقاليد فيها لا تقدر بثمن، كان قد أكد لى أنه جاء للاستفادة من الراحة بوصفها علاجًا. تقمص الرجل بعد ذلك شخصيات كثيرة وعلى نحو يصعب معه إحصاء هذه الشخصيات. كان أحمد محمد حسانين دومًا هو ضابط إمداد وتموين حملتنا الصغيرة، واعتاد الرجل إحضار المكرونة فى أصعب اللحظات المستحيلة، من أماكن أخرى هى أيضًا شبه مستحيلة! كان أحمد محمد حسانين مرافقًا لى، عندما كان الشيوخ الكبار يطلبون الزواج منى، وكان أيضًا شديد التطرف عندما كان يود إحداث انطباعٍ على العقل المحلى، كما أنه كان أمامى عندما كنا نصلى أمام الجميع. وكان مثل الطفل عندما ضاع منه شبشبه



AHMED MOHAMED BEY HASSANEIN,
MY FELLOW EXPLORER.

أحمد محمد بك حسانين زميلى المستكشف

أصفر اللون المائل إلى اللون الوردى، وكان طباخا أيضا عندما سرقنا زجاجة من المرسالا من آخر القلاع الإيطالية، وعندما طاردنا يأسنا دجاجـة نحيفـة، إلـى أن وضعت بيضة استعملناها فى عمل الزابليونية(*)! يزاد على ذلك أن أحمد حسانين كان يدبر أسوأ الخطط التى يقوم بها الوغد، وقتل كل من يتدخل فـى شـىءوننا، وكنت أستمع وأنا متعصبة عن حكايات الاختفاءات المفاجئة فى الصحراء.

يزاد على ذلك أن سيدى إدريس فى يوم رحلتنا عن بنغازى كان لطيفا بشكل واضح، لأنى عندما كنت أنظر أكوام أدوات مخيمنـا، وإلـى حقيبتـىَّ ملابـسى الصغيرتين جدًا، لاحظت فجأة عديدًا من الحقائب الكبيرة عن المعتـاد المـصنوعة من الجلد والثقيلة. سألت وأنا مرعوبة عما إذا كانت تلك الحقائب مـن مـستلزمات راحته الشخصية. أكد لى قائلاً: "حقًا! إنهما ضـروريتان حقًـا. واقـع الأمـر أن نصفيهما فارغان. ظننت أن هاتين الحقيبتين قد تكونان مفيدتين فى وضع الأشـياء فيهما." ما أن خرجت الكلمات من فمه، حتى انزلقت إحدى الحقيبتين من يد واحـد من الخدم العرب، وجرى فتحها ووُضِعت عند قدمىَّ قارورة كبيرة تحمل ماركـة Heure Bleue التى هى نوع من أملاح الحمام، كما وضعت عند قِـدمىَّ أيـضا لفائف عدة من اللوز المملح وكتله لزجة من الشيكولاتة، والمسكَّرات، وحذاء مـن الجلد الطبيعى وسترة رائعة. خانتنى كلماتى! وغمغمت "ضروريتان!" وأنا أسير فى اتجاه الشاحنة لأرى أن صناديق المؤن الثقيلة لم يجر وضعها فوق الأكياس الهـشة القابلة للكسر المخصصة لحمل الماء.

بعد عشر دقائق فقط من مغادرتنا بنغازى، اختفت البلدة البيـضاء بمآذنهـا المستدقة متحولة إلى رمل، وراحت شاحناتنا تحبو كما لو كانت خنافس كبيرة على أرض خراب تسلطت عليها أشعة الشمس، وكنا نشاهد هنا وهناك خطًا أسود مـن

(*) الزابليونية: مزيج من البيض والسكر والخمر أو عصير الفاكهة يخفف بالماء الحار ويقدم ساخنا أو باردًا فى كأس. (المترجم)

الإبل عند الأفق. كان الوقت مصادفًا لموسم البذر، وكانت القبائل مبعثرة ومنتشرة هنا وهناك، تزرع الشعير الذى يكفى حياتها الهشة فى العام التالى. كنا نشاهد هنا وهناك، ونحن نتوغل فى الأرض، شخصًا منحنيًا، يلبس اللباس الوطنى الضيق، ويمسك بالمحراث الذى يجره جمل، فى الوقت الذى كان صديق له يحرس عمَّاله وقد علق بندقيته على ظهره. فى بعض الأحيان، كنا نصادف مسافرًا يركب بغلاً مسرجًا بسرج بهيج الألوان، ولباسه القومى Jerd منسدلاً على رأسه مغطيًا الصُّديرى قرمزى اللون الموجود تحته، ويروح الرجل يحيينا بحرارة "مرحبًا! تصحبكم السلامة!" أمضينا ليلة فى سلوق Soluk، التى جذبت الأبيار فيها قطيعًا هائلاً من الأغنام سوداء وبنية اللون التى يصل عددها إلى حوالى ألف نعجة. قطعنا فى اليوم التالى الثلاثين كيلو مترًا المتبقية على بلدة غمـاينز Ghemines، على ظهور خيول عربية نحيلة لكنها قوية، لها أفواه مثل الحديد من تحت الشكيمة، ومُسْرَجَة بِسُرُج عاليه مركبة فوق جلود أغنام سوداء. رافقنا فى هذه الرحلة ثلاثة من الخارجين على جماعة الأواغير، كانوا يجرون من حولنا على شكل دوائر من باب استعراض فروسيتهم.

كان هناك مخيم صغير مكون من حوالى ست خيام، على جانب الطريق الذى كنا نسير فيه، ولذلك عرَّجنا على المخيم علهم يُسَوُّون لنا شيئًا من الشاى. رفضوا ذلك فى البداية لأنى مسيحية. بعد ذلك جاءت للتفتيش علينا امرأة كانت ترتدى ثوبًا وطنيًا Barracan فيه أقلام حمراء وصفراء، وعقدًا ثقيلاً من الفضة المنقوشة. قالت للآخرين: "كل شيء على ما يرام. إنها شيء لطيف صغير وبصحبتها مسلم"- ويرجع فضل ذلك إلى كوفية حسانين بك البيضاء المقَصَّبة. فرشوا لنا كليمًا مصنوعًا من وبر الإبل كى نجلس عليه، لكنهم لم يكونوا مقتنعين تمامًا بحسن نوايانا. بدأ رفيق ترحالى يسأل الرجال عما إذا كانوا أدوا فريضة الحج إلى مكة. ورد أكبرهم "ليس بعد، المكتوب مكتوب. إذا أراد الله ذلك، سوف أحج."

كنا قد بدأنا نتصادق بشكل سريع، عندما ظهر لنا شخص قاسي الملامح، وجهه متأثر تمامًا بفعل الطقس وعيناه حادتان. كان ذلك الشخص يحمل الشاى والسكر، لكنه ساوم عليهما مساومة كبيرة وعنيفة، ظنًا منه أننا نحن الاثنين من النصارى الملاعين. عندما أبلغناه أننا عرفنا سيد إدريس، ابتسم في وجهينا. قال: "سيدنا إدريس على سفر." قلت: "هل تود أن تطلع على رسالة منه؟" ظهر الرعب على وجوههم جميعًا، وراحت أعينهم تتابع حسانين بك في كل تحركاته وهو يخرج المظروف شبه المهلهل من جيبه. قرأوا الرسالة بوقار وإجلال، وقبلوها كلهم الواحد بعد الآخر، بشغف وود بل ووضعوها على جباههم. وأعادوا لنا الرسالة في صمت تام. وتغير الجو العام على الفور. وراح الشخص الحاد الملامح ينظر إلينا نظرة متواضعة فيها وُدٌّ وحنان. والتمعت عينا الرجل كبير السن. كنا نعرف أننا كان بوسعنا أن نطلب من هؤلاء الرجال الثلاثة النهوض ومتابعتنا إلى مكان مجهول، وأنهم كانوا سيطيعون ذلك بلا جدل أو نقاش. قلت: "لقد ذهب سيدى إدريس لزيارة ملك إيطاليا. لقد نُصِّب سيدى إدريس أميرًا." وافقوا جميعًا على العبارة التي قلتها. كيف يمكن لملك أن يكرم رجلاً اصطفاه الله وميزه على كل البشر الآخرين؟ وعندما ركبنا خيولنا، قبّل الرجل كبير السن يدى بعينين حانيتين، وهو يغمغم قائلاً: "**إن شاء الله ما تموتى إلا مسلمة**"، ورحنا نعدو بخيولنا وسط زغاريد النساء وصخب الأطفال.

كان الذهاب من غماينز إلى زيتونة، يعني قطع ١٢٠ كيلو مترًا في شاحنة في مدق رملي شديد السوء، لكن في تلك الليلة نمت في خيمة للمرة الأولى منذ ستة أشهر. كانت السماء عامرة بالنجوم وكان القمر بدرًا، وجاء شيخ من شيوخ السنوسي راكبًا لزيارتنا والوقوف على حالنا، كان الرجل يركب حصانًا رائعًا رمادى اللون عليه سرج قرمزى اللون. كانت مقدمة السرج ومؤخرته العاليتان هما والرّكاب العريض من الفضة، وكان اللجام ذو الشراريب وردية اللون مرصعًا



SAYED RIDA ES SENUSSI.

سيد رضا السنوسى

أيضًا بكمية كبيرة من الفضة. هذا هو سيد محمد هلال السنوسى ابن عم سيدى إدريس، وهو شقيق سيد أحمد الشريف الذى هرب إلى تركيا بعد انتهاء الحرب. سيد هلال السنوسى هذا شخصية مبتهجة، والواضح أنه ابتعد عن قواعد نظامه الصارمة ووجد شيئًا من الجاذبية والسحر فى الحياة الأوروبية. كانت لغة سيد هلال عامرة بالزهور والمحسنات البديعية، إلى حد جعل من الصعب علىّ فهم هذه اللغة، لكنه أعارنى حصانًا ممتازًا فى رحلتى إلى جدابيا. طلب الرجل منى أيضًا، أن أحمل لابن عمه، سيد رضا، رسالة شعرية رسمية أنيقة تبدأ "يانن عينى، أسعد الله صباحك بالسلام والمرح."

أسلمتنا كثبان الزيتونة الرملية إلى أرض جرداء منبسطة عديمة اللون تتخللها أدغال رمادية اللون من الأشجار المقطوعة. وعندما حولنا رءوس خيولنا صوب الداخل تبعثرت الجرابيع الصغيرة داخلة إلى جحورها عند مقدمنا، وكان هناك أيضًا صقر كبير يحوم فوق رءوسنا بين الحين والآخر. فيما عدا ذلك لم تكن هناك أية إشارة أو علامة من العلامات الدالة على الحياة اللهم باستثناء خيَّال وحيد كان يرتدى ثوبًا وطنيًا Jerd ويركب حصانًا أبيضًا، وصبى جالس على كومة من الأحجار يعزف لحنًا قصيرًا غريبًا على ناى خشبى. كانت ركوباتنا رمادية اللون مُتْعَبَة عندما صعدنا فى نهاية الأمر واحدًا من المرتفعات الخفيضة، ورأينا أمامنا صفًّا من الخيام البدوية المرقَّعة. كانت تلك الخطوة الأولى على طريق طويل. كل الأشياء كانت غير مؤكدة. كانت هناك مصاعب كبيرة يتعين التغلب عليها، لكننا كنا نحس، أننا كنا فى أضعف الأحوال نخلِّف وراءنا أثرًا أوربيًّا. تنفسنا مزيدًا من الحرية. كلانا يحب الصحراء وسكان الصحراء، وأحسسنا أنه يتعين عليهم فهم تعاطفنا وأن يستجيبوا لهذا التعاطف. استدرت إلى حسانين بك عندما بدأ المدق الرملى يمر بين الجدران الطينية الخالية من النوافذ، والتى شاهدتها فى كثير من البلدان. قلت لأحمد حسانين "أحس وكأنى خلَّفت ورائى آخر قُصاصة من قصاصات

الحضارة. لقد بدأت أتشبَّع ببساطة الحياة. أعتقد أن بركة ذلك البدوى كبير السن، ملكت علىّ أنفاسى وسحرتنى. سوف أعتنق الإسلام بعد أن أترك الصحراء."

أرسلنا نسأل ما إذا كان سيد رضا المهدى السنوسى - شقيق وكيل سيدى إدريس - سيستقبلنا ورحنا ننتظر الرد عند حافة السوق، حيث كان يقف رجال وقورون، ملتحون، مع أولئك المتلهفين الذين ينظرون إلى الأفاق؛ كان هؤلاء الرجال على شكل جماعات ترتدى ثيابًا بيضاء. كانت هناك مجموعة من الإبل باركة بجوار أكوام الحبوب، لكن فيما عدا ذلك كانت الفراغات الواسعة بين الأحواش المسورة مربعة الشكل، وهنا توجد منازل العرب، كلها مهجورة وخالية من البشر. كان علم عائلة السنوسى - الذى هو عبارة عن هلال فضى ونجمة على أرضية سوداء - يرفرف فوق منزلين من هذه المنازل، وكان الضجيج الصادر عن الإبل المحملة يأتى من واحدة من الأحواش الكبيرة، المملوكة لسيد صفى الدين، ابن عم سيدى إدريس وشقيق أحمد المطرود، والذى كان مسافرًا فى اليوم التالى إلى داخل البلاد ومعه كل أسرته وستون دابة من دواب الحمل.

جاءنا جندى من الحرس العربى حاملاً إلينا نبأ مفاده أن سيد سوف يستقبلنا على الفور ونزلنا عن مطايانا فى واحد من الأحواش الكبيرة الخالية من النوافذ أمام باب منزل كبير أبيض اللون. أدخلونا إلى غرفة الاستقبال العربية المعتادة، التى فيها صف من الكراسى والأرائك الموضوعة حول الجدران ومقصَّبة بلون قرمزى، وفى الوسط طاولة مغطاة بمفرش من القماش الجميل المطرز. جاء سيد رضا فى البداية وقد انعكست على محياه ابتسامة أخيه. استلطفته على الفور. قيمت على الفور حنانه الدافئ وكرمه. سيدى إدريس متصوف تحيط به كرامة واحترام عالم آخر غير عالمنا، لكن وكيله صغير السن، تلقائى ومتعاطف، وأسلوبه بسيط وخال من التكلف. قدم لنا على الفور منزلاً نعيش فيه أثناء مقامنا فى إجدابيا ووضع تحت تصرفنا طباخًا وخادمين آخرين. جعلنى أتحدث إليه باللغة العربية وكان يصحح أخطائى وهو

يبتسم ابتسامة عريضة. وظهر الشاى الحلو، المنعنع، فى أكواب زجاجية بهيجة الألوان عليها رسوم، وسرعان ما أحسست وكأنى أعرف مُضيّفنا منذ سنين. كان الرجل مسرورًا ومهتمًا برحلاتنا المتنوعة. ووضع خطة كى نشاهد صيدًا بالصقور. كان يود إعطاءنا كل شيء على الفور بدءًا من الخيول إلى التمر. واقع الأمر، أنى أحسست وكأنى فى حضرة ساحر بوسعه تحريك عصاه فيحقق كل ما يتمناه قلبى! من حيث المظهر يعد سيد رضا رجلاً ضخمًا يبعث على الاحترام له وجه مستدير زيتونى اللون، وعينان شديدتا السواد، ورقيقتان مثل القطيفة، وترتفعان إلى أعلى مرحًا عندما يبتسم ابتسامة عريضة، كاشفتان بذلك عن أسنان بيضاء قوية. كان سيد رضا يرتدى جلابية سوداء من تحت ثوبه الوطنى الحريرى المقلّم، الأبيض بياض الثلج، وعمامة بيضاء ملفوفة من فوق مُعَرّقه حمراء اللون. الضيافة العربية شهيرة فى كل أنحاء العالم، لكننا تركنا حضرة سيد رضا ونحن نحس أننا مغلوبون على أمرنا بفضل استقباله الكريم لنا.

سحرنى منزلنا المؤقت. هناك باب وحيد يخترق ذلك الاتساع العجيب من الجدار الأصفر الذى بنى من الكتل التى جرى تجفيفها فى الشمس، وهذه الكتل مختلفة الأشكال والألوان والأحجام. هناك باب يؤدى من خلال حوش صغير مسقوف، إلى فناء واسع تضيئه أشعة الشمس، وتضمن جدرانه العالية الخصوصية التامة للأسرة العربية. أما حسانين بك فكانت له غرفة صغيرة فى نهاية المنزل، أما أنا فكانت لى غرفة فخمة عالية، مزينة بنصوص قرآنية. كنا مملكة بحد ذاتنا، إذ كان توجد بئر تحت نافذتى مباشرة، كما كان هناك أيضًا فحم نباتى فى بيت مجاور للمنزل، وفناء كبير فى الخلف يمكن أن نضع فيه الإبل والخيول. والذى حدث هو أننا وضعنا فى هذا الفناء أشياءنا البسيطة، نظرًا لأن فترة المساء كانت جافة وكان الجو صحوًا. كنا نعرف منذ البداية أننا يتعين علينا التنقل والسفر خفافًا، وأن نجاحنا فى النهاية يعتمد على قدرتنا على الركوب فترات طويلة وإلى مسافات بعيدة. عرفنا

أيضًا أننا قد نترك أمتعتنا على جانب الطريق، ونتنكر في زى جمَّالـة مـن البـدو، وندلف أثناء الليل، إلى أراضٍ غير موقعة على الخريطة، لا يتبعنا فيها أحد.

وعليه كان معنا، علاوة على جوالات الأرز - الشاى والسكر- فقـد كنـا ننتوى تقديم الاثنين الأخيرين على سبيل الهدايا للبدو الذين ساعدونا فـى رحلتنـا- خيمة خفيفة واحدة، طولها أحد عشر قدمًا وعرضها ثمانية أقدام، يمكن تقسيمها إلى قسمين بواسطة ستارة من قماش قلاع المراكب، وكان معنا أيضًا مفرش لـلأرض لا يسمح بنفاذ الماء، فضلاً عن سريرين كانا يدخلان فى أكيـاس النـوم الـسميكة المبطنة بالصوف، بالإضافة إلى مَقْصَف حربى صغير بلغ من الثقل حـدًا جعـل الشكوك تراودنا حول مصيره فى نهاية المطاف، وكان معنا أيضًا طشت غسيل من خيش الجنفاص، وشمعدان كامل ومعه كمية كبيرة من الـشموع، إذ كنـت أتوقـع استهلاك كمية كبيرة من الشموع فى أثناء تدوين الملاحظات وعمل الخرائط. قللنـا مؤننا إلى أقل حد ممكن، وبما يكفينا طوال أربعة أشهر، مثل القهـوة، ومعلَّبـات الجيش، وقوالب الشيكولاته، وعلب الكاكاو، المخلوط بالحليب فعلاً، ولحـم البقـر المعلب، والخضراوات، كما كان معنا أيضًا أقراص من الحليـب المجفـف، لكـن تعييننا اليومى كان صغيرًا للغاية وبصورة مضحكة، لأننا كنا على ثقة من إكمـال هذا التعيين اليومي بشيء من التمر والأرز.

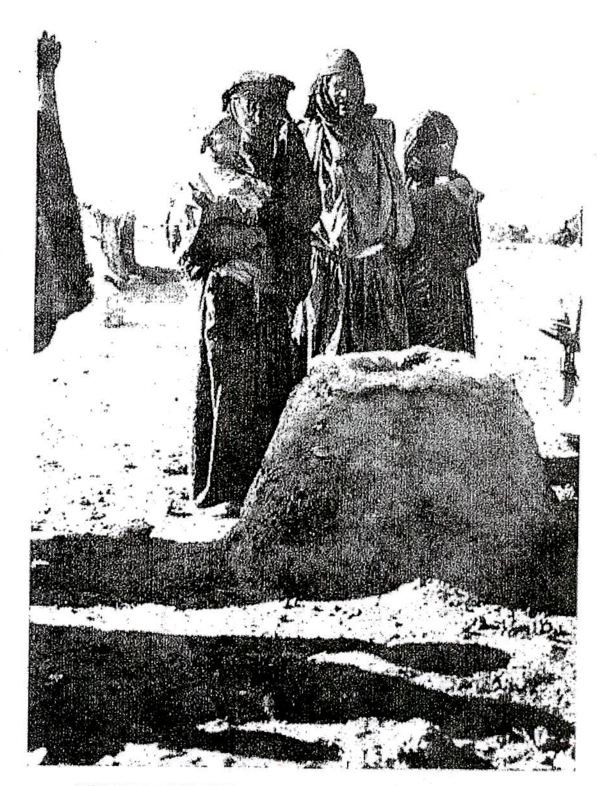
كنا نسلك طريقنا، على ضوء كشاف حسانين بك الكهربائى، عبر الـصخرة البيضاء المسطحة والرمل قاصدين منزل سيد رضا لتناول العشاء. وجدنا مـضيفنا فى هذه المرة بصحبة سيد صفى الدين، "المحارب الصغير"، وهذا هو الاسم الـذى يعرف به هذا الرجل بين القبائل. هو صبى له وجه شاحب ينبض بالحيـاة، ولـه أسلوب جذاب، وسريع البديهة وذكى، وهو أكثر من الآخرين اهتمامًـا بالأسـاليب الأوروبية. قال: "أظن أننا سنتفاهم تفاهمًا جيدًا؛ وسبب ذلك أنى مشغوف بك وأنت أيضًا مشغوفة بى!"

سوف تسيطر ذكريات هذا العشاء علىَّ فؤادى طوال فترة طويلة، نظرًا لأنه كان مكونًا من أثنى عشر صنفًا، منها ثمانية أصناف من اللحم بشكل أو بآخر. بدأنا نتناول العشاء عند الساعة السابعة والنصف، وعند الساعة العاشرة والنصف قدم لنا الشاى الجميل المعطر بأعواد النعناع وأوراقه. تناولنا طوال هذه الساعات الثلاثة الحساء، والدجاج، وشرائح من لحم الضأن المشوى، كما تناولنا أيضًا الباذنجان المحشو باللحم المفروم، وأكلنا أيضًا شرائح من اللحم المحمّر، وأكلنا أيضًا كتف الضأن مطبوخًا فى عجينة سائلة من الدقيق والبيض والحليب، وأكلنا يخنه الضأن مع الخضراوات، وأكلنا الطماطم المحشوة، والضأن المسلوق، والنخاع، وأكلنا الأرز الشهى، وأكلنا الأومليت الحلو. وهنا يمكن فى سهولة ويسر تخيل أن حفل العشاء أسفر عن جعلنا صامتين بعض الشىء، ونحس شيئًا من الفتور والخمول، وذلك على العكس من مضيفنا. كان الرجل يفيض حنانًا ورويّة. أما أنا فكنت أعانى فى ذلك الوقت خلعًا شديدًا فى إحدى قدميَّ، لم يتحسن بفعل ركوبى دابتى مسافات طويلة، مما اضطرنى إلى ارتداء فردة حذاء واحدة، وشبشب مطاط فى القدم المصابة بمساعدة عصا. انسحب سيد رضا مدة دقيقة أثناء العشاء، وعندما غادرنا منزله، فوجئت بحصان ينتظرنى خارج الباب. كان حنان سيد رضا بسيطًا وطبيعيًا تمامًا مثل سمعه أيضًا. سألناه عن أسفاره وأجابنا قائلاً: "ليس لدى متسع من الوقت. لدى أعمال كثيرة. أنت تعرفين أن عملى هنا مثل زراعة حديقة من الحدائق. الأشياء تكبر وتكبر إلى أن ينشغل وقت الإنسان بالكامل!" هذا هو كلام وكيل الأمير، الذى تنتقل كلمته عبر صحارى العالم إلى كل من نيجيريا، والسودان، لتصل إلى المواقع الخارجية فى المغرب، وإلى أبواب "بيت الله" (مكة المكرمة).

اذكر أنى فتحت شيش نافذتى فى تلك الليلة على شعاع صاف من ضوء القمر الذى كان مثل رابعة النهار. أحسست بنسيم محمل برائحة أشجار السنط، بارد مثل الثلج، قادم من الصحراء، جاءتنى تلك النسمة وأنا أتفكر فيما إذا كانت قد هبت على

الواحات المجهولة التى نتطلع إلى الوصول إليها. دار بيننا فى ذلك المساء حديث طويل عن الصعوبات الماضية وخطط المستقبل. تُمثل واحة الكفرة - عند الإيطاليين - هدفًا لكثير من الآمال- فى برقة هى مطمع لكثير من الموظفين السياسيين الجريئين- إلى حد أنه من الصعب إدراك أن الكفرة فى إنجلترا تعد اسمًا غير معروف. هذا المكان الصحراوى المقدس، تلك الواحة البعيدة، التى تبعد عن جالو Jalo مسافة ستمائة كيلو متر، والتى تبعد مسافة رحلة تقدر بمسيرة سبعة أيام بدءًا من الحدود الخارجية للعمران والحضارة، يجرى الحديث عنها فى بنغازى بشوق وخوف. قال الرائد الإيطالى الذى أمضى يومين مع سيدىّ إدريس فى جغبوب، والذى اخترق مئات الكيلو مترات فى الداخل، أكثر من أى رفيق آخر من رفاقه "سأقول لك سرًا كبيرًا. أود أن أذهب فى يوم من الأيام إلى الكفرة. لم يذهب إليها أحد من قبل سوى رولفز، قبل أربعين عامًا، ولم ير شيئًا- لم ير شيئًا على الإطلاق!"

يمكن أن أوضح قبل التعمق فى قصة الجماعة السنوسية، أن مؤسس هذه الجماعة هو سيدى محمد بن على السنوسى، الذى دعا إلى الإسلام الحق الزاهد فى المنطقة من المغرب إلى مكة، لكن دعوة هذا الرجل أصابت نجاحًا كبيرًا للغاية فى برقة التى أنحرف البدو فيها عن عقيدة آبائهم. وسرعان ما أخذت زاويته(*) Zawia فى الانتشار على طول الساحل، كما اعترف سلطان واداى Wadai بسلطته، وجعله مسئولاً عن القوافل التى تعبر صحارى واداى الكبرى، وفزّان، وبحيرة تشاد. من هنا انتشرت وذاعت معتقدات السنوسى مع كل القوافل المتجهة صوب الداخل. توفى محمد بن على - ذلك الرجل الذى بلغ من الورع حدًا جعله لا يكشف مطلقًا وجهه المقنّع لأتباعه، والذى بلغ من التكريم حدًا جعل أتباعه يسجدون لتقبيل آثار قدميه - فى جغبوب فى العام ١٨٥٠ الميلادى، وخلّف وراءه محمد



BEDUIN WOMEN AT A MUD OVEN, JEDABIA

بدويات يجوار فرن طيني في جدابيا

المهدى زعيم واحدة من أعظم وأقوى الجماعات الدينية فى العالم. كانت تعاليمهم قاسية- وصلت إلى حد أن من يشم رائحة الدخان قد يفقد يده اليمنى! كانت كراهيتهم شديدة للكفار. لقد طردوا الزّوَايا Zouia والتيب Tebu من مواطنهم القديمة فى كبابو Kebabo، وأنشيءوا قدس أقداسهم فى تلك الواحة، التى حفظتها الطبيعة بأن أحاطتها بحزام من الكثبان الرملية الضخمة علاوة على مائتين وخمسين ميلاً من الصحراء الخالية من الماء.

تقع الكفرة - التى كانت تسمى كبابو فى قديم الزمان - على بعد حوالى ستمائة كيلو مترًا فى اتجاه الجنوب، أو بالأحرى فى الجنوب الشرقى تقريبًا من جالو، تعد الكفرة قلب الصحراء الشرقية، وهى مركز تجارة هذه الصحراء، نظرًا لأن طريق القوافل الوحيد القادم من السودان ووادى متجهًا إلى الشمال من خلال الكفرة، ومع ذلك فإن الرحلة تبلغ من الصعوبة حدًا لا يجرؤ على تحمله سوى أعتى القوافل وأقواها. المسافة من بُطّفال Buttafal، التى تقع على بعد مسيرة يوم واحد فى جنوب جالو، والتى تقدر بمسيرة سبعة أيام قاسية بلا ماء تُوصل الرحَّالة إلى زايغين Zieghen، حيث توجد بئر، بلا واحة أو علف للحيوان. بعد ذلك، يتعين على الرحالة مواصلة سيرة خمسة أيام أخرى، اثنان منها خلال الكثبان الرملية، قبل أن يصلوا إلى هوارى Hawari، التى تشكل الحدود الخارجية لتجمع الكفرة، التى ينظر العرب إليها فى بعض الأحيان على أنها واحة مستقلة نظرًا لأنها مفصولة عن التجمع الرئيسى بسلسلة من الجبال. وهذا هو الطريق الرئيسى والأسهل أيضًا. هذا الطريق يوصل أيضًا إلى واداى Wadai.

تقع فى الناحية الغربية من هذا المدق ثلاث واحات أخرى. أولى هذه الواحات، تيسربو Taiserbo، على مسيرة سبعة أيام بلا ماء من بُطّفال Buttafal، ويندر الوصول إليها، لأنها ليست لها أهمية دينية أو تجارية، لكن أنقاض التبو Tebu قد تجعلها مهمة من الناحية التاريخية. بعد تيسربو بحوالى مائة

وخمسين كيلو مترًا فى اتجاه الجنوب الغربى تقع واحة بُسيمة Buseima، الشهيرة بتمرها، والتى تزورها القوافل خصيصًا طلبًا لذلك التمر، فى حين تقع واحة ربيانه Ribiana، على بعد مسافة أكبر نحو الجنوب أيضًا بعد واحة بُسيمة؛ واحة ربيانه هذه بكل الأوصاف تعد مكانًا خارجًا على القانون، تنطلق منه العصابات الغازية الأمر الذى يجعل المنطقة المجاورة لواحة بُسيمة خطرة للغاية.

وفى واقع الأمر، أن هذه المعلومات جرى الحصول عليها فى تاريخ لاحق. وأنا عندما وصلت إلى إجدابيا لم أكن أعرف شيئًا عن الجغرافيا الليبية. لم أكن أعرف أن القرية الرئيسية فى الكفرة هى قرية الجوف Jof، وأنها هى مقر الحكومة، ولم أكن أعرف أن قرية تاج Taj، هى قدس أقداس العقيدة السنوسيه. لم أكن أعرف أنى سوف أعثر على جبال وبحيرات، وحقول من أشجار الأثل وأشجار السنط، وأشجار الخوخ، والعنب، والتين فى جنة عدن هذه الضائعة بين الرمال التى لا يمكن اختراقها، بين صحراء الداخلة فى الشرق، والتى لم يعبرها الأوربيون، ومن ناحية الغرب الأرض الخراب الوعرة الممتدة إلى أونو سيزير Unu Szerir حتى حافة طرابلس Tripolitania، والتى أودع سجنها البعيد بعض من أولئك التعساء الذين بقوا على قيد الحياة من طابور ميانى Miani. وأنا شخصيًا كنت أرى الكفرة على أنها سراب. كانت الكفرة تمثل ذلك السر الذى حفظته الصحراء وحرسته حراسة مشددة فترة طويلة من الزمن، من أن تنظر إليه الأعين المسيحية. أشعلت القصة المأساوية – التى حدثت للرحلة التى قام بها رولفز – حماسى وجعلتنى أتحرق شوقًا للوصول إلى هذا المركز من مراكز أكثر الجماعات الدينية تشددًا، ذلك البلد المجهول، الغامض، الذى لم تطرق أقدام الغرباء أرضه، سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين.

بعد أن وضعنا فى حسابنا وأخذنا بعين اعتبارنا المصاعب المدهشة للرحلة والكراهية شبه المجنونة التى يلقاها الغرباء، يصبح طبيعيًا – باستثناء واحد فقط–

ألا يستطيع أحد من الأوروبيين مطلقًا الوصـــول إلـــى مجمـــع الزوايـــا المقدســـة والمرابطين فى بلدة تاج. أمضى سجين فرنسى فترة زمنية قصيرة فى الكفرة أثناء الحرب؛ لقد أرسل من أونو سيزير Unu Szerir إلى الكفرة بأمر من السيد أحمد. قبل حوالى أربعين عامًا، حاول مستكشف ألمانى كشف غموض تلك الواحة البعيدة. كما أرسل القيصر Kaiser ولهلم الأول، فى العام ١٨٧٠ الميلادى بعثة علمية إلى ليبيا مكونة من أربعة رجال: رولفز، ستيكر، إكهارت Eckhart وهوبنر. كانـــت تلك البعثة من قبل السلطة التركية وكانت تحمل معها هدايا قيمة من الإمبراطـــور. فقد كانت محملة بأكياس مليئة بالذهب والفضة. جرى احتجاز الرهائن فى بنغازى، فى الوقت الذى قاد رولفز جماعته إلى الصحارى الجنوبية. غادر رولفز قرية جالو فى اليوم الخامس من شهر يوليو، ومعه مائة جمل ومجموعة كبيرة من الـــزاويين Zouias الراكبين على خيول، من بينهم شيوخ عدة، أهمهم هو الشيخ بُـــو جَطـــين Bu Guettin. حقق رولفز شيئًا مدهشًا بوصوله إلى تيسربو، فى غضون أربعـــة أيام ونصف، بأن كان يواصل المسير عشرين ساعة فى اليوم. ويروى رولفز فـــى كتابه بالغ الأهمية عن أسفاره فى شمال أفريقيا – والذى لم يترجم، من سوء الحظ – إلى الإنجليزية، أن تيسربو، ربما كانت هى موقع سلطنة التبو Tebu، نظرًا لأنه شاهد أنقاضًا يحتمل أن تكون هـــى أنقـــاض قلعـــة أو معقـــل فـــى ديرانجيـــدى Diranjedi. واصل رولفز سيره فى اتجاه الجنوب عن طريـــق بُـــسيمة إلـــى أن وصل إلى هواويرى، التى أقنعه واحد من أصدقائه الشيوخ هو، كُريِّم عبـــد ربـــو Abd Rabu، بالتخييم فى بيارة النخيل الموجودة خارج القرية، وذلك مـــن بـــاب تجنب الاحتكاك بالقرويين، الذين رفضوا دخول النصرانى بلادهم.

ويصف تيوتون Teuton الجسور التجمع الذى حدث خارج خيمته والنقاش الطويل حول ما إذا كان هو ورفاقه يتعين قتلهم أم لا، وفى اليوم التالى المـــصادف لليوم الرابع عشر من شهر أغسطس، أقنعهم بوجُطِّين هو والزاويون الخونة، الذين

كانوا يعارضون وجود الغرباء معارضة شديدة، ويطمعون في تقاسم غنائم هذه القافلة الغنية، بمغادرة هواويري، وأن يسيروا على الحدود الخارجية للواحة، حتى يعزلوا أنفسهم في بويما، تلك البقعة الوحيدة شديدة الانعزال في المجموعة كلها. ومن الواضح أن رولفز وافق على هذه الخطة نظرًا لخطورة المناطق المجاورة للقرى الرئيسية وكان على الرجل أن يعارض الكراهية الشديدة للإخوان والتلاميذ أتباع هذه الزوايا المتشددين، أولئك القرويون الذين كانوا يغارون على حراسة خصوصية بلادهم، وحراسة قوافل الحجاج والتجار التي تمر ببلادهم أيضًا. وبعد احتجاز رولفز في السجن مدة شهر تقريبًا في هذا المخيم المنعزل - وسط خوفه اليومي على حياته، ساعده صديقه الأصيل كُريِّم، على الهرب بأن أخذه أثناء الليل، هو ورفاقه الثلاثة، إلى مخيم زوج ابنته الذي يوجد في مكان ما بالقرب من زرُّوق Zuruk. جرى في تلك الليلة الهجوم على المخيم الألماني وسلب ونهب كل ما فيه. وقام الغزاة بتدمير كل كراسات المذكرات، وكل الخرائط، والرسوم والأدوات العلمية، وعليه عجز رولفز عن الإفاضة في وصف رحلته حتى في هواويري.

ويخصص رولفز في كتابه المعنون "الكفرة"، فصلاً للأخطار التي واجهته والمعارك التي خاضها في تلك الواحة الطاردة، لكنه بعد إنقاذه بواسطة كُريِّم - الذي التقينا ولده في قرية تاج - تصبح روايته مفككة وغير مترابطة. جرى نقل رولفز إلى مكان آخر قبل أن يُسمح له بمغادرة الواحة. هو نفسه يعتقد أن ذلك المكان هو الجوف، لكن من وصفه للرحلة يبدو هذا القول مستحيلاً. أمضى رولفز أربعة عشر يومًا أخرى في رعاية كُريِّم- وهو يروي أنه لم يكن مسموحًا له بالتحرك بدون حرس مكون من عشرين بندقية- يبدو أنه واجه خلالها كل أشكال القهر والتهديد في صبر وهدوء. وفي اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر غادر رولفز الواحة بصحبة كُريِّم، الذي رافقه طوال الطريق إلى بنغازي، التي لقى الشيخ فيها ربه. وبناء عليه، هناك أسطورة تقول: إن رولفز هو الذي قتل الشيخ

بالسم. ومن واقع خبرتى بجشع المرافقين لنا، توصلت إلى نتيجة مفادها أن الألمانى الشاكر للجميل أعطى الشيخ الكثير من مخزوناته القيمة وأن العربى أفرط فى تناول الطعام!

بعد هذه الحملة المشىءومة، لم يحدث أن رأت قداسة الكفرة وعزلتها أى ظل من ظلال الأجانب إلى أن أرسل السيد أحمد، سجينة إلى الكفرة. جرت محاولات كثيرة من واحة سيوه لاختراق أول حاجز من حواجز الكثبان الرملية، لكن باءت هذه المحاولات بالفشل. وبذلك بقيت الأسرار التى كشف عنها رولفز مدفونة فى سراب الصحراء الكبرى والكفرة، لتصبح أسطورة أكثر منها حقيقة.

يزاد على ذلك أن العلاقات الطيبة فى الوقت الحالى بين إيطاليا والسنوسى، وكذلك الصداقة الحقيقية التى تربط بين السيناتور دى مارتينو والسيد إدريس، هما اللتان سهلتا علينا الوصول إلى إجدابيا، ضيوفا على حكومة السيناتور دى مارتينو المضيافة، لكنهم منذ ذلك الحين فصاعدًا تركوا لنا مسالة درء الخطر عن أنفسنا. لم نتمكن من أخذ رهائننا فى بنغازى فى حوزتنا وليكونوا تحت رعايتنا، نظرًا لأنهم كانوا مذهولين من فكرة قيام امرأة شابة وحدها بمغامرة فى منطقة لم يجر استكشافها بعد. كانت المعاهدة التى جرى مؤخرًا توقيعها مع سيدى إدريس تعطيهم حق السيطرة على برقة بالكامل، وبذلك أمكن ضمان مستقبل باهر لازدهار المستعمرة، لكن المعاهدة تركت الصحراء الليبية الكبيرة بدءًا من عُجيلة Aujela إلى جغبوب، هى والكفرة التى تقع على بعد حوالى ستمائة كيلو متر فى الجنوب، فى يدى سيد إدريس، ليكون حاكمًا مستقلاً تحت الحماية الإيطالية.

هناك أيضًا تعقيد مضحك أدى إلى تفاقم مصاعبنا بشكل كبير. لما كان أحمد حسانين بك سكرتيرًا فى البعثة الإيطالية البريطانية التى رتبت لعقد معاهدة ١٩١٦ مع السنوسى، فقد بدأت الشكوك تحوم حوله ظنًا أن لديه أسوأ النوايا تجاه الحركة الإسلامية. فقد عشنا طوال أسبوع كامل فى ترقب وقلق فى بنغازى. فاحت رائحة

التآمر وكان الجميع يتشككون فى دوافع بعضهم البعض. كنا كلما تعطلت شاحنة تقرر أن لن يسمح لنا بالوصول إلى جدابيا. وإذا ما تحدث حسانين مع بدوى مستخدمًا تحية الإسلام كانت عينا مترجمنا المزعوم تبدوان كما لو كانتا ستخرجان من رأسه اهتمامًا وخيبة أمل. كان أفراد المناوبة الطيبون يولون تاريخنا، وخططنا، وأفكارنا، وممتلكاتنا أقصى اهتماماتهم. جرى "استنزافنا" إلى أنه لم يعد لدينا ما نقوله؛ وقمنا نحن أيضًا "باستنزاف" كل فرد محب وجواد ممن كانوا يسألونا فى أدب ودون مبالاة عن مقصدنا! كان يتعين علينا فى بعض الأحيان التعبيرات الحادة والمؤلمة إلى حد أنى تعجبت من عدم ارتيابهم فى بلشفيتنا فى أضعف الأحوال. تمثل القسم الأكبر من هذه المسألة فى أولئك الجواسيس الذين كانوا يحيطون بنا بصورة مستمرة والذين كانوا يشعرون بأهميتهم إلى حد أنى وحسانين بك كانت تدور بيننا يوميًا مشاجرات فى محاولات منى لمنعه من لعب أدواره الكوميدية الصغيرة التى تستثير هؤلاء الجواسيس وتزيد فضولهم، أكثر وأكثر.

وفوق ذلك، أننا بدأنا نحس بالمزيد من السعادة فور وصولنا إلى إجدابيا. كانت الصحراء المفتوحة الواسعة أمامنا وسحر المدقات الكبيرة فى الجنوب وسر الصحراء كامنًا فى تلك الواحة التى تقع فى مكان ما بعيد خلف خط الأفق الأرجوانى الشاحب، تلك الواحة التى أصبحت هدفًا لكل المستكشفين، بدءًا من ضباط حرس السواحل المتحمسين الذين كانوا يحلمون بشق رمال الصحراء عنوة على ظهر هجن (جمل يجرى، وانتهاء بالحكومات التى فشلت شاحناتها ودورياتها سياراتها الخفيفة فى اختراق تلك التراكمات الرملية الخالية من الماء. تقول الحكايات الغريبة التى يرويها الطوارق المقنّعون، أولئك الراكبون الذين يهددون القوافل المتجهة صوب الجنوب: إن هناك عرقًا أبيضًا، أزرق العيون، أشقر الشعر، تعيش نساؤه بلا حجاب مع رجاله. وتعزو الأساطير موطن هذا العرق إلى تلك الواحة الغريبة التى يختلف موقعها باختلاف نزوات راسم الخريطة. تنفست وأنا أنظر إلى النجوم، وأهمس للريح أنى سوف أصل إلى تلك الواحة "إن شاء الله".

الفصل الثانى

ترتيبات الهروب

نمت بالقرب من نافذة بلا زجاج تفتح على فناء خالٍ، وأنا أتعجب ما إذا كان بوسعنا شراء الطعام الضرورى من السوق، أم أننا ينبغى علينا البدء في استعمال المؤن التى نحتفظ بها. صحوت على مشهد غوغائى ورحت أفرك عينىَّ فى دهشة. رأيت فى ركن من الأركان خيمة ناقوسية الشكل، كان ينبعث منها دخان صادر عن احتراق الفحم النباتى. وشاهدت فى ركن آخر جوادًا مُسْرجًا ممتازًا عليه سرج أوروبى. وشاهدت ستة من الخدم كانوا مشغولين فى إعداد وجبه ضخمة. ناديت حسانين بك "بالله عليك، من أين جئت بكل هذا؟"

أجابنى مندهشًا "تسألينى؟ تسألينى أنا؟ هذا كله من سيد رضا. هل تعلمين أن هذا الجواد سيبقى هنا لتركبيه فى الوقت الذى تحبين، وأن الخيمة عبارة عن مطبخ مجهز وأنك أصبح لك طباخ ولا أعرف عدد الخدم الذين معه؟ ذكرتى أمس أنك تحبين التمر. حسن، هذا هو جوال كبير من التمر وصلنا هذا الصباح، فضلاً عن اللحم، والخبز، والشاى، والسكر، والله وحده يعلم ماذا سيجيئنا بعد ذلك. نحن ضيوف على سيد رضا، وأنا أستحلفك بالله ألا تقولى أنك تحبين شيئًا آخر، وإلا سوف يجيئك ذلك الشيء فى غضون ساعة!"

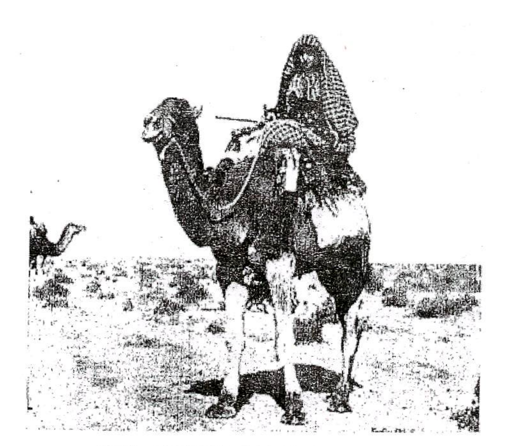
توقف حسانين بك لالتقاط أنفاسه، فى الوقت الذى رحت أطيل خلاله النظر إليه وأنا بلا حول أو قوة. المرء عندما يعود من مستعمرة إيطالية يكون معتادًا كرم الضيافة، إذ إن الجميع بدءًا بالمحافظ وانتهاء بمن هم أقل من ذلك يكونون مشغوفين علينا بشكل يدعو إلى الدهشة، لكن الذى يحدث شيء أكثر من الخيال. أحسست أن حديقة كاملة من البلاغة الوردية لن تكون كافية للتعبير عن شكرى وامتنانى.

خرجنا راكبين دوابنا وسرنا خلال رقع متصحِّرة مـن الـصخر الأبـيض والرمل لنرى قطعانًا كبيرة يجرى سقيها. شاهدنا أشكالاً برونزيـة عاريـة اللهـم باستثناء ساتر للعورة قرمزى اللون، كانت تلك الأشكال تصيح وتغنى قافيه رتيبـة وهى تدلى جلود الماعز المربوطة إلى طرف حبل ثم تجذبها إلى الأعلـى وهـى مليئة بالماء ثم يصبون ما فيها من الماء فى غدران بدائيه. كان هناك قبر مـرابط أبيض ونخلة واحدة مميزان وسط مجموعة من المنازل التى لها لون الرمال. وفيما عدا ذلك، كانت المنازل مبعثرة على مساحة واسعة، فى حين كانت دكاكين السوق على شكل خط فى المنتصف. أحدثنا جلبة وقلقًا كبيرين فى السوق، الأمـر الـذى جعلنى أقرر أن معطفى الرمادى الخاص بالركوب هو وقبعتى المصنوعة من اللباد لم يكونا مناسبين للمكان. أخبرنا مصطفى - ذلك الفرد المتألق الذى ينتمـى إلـى واحدة من العصابات غير العادية - والذى تعطَّف علينا الـضابط الـسياسى فـى بنغازى بإعارتنا إياه، أن يذهب ويكتشف أنه كان هناك أحد يود بيع بعض الملابس الوطنية. عاد إلينا بعد حوالى نصف ساعة وعلى وجهه تعبيـر يـوحى بـالحيرة والخوف، وبصحبته أمين سر سيد رضا، الذى كان وجهه الأسود سواد الفحم يطل علينا من بين ثنيات كوفيته البيضاء الضخمة. قال أمين السر "أنتم ضـيوف سـيد؛ وما تريدونه سأحضره لكم على الفور." ثم قدم لى حزمة كبيرة. كانت تلك الحزمة تحتوى على أجمل ثوب وطنى Jerd أبيض مصنوع من الحرير، ومقلَّم مثل ذلـك الثوب الذى أبديت إعجابى به فى الليلة الماضية، وكان مع الثوب عقال أخضر من الفضة، وكان مع العقال كوفية غمرت قلبى بالفرح، لأنها كانت عبارة عن خلـيط من الألوان الجميلة- اللون الأرجوانى واللـون الـوردى، واللـون الأزرق علـى أرضيه فضية، ولها شراشيب طويلة. كان فى الحزمة طربـوش أيـضًا وشبـشب أصفر اللون بديع الشكل. وقبل أن تنطلق الكلمات المتلعثمة من فمى كان حـسانين بك قد انقض على الشبشب الأصفر. كان التعبير الذى ظهر على وجهه يوحى بأنه كان مثل طفل صغير عندما تُعاد إليه لعبة يحبها. قال حسانين بك متعجبًا: "الحمـد لله"، ثم انصرف بعد ذلك ممسكًا بهديته.



THE AUTHOR AT JEDABIA.

المؤلفة فى جدابيا



THE AUTHOR ON CAMEL-BACK.

المؤلفه تركب جملا

أعترف بأنى أمضيت نصف ساعة من السعادة وأنا أحاول فهم التشابكات العويصة لذلك الثوب الوطنى، وفى تخيل نفسى وأنا أرتدى الهدية الرائعة التى أهدانى إياها سيد رضا، وتقديم هذا الرجل الشاى المنعنع للشيوخ المحترمين. محونا بعد ذلك من مفرداتنا كل الأفعال المعبرة عن الرغبة والطلب، لكننا لم ننجح فى تحاشى كرم مضيِّفنا. كنا بحاجة إلى جوالين صغيرين نضع فيهما مخزونًا من الأرز والدقيق يكفى استهلاكنا لمدة أسبوع، وكان السبب فى ذلك أننا فور مغادرتنا إجدابيا سوف تستمر رحلتنا لمدة سبعة أو ثمانية أيام إلى أن نصل إلى الواحة التالية، وكنا قد وضعنا خطة تقضى بأن تسبقنا إبل الأمتعة، وأن نركب أسرع المواشى المتيسرة. وفى ضوء ما انتويناه أرسلنا مصطفى مرتدى الثوب زاهى الألوان إلى السوق. وبعد ذلك بعشر دقائق أُعيد مصطفى بطريقة حاسمة بواسطة رئيس الشرطة، ذلك الرجل القوى المتين أسود البشرة، صاحب الوجه الصارم الجامد. كان تابعنا يحتج احتجاجًا شديدًا، لكن لم يكن هناك من مستمع أو أذن صاغية لما يقول، إذ جاء فى أثره أمين السر أبنوسى البشرة، الحاج عبد السلام. قال لى الحاج عبد السلام بنغمة الأب الذى يعاتب طفلاً أحمقَ: "سوف أرسل لك الجوالين. السيد يود أن يعطيك كل ما تحتاجين." وفوق ذلك أن بلاغة حسانين بك خانته أيضًا، فى الوقت الذى رحت أنا أتساءل فيما بينى وبين نفسى حول ما إذا كنا نعيش حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة.

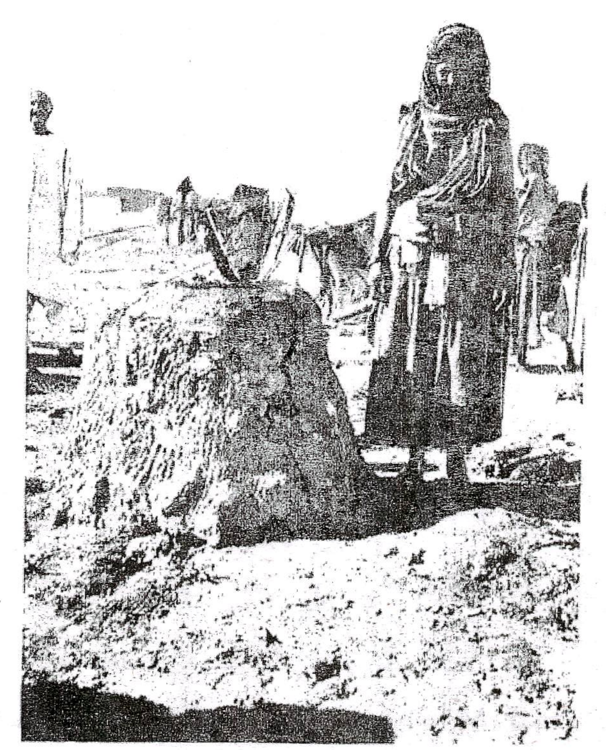
على كل حال، كان سلامنا قصير الأجل؛ إذ كنا طوال الأيام القلائل الأولى فى جدابيا، فى سعادة وهميه. كانت الصحراء تحيط بنا من كل جانب. بدت لنا مسألة استئجار عدد قليل من الإبل ومرشد ثم الاختفاء بعد ذلك عند حافة الأفق، وكأنه أمر سهل. وبحلول اليوم الرابع بدأنا نكتشف بعضًا من المصاعب المهمة. أولاً، لم تكن الإبل متوفرة. كان الحصاد وفيرًا أيضًا فى ذلك العام. بالإضافة إلى ذلك أن البدوى كان ثريًا ولم يكن يرغب فى العمل. وكان من المستحيل تفسير

القصد الحقيقي للقافلة، نظرا لأن الواحة المقدسة، تتجاوز أحلام الجمّالة في المقام الأول، وفي المقام الثاني، يتعين القيام بالعمل كله في السر، نظرا لأن كل من كانوا معنا كانوا جواسيس، باستثناء الطباخ الأسود، على. يضاف إلى ذلك أنه كان يعمل في المكتب السياسي الإيطالي Ufficio Politico، ومن باب الطاعة والولاء، كان يقوم بالإبلاغ عن أصغر الأعمال التي كنا نقوم بها. زد على ذلك أن مبارك- رئيس الشرطة القوي - لم يكن ممانعا للذهب اللاتيني، ولذلك زرع أخاه كسائس للخيل ليراقبنا، وظنًا منه أن ذلك لم يكن كافيًا، أرسل لنا خادمًا عجيبًا، أطل علينا برأسه فجأة من النافذة الخالية من الزجاج، كلما كنت أنا وحسانين بك ندرس القرآن أو ندون الملاحظات. لم نستطع مطلقًا التقليل من يقظتنا ولو لثانية واحدة. كان من عادتنا التحدث طويلاً باللغة العربية عن مدى انشراح صدورنا بالحياة في جدابيا، وأننا يجب أن نبقى فيها أسبوعين قبل عودتنا إلى بنغازى. كنا على يقين من أن كل كلمة سيجرى استراق السمع إليها وتكرارها.

أفسدت شائعة سوقية خطتنا الأولى، التي كانت شديدة البساطة. كنا قد انتوينا إقناع أحد الإخوان بمرافقتنا لزيارة قرية من القرى القريبة، التي سيجرى فيها زواج وهمي أو احتفال، ثم نقوم بعد ذلك بمواصلة رحلتنا من هناك. لم نكن على معرفة يقينية بتشدد ذلك المسلم. كانت حكايات المرأة المسيحية الثرية التي كانت على وشك الترحال في داخل البلاد، قد انتشرت مثل انتشار النار في الهشيم. جاءني مصطفى بحكايات عن قطع الرقاب على مرأى ومسمع من في السوق. أوضح لي سيد رضا بنفسه أن حياة المسيحي غير مضمونة فيما وراء حدود برقة، وأن كل من يقال إن بحوزته نقود، يصبح فريسة واضحة للعصابات الخارجة على القانون، التي تجتاح الصحراء كلها، وتلقى القبض على فرائسها ثم تختفي في الرمال التي لا حدود لها مثلما يختفي النمل في العشب. تعلمنا أشياء كثيرة في ذلك اليوم. اكتشفنا أن مانيسمان Mannismann الألماني، قتل بيد حارسه العربي، بعد

بضع ساعات قلائل، خارج البلدة؛ لأن مانيسمان كان معه اثنا عشر ألف جنيه من الذهب. سمعنا أيضًا أن قبائل التيب التى تعيش فى مجموعة الواحات التى تعرف باسم الكُفْرة Kufra (الاسم الحقيقىّ كُفاره Kufara) لم تخضع خضوعًا تامًّا لحكم السنوسى، وعليه ظلت تلك القبائل تهاجم القوافل التى تتجاوز تيسربو. قلت "أنا لست فاهمة. تيسربو جزء من الكُفاره Kufara، أليس كذلك؟ هى موقعه على الخريطة بهذا الهجاء." أجابنى راوينا مندفعًا "لا! لا! تيسربو قريبه. ويمكنك الذهاب إليها بسهولة. تيسربو ليست مهمة. ليس فيها سكّه (طريق). الكفاره أبعد منها بكثير. الجزء الخطير يبدأ بعد تيسربو. إذا ما ذهبتِ إلى بُسيمة فقد يتعين عليك الدخول فى قتال."

بدأنا بعد ذلك حملة جادة ومنظمة لتصحيح انطباع أو فكرة المرأة المسيحية الثرية. استغنيت عن قبعتى واستبدلت بها لكوفية الجميلة التى أهدانى سيد إياها. عوّدت الناس على الاستماع إلىّ فى الصباح وفى الساعات المتأخرة، وأنا أتلو آيات من القرآن. كنت قد عرفت بالفعل الفروض الخمسة الأساسية، وحرصت على أداء الصلاة بصورة صحيحة. يزاد على ذلك أنى أعتدت على التجوال خلال مخيمات البدو التى تحيط بجدابيا، والتحدث مع النساء البدويات مما جعلنى أكتسب ثقتهن بطريقه متدرجة. فى البداية كانت النساء ينظرن إلىّ نظرة شك وارتياب بالغين، ولكن ذلك بدأ يقل عندما بدأت أحيى الناس بتحية الإسلام، وعندما كنت أعبر لهم عن سعادتى بأن أعيش حياة العرب بين العرب. عندما كان يزورنا شيخ من الشيوخ، أو حاج من الحجاج، كنت أحرص على النطق أمامه "بالشهادة": "أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله"، وعقب ذلك كان الشيخ أو الحاج يدعو لى بالبركة دعاءً حارًّا. بعد أيام قلائل، أصبح الناس يرحبون بى ترحيبًا حارًا وحماسيًّا، وراحوا يقدمونى للأطفال ذوي الوجوه الوقورة المزينة بأحجبة وتعاويذ من الفضة واللاتى يعرفن كيف يخبزن خبزًا مسطحًا (مفروذا) ثقيلاً فى أفران من الطين.



BEDUIN WOMAN AT JEDABIA.

بدوية فى جدابيا

كانت مسألة منظومة التراسل اللاسلكى فى الصحراء تعد أمـرًا عجيبـا جـدًا. لاحظت ذات ليلة - ونحن نتناول العشاء مع سيد رضا - أنى كنت سعيدة لعدم وجـود تيار كهربى، كما لاحظت أيضًا إعجابى بتأثير الألوان المحلية والإضاءة البدائية علـى المنازل العربية. وقد ترجم هذا الإعجاب فى السوق إلى "هى مسلمة. إنها تكره الأشياء الأوروبية كلها. هى تود الاحتفاظ بالتقاليد القديمة كما تركها لنا آباؤنا."

عرفت أن حملتى أصابت نجاحًا فى اليوم الثامن من وصولى، عندما وجدت الجاسوس الرئيسى، بعد أن يئس من رؤيتى بأية طريقة أخرى، يقوم بإحضار هدية عبارة عن طائر أسود أصلع الرأس يثير الضحك، كما وصل إلينا أيضًا شقيق مـن أشقاء على الطباخ قادمًا من خيمته المصنوعة من وبر الإبل. حيانا الرجل وأخبرنا أن البدو كانوا متعاطفين معنا، وأنهم عرفوا أننا مسلمون ومن دمهم.

وعليه أحسسنا بأننا فعلنا شيئًا للتخلص من الموت المفاجئ قبل أن نقطع مائة ميل من الطريق الذى ينبغى أن نسير عليه، لكن الترتيبات الأخرى لم تكن على ما يرام بأى حال من الأحوال. كان الحاج فطاطر Fetater، أكثر الإخـوان تقـديرًا واحترامًا والذى سبق له القيام بالرحلة الكبيرة خلال الكفاره Kufara ومنهـا إلـى واداى Wadai، هو الشخص الوحيد القادر على مـساعدتنا فـى الطريـق الـذى سنسلكه. كان الحاج فطاطر من قبيله المجابرة Mojabara ولـذلك كـان كارهًـا "للنصرانى" إلى حد أنه لم يكن يطيق الوجود فى غرفة واحدة مع شخص مسيحى. لست أعرف ما إذا كانت فصاحة حسانين بـك، أو اكتـشافه المفـاجئ أن سـيدى السنوسى نفسه قد تنبأ بدخول الإنجليزية فى الإسلام بصورة متدرجة، هو الذى أقنع الحاج فطاطر وجعله يعد بمرافقتنا فى رحلتنا. "نحن خدم للسيد. قال: إذا ما قال لى أذهب، فسوف يتعين على الذهاب." لكن عندما أثارت النبوة حماسه، ألقى برأسـه الكبير إلى الخلف وقال متعجبًا "سأحميها. سآخذها إلى الكُفـرة Kufara، وسـوف تقبّل القبة الشريفة وتصبح مسلمة!"

كان عمر الحاج فطاطر حوالى ثمانين عامًا، لكنه قرر فى الحال إنـه سـوف يتولى أمر إدارة القافلة كلها وأنه سوف يدربنا ويثقفنا على الترحال فى الصحراء. كـان الرجل قد ألقى علىَّ نظرة خاطفة عندما كانوا يستعجلون خروجى من المنزل مخافة أن يؤدى وجودى فيه إلى تلويثه. لم ير منى سوى تلك الشابة الصغيرة الخجولـة للغايـة، كسيرة العينين، التى ترتدى بدله زرقاء باهته وتركب على حـصان صـغير بـشكل مضحك، وتتدلى قدمها المتورمة وفيه فردة حذاء محلى، لكن الواضح أن الرجل وقـر فى ذهنه أنه يستلطفنى. انتهز حسانين بك موافقة الحاج فطاطر قائلاً: "الفاتحة". يقـصد "سورة" الفاتحة من القرآن الكريم. هذه الفاتحة لا تُقرأ إلا فى المناسبات شديدة الأهميـة، وهى تشكل مباركة لما تم الاتفاق عليه وقسمًا فى آن واحد.

مع كل ذلك، لم يكن مُضيِّفنا راضيًا تمام الرضا لكنه أصر علـى إرسـال مرافق معنا، وعشرة من جنود حرسه، المكون من عبيد سود سواد الفحم، وبقيـادة قائد يدعى عبد الرحيم. وقرر مضيفنا أيضًا تسوية مسالة الإبل تسوية نهائية، عـن طريق إرسال قافلة من قوافله إلى الكُفره لتحضر له بعض مقتنياته وبذلك تسمح لنا بالسفر معها. وإلى كل من لا يعرفون الشرق، تبدو المسألة عند هذه المرحلة وكأن الأمور أصبحت على ما يرام. أبدًا، لم يحدث ذلـك! كـان الجنـود فـى زوتينـه Zuetina، على بعد حوالى ٢٤ ميلاً. وكانت الإبل على بعد مسيرة يـومين فـى أضعف الأحوال، أى على بعد حوالى ٦٠ كيلو مترًا. كان الناس يقولون: إن الإبل فى منطقة أنتيلات Antelat، مقر أسرة سيد رضا. كنا نراقب الأفق كل يوم بعيون قلقة. كنا نعد كل يوم كل صف من صفوف البقع السوداء التى كانت تظهر وسـط العشب والصخر التى أحرقتها الشمس وحولتها إلى اللون البنى، لكن لم تظهر الإبل ولا الجنود. كنا قد قررنا أن القافلة يجب أن تعلن أن بدء تحركهـا سـيكون عنـد الظهيرة، وأن طابور الإبل الطويل سوف يتجاوز بابنا عند الساعة الثالثة صـباحًا. قررنا أيضًا أن بعض الإبل سيجرى سحبها بالقرب من جدار مناسب حيث يجـرى

تحميلها على وجه السرعة، بكل أشيائنا، ثم نركب الإبل بعد ذلك ونكون قد قطعنـــا مسافة ٥٠ كيلو مترًا قبل أن يعرف أحد برحيلنا! وبوسعنا ترك بعض الرسائل التى تفيد أن ما أقدمنا عليه كان من باب انتهاز فرصة عارضة، ومن باب قرار مفاجئ اتخذناه، على أن نقوم بعد ذلك بإرسال المزيد من المذاكرات من كل واحـــة مـــن الواحات التى تصادفنا فى طريقنا.

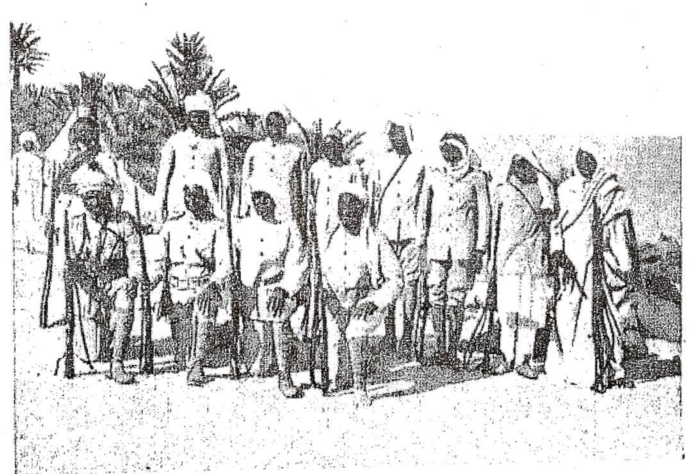
ومن سوء الطالع، أن ذلك كان سباقًا مع الزمن، نظرًا لأن الجميـــع بـــدءوا يتشككون فى رغبتى غير المبررة، فى البقاء فترة طويلة فى قرية طينية على حافة العالم. كان عمر، مترجمنا الحكومى، مصممًا على العودة إلى بنغازى لحضور عيد رأس السنة. كان ضابط الخيَّالة بهى الطلعة، ضابطًا سياسيًّا فى زوتينه، متـــضايقًا بطبيعة الحال من تكليفه بقيادة سيارة النقل الثقيلة ثلاث أو أربع مرات كل أســـبوع بدءًا من معسكره الصغير القريب من المحيط ليرى ذلك الذى تفعله هـــذه المـــرأة الإنجليزية العجيبة فى بلد على حافة الحضارة يدور من حوله جدل كبير. حـــاولوا بكل الطرق، مع مرور الأيام إقناعى بالخروج من إجدابيا، لكن قـــدمى المتورمـــة أسدت لى خدمة كبيرة. أوضحت لهم الأمر قائلة: "إن الركّاب يؤذى قدمى المتورمة بدرجة كبيرة نتيجة تكرار الركوب إلى حد أنى لست على استعداد للتضحية بقدمى مرة أخرى قبل أن يكتمل شفاؤها." فاقترحوا على استعمال سيارات النقل، ولكنـــى قلت لهم إن لدىَّ أعمالاً كثيرة يتعين القيام بها، وأنى كنت جد سعيدة بهدوء وســـلام منزلى العربى الذى سوف أقوم فيه بهذه الأعمال.

كان الموقف سخيفًا. اعتاد خمسة شبان على الاجتماع فى منـــزل الطبيـــب حتى يشاركوا فى زبليونية السيد عمر اللذيذة، لم يحدث قط أن نطـــق أحـــد مـــنهم بالحقيقة! كان كل واحد منهم يحس بأن الآخر يكذب عليه، لكن أحدًا منهم لم يعرف إلى أى مدى بالضبط كان يكذب ويلف ويدور. ربما كنا نحن أفضل حـــالاً مـــنهم، نظرًا لأننا كنا نعرف لعبتهم، ومن سوء الحظ أنهم فشلوا فى فهم خطتنا. كانوا



NOMAD TENTS, NEAR JEDABIA.

خيام بدوية بالضرب من جوابيا



OUR SOLDIER SLAVES AND THE GUIDE, ABDULLAH.

جنود من العبيدهم والمرشد عبد الله

يركزون دومًا على الجانب السياسي. في ظل انشغالهم بمعرفة ما إذا كان حسانين بك يخطط لإقامة إمبراطورية إسلامية مع المصريين الثلاثين الذين كانوا يعملون من قبل في حرس السواحل، والذين لجئوا إلى السنوسى أثناء الحرب، أغفلوا الاحتمالات الأخرى. مبلغ علمى أن هذه الفكرة، وأنهم ظنوا أنى أود التعمق في الصحراء إلى مسافة غير ما يسمحون لى به، لكنى أشك في أن الشكوك راودتهم حول هدفنا الحقيقي. كان ذلك يدهشنى إلى حد كبير في ذلك الوقت. وأنا عندما أسترجع ما حدث، أجد أنه كان من الصعب عليهم تصور أن المرأة التي رأوها وهي ترتدى ثوبًا فارهًا، وتضع فوق رأسها قبعة فرنسية مزينة بالدانتيل، وتلبس حذاء بكعب عال يناسب حمرة عباءتها المقلَّمة، يمكن أن تتحول إلى بدوية وتقوم برحلة شاقة - من وجهه نظرهم - على أى شخص أوروبى وبالغة الصعوبة على أى شخص عربى.

أحسسنا أن لدينا ورقة واحدة يجب أن نلعب بها حتى لا يتشككون فينا- الهرب عند منتصف الليل. لم نكن راغبين في لعب هذه الورقة. كنا نصبر في قلق على الإبل التى لم تصل حتى ذلك الحين، وكنا قلقين أيضًا بشأن مسألة الوقت. ومن يمن الطالع أن الخصوم خدعهم ذلك البرود الذى كان بينى وبين حسانين بك. كنا قد بدأنا نتصنع الخلاف فيما بيننا، وكنا نتحين الفرص للكشف عن مظالمنا واستياءاتنا بين الحين والآخر وذلك على مسمع من الآذان المتعاطفة. وفجأة بدءوا يضعون معنا رفيقًا محلاً لثقتهم، الأمر الذى سهل علينا أمورًا كثيرة. وبدأوا يتفقون مع بعضهم على تعقيد الأمور حتى يجعلونى أغادر إجدابيا، الخالية من مقاهى المبيت Café Chantant أو فندق من 'فنادق نوبايل!' يزاد على ذلك، أننا على الرغم من هذا التحرك، بدأنا نحس المزيد من القلق الشديد. فقد بدأ الجواسيس يضاعفون من يقظتهم. ولم تظهر أية دلائل عن الإبل وقام مبروك - رئيس الشرطة - بتقديم شخص إلينا في منزلنا قال عنه إنه من الإخوان في الكُفره، وكان

واضحا أنه يريد منا أن نسأل هذا الشخص عن رحلته. لم نتطرق إلى هذا الأمر من قريب أو بعيد، يضاف إلى ذلك أن هذا الإخوانى كان غبيا إلى حد جعلنا لا نتصور أن يكون مثل هذا الرجل ذا فائدة فى أية خدمة من الخدمات السرية!

كان ذلك موقفنا فى اليوم الرابع من شهر ديسمبر، الذى شاهدنا فيه - أثناء تجوالنا الصباحى فى المخيمات المجاورة - طابورًا من الإبل قادمًا من أنتيلات. وعلى الفور قفزنا إلى استنتاج مفاده أن هذه هى إبلنا. كان أحد الجواسيس يقود حصانى الذى كنت متوازنة فوقه حماية لقدمى التى تعرج، وعليه لم نكشف عن علامات فرحنا، اللهم باستثناء بضع ساعات قلائل رحنا خلالها نرسم الخطط تمتعًا بحرية الصحراء. كنا قد انتهينا للتو من تناول غداء من الأرز، والضأن والشاى المنعنع عندما حدثت الواقعة. جاءنا الوزير الأسود فى حالة من التشوش الكبير. لم يقتصر الأمر على عدم وجود أخبار عن إبلنا أو جنودنا، لكن خصومنا كانوا على علم تام بأن قافلة سوف تتجه إلى الكُفرة فى غضون وقت قصير وأننا نتطلع إلى السفر مع هذه القافلة "مدة يوم أو يومين". عاد إلىّ حسانين بعينين متقدتين فى وجه أبيض ابيضاض الطباشير. قال حسانين: "لقد وصل الأمر إلى حد القتال، وأنا سعيد بما يدور." كنت قد تعودت على الانبساط فى بعض الأحيان، من طريقة معالجة حسانين الصغيرة للأشياء حتى اللحظة الأخيرة، لكن قوة وطاقة الرجل بكاملها كانت تتجلى فى الطوارئ المفاجئة، الأمر الذى جعلنى لا أفضل عليه أحدًا من رجال العالم فى الوقوف إلى جانبى. كان حسانين يسارع إلى القيام بالضروريات تاركًا لى التفاصيل الصغيرة. قال حسانين "هو هروب على جملين وعندها يتعين على القافلة أن تتبعنا!" وكالعادة، رحت أدرس الاحتمالات العملية فى الوقت الذى خرج هو فيه لتصيد المزيد من الأخبار.

أظن أنى سوف أتذكر دومًا ذلك المساء الطويل. فى ذلك المساء، كانت الريح محملة بالتراب، لكنى ركبت الحصان وقصدت مخيمًا من المخيمات ولدى إحساس

بأنى لا أود الابتسام. أحسست باليأس، والحصار كما لو كانت شبكة تطبق علىّ، وتضيق علىّ الخناق، وبدأت أحس ألمًا خدرًا فى قلبى. وفوق ذلك أنى لم أطق مبادلة البدويات ابتساماتهن، وهن متجمعات حولى، وهن يرتدين برّكانات(*) فيها بقع من الألوان الزاهية برتقالية اللون، واللون الأسود، أو اللونين الأحمر مع الأسود، وقد نقشن العلامات المميزة للقبيلة على جباههن، وحوالى ستة أقراط فضية تتدلى من آذانهن من تحت ضفائر شعورهن. ضحكت إحداهن من يدىَّ البيضاوين وهما بجانب بشرتها السوداء. قالت: "لديك صابون تغتسلين به، أما نحن فلا." كانت الأشكال البيضاء المتلكئة فى السوق تطيل النظر إلى فضولاً وأنا أمر عليها، لكنها لم تحتج أو تتذمر. كانوا قد ألقوا الحجارة "على كلب مسيحى" من زوتينه Zuctina فى اليوم السابق، لكنى كنت ضيفة على سيد رضا وبالتالى كنت مُكرَّمة. حيَّانى واحد من الشيوخ المحترمين. كان ذلك الشيخ حاجًا وقال لى: "نحن كلنا نخضع لأوامر سيد رضا. بوسعك التنقل بسلام بيننا حيثما شىءت، لأن هذه هى رغبة سيد رضا." كان مصطفى يصغى بشغف لما يدور. قال: "هذا صحيح. السيد شخصية عظيمة. الناس كلهم يخشونه. وإلا فإنهم سيقتلون كل المسيحيين الذين فى هذا البلد."

وهنا بدأت أفهم المشكلة الكبيرة التى تواجهها إيطاليا، وبدأ يزيد إعجابى بطريقة تعامل إيطاليا مع هذه المشكلة العويصة. أوروبا ليس لديها فى الوقت الحالى رسالة توجهها إلى المتشددين فى ليبيا، لكن الشريط الخصب من برقة الذى لا يبعد سوى أميال قليلة عن البحر، سيكون له مستقبل باهر. لقد عملت العاملات الإيطاليات الكثير من أجل بناء رفاه كل من مصر وتونس. المجال الواسع مفتوح أمام هؤلاء العاملات بدءًا من زوتينه إلى طبرق، التى قد تفيد صناعتهن بلادهن فيهما. ليبيا، كانت فى يوم من الأيام مخزن غلال الإمبراطورية الرومانية، وسوف

(*) واحدة "برّكان": ثوب طويل من القطن ترتديه النساء الليبيات. (المترجم)

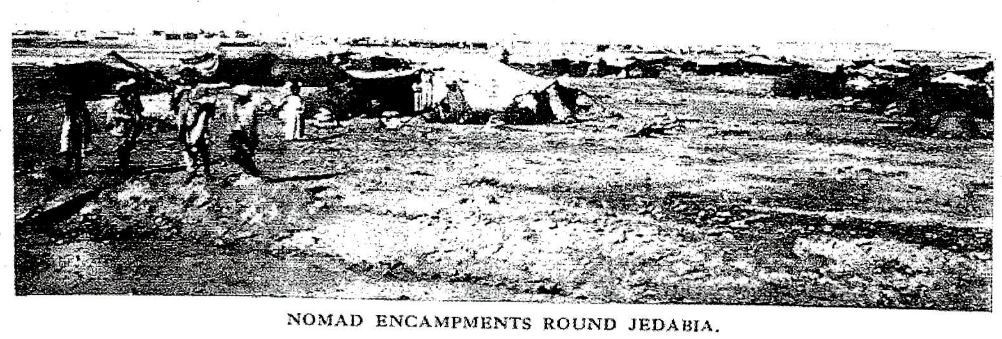


WELL AT JEDABIA.

بئر فى جدابيا

يجرى احتلالها بواسطة خلف أولئك المقاتلين القدماء، الذين خلّفوا وراءهم آثارهم فى المنطقة من سيرين Cyrene إلى مسدا Misda البعيدة. هذه المستعمرة الناشىءة لابد أن يكون لها مستقبل زراعى زاهر، كما أن الصداقة بين إيطاليا والسنوسى، التى جرى دعمها مؤخرًا فى رجيما Regima، لابد وأن تؤدى إلى فتح طرق القوافل الصحراوية القديمة. يزاد على ذلك أن السلطان تعوَّد الوثوق من وضع أغلى أعماله التجارية فى حماية سيدى بن على السنوسى وبخاصة عندما تكون هذه التجارة فى طريقها إلى واداى. لماذا لا تتخذ هذه الترتيبات نفسها بين محافظ ليبيا والوريث الأمير السنوسى؟

كانت الشمس تغرب وأنا أغادر السوق، وميض برتقالى اللون شديد العمق، لا نراه مطلقًا فى أوروبا. كانت السماء منصهرة فى بودقة. أطلقت سراح الحصان وجلست القرفصاء على الرمل، كى أراقب ذلك الغروب العظيم. مر جمل أو اثنان كما لو كانا ظلالاً ضخمة مشوهة عبر الغرب المحترق. مرت بالقرب منى بعض الأشكال المتدثرة وهى تقول بصوت ناعم "بسم الله!" كنت أتحرق شوقًا إلى حصان، جمل، أو أى شىء يمكن أن ينقلنى إلى الفراغات الواسعة الموجودة خلف إجدابيا. خفت حدة ذلك التوتر بعض الشىء فى المساء، والسبب فى ذلك أننا من خلال لعبة من لعبنا التى لعبناها فى منزل الطبيب اكتشفنا أن خصومنا كانوا ينتوون منعنا من مرافقة القافلة لسبب مفاده أن أحدًا من الإخوان لن يسافر مع القافلة. كان واضحًا أن هؤلاء الخصوم لم يشككوا بعد فى مقصدنا النهائى، لكننا لم نكن متأكدين تمامًا أنهم أرسلوا برقية إلى بنغازى يطلبون فيها إرسال الشاحنات. سهرنا إلى ساعة متأخرة فى تلك الليلة فى الحوش الصامت مع النجوم من فوقنا، والجدران الحارسة، التى تعلمت أحبها، متناسية استرقاق السمع بكل أشكاله. تراجع الجواسيس كلهم بعد تناول العشاء الخفيف، وكان على Ali ممنونًا بصورة مستمرة لقضاء الليل فى خيمة العائلة. وهنا قررنا الالتزام بخطة بسيطة لكنها يائسة إلى حد



NOMAD ENCAMPMENTS ROUND JEDABIA.

مخيمات بدوية حول جوابيا

أننا أحسسنا أننا ينبغى أن يسمح لنا بيومين أو ثلاثة أيام أُخر فى إجدابيا بلا صراع علنى، ولم نكن واثقين من الإبل العشرين المطلوبة للقافلة. وعليه قررنا ترك متاعنا كله خلفنا، ونذهب لحال سبيلنا عند منتصف الليل، أن تيسر لنا ذلك مع الإخوان. وسوف يقول الناس فى صبيحة اليوم التالى إننا ذهبنا لزيارة بعض المخيمات المجاورة وقد نعود خلال يوم أو يومين. ومن باب تأكيدنا لهم أنهم سيرون كل ملابسنا معلقة على الشماعات المعتادة، قمنا ببعثرة حقائب ملابسنا كلها فى أنحاء الغرفة، وكومنا جوالات وصناديق المؤن فى أركان مختلفة، بما فى ذلك كرسى وطاولة المخيم اللذان كنت أستعملها فى الكتابة.

أنجزنا فى صباح اليوم السادس من شهر ديسمبر عملاً شاقًا. بعد تناول إفطار من التمر والبيض، جلست بعد ذلك مع القرآن (الكريم) ومع كراسات المذكرات خلف الأبواب المغلقة، وقلت إنى لا أريد أن يزعجنى أحد. وبعد أن عادت حاشيتنا إلى الخيمة البيضاء ناقوسية الشكل التى كانت تُستَخْدم مطبخًا، بدأت العمل على صناديق المؤن والتموينات. أفرغت الصناديق من محتوياتها وملأتها بأحجار ثقيلة قمنا بجمعها من الفناء الداخلى والمتبقية من عمليات البناء. وضعنا على قمة الصناديق طبقات من القش وبعض العلب التى يمكن رؤيتها بعناية فائقة على إنها فتحات أو فرج مرتبة. صنفنا أيضًا مؤن أسبوع إضافى زيادة على ما سبق أن أعددناه ووضعنا باقى المؤن فى جوالات كبيرة، على أمل إرسال هذه الجوالات عند منتصف الليل، عندما يكون الجواسيس نائمين، إلى مكان ما ليجرى تخزينها انتظارًا لوصول الإبل المتأخرة وبدء تحرك القافلة. وسيجرى تحميل هذه الجوالات بلا بهرجة أو إعلان مع سائر الأحمال الأخرى، وعندما ننضم إلى القافلة بعد أن تكون قد قطعت أيامًا قلائل على الطريق إلى عُجيله Aujela، سوف يتحتم علينا استعادة أهم مؤننا. ومعنا الخيمة ولفتان من فرش المتاع، ومؤن تكفينا لمدة

أسبوعين، وحقيقبا ملابسى اللتان تحتويان أصلاً علـــى أقـــلام، ودواء، وأجهـــزة، وشموع، وصابون، ألخ ومن ثم الاختفاء فى الليلة التالية ونحن نرتدى لباس البدو.

ولابد أن أعترف بأنى أحسست بازدياد ضربات قلبى عندما تيقنت أنى يتعين على ترك كل الألبسة الأوروبية ورائى اللهم باستثناء زوج مـــن أحذيـــة ركـــوب الخيل، وسروال ومعرق من الصوف. قال حسانين إن ما نفعله يعد دربًا من دروب الوصول بالواقعية إلى أبعد الحدود. فهمت السبب، عندما أصررت فى حزم علـــى أن نضع فى حقيبة ملابسه نصف الأجهزة، ومعها أبسط ضروريات الحيـــاة، ولـــم يكن لحقيبة ملابس حسانين استيعاب سبع زجاجات مـــن مـــاء عطـــر الكولونيـــا، ومجموعة من الألبسة المتجانسة التى تصلَح لشارع بوند ولا تـــصلح للـــصحراء. وتحتم علىّ الإشراف على حزم الحقائب مخافة أن يتجاهل حسانين أقراص حليـــب المولت، والفوط، والملابس الصوفية الداخلية مفضلاً عليها القمصان المقلّمة وثوب الخروج المصنوع من الحرير! كنت أتساءل حول ما إذا كنا ســـنرى مـــرة ثانيـــة الملابس التى تركناها معلقة لتزين الجدران لكى تشير إلى حتمية عودتنا مرة ثانية، أو أن تلك الملابس سوف تحدث موضة جديدة فى الأزياء فى إجدابيا!

جاء الترزى عند تناول الغداء لكى يقوم بضبط ملابسى الغربية. اتـــضح أن سيد رضا كان يود إعطائى ما لا يقل عن أربعة أطقم من الثياب، لكنى أكدت لـــه أنى بحاجة إلى ثوب واحد لكى أتصور به وأعرض الصور على أصـــدقائى فـــى إنجلترا. وصلنا إلى حل وسط يقضى بحصولى على طقمين بدلاً من أربعة؛ وصل من الطقمين فى تلك الليلة طقم واحد، وهو عبارة عن سروال غريب الشكل، ضيق جدًا عند الساقين، ومصنوع من البفتة البيضاء المزينة بأوراق خضراء، والقطعـــة الثانية عبارة عن قميص واسع من القطن لونه أحمر غامق وفيه زخارف زرقـــاء. قيل لنا إن الإبل جاهزة لكن الإخوانى نادم على لحظة الحماس الذى تملكـــه. "هـــل سيكون مستعدًا لبدء الرحلة غدا عند منتصف الليل؟" تمثلت كل الإجابة التى حصلنا

عليها فى "إن شاء الله!" كانت خطتنا بسيطة، لكنها اعتمدت علــى الكتمــان لمــدة ليلتين، والسرية أمر مستحيل بين العرب!

يزاد على ذلك، أننا تظاهرنا بعدم الاكتراث. قلنا: "المكتوب مكتوب!"، لكننــى أمسكت بحسانين وهو يفتح المصحف قلقًا ليرى ما إذا كانت الآية، التى سيقع عليهــا بصره بطريقة عشوائية يمكن أن تكون فألاً حسنًا. انشرح صدر حسانين عندما وقــع بصره أول مرة على "نصر من الله وفتح قريب". أما فيما يتعلق بى شخصيًا، فلم أكن متماسكة تمامًا، لأنى عندما كنت أكرر الدعاء الطويل المعتاد فى عصر ذلك اليــوم، أدركت من الرعب الذى بدا على وجه رفيقى أنى كنت أعزو إلــى الله ﷻ تحيــات، وصلوات و– طبيعيات! (كنت أقول 'تاهبات' بدلاً من 'طيبات' Ta- hi- bat).

أخذنا سيد رضا فى جولة فى سيارته فى فترة العصر. لا توجــد طــرق أو حتى مدقات خارج إجدابيا، لكن الرمل جامد وناعم. ظــن الســيد رضــا أن مــن الأفضل أن يكشف علانية عن وجوده معنا، وقد زادت شهرتنا بطبيعة الحال، بعــد هذه الجولة. وعندما عدنا كان أهل المنزل قد ارتدوا جميعًا ملابس بيضاء نظيفــة، وكانت هناك لحظة خوف عندما راحوا جميعًا يقبلون يد السنوسى فى شــىء مــن التقدير والإجلال. لم يجرؤ على الاقتراب كثيرًا من الرجل وهم يقومون بتقبيل يده، مخافة أن تلمس ملابسهم سيدهم الطاهر، لكن كــان جمــيلاً حقًــا أن أرى التعبــد والوقار الذى تنطوى عليهما هذه العملية. هذا يعنى أن هؤلاء الناس كانوا بمثابــة ممتلكات منقولة فى يد السيد رضا. لما كان السيد رضا وكيلاً لسيدى إدريس، فقــد كان يمثل لهم، هم وآلاف آخرين من أمثالهم، ذلك المخلوق الصوفى الذى أختــاره الله ﷻ كى يوجههم ويرشدهم. فهو الذى يتحكم فى حياتهم. وهو قاضيهم الأعلــى فضلاً عن كونه أيضًا مرشدهم والمدافع عنهم. يصعب على أوروبى استيعاب فكرة السلطة التى لدى عائلة السنوسى، نظرًا لعدم وجود مثيل لهــذه الأســرة أو هــذه السلطة فى أوروبا. هذه السلطة تعد انعكاسًا للبابوية الروحية المؤقتة فى ذروتهــا.

من ذلك على سبيل المثال، أن سيدى إدريس قد يصدر أمرًا لواحد من أنبل الإخوان وأكبرهم سنا، بالبدء في القيام برحلة إلى بحيرة تشاد، ونرى هذا الرجل يطيع ذلك الأمر بلا نقاش، أو استعداد أو حتى مفاجأة. كان يقول وهو يلف برنسه حوله ومستعدًا لمواجهة البيداء الخالية من الماء "نحن خُدَّام السيد."

عندما قررنا الهرب من إجدابيا باعتبار ذلك هو الوسيلة الوحيدة لمغادرة هذه البلدة، طلبنا من سيد رضا أن يوفر لنا مرشدًا. أعطانا سيد رضا كلا من يوسف الحمْرى ومحمد قميش، وقال لهما على مرأى ومسمع منا، أنه إذا ما حدث شىء لنا، سواء أكان ذلك أم لم يكن بطريق الخطأ من جانبهما، فإنهما سيقتلان على الفور، وقبل الرجلان هذا التصريح حقيقة مسلمة. ومع ذلك. وبينما كان سيد رضا جالسًا على كرسى المخيم الوحيد الذى معنا، فى غرفتى الكبيرة الخالية من الأثاث؛ يحتسى شيئًا من الشاى الحلو ويأكل آخر ما مع حسانين من فطائر(*)، كان من الصعب تصديق الحقيقة التى مفادها أن مصير هذا البلد فى يدى هذا الرجل القدير. هذا السيد قادر على إعلان حرب مقدسة غدًا على الكفرة، وهنا سوف يستجيب الإسلام بدءًا من واجنجا Wajanga إلى البحر المتوسط، لكن مضيفنا ظل يتكلم طوال فترة العصر ببساطة شبيهة ببساطة الأطفال. كنا نحاول التعبير له عن شكرنا وامتناننا لضيافته المدهشة، وللتصريح الذى أعطانا إياه بالسفر إلى مصر عن طريق الصحراء الكبرى، وقد اشتمل ذلك التصريح على عدد من الإبل، والمرشدين ومجموعة من الجنود المرافقين، علاوة على هدايا هائلة من الطعام والملابس الوطنية.

ونظرا لأننا كنا قادمين من مستعمرة إيطالية. فقد كان ذلك يعنى اعتيادنا على الضيافة الكريمة، لكن كرم سيد رضا كان طاغيا. لقد ترحلت فى نصف بلاد

(*) حلوى بشكل البسكويت تصنع من دقيق اللوز وبياض البيض والسُّكر. (المترجم)

الدنيا؛ وحللت ضيفة على موظف روتيني، وعلى سائق من سـائقي الإبـل علـى الحدود، وحللت ضيفه أيضًا على أمير في الهند، وعلى مسئول في جـزر فيجـي، ونزلت ضيفة أيضًا على الشرطة الراكبة في الشمال الغربي، ونزلت أيضًا ضـيفة على كل الأعراق، لكني لم أحظ عند كل هؤلاء بما حظيت به عنـد هـذا الأميـر العربي العظيم. وقر في ذهني أن أحدًا لا يمكن أن يضاهي أو يتساوى مـع هـذا الأمير العظيم من حيث الحنان، لكن هنا في إجدابيا عثرت على نظير لهذا الأميـر في شريف من أشراف الإسلام الذين ينحدرون من سلالة النبيﷺ.

طلبنا من السيد رضا إن كان يريد منا إرسال شيء من القاهرة، وكان فكري سارحًا في حلية أو بندقية مزينة بالذهب. طلب السيد رضا منـا ببغـاء وبعـض أسطوانات الجرامفون، وكانت تعلو شفتيه ابتسامة مثل ابتسامة أخيه.

قال سيد رضا. "حياتي، كما ترين، هي حياة وحدة إلى حد ما". لـيس مـن الحكمة الخروج كثيرًا أو أن أعرض نفسي كثيرًا على شعبي. أسرتنا أسـرة مـن الأولياء، ويتحتم علينا أن نحيا حياه عزلة. قد لا نشاهد الـرقص أو نـستمع إلـى الغناء. لن يفهم شعبنا ذلك، لكني عندما أكون وحدي في بعض الأحيان في سـاعة متأخرة من الليل، أقوم بتشغيل الجرامفون، لأني أحب الموسيقى جدًا جدًا. وهنـا أضاءت وجهه الحاني ابتسامة عذبة، وراح يتذكر نغمة خيالية. قال: "أنا لا أحـب الضوضاء الكثيرة. وأنا أفضل الألحان الناعمة الحزينة. وأنـا أرى أن الموسـيقى كلها يجب أن تكون حزينة."

وفي لحظة واحدة، بدا سيد رضا كما لو كان طفلاً يفكر تفكيرًا حزينـًا فـي لعبة من اللعب، وعندما دخل علينا عليّ منحنيًا احترامًا على صينية الـشاي التـي كان يحملها، استعاد السيد رضا وقاره الصارم الذي يتماشى مع لباسـه المهيـب- جلابية مطرزة أرجوانية اللون، من تحت جُبَّة من الحرير خضراء، ومعها كوفيـة عجيبة من اللونين القرمزي والأزرق، فيها خيوط من الذهب ولها شراشيب كبيـرة من الذهب.

انتهى يوم انشغالنا بمشهد مضحك للغاية. بعد أن ذهب على هو وجواسيسه عن طيب خاطر للسمر أو الراحة التى يبغونها، قمنا بسحب الجوالات الست الثقيلة من المؤن، الواحد بعد الآخر إلى خارج غرفتى عبر الفناء لنضعها بعد ذلك فى الفناء المظلم القريب من الباب الرئيسى. لم يكن القمر مضيئا، وكان وزن الطعام المعلب ثقيلاً جدًا. سرنا على رقعة من الحصى السائب وتصورنا أننا أحدثنا ضوضاء كثيرة. على كل حال، فإن الشكل الغريب للمسكن العربى يستبعد مسألة استراق السمع. قمنا بعد ذلك بجمع بعض الأحجار والرمل من الحفرة التى لم تكتمل فى المنزل، وملأنا بعض الجوالات بذلك الرمل وتلك الأحجار، ووضعنا تلك الجوالات مكان الجوالات الحقيقية. وعند الساعة الحادية عشرة مساء حدثت لنا صدمة من الصدمات غير المتوقعة، التى تصيب ظهر المرء بالبرودة وتجعل مشاعر اليأس تتسرب إلى ذهن الإنسان كان هناك طرق مفاجئ على الباب. كان الوقت لا يزال مبكرًا على قيام المتآمرين علينا بالبحث عن الأمتعة. تساءل حسانين ببرود، وكنت أحس الدهشة فى صوته "مين دا"(*) رد عليه صوت كبير الجواسيس "مبروك"؛ وتلا ذلك حديث طويل حول رغبته فى رؤية الملابس الوطنية التى وصلتنا بالفعل، حتى يمكن أن تكون نموذجًا للملابس الأخرى التى تخيطها أخته الخياطة. واقع الأمر أن الطلب كان فى محله تمامًا. كنا قد طلبنا من الوزير أمين النسر التعجيل بعمل ملابسنا وقام بهذه المهمة على أحسن وجه، قال: أن تلك كانت رغبة السيد، الأمر الذى جعل الخياطة التعيسة تعمل طول الليل، لكن هذا الأمر كان مثيرًا للشكوك فى ضوء آذاننا الواعية. كنت سعيدة لأن حسانين لم يكن معه مسدسا. أخبرنى حسانين فيما بعد أنه خطر على باله قتل الرجل على الفور ودفنه

(*) تعبير عامى مصرى معناه "من الطارق؟". (المترجم)

بعد ذلك مباشرة! وبدلاً من ذلك غمغم حسانين قائلاً: "السّت" نامــت، وتــلا ذلــك بالكلمة السحرية التى تؤخر تقدم الإسلام "بُكرة!" (بمعنى غدًا).

عند الساعة الواحدة صباحًا ارتدى حسانين لباسًا وطنيًا (جردًا) أبيض غطاه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وكان ينتظر خارج الباب الرئيسى، وبعــد ذلــك بدقائق قلائل حدثت خربشه ضعيفة على الخشب. وقبل أن يفتح حــسانين البــاب، ظهرت سبعه أشكال سوداء، مُلثَّمه حتى العينين، ولا يمكن التعرف عليها بأى حال من الأحوال، دخلوا الفناء. لم ينطقوا بكلمة واحدة. وحملوا جوالات المــؤن بخفــه ومهارة، واختفوا فى الظلام دون أن ينطقوا بكلمة واحدة. واقع الأمــر أن هــؤلاء الأشخاص كانوا يتلذذون بغموض وسرية هذا الأمر، لكننا كنا نتعجب من ســرعة وصول الشائعة إلى منطقة السوق!

الفصل الثالث

الهروب من إجدابيا

طلع علينا فجر اليوم السابع من شهر ديسمبر وكان صحوا تمامًا. استيقظنا من فراش المخيم ونحن نحس بالفرح لمضى ست وثلاثين ساعة علينا دون أن ننام خلالها. حفل صباحنا بزيارة صديقين أو ثلاثة لنا من أصدقائنا في المخيمات المجاورة. جاءنا الشيخ الحاج محمود ليقول لنا إننا زوار مُرَحب بهم فى أى مخيم من مخيمات البدو. شرب الحاج محمود ثلاثة أكواب من الشاى الحلو على ثلاثة بلعات، وطلب سيجارة بطريقة هامسة غريبة، وسارع إلى وضع علبة السجائر فى جيبه، وطلب منى أن أقرأ عليه بعض سور القرآن. فعلت ذلك على أفضل نحو ممكن وحدث عنده انطباع طيب إلى حد بعيد. كنا قد انتوينا النوم فى فترة العصر، لكن السيد المتيقن قد أصدر أوامر لعبيده للقيام برقصه من باب تشريفنا، وعليه وعند الساعة الثالثة عصرًا سمعنا قرع الطبول وجاء علىّ يستدعينا وهو منفعل انفعالاً شديدًا. جلسنا على كرسيين أمام بابنا، وأخذ كل سكان إجدابيا من الذكور يتجمعون حولنا، صفًا وراء صف من الشخصيات المتشحة باللون الأبيض وجالسة على الرمل. كان العبيد السودانيون السود من واداى يرقصون على شكل دائرة غير منتظمة، حول طبلتين من الجلد، وقد جرى شراء هؤلاء العبيد من السوق فى الكُفاره، وكانت هناك أيضًا هدايا من الحكام المحليين المطلقى السلطة لعائلة السنوسى، أو أطفال العبيد المرسلين من قبل على دينار، سلطان دارفور، العبودية فى الشرق مؤسسة كلها عطف وحنان، وهى على العكس تمامًا من "كابينة العم توم". السود، فى الشرق، تجرى معاملتهم على أنهم جزء من الأسرة. والسود يتفاخرون بسادتهم ويخلصون لهم. السود أمناء ومحط للثقة. وعليه جاءنا على ذات مساء وهو حزين حزنًا شديدًا. قال علىّ: "هذا المصطفى رجل سيئ. هو يذهب إلى



SAYED RIDA ES SENUSSI.

سيد رضا السنوسى

منزل الطبيب ويقول: إنه لا يجد كفايته من الطعام هنا. وهذا الكلام ليس صحيحًا. السيد كريم. كل شيء موجود هنا. وليس من صالح السيد أو سمعته أن يُقال مثل هذا الكلام."

تمتع السود بالرقصة أكثر منا، فقد تناهى إلى مسامعنا أنه ربما يكون هناك نوع من التعليق للترتيبات من جانب حلفائنا بسبب الحماس الكبير. وصلت أخيرًا، الإبل المطلوبة للقافلة، والتي طال انتظارها. وجاء الجنود أيضًا من زوتينه Zuctina. آثرنا جميعًا أن تبدأ القافلة تحركها عند منتصف الليل، طبقًا لما قاله أمين سرّنا وهو يتباهى بالانتصار. كل من يعرف الشرق يدرك تمامًا مدى صعوبة إفلات اثنين أو ثلاثة من البشر سرًا. هذا يعني أن شأن كل إنسان معروف من الألف إلى الياء. ويجري مناقشة المشروعات في الأسواق وهي لا تزال مجرد أفكار في أذهان المتآمرين. يزاد على ذلك أن فكرة قيام قافلة في السر من إجدابيا مكونة من عشرين جملاً، واثنى عشر جنديًا، ومعها أمتعة وخيام، ومؤن ومرشدون.. ألخ هي بحد ذاتها فكرة سخيفة وتدعو إلى الاستهزاء. كانت هناك شائعة بالفعل في الأسواق مفادها أننا ذاهبون إلى الكُفرة، وقد نتجت تلك الشائعة عن إشارة غير موفقة إلى أننا سنرافق القافلة مدة يوم أو يومين! وعليه، وبينما كنا نطيل النظر إلى دائرة السود الذين يصيحون، ويلقون أنفسهم في أوضاع فيها قدر كبير جدًا من المبالغة، وينشدون أغانيهم الرتيبة وهم يضربون عصيًا قصيرة بعضها ببعض، كنا قد أرسلنا على وجه السرعة ما يؤدي إلى تغيير الأمور. وصلنا خبر مفاده أن ضابط الخيالة بهي الطلعة قد جاء من زوتينه، قبل يومين من الموعد المحدد لوصوله.

قلت لحسانين بطريقة حاسمة "أرى أن أذهب لتناول الشاي في منزل الطبيب. سأبقى معهم حوالي ساعتين، وسوف يتيح ذلك لك فرصة تأجيل قيام القافلة."

كان الجواسيس ملازمين لنا فى ذلك اليوم. انحنى مبروك على كتفى وأنا أتكلم، وهو يشير إلى مبتسمًا ابتسامة مصطنعة إلى أكثر الراقصين شراسة. ومع ذلك، كنت مصممة على إفساد جهده الصغير، وأصررت على حتمية أن يرافقنى مبروك ومصطفى أثناء ذهابى إلى منزل الطبيب. قلت: "أنا لا أود التحرك وحدى بين كل هؤلاء البشر." وهنا تعين عليهما اصطحابى وهما مترددان.

ستظل فى ذاكرتى لعبة الأغراض المتضاربة التى لعبناها أنا وحسانين، والسبب فى ذلك، أنى وأنا أتحسب للوقت، كنت أستفيد فى كل ما أفعل من كل ذرة من ذرات الذكاء. سمحت لنفسى بالاقتناع بالعودة بسيارة النقل إلى بنغازى فى الأسبوع التالى. تساءلت عن سبب عدم وجود أحد من الإخوان لمرافقتى فى هذه الرحلة الصغيرة التى ستقوم بها القافلة. أكدوا لى أن أحدًا من الإخوان لا يود السفر مع مسيحية، إضافة إلى أن أحدًا من أصحاب العقيدة لا يود أو بالأحرى لا يستطيع تجاوز إجدابيا. انتهزت هذه الفرصة وأكدت على هذه النقطة فى شيء من الإلحاح، لأن ذلك سوف يؤدى فى النهاية إلى استبعاد فكرة ملاحقتهم لنا. حاولت الكشف أمام الجميع عن خيبة أملى وإحباطى، وأخيرًا حاولوا تهدئتى وروَّحوا عنى بوعد بزيارة كل المخيمات التى على الطريق عند العودة. افترقنا عن أفضل الأصدقاء وسوف أحتفظ دومًا بذكريات طيبة عن عطف وحنان واهتمام هؤلاء الأصدقاء. كنت أشتاق فى كثير من الأحيان إلى أن أُسِرَّ لهؤلاء الأصدقاء بكل خططى. كنت متأكدة من تعاطفهم معى، لكن كرم هؤلاء الأصدقاء ربما يكون هو الذى حال بينهم وبين السماح لضيفتهم السابقة بالمخاطرة بحياتها فى رحلة برية وخطرة من هذا القبيل.

كنت قد تحدثت قبل ذلك بستة أشهر مع أمير عربى عن مشروعى. وتعجب ذلك الأمير قائلاً لوكلائه "هى مجنونة(*)! إذا ما استطاعت الوصول إلى الكفرة، فسوف تستطيع الوصول إلى أى مكان فى الأرض أو السماء!" وعليه تعين علينا منذ

(*) تعبير عربى ورد كما هو: Heya magnuna!. (المترجم)

البداية أن نخفى هدفنا الحقيقى عن أصدقائنا الإيطاليين الكرماء. ولو لم يفكروا فى أن حسانين فى أضعف الأحوال، كان له هدف سياسى، من مجيئه إلى إجدابيا، فلربما زاد الندم من متاعبنا الذهنية، لكن من يمن الطالع أن حقيقة مراقبتهم لنا بصورة واضحة حولت الأمر إلى لعبة وبررت لنا الاحتفاظ لأنفسنا ببعض الأسرار.

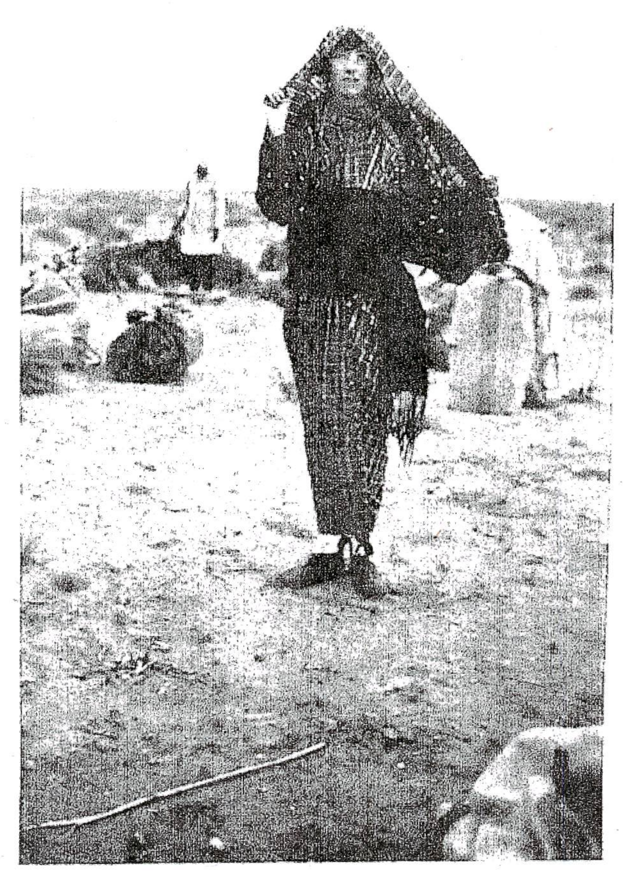
إذا ما قرأ مُضيفيَّ الكرماء فى برقة هذا الكتاب، فأنا أعتقد أنهم سيسامحونى على الدور الذى اضطرنى حنانهم وأفكارهم المسبقة، على لعبه على غير رغبة منى. هم جميعًا لديهم روح رياضية. وهم أيضًا رحالة ومحبون للصحراء الكبرى. وهم الذين وضعوا حجر الأساس لرحلتى بفضل الأعوام الطويلة التى أمضوها فى العمل فى شمال إفريقية. وسيجنون الثمار عندما يجرى توطيد الصداقة بين أوروبا والسنوسى، وعندما يرحب البدو بتدفق التجارة والاستكشاف فيما وراء البحار.

عدت عند الساعة السابعة مساء إلى منزلنا العربى المسوَّر، لكن الوهم والخيال كانا لا يزالان مستمرين فى ذهنى. كانت الهدية التى تمثلت فى آخر علبة من علب السجائر التى معنا قد حثت المؤدين على المزيد من التَّهيج وكانوا على استعداد لتمضية الليل كله فى الرقص والغناء الماجن. من الطبيعى، أن أراقب وأشاهد تلك الحيوية البربرية، بل إنى كنت ممنونة تمامًا للسيد رضا ذلك الرجل دائم التأمل، الذى أقام هذا الحفل على شرفى، لكن كانت لا تزال أمامنا استعدادات كثيرة يتعين القيام بها، وبناء على ذلك شكرنا المؤدين ونحن آسفون، وطلبنا منهم العودة إلى منازلهم. خرج حسانين بعد الوجبة السريعة التى تناولناها، لعمل الترتيبات النهائية الخاصة بتغيير أوراق النقد الإيطالية إلى مجيديات فضية، تلك العملة المعدنية الثقيلة المتعبة فى هذا البلد، واشترينا خبزًا وبيضًا، وجمعنا الملابس الوطنية وبعض الأشياء الأخرى التى يتعين عملها فى اللحظة الأخيرة مخافة إثارة الشكوك. أرسلت ملاحظة لمترجمنا الإيطالى، الذى أثبت وجوده كمرشد أيضًا، وفيلسوف وصديق، ووضحت فى هذه الملاحظة أنى لا يمكن أن أُخرم تمامًا من

رحلتى الصحراوية أولاً وقبل كل شيء، لأنى استطعت فـــى اللحظـــات الأخيـــرة مرافقة واحد من الإخوان، كان مسافرًا إلى أحد المخيمات التى تبعد مسيرة يـــوم أو يومين. قمت بعد ذلك بإعداد شيء من الشاى الأخضر فى غلايـــة غيـــر مناســـبة وملأت ترْمُسينا بالشاى، كما ملأت زجاجات الماء أيضًا.

كانت الساعة قد اقتربت من التاسعة مساء، وهو الموعد الذى حدده حسانين لعودته، لكن الدقائق مرت رتيبة ولم يعد الرجل. بدأ القلق يساورنى عنـــد الـــساعة العاشرة. لم أقو على الانتظار أكثر من ذلك، ورحت أقطع الغرفة الكبيـــرة جيئـــة وذهابًا، على ضوء شمعة موضوعة على حافة النافذة. جاءنى علىّ ليسألنى، عمـــا إذا كان بوسعه هو والخادم، الذى كان هو أيضًا جاسوسًا، أن يعودا إلى منزليهمـــا. قلت له: إنه ينبغى أن ينتظر لحين عودة حسانين بك، وسبب ذلك أنى لم أرد لـــذلك الولد أن ينتهز الفرصة ويروح يتحرى ذلك الذى يقوم به رفيقى، لكن مع مرور كل ساعة، كانت مسألة هربنا تزداد صعوبة، والسبب فى ذلك أننا لم نبـــدأ فـــى حـــزم أمتعتنا، إلا بعد أن خلا المنزل من البشر. وعند الساعة الحادية عشرة كدت أصاب بالجنون. لا أعتقد أنى مررت بساعتين أسوأ من هاتين الساعتين. كنت أتساءل عما إذا كان الجواسيس قد اكتشفوا مؤامرتنا، وأنهم قرروا إحباط هذه المـــؤامرة بـــأى ثمن، بأن اتخذوا الترتيبات اللازمة لإفقاد حليفى وعيه وهو يعبر منطقـــة الحجـــر الرملى الأبيض الموجودة بين منزلنا وبين البنايات المبعثرة فى إجدابيا.

عند الساعة الحادية عشرة والنصف، وبينما كنت أستعد للقيام بالبحث عـــن حسانين، وبينما كنت ألف نفسى بالثوب الوطنى (جيرد) حتى لا يرانى أحـــد فـــى الظلام، وصل حسانين، وهو يترنح من ثقل حمل المجيديات المعدنيـــة، نظـــرًا لأن المبلغ المعقول من هذه المجيديات يكون وزنـــه ثقـــيلاً. أنـــزل البـــيض والخبـــز، والملابس على شكل كومة وأوضح لى أن المُغطِّين العرب هم الذين أخَّـــروه. لـــم



THE AUTHOR IN BEDUIN DRESS.

المؤلفة وهى مرتديه لباسًا بدويا

تكن الخطابات الموجهة لشيوخ الزوايا(*) جاهزة بعد، ولم يكن البيض مسلوقًا، ولم تكن الملابس مشطبه تشطيبًا جيدًا. يزاد على ذلك، أننا لم نضع وقتًا كثيرًا في الكلام. أعدنا الخدم إلى منازلهم وأعطيناهم تعليمات دقيقة عن عمل الغد. الجاسوس العربي ماهر في بعض النواحي، لكنه لم ينظر إلى الأمام قط. ولذلك يمكن وإلى حد ما تهدئه شكوكه.

في اللحظة التي أغلقنا فيها الباب خلفهم ألقينا بأنفسنا على الأمتعة. تصارعنا في البداية مع الأسرة وأكياس البراغيث، التي رحنا ندسها في جوالات قديمة كي تبدو صررًا وطنية. وكان لابد من إخفاء الخيام بالطريقة نفسها- فقد لففنا أعمدتها في سجادة صلاة حمراء اللون وأخفينا قماش الخيمة في لفافات وطنية محلية. لم نكشف عن أي دليل أو أثر لأي شيء من الأمتعة الأوروبية. كانت حقيبة ملابسي قد جرى حزمها بالفعل ولم يكن الأمر يستغرق سوى دقيقة واحدة لوضع هذه الحقيبة داخل جوال مقلّم من جوالات الدقيق، لكن قلبي انخلع عندما رأيت غرفة حسانين. كانت الغرفة لا تزال عامرة بأشياء أسماها حسانين الضروريات. حزمنا ونقلنا وكوّمنا الأمتعة، الأمر الذي جعلنا نحس بالحرارة ونشعر بالتعب، لكننا، بعد أن تمكنا، بفضل هذا الجهد غير العادي، من حزم لفة كبيرة، تذكر حسانين - بعد دقيقة واحدة، أنه نسي وضع شيء مهم بداخلها، وأنه لابد من فك الصُرَّة مرة أخرى. وعندما وجدنا أنه لم يعد يتبقى لنا من الوقت سوى نصف ساعة على رحيلنا، أحسست باليأس وتوليت أنا الأمور كلها. حزمت الطعام كله في جربنديه(**) واحدة. وقسمت الضروريات على جربنديتين أخريين. وأغلقت حقيبة ملابسه بإحكام على معظم الأشياء المفيدة، التي استطعت جمعها من بين الركام.

(*) الزوايا: المقصود بها هنا الجماعات القائمة على أمر الدين والعقيدة. (المترجم)

(**) الجربنديه: حقيبة من القماش تحمل على الظهر. (المترجم)

راقبته بدقة أيضًا وهو يضع القماش المبطن المانع للماء، والسجاد والثياب الوطنية داخل الفراش. أحكمت شد الأحزمة قبل أن أسارع إلى ارتداء ملابسي.

آمل ألا يستهين أحد مسألة ارتداء الزى الأنثوى البدوى لأول مرة. كان السروال الأبيض الضيق يشكل بعض المصاعب عند الركوب. يزاد على ذلك أن الثوب الأحمر النسائى (تُبه Tobh)(*) كان ضيقًا عند منطقة العنق. كان البرّكان بحاجة أيضًا إلى الضبط. طرف من أطراف البرّكان يكون حرًّا فوق الرأس، المعصوب بالفعل بمنديل أسود لكى يغطى الشعر كله، فى حين يجرى لف الطرف الآخر من البرّكان لفتين على شكل تنوره، ليصل بعد ذلك إلى الكتف الأيسر مشكلاً بذلك الجزء الأمامى من الصّدريه. يجرى تثبيت كل هذه الأشياء فى مكانها بواسطة "حزام" سميك من الصوف أحمر اللون، ولا يقل طوله عن اثنى عشر قدمًا، يجرى لفه مرة بعد أخرى إلى أن يصبح وسط المرأة شبيهًا بالمومياء ويجرى ربطه من جانب واحد إلى الأطراف المتدلية. كنت أرتدى حزام مسدسى تحت كل هذه الملابس، ومعه مسدسيان أمريكيان خاصان معمران بالطلقات، فضلاً عن بوصله منشورية داخل علبة.

عندما ألقيت نظرة على غرفتى وأنا أرتدى ذلك الشبشب الأصفر الذى ليس له كعب، قر فى ذهنى أن الغرفة كانت تبدو تمامًا كما لو كانت صورة طبق الأصل من مسكن جرى التخلى عنه على عجل بصورة مؤقتة. هذا هو تويدى (ردائى) الحبيب معلق على مشجب من المشاجب، وهذا هو مُعَرَّق وردى اللون معلق على مشجب آخر. وهذه بعض الكتب، والأوراق، ومعها زجاجة من زجاجات الماء الساخن، وبعض الجوارب، مبعثرة على بعض الكراسى. وهذه هى حقائب وجوالات الأحجار مركونة على الجدران. وهذه هى قارورة من قوارير

(*) تُبه: بضم التاء: الثوب النسائى البدوى عند الليبيين. (المترجم)

سائل البشرة موضوعة بشكل واضح على رف من الأرفف، وهذه هـــى أحـــذيتى الأوروبية موضوعة فى مكانها المعتاد. تنفست الصعداء وسحبت الجـــوال الـــذى يحتوى على حقيبة ملابسى لكى أضمه إلى أشياء المخيم المموهة والموضوعة عند الباب الرئيسى، وأطفأت الشمعة التى فى غرفتى، وأغلقت باب الغرفة لآخر مرة.

تبدد سرورى بسرعة عندما عبرت الفنـــاء إلـــى غرفـــة حـــسانين. كانـــت المهملات فى الغرفة أمرًا لا يمكن تصوره. فقد أنفتح من جديد كل شىء ســـبق أن أغلقناه قبل عشرين دقيقة. وكان حسانين نفسه بشعره الأشعث، لا يـــزال يرتـــدى قميصًا وسروال ركوب الخيل. كان حسانين يبدو للملاحظ العابر وكأنه يلعب لعبـــه الضفدعة القافزة مع مختلف الحزم واللفائف التى أمامه، وكان الهدف من ذلك كلـــه قلب أكبر عدد ممكن من الأشياء. قلت له بصوت مخيف "أمامك ست دقائق ينبغـــى أن تكون بعدها على أهبة الاستعداد." سقط أحد الكراسى محدثًا صوتًا مما أدى إلى كسر زجاجة من زجاجات العطر، فضلاً عن الإطاحة بمجموعـــة مـــن الأنابيـــب الصغيرة، والزجاجات والصناديق التى راحت تتدحرج عند قدمىَّ. تلت ذلك عـــشر دقائق من التزاحم والاندفاع على الطريقة الأمريكية. وعلى الرغم مـــن إحـــساسى وكأنى طفلة صينية مُقمَّطة فى الثياب التى أرتديها، فقد رحت أهاجم الغرفة بغـــيظ شخصى كان له تأثيره على الجماد من حولى، ذلك أن حقيبة الملابس انغلقت بـــلا احتجاج على تلك الكتلة الكبيرة من أكياس المجيديات التى كانـــت بـــارزة داخـــل الحقيبة وكأنها قمة إفرست Everest. لا أعرف ذلك الذى قلته على وجه التحديـــد. تخيلت فى تلك اللحظة أن الأمر لا يسمح بالعفو أو الصفح بأى حال من الأحـــوال، لكن حسانين أحسن الناس مزاجًا فى هذه الدنيا. فقد رأيت الرجـــل يستـــسلم للـــدفع والسحب لكى يرتدى الملابس البيضاء التى يتعين عليه ارتـــداؤها فـــوق ملابـــسه الأوروبية، التى هى عبارة عن سروال أبيض واسع، وقمـــيص انـــسيابى طويـــل، ولباس وطنى (جيرد) Jerd من الصوف. أعتقد أنى ألقيت بكوفيه بيـــضاء علـــى رأسه، وقذفت له العقال قبل أن أندفع خارجة من الغرفة لأحتل مكانى خلف البـــاب

الرئيسي وفي يدى فانوس صغير معتم الضوء كشف لي عن أكوام الجوالات المكتنزة. بعد ذلك بدقائق قليلة، وعندما جاءتني شخصية بيضاء وقورة، ترتدى ثيابا إنسابية اللهم باستثناء أحزمة المسدس المتعامدة، ابن حقيقى لشيخ من شيوخ الأزهر الشريف، لم أستطع التعرف على ذلك العربى على أنه الفرد البرأوى الذى كان يتلاعب بالأشياء قبل دقائق قليلة.

صحيح أن شركاءنا فى المؤامرة تأخروا! فقد انتظرنا مدة ساعة تقريبا قابعين على الجوالات، في الوقت الذى أنكسر فيه صمت الليل بواسطة نهيق حمار بالقرب من السوق. عند الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة بعد منتصف الليل سمعنا صوت زمجرة خفيفة صادرة عن الإبل، وهنا تسارعت ضربات قلوبنا. بعد ذلك بحوالى عشر دقائق سمعنا صوت أقدام تقترب منا خلسة. تلت ذلك خربشه بسيطة على الباب، وجرى تكرار عملية الليلة السابقة، ولم يكن أمامنا في هذه المرة سوى ربع ساعة فقط خرج الحمالون بعدها وهم يحملون الجوالات الأولى، قبل أن يتمكنوا من العودة لحمل الجوالات الأخيرة. إتكأ أمين سرنا على الباب، فى هدوء وبلا حراك، وهو ينظر إلى السماء التى تضيئها النجوم. غمغم الرجل قائلاً "باهى!"، عندما ظهرت الأشكال الغامضة من جديد، وكانت تلك الكلمة الوحيدة التى قالها الرجل على امتداد الوقت كله. وضعت حقيبة الظهر على كتفى، وحملت زجاجة الماء، والترموس، وآلة التصوير، وخرجت من الممر المظلم إلى الليل الخالى من القمر. التقتنى ريح قوية باردة، وتعجبت وأنا أرتعد، من الأسباب التى لا تجعل المرأة البدوية تتجمد حتى الموت. لم يحدث أن رأيت النساء مطلقاً وهن يرتدين أكثر من مجرد البركان (الثوب الوطنى) المصنوع من القطن. وحتى عندما كنت أعرج عبر الرمال البيضاء الواسعة، نظرًا لأن الإبل كانت مخبأة على بعد مسافة ثلاثمائة ياردة، بالقرب من الجبانة التى تحيط بقبر سيدى حسّان المهجور، أحسست بأنى بحاجة إلى معطف خارجى أكثر من إحساسى برغبتى فى الذهاب إلى الكفرة!

على الرغم من ذلك كله، كانت الحرية والإثارة هما اللتين أطربتانا. تلت ذلك لحظة صمت من جانب مرشدنا الحائر عندما كان الظلام الدامس من حولنا يحول بيننا وبين تحديد اتجاهنا. تلت ذلك ضوضاء فهمنا منها أن جملاً كان على يسارنا وأن الصوت الناعم الصادر عنه يوحى بأنه ربما كان هناك أحد جالسًا على رأس هذا الجمل. بعد ذلك بلحظة ظهرت كتلة معتمة بجوار جدار مهدوم. وأنا أشكر الله لأنى ارتكنت على كومة من الأحجار. ليس هناك طائل من وراء مناقشة الجمَّال فى حمولة جمله. وإذا ما حاولت استعجاله فإن ذلك لن يكون سوى مضيعة للوقت. الجمَّال معتاد على وزن الأحمال وزنًا دقيقًا، ومعتاد أيضًا على ترتيب هذه الأوزان ببطء على النحو الذى يرتضيه هو. لهذا، كنت مستعدة للانتظار مدة ساعة كاملة فى الوقت الذى راح فيه أفراد الحاشية المرافقة لنا، يقطعون الحبال، ويجهزون "الأطراف" والأركان المطلوبة للجوالات التى بداخلها الحجارة، ويتناقشون فى الأحمال، وضاعت منهم الإبل، وأمسكوا بها مرة ثانية، ولم يكونوا أكفاء بالقدر المطلوب. اندهشت بحق، عندما جرى خلال عشرين دقيقة، حزم كل شىء بلا جلبة أو ضوضاء، وأصبحت الإبل جاهزة للسير: جرى تقديم كلٍّ من يوسف الحمرى ومحمد قميش، خادمينا الأمينين، لى فى الظلام وتبادلنا بعض الجمل المفرطة فى التمبيق التى كونت الكلمتان "مبسوط" و "ممنون" القسم الأكبر منها.

ركبت جملى بعد ذلك، وهو جمل ضخم أشقر، ليس عليه سرج مناسب. كان هناك وتد بارز من الأمام ومن الخلف، وكان سنام الجمل ظاهرًا بصورة مؤلمة فيما بين القش الملفوف الخاص بقماش لف الأمتعة. كانت هناك حصيرتان وطنيتان مطويتين، جثمت عليهما وأنا أرتدى ملابسى المقمَّطة وغير المريحة، التى جعلت عملية الركوب أمرًا صعبًا وخطرًا. وعلى الرغم من ذلك كله، عندما وقف حيوانى الضخم منتصب القامة، وراح يمشى فى جوف الليل، انتابتنى موجه من البهجة. كان قد مضى على ثلاثة أشهر لم أركب خلالها جملاً، وها أنذا الآن على ظهر

"هجين" من هجن السودان جميلة الخطى. كانت تلك مجرد أمتعة صغيرة، لكن الهجين كان مناسبًا للصحراء، ولليل ومشروعنا البرى المستحيل. كنت سعيدة. يضاف إلى ذلك أن البداية كانت رائعة. وهذا هو السير رتشارد بيرتون يكتب كلامًا حكيمًا مفاده أن الرحالة الأفريقى يجب أن يكون مستعدًا دومًا لثلاثة بدايات- البداية الطويلة، البداية القصيرة، ثم البداية الحقيقية أو الواقعية. أدركنا فيما بعد مدى صدق كلام بيرتون؛ لكننا الآن، وبعد أن دلف طابور إبلنا الصغير مبتعدًا عن القبر (المقام) الأبيض، أحسسنا أننا قد هربنا بالفعل.

تعجبت "كم هو مدهش أن يستطيع هؤلاء البشر شق طريقهم فى ظلام دامس من هذا القبيل!" وعندما ظهر كوكب الجبار (الجوزاء) فى أربعة اتجاهات مختلفة، عندئذ فقط بدأت أتساءل عما إذا كانوا يستطيعون شق طريقهم بحق! كنا قد بدأنا تحركنا قبل الساعة الثالثة بقليل، ويممنا مسيرنا صوب الشمال، الأمر الذى أدهشنى تمامًا، نظرًا لأننا نعرف أن عُجيله Aujela تقع فى الجنوب. هدأنا أنفسنا بالفكرة التى مفادها أن مرشدينا كانوا يتحاشون عن قصد المدق الرئيسى، وتحملنا أيضًا فى صبر الريح الباردة برودة الثلج والتغيير المستمر للاتجاه. وبعد ساعة من المسير، وعندما درنا دورة كاملة قررنا أن من الضرورى التدخل فيما يجرى. هذا هو يوسف، الذى رفض عندما أريته البوصلة المضيئة، تصديق أن الشمال هو ذلك الاتجاه الذى يشير إليه عقرب البوصلة. أبرزنا أيضًا الحركة غير العادية للنجوم، لكنه ظل على عدم قناعته. وينظر يوسف نظره إشفاق إلى السماء ويسأل مصرًا على "الجدى" Jedi ذلك النجم الذى اهتدى به فى كثير من تجوالـه فـى نـصف إفريقيا. ومن سوء الطالع أننا لم نستطع العثور على "الجدى" على الرغم من توضيحنا للقسم الأكبر من المجرات بدءًا من الدُب الأكبر إلى طريق اللبَّانة.

واصلنا مسيرنا العشوائى مدة ساعة أخرى. ونظرًا لأننا كنا نصف دوائر غير منتظمة فإننا لم نندهش عندما طالعنا قبل الساعة الخامسة بقليل نباح الكلاب



UNLOADING ON THE SECOND DAY FROM JEDABIA.
(Hassanein Bey with wrist watch.)

حسانين بك أبو ساعة يد

ليعلن اقترابنا من جدابيا. قال يوسف: "هذا مخيم من المخيمات. وأنا أعرف أين نحن الآن!" وفى هذه اللحظة نهق الحمار الموجود فى السوق وكأنه على مقربة منا! لم أتمالك نفسى عن الضحك. وفى خلال دقائق قليلة، سيؤدى بنا هروبنا اليائس الذى قمنا به عند منتصف الليل، إلى أبواب المنزل الذى نجحنا فى الهروب منه قبل ثلاث ساعات. وهنا قرر يوسف المحزون، بعد أن فشل فى الاهتداء إلى نجمة، التخييم فى هذا المكان وننتظر طلوع الفجر، لكن تحسبى من أن تكشف الشمس عند طلوعها عن مجموعة شعثاء، هو الذى جعلنى أتولى عملية القيادة بطريقة حاسمة. سيرت الجماعة عن طريق البوصلة فى اتجاه الجنوب من نهيق الحمار لمدة حوالى نصف ساعة. وذلك من باب الابتعاد عن الأنظار عند طلوع الفجر، فى أضعف الأحوال، ثم نمشى بعد ذلك فى الطريق الصحيح.

كانت الريح أبرد مما كانت عليه من قبل عندما قمنا "بتبريك" إبلنا على الأرض الجرداء الرملية المنبسطة. كنا متجمدين وبلا مأوى. وقد تضافرت الإثارة، هى والقلق مع المجهود البدنى على إرهاقنا. تورمت قدمى والتهبت بعد هذا المجهود غير العادى. أصيب حسانين بروماتيزم فى ظهره. كان علينا الانتظار مدة ساعة واحدة لحين طلوع الفجر. وأنا أشك فى وجود ثنائى أتعس من ذلك الثنائى الذى لف نفسه فى عرّاقات الجمل الرقيقة الوسخة ورقدا على الرمل القاسى ووضعا رأسيهما على بعض الحشائش المدببة. لم أنم. فقد كان الجو شديد البرودة. بحثت الريح عن كل ركن من أركان جسمى الذى كان يؤلمنى. بدأت أحس التوتر الناجم عن الليالى التى لم نذق فيها طعم النوم، وأيام الحيرة والقلق. يزاد على ذلك أن إحساسى الفكاهى ذهب عنى. كانت خمسة أسابيع قد مضت على مغادرتى إنجلترا، لم نتحرك خلالها إلى أبعد من تلك الكومة الرملية الموجودة خارج إجدابيا! عند الساعة السادسة ظهر فى السماء ضوء أرجوانى باهت، وفى اتجاه أذهل يوسف. استيقظنا، ونحن نرتعد وتصطك أسناننا على فجر عامر بالريح! كان محمد

يغمغم قائلاً "الله أكبر" مستقبلاً القبلة فى اتجاه مكة. حذونا حذوه وتيممنا بالرمل، لعدم وجود الماء. من حسن الحظ، أن الأمر لا يتطلب سوى قراءة "الفاتحة"، وأداء "الركعات" المحددة. السجود يؤذى قدمى ويؤلمنى، وأصبح صعبًا على وضع قدمى فى الحذاء الأصفر الضخم مرة ثانية.

حدد الرجال هدفًا لأنفسهم. وفى غضون خمس دقائق بعد "السلام عليكم ورحمة الله"، التى قيلت لتحية الملائكة الذين يقفون على الجانبين لكى يسجلوا حسنات الإنسان وسيئاته، تم تحميل الإبل وكنا نبتعد فعلاً عن قبة سيدى حسَّان البيضاء، وعن المبانى الطينية المبعثرة التى بدت لنا عن كثب. لم يكن هناك متسع من الوقت لتناول الطعام. حاولت دس بيضة مسلوقة فى حلقى أثناء المسير، لكننى لم أتمكن من ذلك. تزايدت آلام حسانين الروماتيزمية فى حين حاولت أنا بكل الوسائل الممكنة التخفيف من آلام قدمى. كانت يداى تشعران بالخدر وأنا أمسك بالبرَّكان (الثوب الوطنى) صارخ اللون (الأحمر، والأزرق، والبرتقالى) الملفوف حولى، ودعوت أن تشملنى الشمس بدفئها.

كنا ننظر إلى الخلف، كل بضع دقائق، لنرى ما إذا كانت إجدابيا قد اختفت، لكن لابد أن إجدابيا تقع على ارتفاع قليل نظرًا لأن مقام سيدى حسَّان ظل واضحًا ومرئيًا على امتداد ثلاث ساعات. معروف أن المساحة تكون مضللة فى الصحراء. الأشياء كلها تبدو أقرب مما هى عليه فى الواقع. يستطيع المرء فى الصباح الباكر رؤية نخيل واحة من الواحات، ويخطط للوصول إليها قبل الظهر، ويكون محظوظًا إذا وصلها عند الغروب. على كل حال، لقد اختفت عند الساعة العاشرة والنصف كل العلامات الدالة على الحياة البشرية، ولم نعد نرى من حولنا سوى سهل رملى منبسط، تتخلله الأعشاب القصيرة رمادية اللون، التى يتراوح ارتفاعها بين بضع بوصات وقدم واحد. توقفنا ونحن نعرب عن حمدنا وشكرنا، وأطلقنا الإبل ترعى، وفرشنا السجاد قرمزى اللون المنسوج، واستعدينا لتناول الطعام.

تهددنا المزيد من المتاعب عندما اكتشفنا أن حاشيتنا المكونة من يوسف، ومحمد، واثنين من الجنود السودانيين السود سواد الفحم، لم يحضروا معهم أية مؤن من أى نوع كان. كانوا على ثقة من أننا سنقوم بهذا الدور، أو أننا سوف ننضم إلى القافلة المتجهة إلى الجنوب خلال ساعات قلائل. تملكنا شعور بالامتعاض. ومن باب التخفف فى السفر كنا قد أحضرنا معنا أقل كمية ممكنة من الطعام المطلوب لفردين لمدة أسبوع- أى علبة واحدة من اللحم فى اليوم الواحد، مع شيء قليل جدًا من الدقيق، والأرز ، والتمر، والشاى. كيف يمكن لنا أن نغذى ستة أفراد لمدة أسبوعين على هذه الكمية؟ فى هذه اللحظة كنا متعبين على نحو حال بيننا وبين التفكير. أعطينا الحاشية الأرز، والشاى، والقسم الأكبر من البيض المسلوق الذى كنا قد جهزناه لأنفسنا، وبعد هذه الوجبة السريعة، أصررنا على الرحيل فورًا. حدث قدر كبير من الهمهمة والغمغمة. كانوا جميعًا متعبين ويريدون النوم فورًا. أعلن السود عن تمردهم بصورة صريحة. قالوا: "نحن لسنا عبيدك. ونحن لن نرهق أنفسنا أكثر من اللازم." ومع ذلك، استطعنا عن طريق التهكم القوى، والتشجيع والإضحاك، أن نجعلهم يقومون بتحميل الإبل.

الناس فى ليبيا، لا يحزمون سرُج الأمتعة مطلقًا. وهم يكتفون بموازنة البالات طبقًا للوزن على بردعة من القش على جانبى سنام الجمل. وعليه، إذا ما تعثر الجمل تعثرًا شديدًا أو إذا ما خاف وجرى بضع خطوات، فإن الأمتعة تفقد توازنها وتسقط على الأرض، مما يسفر عن إخافة الحيوان وجعله يعدو عدوًا مجنونًا. وأنا أرى أن إبلنا كانت مُحمَّلة تحميلاً مهملاً، نظرًا لأن الخيمة سقطت من فوق الجمل ثلاث مرات، وأدى ذلك إلى تعكير صفو الأمزجة.

فى حوالى الساعة الواحدة، وصلنا إلى مجموعة صغيرة من الخيام المصنوعة من وبر الإبل، كانت منصوبة فى حماية ارتفاع طفيف، وغمغمت الحاشية طلبًا لقضاء الليل فى ذلك المكان. العربى طماع بطبيعته، فى حين يكون

السوداني أكولاً بالدرجة الأولى. السوداني يأكل في الوجبة الواحدة ما يكفي أسرة أوروبية مدة يوم. بعد أن رأت الحاشية مؤننا الهزيلة، ظنوا أنهم يمكن أن يحصلوا على عشاء أفضل في هذه الخيام البدوية. احتجوا وجادلوا جدالاً عنيفاً، لكني صمدت وكنت قاسية. كان الخوف يتملكنا تحسبًا لمطاردتنا أو التعرف علينا. كان يوسف يضع يديه فوق بعضهما في الصلاة. قال: "سوف نقول إنك زوجة واحد من الإخوان؛ وأننا نقوم بنقلك إلى جابو Jabo". لكن توسلات الرجل ضاعت هباءً. واصلنا سيرنا وتبعونا مجبرين، على شكل بدو لفحتهم الشمس، يرتدون جُرُدًا(*) صوفيه، وبنادقهم معلقة في أكتافهم.

بدأت انطباعات الطفولة تختفي من ذهني بصورة متدرجة. فقد اعتدنا على الاستماع إلى ما يقال عن قدرة البدوي التي لا تكل أو تمل على التحمل، وما يقال أيضًا عن أجره الزهيد. كنت أعتقد أن البدوي بوسعه أن يركب راحلته أيامًا عدة دون أن ينام ويقتات بشيء من التمر أو الجراد. قد يلجأ إلى أكل الجراد إذا ما اضطر إلى ذلك، لكن جرت العادة أن تكون شهيته مفتوحة وأن حلاوة معشره تعتمد على طعامه. وفيما يتصل بقدرة البدوي على التحمل، فقد التقيت الطوارق الذين أنجزوا بعض السباقات السريعة المدهشة، لكن في الصحراء الفرنسية، وفي سوريا أو في ليبيا - كما هو الحال في السودان - لم أعثر مطلقًا على عربي لم يرغب في التخييم قبل أن أرغب بساعات عدة. حدث أن كان معي في جنوب توجيورت Touggurt، مرشدٌ أنيسٌ يدعى علي، وكان أزرق العينين، متورد الشعر، وهو أصلاً من الطوارق، ولابد أن تكون أصوله وَنداليه(**)، كان ذلك المرشد بعد تسع ساعات من الركوب يبدو مرهقًا وممتقع العينين.

(*) واحدة "جرد" وهو زي وطني مصنوع من الصوف. (المترجم)

(**) قبيلة الوندال التي أغارت على وسط أوروبا وجنوبها في القرن الخامس. (المترجم)

لم نستطع بعد الساعة الثانية والنصف، حث حاشيتنا على التقدم إلى أبعد مما وصلت إليه. كان واضحًا أنهم جميعًا كانوا متعبين، لكننى أشك فى كونهم متْعَبين أكثر منى، نظرًا لأننا عملنا بكل ما أوتينا من قوة فى اليوم السابق طوال الليل والنهار، فى الوقت الذى كانوا فيه جالسين فى السوق "يفاضلون"(*). يزاد على ذلك أن يوسف أمسك بسرج جملي. وقال: "هذا مكان جيد. لابد أن نرتاح هنا." لم يكن هناك طائل من وراء الضغط عليهم. كنا قد سرنا حوالى ست ساعات. والجمل يقطع ميلين ونصف الميل فى الساعة الواحدة، وعليه تخيلنا أننا نبعد مسافة خمسة عشر ميلاً عن إجدابيا وأننا فى مأمن من الملاحقة.

قبل أن نوشك على إنزال الجوالات من فوق ظهور الإبل، كان محمد قد لف نفسه فى جرده (لباسه الوطنى) وراح فى نوم عميق. ساعدَنا يوسف من قبيل المجاملة فى نصب الخيمة، لكننا قمنا بفرد الفراش، وفرد مشمعات الأرضية، وقمنا بتوزيع المؤن، وتنظيم وفرش أسرة المخيم بأنفسنا. راح السودانيون يجمعون الحطب، وهم يتثاءبون وكانوا مرهقوين تمامًا. أعددنا الشاى وشربناه بلا سكر، وسبب ذلك أن الحاشية لديهم عادة حب السكر المعتادة. نظرت إلى نفسى فى قطعة صغيرة من مرآة، وشكرت الله على أنى أعدتها إلى مكانها، إذ كان من الصعب علىّ تعرُّف ذلك الوجه المُلطّخ، الأصفر، الذى أحرقته الشمس وخططته، والذى كان يظهر من تحت منديل ثقيل موضوع بين طيات البرّكان. هبت عاصفة قوية فجأة وكادت تقتلع خيمتنا، لكن ذلك لم يفت فى عضدنا. نمنا نومًا متقطعًا، واستيقظنا لنطهو شيئًا من الأرز على نار شببناها فى شيء من خشب الأدغال. ودخلنا لننام عند الساعة السادسة مساء ونحن شاكرون شكرا تعجز عنه الكلمات. الحشيّات المصنوعة من الريش، والمخدات الفاخرة والأسرة التى من طراز لويس الخامس

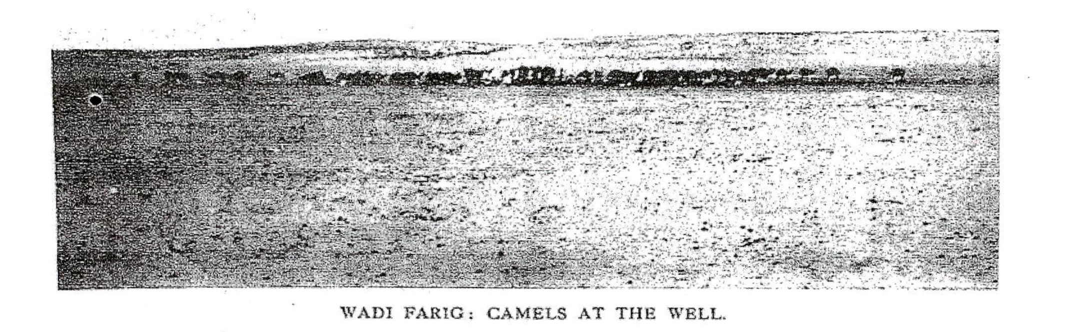
(*) يفاضلون كلمة ليبية عامية بمعنى "جالسين يتسامرون". (المترجم)

عشر، كل هذه الأشياء لها سحرها ومباهجها، لكن لم يحدث أن شعرت مطلقًا بالامتنان لأي شيء، مثلما حدث مع كيس براغيثي ومخدتي الهوائية في تلك الليلة.

أيقظنا يوسف في صبيحة اليوم التالي عند الساعة السادسة بصياحه "الفجر"، وبعد أداء الصلاة المعتادة بدأنا العمل في تقويض المخيم. أبلغنا الحاشية أننا انتوينا الوصول إلى الوادي الفارغ Farig في ذلك اليوم وعليه يجب ألا يعولوا كثيرًا على وقفة عند الظهيرة. وبناء عليه أصروا على إشعال نار وطبخ نصف تموينات الأسبوع على الفور! بدأنا التحرك عند الساعة الثامنة صباحًا وواصلنا سيرنا في اتجاه الجنوب الشرقي ثم الانحراف أكثر إلى ناحية الجنوب طوال النهار.

يبعد الوادي الفارغ عن إجدابيا ستين كيلو مترًا فقط، لكن كنا في يومنا الأول قد انحرفنا عن المسار تحاشيًا للطريق الرئيسة، نظرًا لأنه لم يظهر أمامنا سراب عند الأفق إلا عند الساعة الثانية بعد الظهر؛ وقد ظهر ذلك السراب على شكل لوح من الماء الفضي تحيط به مرتفعات وجبال أرجوانية اللون، وبذلك يكون قد حدد لنا مكان الوادي. قال محمد: "إنه بعيد، بعيد! لن نستطيع الوصول إليه قبل غروب الشمس. هيا بنا نأخذ قسطًا من الراحة!" نحن لن نتوقف هذه المرة لقد تقاسمنا الشاي وتقاسمنا أيضًا التمر بالتساوي عند الظهر، وأحسسنا بعد النوم الجيد، أننا لو تمكنا من الركوب مدة عشر ساعات، فإن الحاشية بوسعها أن تفعل الشيء نفسه. كان يومًا كاملاً بمعنى الكلمة، خاليًا من السحب، وهادئًا لكن الشمس كانت شديدة الحرارة عند الظهيرة. كانت الحرارة شديدة بين طيات البرقان الرقيقة الذي كنت أرتديه وجعلتني أتساءل عن الأسباب التي دعت أوروبا وليس أفريقيا أن تخترع المظلات النسائية الخفيفة.

بقيت طبيعة المنطقة بلا تغيير. لا نرى أمامنا وحولنا وخلفنا سوى أرض رملية فيها نباتات كثيفة قصيرة تمتد حتى مرمى البصر. كانت الجرابيع أو السحالي تدلف داخله إلى جحورها عندما نقترب منها. حدث ذات مرة أن هرب من



WADI FARIG: CAMELS AT THE WELL.

الوادى الفارغ: إبل عند البئر

أمامنا ستة من الغزال عبر الطريق الذى كنا نسير فيه. حاول محمد فتح النار على الغزال، لكنه أبطأ أكثر من اللازم. وفى مرة أخرى مررنا على جحر كبير للأرانب، وشاهدنا ذيلين طويلين يختفيان فى متاهة من الجحور. مشينا فى المدق الرئيسى عند الظهر تقريبًا ولاحظت أجمة من الأشجار مغطاة بقطع من الخيط مختلف الألوان. يبدو أن كل عابر سبيل يضيف إلى هذه الأجمة قطعة من القطن أو الصوف من ملابسه لكى يثبت أن ذلك "طريق" صحراوى وأن القوافل تمر من هذا الطريق. أضاف يوسف إلى الخيوط خيطًا أبيضًا أخذه من حزامه، فى حين أضفت أنا خيطًا أحمر أخذته من حزامى الطويل.

لم نلتق طوال ذلك اليوم سوى مسافرين. غطيت وجهى على الفور عندما راحا يتبادلان التحية مع حاشيتنا. بدأ هاتف (تليفون) الصحراء يعمل من جديد. لقد جاءا بأخبار من جالو تبادلاها بحكايات من إجدابيا. لم يكن هذان المسافران مهتمين بنا. لقد اختفت السيدة فوربس فى الفضاء، وحلت محلها امرأة مسلمة تدعى خديجة، وهى تترحل مع قريب من أقاربها، أحد بكوات مصر، ولد شيخ من شيوخ الأزهر. كانت ترتدى ملابس بدوية، تقمصت عاداتهم وتقاليدهم، وصلت لربهم، وعاشت حياتهم. كانت لغتها مختلفة تمامًا، لكن اللغة العربية تتباين تباينًا كبيرًا بين بغداد ومراكش إلى حد أن محادثتى المتعثرة كانت تعزى إلى اعتيادى فقط على العربية الفصيحة. حتى حسانين نفسه، لم يكن يفهم اللهجة التى يستعملها البدو الليبيون إلا بصعوبة بالغة. المسألة لا تقتصر على مجرد اللكنة أو النطق. كل المفردات تقريبًا مختلفة.

أنا لا يمكن أن أتخيل الأسباب التى أدت إلى توقيع الوادى الفارغ على الخارطة على شكل بقعة خضراء وارفة الظلال عبر صحراء عديمة اللون. هذا المنخفض البسيط الذى يمتد شرقًا وغربًا بين سلسلتين صغيرتين من المرتفعات الجبلية يصل ارتفاع كل سلسلة منهما إلى حوالى ١٥ مترًا، لا ينخفض بأى حال من الأحوال عن الأرض المحيطة به. هذا الوادى خال من أى عود من أعواد

الحشائش أو الأعشاب الخضراء حتى يمكن أن تتزين به. ليس هناك شيء يكسر ذلك الحطب والأشجار المتشابكة المملة وذلك الرمل رمادى اللون سوى تلك البئر مالحة الماء. وصلنا الوادى الفارغ أثناء غروب الشمس ووجدنا صعوبة فى جعل الإبل تتجاوز البئر حتى نتمكن من التخييم على الأرض المرتفعة الموجودة خلف البئر. كان حسانين يركب ناقة عصبية، لم يحدث أن أبقت مطلقًا على رأسها فى اتجاه واحد أكثر من دقيقة أو دقيقتين. بدأت تلك الناقة تتسابق على الوصول إلى البئر، وهذه أيضا ناقة أخرى شقية نفضت عنها بالة أو بالتين، وأخلت بتوازن البالات الباقية، تعثرت فى جوال من الجوالات الهاوية وفرت هاربة مبعثرة حِمْلها أدراج الريح. أما حيوانى الوقور، فكانت تغمره حالة من الحب، وعليه راح الجمل وهو يصدر قرقرة من حلقه، يشارك فى ذلك العراك العام الذى يختلط فيه الحابل بالنابل. تعين علىَّ النزول من فوق الجمل. أعرج إلى أن وصلت الأرض المرتفعة، وأنا أسحب الجمل غضبًا خلفى، فى الوقت الذى راح الرجال فيه يجمعون متعلقاتنا ويعيدون تحميلها. كنا نسابق الشمس، لكننا كسبنا ذلك السباق. وعندما بدأ الوهج القرمزى الأخير فى الاختفاء فى الغرب المتوهج، وبعد أن رفع محمد المتدين أنفه المغبّر بالرمل نتيجة عمليه التيمم، كان قد تم دق آخر وتد من أوتاد الخيمة. التمعت ألسنة النيران المشبوبة فى الحطب على الأرض المرتفعة المقابلة للبئر؛ وسبب ذلك أن وجود البئر فى الصحراء يؤدى إلى تناثر خيام البدو من حولها، نظرًا لأن خيام البدو تنتقل مع تغير الموسم وتغير المرعى.

أحدثنا محرقة، وشببنا نارها وجلسنا حولها على شكل دائرة من سُرج ظهور الإبل. عثر يوسف على نجم جَدْيه(*) Jedi الحبيب، وراح يشير إليه فرحًا وانتصارًا فى السماء- كان يقصد النجم القطبى! كان صمت الصحراء يلُفنا وكانت

(*) جدى: كلمه عاميه ليبية قصد بها صاحبها "النجم القطبى". (المترجم)

هناك رائحة خافته من عطر الزعتر تتسلل خارجة من الرمل البـارد. وهنـا بـدأ أفراج (كان السودانيان يحملان الاسم فرّاج) يتلو آيات من القرآن- صوت جميـل فى ليلة تضيئها النجوم. ويقف فراج بعد ذلك فجأة منهيًا تلاوته وراح يؤذن للصلاة بصوت عال: "الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسـول الله!" خرجت الشهادة رائعة، وقاطعة من بين شفتيه وارتفع صوته أكثر وهو يقول: "حى على الصلاة! حى على الفلاح!" إلى أن بدأنا جميعًا نقول: "الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر!"

عندما كنت أخلع ملابسى فى الجزء المخصص "للحَريم" من الخيمة، التـى أحدثت انطباعًا كبيرًا لدى المرافقين لنا، رحت أفكر مليًا فى طبيعة هؤلاء الرجـال الذين سنعيش معهم حياة اتصال مألوف طوال أشهر عدة. وإذا مـا نحينـا جانبًـا تشددهم الفظيع، الذى يحتم عليهم قتل الكافر والنصرانى مثلما نقتل نحن الحيوانات أو الهوام الطفيلية الوبائية، نجد أن هؤلاء الرجال بريئون وبسيطون براءة وبساطة الأطفال. ظننت أن السود الذين معنا يمكن أن يسرقوا كل طعامنا فى يوم من الأيام إذا ما جاعوا ويدافعوا عنا ببسالة فى اليوم التالى. هم عاجزون تمامًا عن توفير ما يحتاجونه للغد. ثقتهم بالله ثقة عمياء لا تحاول مساعدة نفسها، ومـع ذلـك يقـول القرآن (الكريم) مامعناه "اسع وأنا أسعى معك." تحدثنا إلـيهم مـرارًا عـن نـدرة الطعام. وأريناهم محدودية مؤننا التى يُرثى لها. قالوا: "القافلة قادمة غدًا، إن شـاء الله!"

لما كنت عارفة بالعادات التعطيليه والتأخيريه فى الشرق، فقد كنت لا أصدق مسألة وصول القافلة هذه قبل أسبوع فى أضعف الأحوال، لكنى وافقت على طلبهم الملح بالتخييم مدة يومين فى الوادى حتى نهيئ للقافلة فرصة اللحاق بنا والانضمام إلينا. وإذا لم تصل القافلة مساء اليوم الحادى عشر، جالبة معها كل مؤننا، فـسوف يحتم ذلك علينا إعادة الأسودين، ونواصل السير على عجل إلى عجيله مع كل مـن

يوسف ومحمد. ومن باب الاستعداد لذلك، وضعنا فى جوال أصغر كمية من الطعام تناسب أربعة أفراد مدة خمسة أيام- كان ذلك الطعام عبارة عن علبة من اللحم أو السردين لكل شخص فى اليوم الواحد، بالإضافة إلى البن والتمر. وبعد أن انتهينا من ذلك، أصابنا الرعب والفزع جراء ما تبقى. كان الأسودان يودان خبزًا أرغفة كبيرة مفرودة من الخبز غير المخمور صباحًا ومساء ولم يكن لدينا سوى كمية صغيرة جدًا من الدقيق. بدأت أدرك أنه فى حال عدم وصول القافلة فإن ذلك يمكن أن يؤدى إلى وفاتنا بسبب الإرهاق والإجهاد ونحن فى طريقنا إلى عُجيله. آه لو ضللنا طريقنا، وآه لو عطلتنا عاصفة من العواصف، وآه لو أثبت المرافقون لنا أنهم لا يمكن الاعتماد عليهم وأصروا على أن يأكلوا كمية أكبر من التعيين اليومى الهزيل، إن حدث ذلك، فهذا هو الضياع بعينه! ومع ذلك، صممنا على شيء واحد فقط هو عدم العودة بأى حال من الأحوال.

خطر ببالى وأنا ذاهبة للنوم "فى كل الأحوال، نحن ننعم براحة البال وهدوء الصحراء"، لأصحو بعد ذلك بساعات قلائل على ضوضاء وجلبة لم أستطع تمييزها. لقد سمعت وأنا فى روديسيا زئير أسد فى العراء بلا قفص، لكن لم يحدث قط من قبل أن سمعت مثل هذا الجئير المجنون الذى يعبر عن الغضب والذى جعل الليل مخيفًا. وقلت وأنا ألتقط أنفاسى أثناء خروجى من الخيمة "لقد هاجت الإبل وماجت". لقد انطلق صوت راعد من كتلة سوداء لاحت لنا على بعد ياردات قليلة من جدراننا المصنوعة من الخيش. جاء الصياح من كل من يوسف ومحمد، اللذين ظهر أنهما كانا يرقصان بلا هدف حول الحيوانات الهائجة، وتنهار الكتلة بعد ذلك وهى تجأر واقفة على أرجلها، ويندفع جملان هائجان ويتجاوزانى مبتعدين مسافة قدم واحدة عن الخيمة. وجدت حسانين شبه مستيقظ على بعد متر منى. قال حسانين فى شيء من البله "ماذا يفعلان؟" يتحول خيال الإبل فى فصل الربيع تحولا طفيفًا نحو أفكار الحب! قال "لكن الوقت ليس ربيعًا!" "ما عليك. يا إله! إنهما

عائدان!" انسحبنا بسرعة من داخل الخيمة. سبق أن رأيت فى سوريا جملاً هائجًا من هذا القبيل، لكن خطرت على بالى رؤية الأعمدة المكسَّرة هى والخيش المقطع، وقد اختلط ذلك كله بالأمتعة المهشَّمة هى وأسرة المخيم سويت بها الأرض. اتخذت لنفسى موقعًا حاكمًا فى الخارج، لكن الحيوانين الهائجين ابتعدا مرة ثانية، وراح جئيرهما يخف كلما ابتعدا عنا. سألت يوسف "هل يحدث ذلك فى كثير من الأحيان؟" رد علىّ بلا مبالاة "نعم، عندما يكون الجو باردًا. شيءان يزيدان فى فصل الشتاء: الإبل والبحر!"

تمتعنا بترف النوم إلى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى واستيقظنا على يوم آخر حافل بالأحداث. كان ماء البئر غير صالح للشرب تمامًا- إذ كان مالحًا ومحملاً بالطين- لكننا اغتسلنا فيه بسعادة بالغة. من سوء الطالع أن حسانين أُغْرى على غسل شعره من ماء البئر، الأمر الذى أسفر عن وقوف شعر الرجل بعد ذلك كما لو كان خصلة خشنة من ريش النعام. كل الأشياء تجف فى الصحراء بشكل مخيف. بشرة المرء تتشقق وتتخطط بعد أيام قلائل. الأظافر تتقصف. يجف شعر الإنسان ويصبح هشًا. ومع ذلك لا يهتم الإنسان بذلك. الصحراء لها سحر وقوة غامضان. الصحراء تدمر فى الوقت الذى تسحر فيه الألباب. هى المرأة الفاتنة التى لا مهرب منها. تكتب سينثيا Cynthia ستوكلى، التى ألتقيها قبل سنوات فى بولاوايو Bulawayo، فى قصة من قصصها الحية عن الحياة الإفريقية أن الصحراء إذا ما نشبت مخلبها فى واحد من البشر، فإنه لابد أن يعود إليها؛ لأنها هى الوحيدة التى تشفى الجرح الذى أحدثته.

كان الوادى خاليًا فى الليلة السابقة. وهو مزدحم فى صباح هذا اليوم. هذه هى أشكال شبه عارية تجلب الماء لقطيع كبير من الإبل تزاحمت حول جدران البئر الطينية المنخفضة. وهذا مزيد من الإبل التى تمشى ببطء صاعدة المَطْلع،

وترعى أثناء سيرها. جاءت بعض الأشكال البيضاء لتحيتنا، والبنادق معلقة على ظهورهم. أنهم سكان النَجات(*) التى شاهدنا نيرانها فى الليلة السابقة. لقد أبلغهم برق(**) الصحراء عن احتمال وصولنا قبل أن نغادر إجدابيا! تحلقوا حول النار التى أشعلناها فى الحطب وشربوا شايا محلًى بالتمر المهروس، نظرًا لعدم وجود السكر. تركهم حسانين وأنا معه "يتفاصلون(***)" مع حاشيتنا وجلسنا على تلة رملية ورحنا نحلم بالقافلة، التى يمكن أن تنهى متاعبنا كلها، وبمجيئها من ناحية الارتفاع المقابل لنا. بدلاً من مجيء القافلة رأينا "فراج" وهو ينزل إلى الوادى لشراء شيء من لبن الإبل المُحَمضَّ، وشيءا من العجوة، التى تحتوى على نسبه عالية من الرمل. من سكان الخيمة. عندما بدأ غروب الشمس يكسو الأرض باللون القرمزى، عدنا إلى مخيمنا ونحن جائعون تمامًا، نظرًا لأننا لم نأكل شيئًا منذ الساعة الثامنة صباحًا، ولم نتناول شيئًا سوى الأرز والخضار المُعلَّب الذى لا يستسيغه المرافقون لنا. كان الأسودان يلعبان السِّيجه على الرمل مستخدمين فى ذلك الأصداف البيضاء. قال محمد مبتسمًا "فضل! فضل!" قال يوسف: "لا تحاولى العيش وحدك دومًا. أختلطى بنا بعض الشيء. لن ننسى من هو السيد." من هنا عرفت أن حسانين قد حقق انتصارًا آخر من انتصاراته الشخصية. حسانين لديه طريقه جذابة تكسبه ثقة العرب وتعاطفهم، بدءًا من السادة وانتهاء بالبدو المتعصبين.

لم يكن الجو الذهنى للمرافقين لنا مبشرًا تمامًا بالخير طوال اليومين الأولين. فقد فهمنا أن رحلتنا يمكن أن تكون ضربًا من ضروب المستحيل، إلا إذا تغيرت، لكن حسانين من باب التعقل والحكمة لم يكن يتعجل الأمور. لقد أثمرت الكلمات

(*) النجُه: كلمة ليبية بمعنى "خيمة". (المترجم)

(**) برق: بمعنى "التلغراف" مع الفارق. (المترجم)

(***) يتفاصل: كلمة ليبية بمعنى "يتسامر ويتحدث إلى." (المترجم)

التى كان حسانين يلقيها هنا وهناك، هى والتأنيب السريع، أو الامتداح الصادق، أو إبداء التعاطف مع الأهداف السنوسية، وكذلك الحكايات عن الصداقة القديمة مع السادة، وكذلك الحكايات الصغيرة عن الحرب فى الخيمة الخارجية، كل ذلك أثمر وكانت له جدواه. أحسسنا بأثر ذلك كله فى تلك الليلة، ونحن نحمص أنفسنا حول النار، ونحن نراقب فرّاج وهو يعجن خبزه الثقيل ويسويه فى رماد النار. وعندما انتهى من تسوية الخبز، ألحّ علينا بشىء منه وهو يبتسم ابتسامه كشفت عن ضياع أسنانه. كان الخبز حارًا، وثقيلاً وعسر الهضم، لكنه كان لذيذ الطعم مع اللحم المحفوظ. الشىء الوحيد الذى فسد هو الكاكاو لأن الماء كان مالحًا بشكل مريع.

وضعت نفسى فى تلك الليلة داخل كيس البراغيث الصوفى المزدوج وأنا أحس بالهدوء والطمأنينة. ارتفع الترمومتر ارتفاعًا كبيرًا عند الظهيرة، لكن الليل كان باردًا بصورة مستمرة، وكنا ممنونين تمامًا لأكياس نومنا المانعة للمطر، التى قمنا برشها بالمسحوق المضاد للحشرات، الذى لم يكن له تأثير على البراغيث بأى حال من الأحوال. أمضيت فى اليوم الثالث من وجودنا فى إجدابيا نصف ساعة سعيدة رحت أطارد فيها الحشرات سريعة الحركة حول فراشى. دخل حسانين ومعه طعام الإفطار وأنا فى عز مطاردتى للحشرات، وفى الوقت الذى حاصرت فيه كبرى تلك الحشرات. علت وجه حسانين ابتسامة عريضة. قال "هناك عشرات الحشرات فى غرفتى؛ لكن هذا لا يهم. لقد عثرت أخيرًا على فائدة لمسدسى الصغير. لا تسخر منى مرة ثانية بسبب أمتعتى عديمة النفع!" خطر ببالى ذلك وأنا أستمع إلى سرير ينقلب على الجانب الآخر من الحاجز الموجود داخل الخيمة، لكن كان الأمر يتعلق بفأر من فئران الغيط كان يبحث عن جحره، الذى كان فى مكان ما تحت مشمع الأرضية.

استمعت بعد ذلك إلى القرآن وهو يُرتَّل آية آية، ورحت فى النوم على أثر هذه الغمغمة، وأنا أتعجب من سر الصحراء الذى غير "خريجة" أكسفورد إلى بدوية

خالصة، ومخلصة مثل المتشددين الذين ترفع صلواتهم خمس مرات فى اليوم إلى الله ﷺ، كل ذلك وأنا بمعزل عن الآخرين مثل البدوى الذى تتطلع عيناه دومًا إلى أفق الصحراء، الذى لا يمكن اختراقه مثل الجيرد (الثوب الوطنى) الذى يلفه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

زوّدنا اليوم السابع من شهر ديسمبر بريح قبليه(*)، قوية، تلك الريح الجنوبية المحملة بالرمال، التى خلعت أوتاد خيمتنا، وغطت كل الأشياء التى نأكلها بطبقة سميكة صفراء اللون. كان يوم السابع من شهر ديسمبر واحدًا من تلك الأيام التى لا تسر الخاطر أو تشرح الصدر. لقد امتلأ الشعر، والأعين والبشرة أيضًا بالرمل. كانت كل الأشياء التى نأكلها لها طعم الرمل. كانت فرشة الغبار غارقة إلى عمق ثلاثة أقدام فى الرمل. كان الرمل ينساب من المخدات ومن كل جزء من أجزاء ملابسنا. اخترق الرمل أيضًا كل صندوق وكل جوال. كانت أصوات هفهفة قماش الخيمة، وانخلاع الأوتاد، تشكل توترًا دائمًا، ووسط هذا التوتر جاءنا رسول من جدابيا، يحمل رسالة من بنغازى أرسلها خصومنا، ومكتوب على ظهرها رسالة تقول:

نرسل لك مع هذه الرسالة التى نعبر لك فيها عن إعجابنا الصادق باستعدادك الفطرى لاتخاذ القرارات على وجه السرعة، ونعرب لك أيضًا عن أفضل تمنياتنا لك برحلة صحراوية طويلة جدًا(**)!

أعتقد أن هذه اللغة الفرنسية نابعة من ضابط الخيالة التى يتمتع بحس مرح. ربما يكون ذلك الضابط قد راوده الشك فى مشروعنا بكامله، لكنه باعتباره لاعبًا مرموقًا من لاعبى السلاح، فقد كان ماهرًا أيضًا فى استخدامه للكلمات مهارته فى استخدام سيف المبارزة. يزاد على ذلك، أننا نعرف أيضًا أن المراسل الذى اعترف

(*) 'الجبلى بكسر الجيم وتسكين الباء، ويصح فيه أيضًا "القبلى" هى الريح الجنوبية القوية المحملة بالرمال. (المترجم)'

(**) وردت هذه الرسالة باللغة الفرنسية، وهى من ترجمة المترجم. (المترجم)

بأنه أبْلغ بتتبعنا حتى وإن وصل الأمر إلى جالو Jalo، لا يمكن أن يكون قد أرسل لمجرد توصيل رسالة غير مهمة مثل هذه الرسالة. المقصود من إرسال هذا المراسل هو معرفة مقصدنا على وجه التحديد وبصورة مؤكدة، من هنا آثرنا بقاء هذا المراسل معنا لحين وصول القافلة أو إلى أن نغادر نحن هذا المكان إلى جالو. كان فرّاج مصدرًا كبيرًا من مصادر تسليتنا، لأنه ما إن وقر في ذهنه أن الرجل كان جاسوسًا، حتى قرر أن يفتح عليه نيران بندقيته في الحال. وقد تطلب الأمر منا القيام بقدر كبير من الإقناع لمنع هذا العمل من أعمال سفك الدماء. قال فراج بصورة مستوحشة: "لقد أمرني السيد بحمايتك. وأنا إذا لم أقتل هذا الرجل، فإن السيد سيقتلني بكل تأكيد." هدَّأناه بأن طلبنا منه مراقبة ذلك الرجل ومنعه من الهرب بأي حال من الأحوال، لكن بدون أذى، ومع ذلك وعندما كان حسانين نائمًا عصر ذلك اليوم، وعندما سمعت صوت ترباس البندقية، اندفعت خارجة كي أتأكد أن الرجل لا يزال بخير. هذا المراسل، جاء هو الآخر بلا طعام. بدأت أغضب من هذا الشكل من أشكال التبذير. ولو نزل علينا الطعام من السماء، فأنا على يقين من أنهم سيأكلون حتى الشبع ولا يدخرون شيئًا للغد!

قمنا بنشر هذا الخبر على المرافقين لنا، وقلنا إنه يتعين علينا ترك الأسودين عند النجّات (الخيام) كي يكونوا في انتظار القافلة ويستعجلوها عندما تصل، وأننا سوف نواصل السير إلى عُجيله. قلنا لهم أيضًا: إننا سنركب راحلاتنا في ساعة مبكرة من الصباح وسوف نسير بمعدل عشر، أو إحدى عشرة ساعة في اليوم وأننا سوف لا ننصب خيامنا وذلك من باب توفير الجهد، وأننا سوف نتقاسم معهم الطعام بالتساوي، لكن ينبغي عليهم أن يتوقعوا أن يجوعوا جوعا شديدًا لمدة أربعة أو خمسة أيام. حدث قدر كبير من الاحتجاج، نظرًا لأنهم كانوا ينظرون نظرة ساذجة إلى مجيء القافلة، ولم يفهموا أننا إذا ما بقينا أربعة أيام ولم تصل القافلة، فإن الجوع سيعيدنا ثانية إلى إجدابيا. على كل حال، لقد كشف ذلك الاحتجاج عن أن

الأمور كانت تسير سيرًا حسنًا. بدأ المرافقون لنا ينظرون إلينا على أننا أصدقاء لهم وهذا يعنى أن وصول الجاسوس أوجد بيننا رابطة من نوع ما. قالوا: "نحن نعرف أنكما تضررتما من مجيء هذا الرجل. لكنكما فى مأمن مادمتما معنا. وهذا شرف لنا أيضًا." بدأنا نشرح لهم مشكلة الغذاء، وهنا رأينا محمد يكشف عن أصله العريق ومعدنه النفيس. قال: "أنا أشعر بالخجل، أننا أكلنا طعامكم لمدة ثلاثة أيام، وأننا طلبنا منكم شيئًا من السكر فى الوقت الذى لم يكن معكم بشيء منه. كنت أود تقاسم طعامى معكم، وهذه هى عادتنا، لكننا أُمرنا فى اللحظة الأخيرة بمصاحبتكم. طلبنا السماح لنا بالعودة إلى منازلنا. وقيل لنا "لا، ستتبعكم القافلة ومعها كل ما تحتاجون إليه." الخطأ لم يكن خطأنا، ونحن نشعر بالألم الشديد لأنكم تحرمون أنفسكم من أجلنا."

هذه هى روح الولاء والإخلاص التى يعمر بها كل قلب من قلوب هؤلاء البدو. قد يكون البدوى جشعًا فى الطعام، وقد يكون الغريب الذى يحمل معه ذهبًا غير آمن عندما يكون بصحبة البدوى، لكنك عندما تصادقه فإنه لن يخونك مطلقًا. هؤلاء الرجال كانوا قد بدءوا يفهمون ويدركون تعاطفنا مع عرقهم، وحبنا لعاداتهم وتقاليدهم وبلدهم. لقد أكلوا عيشنا وملحنا. لقد تقاسمنا معهم كل ما كان معنا ووثقنا بهم إلى أبعد الحدود. كنا ضيوفًا على سيدهم، السيد المقدس، المبارك من الله ﷻ. كنا أصدقاء لدمهم ودينهم. ينبغى ألا يُعيدنا الإيطاليون إلى الوراء. لقد أقسموا على حمايتنا باعتبارنا من عائلاتهم. لقد كسبنا معركة أخرى. قال يوسف: "سوف نجد طعامًا بشكل أو آخر فى النّجات (الخيام)! العربى لا يموت فى الصحراء بسبب الجوع." أطلعناهم على رسالة تهنئة بسيطة من سيدى إدريس. لقد سجدوا لكى يقبلوا الكتابة المقدسة. هذا هو الولاء الحقيقى نفسه الذى شاهدناه بين الأواغير المتواضعين الذين زرنا خيامهم فيما بين سلوك Soluk وغماينز Ghemines.

حياتهم ملك للسيد. من هنا كانوا تحت إمرتنا. يزاد على ذلك أن إيمانهم لـم يكـن واهنًا لأنهم كانوا جوهر البساطة.

وهنا يمكن أن نؤكد أن العراقة العرقية التي يمكن أن تفصح عن نفسها بـلا حقد أو ضغينة، لا تكون مقتصرة على الماضي فقط. التاريخ العظيم (لسيدنا) عمر، وابن النبي موسى، وهارون الرشيد وصلاح الدين يمكن أن يتكـرر. هنـاك قـادة عظام يفهمون ما يدور في قلوب شعوبهم، لكنهم ربما يعرفون أن لديهم قـوة، دون أن يعرفوا طريقة استعمال هذه القوة. إن سياسة الدول الأوروبية تهدف دومًا إلـى تفتيت الجماعات العربية، وخلق النزاعات بين أمرائهم، وإغـراء شـيوخهم علـى معارضة بعضهم البعض. ألا يعد ذلك شكلاً من أشكال السياسة قصيرة النظر فـي ضوء الاضطرابات الواسعة التي تجري في أوروبا في أيامنا هذه؟ إمبراطورياتنـا الغربية وممالكنا الأوروبية كبيرة بما فيه الكفاية. يجب أن يقـوم برنامجنـا علـى التجمع لا على التوسع. في زمن حكم محمد بن علي كانت القافلة المشمولة بحمايته تمر من طرابلس إلى واداي. كانت طرق القوافل الكبيرة مفتوحة كلها أمام التجارة والصناعة. ما عدد الطرق المفتوحة في أيامنا هذه؟ جعلوا يد الحاكم الوطني قويـة وأعطوه امتيازات المساندة الأوروبية كلها وعندها يكون مسئولاً عن فـتح حـدود بلاده أمام المرور الآمن للرحالة، وللعلاقات الودية الذي تسمح للحبوب والجلـود، والتمور، والشاي بعبور الطرق المقطوعة منذ زمن طويل.

الفصل الرابع

عبر الصحراء بصحبة الشيب

جلسنا داخل الخيمة طوال ذلك اليوم، وسط الرمل الذى يعمى الأعـين. لـم تكن هناك أية جدوى من إغلاق الستائر كلها والأغطية الواقية كلها. كان التـراب الثائر يخترق كل شيء كما لو كان ذلك بفعل السحر. امتنعنا عن الغداء من بـاب التوفير فى الطعام، ولم نتوقف عن الإزالة المملة المستمرة لطبقات الرمل من على وجوهنا، ومن على كراسات الملاحظات، إلا عندما انكسر أحد أوتاد الخيمة نتيجـة الضغط الشديد، مما أدى إلى طيران جانب من جوانب الخيمة ومعه تمزق قمـاش الكنفاس (الخيش)، حاملاً معه ستًّا من الأوتاد. كنا قد تعودنا على الخروج، ونحـن شبه مصابين بالعمى جراء الريح القبلية* القوية، كى نقوم بـدق (الأوتـاد) مـرة أخرى، وننتهز الفرصة ونروح نمسح المرتفع البعيد بحثًا عن القافلـة المنتظـرة. حدث ذات مرة أن أحصينا ثمانية عشر جملاً قادمة من اتجاه المُرتَفع، الأمر الـذى زاد من آمالنا؛ لكن، واأسفاه! لقد كانت الإبل ترعى.

قال محمد فى بساطه: "الله ﷻ سوف يحل لنا هذه المشكلة". وكـان محمـد صادقًا فيما قال، فقد ظهرت قبيل المساء، بعد أن هدأت الريح هدوءًا كبيرًا وبعد أن نزلنا إلى الوادى لشراء لبن الإبل، الذى أحببته، لكن حسانين كان يـرى أنـه لاذع الطعم، قافلة صغيرة كانت تنزل من المرتفع، ومكونة من ثمانيـة جمـال محملـة بالأمتعة ومتجهة إلى جالو، وبصحبتها حوالى ستة من المُجـابرة العائـدين إلـى موطنهم بعد رحلة تسوق فى جدابيا. تغير الموقف على الفور. لقـد جـاء هـؤلاء الرجال بأخبار كثيرة من القرية التى تركناها قبل أربعة أيام. كانوا يعرفـون كـل شيء عن قافلتنا. ستصل القافلة "إن شاء الله" فى غضون يوم أو يـومين. عنـدما

(*) "القبلى": كلمة عامية ليبية تعنى الريح الجنوبية الشديدة المحملة بالرمال. (المترجم)

غادرنا إجدابيا، كان هؤلاء الرجال يشترون السكر المطلوب لهم هو والجردات(*). لكن كيف استطعتم الوصول إلى هذا المكان ناسكم يتوقعون أنكم منتظرون خارج إجدابيا. قالوا لنا: "إذا ألتقيتموهم، أحسنوا معاملتهم إكرامًا لخاطرنا، وإكرامكم لهم سيكون إكرامًا لنا." لقد أخبرناهم عن الجاسوس. قالوا وهم محزونون "هو واحد من قبيلتنا. عار عليه أن يخرج من القرية من أجل هذا الغرض. عندما نعود إلى إجدابيا سنبصق عليه. أرسلوه إلينا كى نأخذه معنا إلى جالو!" على كل حال، لقد دار بخلدنا أن الرجل إذا ما بقى معنا سيكون فى مأمن!

جرت العادة فى الصحراء أن القافلة التى تصل عند دخول الليل، تجد قافلة أخرى مُخيِّمة قبلها، وعليه تقوم القوافل التى تصل أولاً بتقديم العشاء للقوافل التى تصل متأخرة. ونحن لم نستطع القيام بذلك الواجب لأننا لم يكن لدينا طعام، وعليه لم يكن أمامنا سوى الاعتذار والترحيب بمقدم القافلة. وعقب انتهائنا مباشرة من تناول عشائنا الهزيل المكون من لحم البقر المحفوظ والأرز، جاءنا رسول من المجابرة المضيافين، يحمل وعاءين كبيرين من حبوب الشعير المطبوخ بالزبد المحلى مع الفلفل، وكان الرسول يحمل أيضًا بلاطتين كبيرتين من السكر ووعاء للشاى. وأنا أعجز عن وصف الفرح الذى انتابنا ونحن نستطيب طعم هذه الخلطة، وقام المرافقون لنا بعمل أدوار من الشاى الثقيل المر واستمروا فى ذلك إلى منتصف الليل تقريبًا. حدثت زيارات كثيرة بين المخيم، وجرى تبادل العبارات "كيف حالك؟" و "طيِّب" (بخير) بصورة مستمرة طول الوقت.

إذا التقت قافلتان إحداهما قادمة من جالو والأخرى من إجدابيا فإن الأولى تتبادل تمرها بسكر وشاى القافلة الأخرى. وإذا ما وصل مسافر إلى المخيم أثناء الليل، يجرى تقديم الطعام والشاى له مجانًا، كما يعطى كليمًا (سجادة) بالقرب من النار المشتعلة. ضيافة الصحراء شيء مدهش. يجرى تقديم الطعام والشراب

(*) الجردات: واحدة "جرد" وهو الزى الوطنى وقد يصنع من الصوف أو الحرير. (المترجم)

بصورة دائمة. لم يسمحوا لنا مطلقًا بشراء لبن الإبل. كانوا يعطوننا ذلك الحليب بصورة دائمة، ألم نكن بدوًا مثل رجال الصحراء أنفسهم؟

لا يمكن لامرئ أن يمر على نار يجلس حولها شخصان أو ثلاثة يرتدون الملابس البيضاء دون أن يطلب منه الجلوس معهم وهم يقولون له "فضل!"(*) Fadhl. جرت العادة أن تقال العبارة "كيف حالك؟" ما لا يقل عن ست مرات لكل وافد على الجماعة، وذلك على الرغم من أن الرد على هذه العبارة هو "طيب" في كل الأحوال.

في تلك الليلة، وبينما كنا جالسين حول النار والريح الباردة تُجمّد ظهورنا، وبينما كنا نحس بالسعادة أيضًا لأننا كنا متخمين بعد وجبة الشعير، أنفرط عقال حاشيتنا البلاغى عندما راحوا يعبرون عن الولاء والأمانة. أبلغتهم القافلة أن سيارة وصلت من زوتينه Zuetina فى اليوم التالى لهروبنا، وأن البلدة قفزت على الفور إلى الاستنتاج الذى مفاده أن تلك السيارة جاءت لتعيدنا غصبًا. وأكدوا لنا أن إجدابيا كلها كانت متعاطفة معنا، وأكدوا لنا أيضا أن خصومنا كانوا غاضبين تمامًا من هربنا، لكنهم لم يستطيعوا القيام بأى شىء لأنهم هم أنفسهم أشادوا بنا عند السيِّد Sayed. لقد تشككت كثيرًا فى هذه العبارة الأخيرة وقررنا التحرك واستئناف المسير فى عصر اليوم التالى إذا لم تصل القافلة فى الصباح. حسبنا أن بوسعنا الحصول من المجابره على طعام كاف لرجالنا، على أن نعيد لهم مثل هذا الطعام عندما نصل إلى جالو فى حال رفضهم لقبول الثمن النقدى. أحسست بالأسف تجاه الجاسوس. كان واضحًا أنه لم يكن يود التدخل فى هذا الأمر مطلقًا. فاجأنا فرّاج بالوقوف رافعًا يديه إلى السماء، داعيًا الله يشهد أنه سوف يحمينا إلى آخر نقطه من دمه. راح يترنم ويقول "لن يصيب جبينك حتى ولو شوكة واحدة." وتلى هذا اليمين المغلَّظ، بعدها ساد صمت مخيف.

(*) كلمه ليبية عامية معناها "أجلس وتحدث"، وهى بمعنى "تفضل" المصرية. (المترجم)

من الطبيعى أن يهرب جاسوسنا أثناء الليل. كان المرافقون لنا غير عمليين بقدر ما كانوا كسالى أيضًا. وعليه وعندما دخل علينا اليوم الثانى عشر من شهر ديسمبر، كانوا معارضين تمامًا لأى حديث عن بدء التحرك. شرحنا لهم بصبر لا ينفذ أنه فى غضون أربع وعشرين ساعة، فإن أمالنا، وخططنا، ونوايانا، وأفكارنا سيذيع أمرها فى جدابيا. وقالوا بسذاجة الأطفال: "ستجيء القافلة غدًا". كان المجابرة الحاليون دومًا قد أرسلوا لنا طبقين كبيرين آخرين من معجون من الدقيق، شبيه بالمكرونة إلى حد بعيد، ومطبوخ بنفس الزبد الذى طُبخ به الشعير، وبعد أن أكلنا الطبقين عن آخرهما، أصبح المرافقون لنا مستعدين لانتظار إرادة الله ﷺ! كنا عند الساعة السابعة صباحًا قد أخرجنا كل شيء من الخيمة. وعند الساعة الحادية عشرة كانت المشاورات لا تزال متواصلة بلا انقطاع حول هذه النار أو تلك. كان المجابرة قد قرروا مرافقتنا. قالوا لنا: "أنتم ضيوف سيدى إدريس". وجرى من جديد إخراج الرسالة المقدسة وتقبيلها. وبذلك نكون قد تعودنا على التأثير السحرى لهذه الرسالة. التى كانت قادرة على إحضار أى شيء إلا السرعة! يزاد على ذلك، أن الغرباء أقروا بأنهم ليس لديهم ما يكفى لكل رجالنا، قاصدين بذلك، بطبيعة الحال، أنهم لا يقدرون على توفير كميات كبيرة من الطعام بواقع ثلاث مرات فى اليوم. ونحن بدورنا لم نكن نتطلع إلى جعلهم يقدمون ذلك الطعام بكميات صغيرة، وعليه كنا نريد إبقاء واحد من الأسودين حتى يكون فى انتظار القافلة، وأن يقوم باستعجالها أو إرسال جمل على وجه السرعة، محمل بالمؤن والتموين إلينا. وقد حدث نوع من التمرد على هذا المقترح. رفض الفراجان أن يتركونا. قال محمد بلا اندهاش: "نحن لا سلطة لنا عليهم، قائدهم سيجلدهم، فماذا نفعل؟"

أصبح النقاش عديم النفع، وعليه نزلنا إلى الوادى لشراء تمر من قافلة قادمة من الكُفاره. كان ذلك مثالاً على طريقة انتقال الأخبار فى الصحراء. قبل الدخول فى موضوع التمر، كنا قد دخلنا خلسة إلى الرمال المقابلة للتجار، وذلك عن طريق

الجانب البعيد لهذه الواحة، وقدم محمد سردًا كاملاً عن الأحوال فى جدابيا. قام محمد بعد ذلك، بتقديم قائمة أسئلته الموسعة متسائلاً عن- ثمن الحرير، وثمن الصوف، وثمن الحبوب ألخ فى الكُفْرة Kufara؟ وما ثمن التمر؟ تساءلوا: "بالرُبع(*) أم بالأقة(**)؟".وقالوا: التمر "ليس غاليا؛ لأنه وفير." "من الذى التقيتموه على الطريق؟" "ما هى أخبار العائلة الفُلانيه؟" "لقد هرب عبد من عبيد هذه العائلة،" أو "لقد تزوج امرأة أخرى"، ومضى الحال على هذا المنوال إلى أن انتهت كل المعلومات.

واقع الأمر أننا غادرنا سلسلة صخورنا المنخفضة فوق الوادى عند الساعة الواحدة والنصف، لكن القلق لم يعد يعرف طريقه إلى نفوسنا. هذا يعنى أن قدرية الشرق بدأت تتملكنا. قررنا الاعتماد على الله والانضمام إلى قافلة الشيب She-ib وقريبة موسى شيب، وهما تاجران من جالو، كانا يسافران فى بعض الأحيان إلى واداى، ذلك الطريق الذى يستغرق ما بين أربعين وستين يومًا، حاملين بالات من المصنوعات القطنية، لمقايضتها بريش النعام، والعاج، والإبل، والجلود والعودة بها إلى أسواق الكُفره. سألناهم عن المدة التى يستغرقها الوصول إلى جالو، وردوا علينا "الوقت هنا ليس له حدود. إذا سرتم بسرعة قد تصلون فى اليوم الخامس،" لكن كان واضحًا أنهم لا يريدون العجلة. كانت القافلة مكونة من ستة رجال، ومعهم ثمانية من الإبل المحملة بأحمال ثقيلة، وكان معهم حصان أو اثنان يجريان بمحاذاتهم.

كوَّنَّا قافلة مهيبة بحق عندما وسعنا المدق قليلاً من ناحية الشرق وعندما بدأت الإبل السير مع بعضها البعض. كان الشيب كبير السن يترأس القافلة، وهو جالس مرفوع الرأس فوق الصناديق الكبيرة خضراء اللون التى تحتوى على البضاعة، وكانت هناك بندقية معلقة على ظهره، ومسدس كبير يتدلى على جانبه

(*) الرُبع: نوع من المكاييل يُكال به التمر والحبوب. (المترجم)

(**) الأقة: وزنه قديمه تساوى رطلين وربع الرطل. (المترجم)

وموضوع داخل جراب قرمزى اللون، ووجهه أبنوسى اللون شبه مغطى بثنيات كوفيته البيضاء، ليحميه من التراب. كانت كوفيه حسانين زاهية الألوان (البرتقالى، والأصفر، والزمردى) تشكل وميضا لونيا على جمل آخر، فى حين كنت أنا أتبعهما وأنا أرتدى ثوب البركان، نظرا لأنى يتحتم على عدم كشف وجهى للقافلة الغربية. وهنا يلعب القدر دوره وقرر أننا يتحتم علينا التجوال ببطء فى اتجاه الجنوب مع التجار المجابرة لكى أتعلم طورا آخرا من أطوار الحياة البدوية.

تناسينا الوقت، ونسينا بمرور الوقت، قافلة البضائع، التى قد تكون تتبعنا أو لا تتبعنا، ومشينا ببطء لا يخطر على البال، فى الطريق المعلم بالرُجُم الحجرية. كان منظر الأرض قد تغير تغييرا طفيفا منذ مغادرتنا الوادى. وأصبح سطح الأرض متموجًا، مع سلسلة من الموجات الخفيفة التى تمتد من الشرق إلى الغرب، وبدأت الحياة النباتية تشح أكثر وأكثر، إلى أن بدأت حُزَم قليلة من الأدغال الرمادية الخشنة التى يصل ارتفاعها بضع بوصات، تكسر جدب الرمال. عند الساعة الثالثة عصرا بدأ سطح الأرض المتموج يظهر خلفنا، وأصبحنا نسير فى سهل مستو تماما. ظهر لنا منظران عن بعد تحولا إلى مسافرين يركبان جملين. توقفا ليسألانا عن الأخبار، وعندما علما بأننا ذاهبون إلى الكُفرة عهد إلى يوسف ببعض المجيديات ليقوم بسدادها لشخص ما فى الكُفره. وإذا لم يصل هو نفسه إلى الكُفره، فإنه سوف يتعين عليه تسليم النقود إلى مسافر آخر. كان ذلك التعامل أمرا عاديًّا ولم يعلق عليه أحد.

قرر شيب التخييم بعد الساعة الثالثة بوقت قصير، لأنه لاحظ بقعة كثيفة إلى حد ما ترعى على بعد فى الجانب الأيمن من الطريق. وبعد ذلك بعشر دقائق كان آخر الإبل قد جرى تبريكه، وقام رجال هذا الجمل بعمل زريبة(*) شبه دائرية

(*) "زريبة" الأصل فيه Zariba أو Zareba: وهى عربية الأصل، وتدل على "حظيرة مرتجله تقام من بعض النباتات الشائكة فى السودان وغيره من البلدان الإفريقية". (المترجم)



A HALT FOR THE NIGHT.

وقفة للتمضية الليل

رائعة من الصناديق والجوالات بحيث يكون ظهرها للريح، وقاموا بفك الأكلمة واللُحف مكونين بذلك ملجأ وثيرًا، وكانوا منشغلين بعمل الشاى العربى الثقيل. جرى عمل ذلك الشاى بسرعة فائقة ومهارة فائقة أيضًا، فى الوقت الذى كنا نحن نناضل فيه مع الخيمة فى ظل هبوب ريح شمالية عاتية. كانت الريح القِبْلِيَّة قد هبت علينا فى اليوم السابق عند الظهر بدرجة حرارة مرتفعة تمامًا. طقس الصحراء غير مستقر تمامًا. كانت الأرض صلبة على نحو لم نتمكن معه من دق أوتاد خيمتنا، وعليه قمنا بدفن سُرُج الإبل إلى منتصفها فى الأحجار وربطنا فيها حبال الخيمة. ثم دعينا بعد ذلك لاختبار مهارتنا فى الرماية مع المجابرة الذين وضعوا قطعة من الخشب على بعد خمسين ياردة. أحدثت مسدساتى الأنيقة اهتمامًا وانشغالاً كبيرين عندما أخرجتها من تحت حزامى الكبير، لكنها لم تكن صالحة بمعنى الكلمة. كسب محمد السباق وحياه الجميع بصوت عال. وهنا بدأت أحس شيئًا من الود تجاه ذلك البدوى الطويل، النحيف حاد الملامح الذى له عينان تشبهان عينى الصقر ولا يبتسم إلا نادرًا. أحسسنا أنه ربما يُثبت أنه حليف مخلص، فى حين كان يوسف المتين، بوجهه النائم المدور، وعينيه الضيقتين، وشفتيه الغليظتين، ولسانه اللبق، لا يفكر فى شىء سوى العودة إلى موطنه بأقصى سرعة ممكنة.

من حسن حظنا أن راح الناس يفسرون هربنا من إجدابيا على أنه مهمة سياسية، وأننا قبل الخروج تمامًا من البلدة، كان اللاسلكى الصحراوى قد أذاع أننا كنا نترحل بوازع من مسألة سيدى إدريس. اتضح لنا بشكل مؤلم بعد اليوم الأول أن التدخل غير العادى من جانب القدر وحده هو الذى يمكن أن يغرى أحدًا من المرافقين لنا بمجابهة أخطار الطريق من إجدابيا إلى الكُفرة، وعليه رحنا نشجع الجميع على الوثوق بمهمتنا بكل الطرق الممكنة التى تيسرت لنا. العربى بطبيعته يحب السِّرِّيَّة. والغموض هو النَّفس الذى يصدر عن فتحتى أنفه. هروبنا عند منتصف الليل، والأوامر الصادرة إلى كل من يوسف ومحمد فى اللحظة الأخيرة،

ورغبتنا القوية فى السرعة، وكذلك الجاسوس الذى حمل لنا رسالة من إجدابيا خلال أربع وعشرين ساعة، والقافلة الكبيرة التى جرى تجهيزها بفعل كرم السيد رضا، كل ذلك أوحى للعربى بسر مهم يتعين المحافظة عليه بحيواتهم وحيواتنا. وهذا يعنى أننا لم يعد ينظر إلينا على أننا ضيوف السيد رضا المترحلين الذين يتعين إحباط نزوتهم المجنونة إلى زيارة المدينة المقدسة، مهما كلف الأمر. هذا يعنى أيضًا أننا أصبحنا رُسلاً غامضين نحمل أوامر مقدسة من سيدهم! وسوف يتعين علينا فى الحال، أن نجتمع على المهمة التى دفعتنا إلى القيام بها، من خلال رحلة من هذا القبيل فى فصل الشتاء، لكننا يتعين علينا أيضًا أن نعانى فى سبيل العمل من أجل سيدى إدريس السنوسى، ومن ثم نكون نعمل من أجل الله ﷺ!

استيقظنا عند الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر، على انطباع مفاده أن قافلة الشيب سوف تستفيد فى ترحالها من برودة فترة الصباح، لكن بعد ذلك بثلاث ساعات كنا لا نزال نشرب الشاى داخل الزريبة شبه الدائرية التى أقامها التجار. تتسم الضيافة البدوية دائمًا بالكرم لكن هؤلاء الناس أفعمونا بحنانهم. أرسلوا لنا فى صباح ذلك اليوم سلة مملوءة بالمكسرات، تلتها أكواب من الشاى المر. ذهب حسانين إلى مخيمهم كى يشكرهم وأصروا على بقائه معهم. انضممت إليهم أنا بعد ذلك، وجرى فرش أفضل بطانية حمراء اللون لى بجوار الشيب. **هناك انطباع خاطئ فى أوروبا مفاده أن المرأة المقنعة فى الشرق تساء معاملتها ويجرى إرهاقها بكثرة العمل.** القرآن يخصص نصف السورة رقم ثلاثة لسلوك الرجل تجاه النساء. إذا ما سألت امرأة سورية التخلى عن حجابها فسوف ترد عليك "ليس قبل أن يتعلم الرجل تعليمًا أفضل،" لكن المرأة البدوية لا تستر سوى وجهها فى حال وجود الرجال الغرباء. وهى تختلط اختلاطًا حرًا مع أفراد القبيلة، ويجرى تقاسم العمل بينهم بالتساوى. كنت فى أحيان كثيرة وأنا مع القافلة أحاول نصب عمود من أعمدة الخيمة أو دق وتد من أوتادها

لكنهم كانوا يقولون لى "هذا من عمل الرجل. لا تتعبى نفسك، يا ست خديجة". كان الشيب كلما رآنى آخذ قسطًا من الراحة عند الظهيرة يقول: "الست خديجة تعبانـــة. هيا بنا نتوقف بعض الشيء." من ناحية أخرى، يتوقع الرجال من المرأة المـــسلمة القيام بكل الأعمال داخل الخيمة. فهى التى يتعين عليها طهى الطعام، وهى التـــى تقوم بغسل الأطباق بعد ذلك. ومن يمن الطالع، أن طعامنا فى ذلك الوقـــت كـــان محدودًا. إلا أنى لم أفقد امتيازى بسبب عجزى عن طهى أى شيء ما عـــدا عمـــل الخبز الثقيل غير المخمور.

ويعد شرب الشاى مناسبة قد تستمر من ساعة إلى ثلاث ساعات. إذا ما أراد الإنسان التعجيل بالسفر فإن ذلك يمكن أن يحدث أثناء الليل، لكن المجابرة ليـــست العجلة من طبيعتهم، وعليه بقينا مع أكواب الشاى فى الوقت الذى انـــصرف فيـــه خادماهم وأسودينا إلى عمل الشاى على الجمر الحار. وهم يملئون نـــصف بـــراد الشاى بالسكر ربعه بالشاى ثم يصبون الماء فوقه. ويتذوقون ذلك المشروب الحلـــو الثقيل حوالى ست مرات يوميًا ويظلون يصبونه من إناء إلى إناء، ويضيفون إليـــه ماءً أو يعيدون غليه إلى أن يروق لهم مذاقه. ويُشرب الشاى بعد ذلك بإحداث أكبر قدر من الضوضاء وذلك من باب التعبير عن الشكر والامتنـــان. وعنـــدما يعتقـــد المضيف أن وقت إنهاء الحفل قد انتهى، فإنه يقوم بإضافة النعناع إلى الشاى، وهنا يقوم الضيوف بتناول الكوب الأخير المحلى بالسكر والمعطر بالنعناع فـــى إشـــارة منهم إلى الرحيل وفى الوقت نفسه يكون الضيوف قد تبادلوا كل شكل من أشـــكال الحديث، وحكوا الكثير من الحكايات غير المترابطة التى لها نكهة قصص ألف ليلة وليلة. تأدب العرب مع بعضهم البعض يعد شيئًا مدهشًا، وهذا التأدب يكشف عـــن نفسه فى الأعمال وأيضًا فى الكلمات. هذا فى الوقت الذى لم يحـــدث أن خاطـــب يوسف ومحمد بعضهما دون أن يستعمل كل منهما السابقة التى تدل على الاحتـــرام "سيدى" Sidi، يزاد على ذلك أنهما كانا يحثان بعضهما على ركوب الجمل الوحيد

المتيسر لهما أثناء حرارة الظهيرة. حدث ذات مرة أن كان محمد راكبا ذلك الجمل، ولاحظ أن موسى الشيب كان يبدو عليه التعب. فقال له "نحن نتقاسم بالتساوى. ومالنا هو لك أيضا." ونزل من فوق الجمل وأصر على أن يركب مكانه.

كانت القافلة ودية إلى حد أنها كانت تحبو على مراحل قاصدة الجنوب. تمثلت متاعبنا الوحيدة بحق فى كسل يوسف من ناحية وغمغمة الأسودين من ناحية أخرى، وبخاصة أنهما كانا يتنصلان من أصغر الأعمال. وفى اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر بدأنا السير عند الساعة التاسعة والنصف وخيمنا عند الساعة الثالثة والنصف عصرًا، وقت أن كانت الشمس لا تزال حارة، إذ يبدو أننا تصادف أن وصلنا إلى بقعة من الأرض عامرة بالحشائش الخشنة عديمة الراحة والتى تصلح علفًا للإبل. كان الناس عند الظهر قد انسلوا خارجين عن القافلة الواحد بعد الآخر لينبطحوا على الأرض وهم يغمغمون قائلين "بسم الله الرحمن الرحيم". عمومًا، قام اثنان منهم بالسير مسافة مائة ياردة فى اتجاه الأمام وبندقيتاهما مستعدتان، لكننا لم نر شيئًا مثيرًا غير عدد قليل من الغزال عن بعد. **بعد الانتهاء من تنزيل الأحمال عن الإبل، أدينا جميعًا صلاة العشاء، أو بالأحرى "الفجر" وإن شىءت فقل الصلاة الرابعة**(*). كنت لا أزال أحس بالألم عندما أُدخل قدمى أو أخرجها من الحذاء الأصفر، لكن التشدد السنوسى يعد حافزًا قويًا جدًا على مراعاة كل تكليف من التكاليف الإسلامية.

كان موسى الشيب هو وأقاربه يصرون دومًا على مساعدتنا فى نصب الخيمة. وكان هناك شجار دورى خفيف على من سيقوم بدق أوتاد الخيمة، الأمر الذى كان يسر خاطر الأسودين الكسولين. أذكر جيدًا أن تلك كانت أحسن الليالى التى أمضيناها فى الصحراء، إذ كانت خالية من الريح، وهادئة، والقمر فيها هلالاً،

(*) يبدو أن هناك خلطا من جانب المؤلفة فى مسألة الصلاة: فهى تعتبر الفجر Fagr الصلاة الرابعة. (المترجم)

وتلك الزرقة الغريبة التى لا يراها الإنسان إلا فى الصحراء فى بعض الأحيان. تنامت إلى مسامعنا تلك الأغنيات الرتيبة الحزينة، التى كانت تصلنا من المخيم الصديق المجاور لنا، ومن الصحراء الواسعة البيضاء التى تتخللها السلاسل الجبلية، والكثبان الرملية، والتى تحيط بنا من كل جانب.

صعدنا ببطء ودون أن يلاحظنا أحد من الوادى الفارغ Wadi Farig إلى أرض منبسطة منخفضة تتخللها بين الحين والآخر تموجات فى اتجاه الشرق والغرب، وفيها أيضًا بعض الكثبان الرملية المبعثرة والتى لها قمم مربعة الشكل. وعندما كنا فى اليوم التالى على وشك الوصول إلى بير رسَّام Bir Rassam، أكدت التموجات تحولها إلى سلاسل صخرية وبدت المنطقة وكأنها بركانية الطابع، إذ بدأت تظهر لنا عن يميننا سلسلة من التلال المربعة المرتفعة ومن فوقها نوع من التركيب الصخرى.

كان بوسعنا الوصول فى سهولة ويسر إلى الآبار مساء اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر، لكن أصدقاءنا كانت لديهم أفكارهم الثابتة فى مسألة التخييم ولا يمكن تغيير هذه الأفكار بأى حال من الأحوال. كان أصدقاؤنا يودون تمضية حرارة النهار فى منطقة بير رسَّام، ويسقون ماشيتهم ويرتوون هم أيضًا فى وقت فراغهم، وعليه أيقظونا عند الساعة الخامسة صباحًا فى اليوم الرابع عشر من شهر ديسمبر، وبدأنا مسيرنا فعلاً عند الساعة السادسة والربع. كان الصباح جميلاً، لكنه كان باردًا كالعادة. كان حسانين يمشى مع موسى الشيب العجوز، الذى اقتبس المثل العربى الذى يقول: "ينبغى على المرء ألا ينام على الحرير إلا بعد أن يمشى على الرمل"، لكنى كنت أُلف نفسى فى كل البطانيات المتيسرة لى وأنا على ظهر جملى الغيور، الذى قسم وقته بين عض الذكور المنافسين وهجمات الغزل والحب على النوق.

بدأت وأنا أُحس بالبرد الشديد، أشعر بجوع شديد أيضًا! كان تموين اليوم السابق عبارة عن سردينتين وكوب من القهوة فى الإفطار، وحفنة من التمر عند

الظهر، ونصف علبة لحم محفوظ فى العشاء، لم يكن هناك متسع من الوقت للطعام فى صباح ذلك اليوم، لكن موسى الشيب الحنون كان قد أحضر لى سلطانيه من لبن الإبل اللذيذ، الذى كان لا يزال دافئًا. ولو خيرونى بينها وبين أشهر الأطعمة لما تخليت عنها!

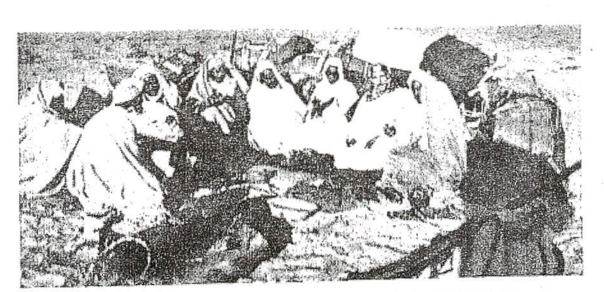
كنا قد خلفنا وراءنا آخر طلل من أطلال الأرض التى لها لون بنى فاتح ضارب إلى الصُّفرة هى والأعشاب الخفيضة رمادية اللون، وهنا بدأت تطالعنا التلال الرملية المربعة غريبة الشكل التى سبق أن تعرفنا عليها فى إجدابيا. نظرنا فى تجاه اليمين إلى الطرف القصى من الأرض المنبسطة المنخفضة ونزلنا بصورة هينة ومتدرجة إلى سهل فيه رمل أبيض عميق من الصحارى الجنوبية، تتخلله الأعشاب الكبيرة والأدغال، التى من الحياة النباتية ذكية الرائحة، وفيه أيضًا مجموعات من النخيل المنخفض أخضر الأوراق، وكنا نرى هنا وهناك نخلة واحدة عالية. هناك ثلاث آبار فى المنطقة المجاورة لبئر رسَّام، وهذه الآبار ينابيع دائمة، اثنتان منها مالحة الماء لكن يمكن استعماله فى الشرب، أما البئر الثالثة، التى تقع على بعد عدة كيلو مترات فى الجنوب فماؤها شديد الملوحة.

مع اقترابنا من الآبار - عند الساعة التاسعة والربع صباحًا - ظهرت لنا أسراب من الإبل قادمة من مختلف الاتجاهات. راح محمد يطيل النظر إلى هذه الإبل بعينين حالمتين. قال معبرًا عن تقديره وامتنانه: "الزُّويا Zouia أثرياء؛ انظرى إلى هذه المئات من ماشيتهم!" كان هناك، طوال فترة الصباح، قطيع كبير يقدر بعدة مئات يتجمع حول البئر بالإضافة إلى بعض الأغنام والماعز، لكننا خيمنا عند سفح جبل صغير من الرمل، من فوقه كتلة من النخيل القصير، ورحت أجهز فى ملجأ بسيط وجبتنا الهزيلة. لم يكن لدينا فى الليلة السابقة حطب لإشعال النار،



CAMP OF MOJABRA MERCHANTS AT BIR RASSAM.

مخيم تجار المجابره فى بيدرسام



HASSANEIN BEY AND MOJABRAS DRINKING TEA.

حسانين بك يشرب الشاى مع المحابرة

وعليه كنت فرحة بعمل شاى حار، وكنت على وشك عجن خبــزى الثقيــل غيــر المخمور، عندما أكدّ لى مغرب Mighrib، أبهى المجابرة كلهــم، ذلــك الــشاب المبتسم، وهو يرتدى قميصه الأبيض الممزق الذى كشف عن ذراعيــه البنيتــين، وعن صدره، إنه يستطيع عمل خبز أفضل مما أعمله أنا. أخذ مغرب منى العجين وبعد أن راح يضرب العجينة بقبضه يده مرات عدة، وبعد الخبز، جــاءنى بمــادة سوداء مغطاة بآثار الفحم النباتى شبيهة بالطبق؛ لكن هذه المادة كانت أرفع وأنحف من مادتى، وعليه أكلنا الخبز مع التمر والمكسرات ونحن نشكر النعمة. ثم لففــت نفسى فى الجردة (اللباس الوطنى) ونمت إلى أن استيقظت على ساعى البريد الذى جاء من الكفرة، والذى سبق له أن سمع عن علاقتنا وصلتنا بالسيد رضـــا. كــان ساعى البريد رجلاً طاعنا فى السن، وله لحية بيضاء مثل جردتــه، لكــن الرجــل أستطاع إنجاز المهمة المدهشة التى كان يسافر خلالها بلا ماء طوال أيام عدة، هذا الرجل يسافر كل عام مرتين فى مهام تخص الحكومة السنوسية عبــر الــصحراء الليبية، على جمل واحد سريع وجوالين من التمر والحبوب!

عاد حسانين ومحمد إلى الآبار، بعد أن سُقيت الإبل، وبعد امتلاء الفنــاطيس بالماء، أملاً فى حصولهما على شيء من الحليب ، وعندما كانا فى منطقة الآبــار استجوبهما مرات عدة اثنان من البدو قساة الملامح، عما إذا كنا فعلاً قائمين بعمــل خاص بالسيد إدريس. وهل هذا العمل فى مصلحة الرجل؟ وهل هذا التحرك بنــاء على أوامر فعلية منه؟ وهل معنا رسائل؟ ألخ. سألهما حسانين عما إذا كانا شيخين من شيوخ القبائل وعندما ردًا عليه بالنفى، قال إنه لا يود إطلاعهما على الوثــائق المقدسة. فى ذات الوقت، كان رئيس المجابرة تجرى له عملية حلاقة بواسطة أحمد فى ظل نخلة من النخيل. وبينما كنا فى منتصف الطريق أثناء المسير طلب منــى رئيس المجابرة مرآتى الصغيرة، واتضح أنه لم يكن راضيًا عن الحلاق المــتحمس قليل الخبرة، وراح ينهى هو حلاقته بنفسه مستخدمًا فى ذلك مقصًا بحجم مقص جز

الأغنام. جاءوا كلهم بعد ذلك وتحدثوا معى وأنا بدورى وعن غير قصد رحت أداعب يوسف بخصوص كسله وقوله إنه لا يصلح إلا لحياة الحضر.

قال يوسف "لقد تركت كل ما له علاقة بالقافلة. ونحن أيضًا فعلنا الشيء نفسه– سبعة جوالات كبيرة مملوءة! انظرى، ليس له سوى تُبَّه(*) واحدة وبرَّكان واحد، والاثنان متسخان." وقد بدا ذلك شيئًا جديدًا على يوسف، وبخاصة بعد مساندة المجابرة لى. "قال موسى الشيب لقد رأينا أنهما يقتسمان معك كل شيء. ما الذى تريده أكثر من ذلك؟ وأنت إلى الآن لازلت ترتدى معطف الستّ." كانت جماعتنا قد اشتكت من البرد فى إحدى الليالى فى الوادى الفارغ، وترتب على ذلك أن أعرناهم كيسين من أكياس البراغيث المبطنة ببطانة مانعة للماء، كنت أخبئهما فى فراشى، وراحوا يرتدون هذين الكيسين ليلاً ونهارًا، حتى فى عز الشمس فى وقت الظهيرة.

رحلنا عند الساعة الثالثة والنصف عصرًا، وواصلنا سيرنا خلال رمل أبيض يكاد يعمى العيون؛ كان ذلك الرمل ناعمًا وعميقًا، واستمر الحال على هذا المنوال إلى الساعة الثامنة والنصف، لكننا أبطأنا المسير جدًّا فى الساعة الأخيرة، عندما بدأت تظهر لنا من جديد الحشائش القصيرة رمادية اللون وراحت الإبل ترعى تلك الحشائش أثناء المسير. مررنا على قطيع يرعى وقصد موسى الشيب لتحية أصحاب ذلك القطيع، الذين كانوا مخيمين فى زريبة من الأمتعة المكوَّمة، وليشرب معهم الشاى الثقيل. خيمنا تحت بعض الأدغال الرمادية الضخمة التى لها رائحة ذكية مدهشة وأكلنا ما تبقى من خبز مِغْرِب الأسود غير المخمور، مع شيء من حليب الإبل إضافة إلى نصف علبة من اللحم المُعلَّب، عندما كانت لوحة غروب الشمس العجيب الذى كان على شكل ريش من اللهب وردى اللون أسفل القمر الفضى الذى على شكل هلال.

(*) التُبَّه: الثوب الحريمى (كلمه عاميه ليبيه). (المترجم)



FLOCKS WATERING AT BIR RASSAM.

قُطْعَان تُسقى من بير الرسام

كنا قد تعودنا على قفل جناحى باب الخيمة بعد تناول وجبة المساء، بغية تدوين المذكرات اليومية وعمل خرائط الطريق البسيطة، نظرًا لأننا كنا نثير الشكوك والقلق إذا ما تناولنا أثناء النهار قلمًا من الرصاص وكراسة من كراسة تدوين الملاحظات. **كنا قد رسمنا بعض الخطط عندما كنا فى إنجلترا، عندما كنا نتناول الغداء فى مطعم كلاردج بروعته الشرقية، للقيام بعمل مساحى صغير فى ليبيا، لكننا لم نعول كثيرًا على التشدد السنوسى. أنا أرى أننا كنا فى حكم المجانين عندما تخيلنا أن مسيحية يمكن أن تكشف عن وجهها فى إجدابيا، فى بلد يتمثل فيه عمل كل إنسان فى قتل النصرانى. صحيح أن الأجواء الفكرية تغيرت منذ اليوم الأول، عندما كنا نسأل عبثًا عن اسم قبيلة من القبائل أو منطقة من المناطق، وكان الناس ينظرون إلينا باعتبارنا جواسيس. فى مخيمنا الأول، طلبت من واحد من الأسودين أن يحضر لى جملاً، وهنا وجدته ينظر إلى زميله الجندى متعجبًا، "هل مفروض علينا قبول الأوامر التى تصدر إلينا من امرأة مسيحية ملعونة؟ طلقه واحدة، وستعود بعدها إلى بلدها المسيحى!"**

تغير موقفهما بعد ذلك. قال: "مشيءة الله ﷺ غريبة علينا، لأن هذه المرأة مسلمة فى واقع الأمر." كانت الصداقة العامة لم تمتد بعد إلى الأدوات أو المذكرات. سألنى يوسف "لماذا تحتاجين إلى بوصلة؟ نحن نعرف الطريق مثلما نعرف قلوبنا." فهمنا هذه التلميحة وقمنا بإخفاء البوصلات فى طيات ثيابنا الوطنية، وكنت لا ألجأ إليها إلا سرًا. لقد أعجبهما جهاز البارومتر(*) لأنه كان يوضح حال الطقس، وعليه فإن الحاشية الرسمية لم تهتم بوجود البارومتر خارج الخيمة فى بعض الأحيان، لكن كان لابد من إخفاء البارومتر عن أعين الزوار كلهم. لو استعملت التيودوليت(**) لجاء ذلك من قبيل المستحيل. كان مرشدونا يكرهون كل

(*) البارومتر: جهاز قياس الضغط الجوى. (المترجم)

(**) جهاز تقدير المسافة. (المترجم)

ما يتعلق بعمل الخرائط. قالوا: "نحن نحمل الطريق فى رءوسنا." لم أجرؤ على تدوين اليوميات العادية على الملأ اللهم إلا إذا تظاهرت بأنى أكتب رسالة!

استطعنا جرهم بصورة متدرجة إلى الحديث عن الطرق والأماكن بقليل من الشك، لكن بقى الأمر خطيرًا مدة طويلة، وحتى بعد أن استطعنا أن نحظى بثقتهم بصورة أو أخرى، تعين علينا التعامل تعاملاً عابرًا تمامًا مع ردودهم المتعلقة بالأسماء والأماكن. كانت مسألة قيامى بتدوين ملاحظة عابرة عن أى اسم من الأسماء تفضى إلى إثارة الشكوك الحادة. تعين علينا - قبل الحصول منهم على المعلومات - تحطيم فكرتهم الأساسية التى مفادها أننا كنا نترحل طلبًا للمتعة الشخصية من ناحية وبناء موقف جديد تمامًا مكون من كلمة بكلمة وعمل بعمل من الناحية الثانية- وأننا موفدون على غير رغبة منا من قبل سيد إدريس، فى مهمة تبلغ من السرية والأهمية حدًا برر هربنا عند منتصف الليل ومصاعب رحلة لا طاقة لنا بها إلى حد كبير.

شهد اليوم الخامس عشر تحركنا على الطريق عند الساعة السابعة وثمانى عشرة دقيقة صباحا بعد عملية حزم متعبة للأمتعة أثناء هبوب عاصفة شديدة. فقد شردت الإبل هنا وهناك على شكل دوائر وقلبت أحمالها ومعها بعض من مائنا الثمين الذى تقاطر من الفناطيس. يعد بئر الرسام آخر الآبار الجيدة على الطريق المؤدية إلى العجيله. كان لا يزال أمامنا مسيرة ثلاثة أيام بلا ماء وكان الأسودان مهملين تمامًا. كنا لا نستعمل سوى ربع جالون من الماء كل يوم لكل واحد منا. أصبح وضوءنا اليومى اعتبارًا من مغادرة الوادى الفارغ عبارة عن مجرد غسل للأيدى والوجه كل مساء فى بوصتين من الماء المختلط بالطين! وبعد أسبوع تعودت على عدم الاغتسال، وعندما وصلنا إلى العجيله كنا قد نسينا حتى الإحساس بالاتساخ! وتحول الأمر إلى تنافس بيننا حول التقليل من استخدام الماء، وبذلك نتمكن من الاستعداد لطريق الكُفرة المميت الذى ليس فيه سوى بئر واحدة على امتداد طريق شاق يدوم السير فيه اثنى عشر يومًا.

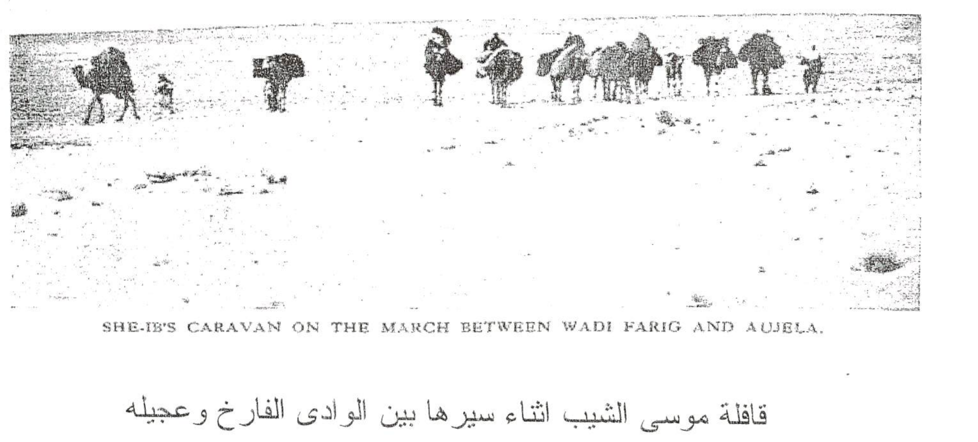
زودنا اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر ببعض الأحداث القليلة. فقد ركبنا دوابنا مدة سبع ساعات موحشة أثناء هبوب ريح جنوبيه باردة. لففنا أرديتنا (جيـرد) الوطنية هى والبطاطين حولنا وتظاهرنا بعدم الجوع بعد أن تناولنا غداءً مكونًا مـن خمسة أقراص من اللبن الحليب المخلوط بالمولت. مررنا على مخيم مـن مخيمـات المجابره الذين كانوا ينالون قسطًا من الراحة لمدة ساعة فى وقت القيلولة، على حين كانت إبلهم ترعى من حولهم، وبينما كنت أخبئ وجهى فى البركان وأستحث جملـى على السير، ذهب حسانين مع موسى الشيب لتحية المجابره. وعندما لحق بـى بعـد عشرين دقيقة سألته بحدة بدائيه، "هل قدموا لك شـايا؟" وقبـل أن أعـى المـشاعر المضحكة التى يُوصِلُ الجوع المرء إليها! نظر إلى حسانين نظرة تنم عن عدم الفهم. قال حسانين منجهمًا: "لا؛ لكنهم طلبوا منا انتظارهم عند غروب الشمس."

جاءت اللحظة المبهجة الوحيدة عند الساعة الثانيـة بعـد الظهـر، عنـدما أحضرت الترموس Thermos وأعطيت كل فرد من أفراد قافلة موسـى الـشيب ملء الفم من الشاى الحار. قال الرجل المسن "ليس لدينا نار، ولا يمكن أن نتوقـف كى نوقد نارًا." وجاء ذلك بمثابة أعظم انتصار لحسانين. كنت أنا التى عارضـت مجيء هذا الترموس الكبير. كان الترموس كبير الحجم، وثقيلاً، ولم يكن له بطبيعة الحال جراب أو حزام. كان ذلك الترموس من ممتلكات حسانين، وعلى الرغم مـن أنى كنت قد أهملته وتخليت عنه حوالى ست مرات، فإنه كان يظهر مـن جديـد. وهذا هو موسى الشيب يشرب من هذا الترموس وهو منـدهش. تـساءل موسـى الشيب "أين النار؟" ومن باب تجنب فتح النار علينا، من منطلق أننا سحره ونمارس السحر، دخلنا على الفور فى تفسيرات وشروح معقدة تتعلق بصناعة الترامس.

لم نلتق فى ذلك اليوم البارد المترب سوى رحالة واحد. قال حسانين: "فيمـا يتعلق بصحيفتك فهى طبعه قديمة إلى حد ما." لكن ذلك الرحالة كـان خاليًـا مـن الأخبار اللهم باستثناء أن القافلة ربما تبدأ من جالو قاصـدة واداى Wadai خـلال

أسبوع أو أسبوعين. أما فيما يتعلق بقافلتنا، فإن المجابره، الذين اقترحوا علينا انضمامهم إلينا فى تلك الليلة، فقد قاموا برحلة سريعة من إجدابيا، وغادروا المكان فى صبيحة اليوم الثانى عشر من شهر ديسمبر، أى بعد مغادرة موسى الشيب للمكان بثلاثة أيام. أبلغونا أن رجالنا كانوا لا يزالون يشترون "الضروريات"، لكنهم اقترحوا علينا أن يبدأ التحرك فى اليوم التالى. وأنا أعتقد إننا منذ تلك اللحظة قررنا بالإجماع من الجانبين عدم تعليق الأمل على مجىء القافلة. يزاد على ذلك أن سلوك الأسودين جعلنا ندرك خطر الوقوع تحت رحمة ست من هذه المخلوقات مدة ثلاثة عشر يومًا، بعيدًا عن متناول وصول أية مساعدة إنسانية. وإذا ما نضب الماء فقد يسرقون ماءنا بكل تأكيد. وضمانًا للإفراط فى الطعام فقد يقومون بتحميل الإبل بأكثر من حمولتها. وقد يرفضون التحرك فى ساعة مبكرة أو مواصلة السير بجد. وبناء عليه فإن أخطار الأيام السبعة التى سنقضيها بلا ماء، والتى ستبدأ الإبل بعدها فى الكشف من إرهاقها وتعبها، قد تصبح شيئًا لا طاقة لنا به. وعليه بدأنا نخطط لمغادرة جالو قبلهم ولم نأخذ معنا سوى محمد ويوسف واثنين من المرشدين الذين يمكن الاعتماد عليهم.

عادة ما تكون الساعة الأخيرة من المسير اليومى هى الأكثر بهجة، نظرًا لأن الجميع يكونون فى عجلة الوصول إلى المخيم، والحقيقة الغريبة أن الإبل نفسها تعجل من خطاها وتسلك خطًا مستقيمًا على صوت الغناء. من هنا راح الأسودان وجمَّالة موسى الشيب يغنون أغانى ذات ألحان برية عن الحب والشجاعة إلى حد أن جملى الكبير الأشقر نسى بقبقته الغرامية ويمم أنفه نحو الأفق. فى ذلك اليوم تحديدًا، كنا قد يممنا مسيرنا صوب الجنوب عبر أرض رملية متدحرجة خالية من الحياة النباتية اللهم باستثناء المنطقة التى ظهرت فيها التلال المربعة المفاجئة هى والروابى عن يميننا فى منطقة بئر مارج، الذى يبعد مسافة ثمانية عشر كيلو مترًا عن بئر الرَّسَّام. هذه البئر لا تحتوى إلا على ماء مالح لا يصلح للشرب، لكن



SHE-IB'S CARAVAN ON THE MARCH BETWEEN WADI FARIG AND AUJELA.

قافلة موسى الشيب اثناء سيرها بين الوادى الفارخ وعجيله

يوجد من حول هذه البئر منطقة تقدر بحوالى ميل مربع من الحشائش الخفيضة الخشنة وأدغال كبيرة من أشجار القندول ذكية الرائحة التى عطرت نومنا فى الليلة السابقة. كنت قد رأيت على الخرائط المتيسرة واديا أخضر يمتد بطول المسافة من بئر الرسام إلى العجيله، لكن هذا الوادى لا وجود له إلا فى خيال من رسم الخريطة.

واصلنا سيرنا راكبين عبر رمال متحركة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، عند سفح صخرة رملية تبعد ياردات قليلة عن تل مربع الشكل يسمونه عريضه Arida. خيمنا عند آخر مكان يتوفر فيه الحطب. هبت علينا ريح الجنوب أثناء الليل وأضافت المزيد من الرمال إلينا وإلى الأشياء المحيطة بنا وانخلعت أوتاد الخيمة من جانب من الجوانب وخرجنا فى الظلام الدامس لدق هذه الأوتاد من جديد.

شهد اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر بدء ترحالنا عند الساعة السابعة والنصف نظرًا لنجاح فرًاج فى قلب فنطاس من فناطيس المياه وكان موسى الشيب العجوز متخوفًا من مسألة ما معنا من ماء. وعندما بدأنا نحس أن هناك قدرًا من التعاطف بيننا وبين المرافقين لنا حاولنا استعمال عدّاد السير لأول مرة فى ذلك اليوم. اعترضت "الناقة" العصبية التى كان يركبها حسانين على مواصلة السير اعتراضًا شديدًا، ونظرًا لأنها كانت تسير على شكل دوائر، فلم نكن نعلق عليها نفعًا كثيرًا. لكن جملى لم يغير خطاه مطلقًا اللهم باستثناء عضه واحدًا من الحيوانات الأخرى، لكنه كان يستسلم بعد قليل من الخطوات الغاضبة، للحزام الموجود على ركبته، لكن مسألة الإبقاء على سيره فى خط مستقيم على امتداد ثمانى ساعات كانت عملية مضنية. على كل حال، لقد قاس العدَّاد المسافة بدقة بالغة، وبعد مسيرة ثمانى ساعات أوضح أننا قطعنا ستة وثلاثين كيلو مترًا.

ليس هناك مسار واحد فى المنطقة ما بين إجدابيا وعجيلة. وتقدر المسافة بينهما فى اتجاه طيران الغراب بحوالى ٢٢٠ كيلو مترًا. هناك طريق رئيسى يبدأ

من الوادى الفارغ. وبعد ذلك، يمكن المسافر الانحراف جنوبًا فى أى اتجــاه إلـــى رقعة من الأرض يصل عرضها إلى حوالى عشرة أميال. سرنا فى الطريق الـــذى ارتأى أصدقاؤنا أنه يوفر أفضل الأعشاب وحطب الوقود، لكن هذا الطريق لم يكن مطروقًا، وبالتالى يعد أكثر الطرق خطورة. قال مِغرِب بهى الطلعة: "لا أحد يجيء من هذا الطريق دون أن يخشى الإشتباك"، وبعد حوالى أقل مـــن نـــصف ســـاعة ظهرت لنا من بين التلال الرملية جماعة مكونة من ثمانية رجال، ليس معهم إبـــل، ستة منهم سود واثنان من العرب. قال موسى الشيب فى هدوء تام "هذا هـــو ديـــر سلام Der Salaam! سيقومون بالهجوم علينا." معروف أن أية مجموعة من البشر تسير فى الصحراء بلا إبل تصبح مثارًا للشكوك. وهذا هو أسلوب تنقل اللـــصوص حتى يتمكنوا من التفرق على وجه السرعة. "سيأتى بعضهم إلينا للتحـــدث معنـــا. سيكون أصدقاؤهم مختفين خلف هذه التلال. وسوف يفتحون النـــار علينـــا لجـــذب انتباهنا ثم يقوم بعدئذ الرجال الذين يتحدثون معنا بالهجوم علينـــا. وإذا مـــا قتلونـــا فإنهم يأخذون القافلة." فرح الأسودان على الفور، فقد كانت فكرة القتال تحركهمـــا بصورة مستمرة. تناول كل واحد منا بندقية، لكن الواضح أن استعراض القـــوة، أو أن السودانيين أخافا هذه المجموعة الغامضة، مما جعلها تولى الأدبـــار فجـــأة دون إلقاء السلام لتختفى فجأة مثلما ظهرت فجأة.

شىء عجيب أن يخاف البدو أولئك العبيد السود الذين يفدون مـــن الـــسودان عندما يكونون فى سن الثامنة أو العاشرة، ويجرى تدريبهم على الجندية بواســـطة عائلة السنوسى. هؤلاء العبيد السود يكونون أشرس من الرجال العاديين. لقد رأيت القتل فى عينى فرَّاج الذى لا أسنان له، عندما رفضت إعطاءه المزيد من الـــسكر، ومع ذلك فإن هؤلاء الجنود العبيد شجعان ومخلصون لسادتهم. العبد الطيب مثـــل على، طباخنا المحبوب فى إجدابيا، يساوى وزنه ذهبًا. كان هناك فارق كبير مـــن حيث الشخصية بين الفرَّاجين. كان وجه أحدهما مربعًا وفمه فيه قليل من الأســـنان

الصفراء اللون المكسَّرة. كان شكَّاءً وكسولاً إلى أبعد الحدود، ومتنصلاً من الأعمال كلها، ويسرق كل ما تصل إليه يداه. أما الفرّاج الثانى فكان ضخم الجثة، وحشيًّا وغبيًّا وفيه شيء من طبيعة الكلاب كان يأتى لنا فى بعض الأحيان، بالتمر أو الدقيق وهو يقول: "لدينا المزيد. لماذا لا تأكلين؟" كنا نرى أن بالإمكان تحويله إلى خادم جيد ولكن بصورة متدرجة، لأنه لم يكن يمانع فى القيام بعملية الطبخ والغسل. كانت وجهه نظر الفراجين تتمثل فى أنهما جنديان وليسا خادمين. كانا على استعداد للقتال، لكنهما لم يكونا على استعداد للعمل. واقع الأمر أن القافلة التى يحرسها السود يندر الهجوم عليها، نظرًا لأن البدو يعرفون أن القافلة سيجرى الدفاع عنها إلى آخر رمق.

عندما سَرَتْ فى إجدابيا فى البداية شائعة مفادها أن امرأة غنية كانت تترحل فى الداخل، وأن مسألة توفير حرس لها تعد أمرًا ضروريًّا، عرض السيد رضا فى الحال تقديم بعض عبيده الجنود. لم نستطع الإمساك بكل خيوط الموقف الذى خلَّفناه وراءنا إلا بعد مغادرتنا القرية الطينية الصغيرة الموجودة على حافة العالم. كانت المسألة كلها عبارة عن تآمر وتآمر مضاد منذ اللحظة التى أقسمها فيها الحاج فطاطر، ذلك الإخوانى المسن، عن طريق 'قراءة الفاتحة'، وتعهده بتوصيل المرأة الإنجليزية سالمة إلى الواحة المقدسة حتى تلك الليلة التعيسة التى هربنا فيها دون أن يكون معنا أحد من الحراس سوى محمد ويوسف ومنذ اليوم الذى تحدثت فيه أول مرة بين علماء إجدابيا عن رحلتى المحتملة، كان هناك واحد من الإخوان المتشددين الخائفين يعارض القيام بهذه الرحلة. حاول مرارًا إثناء الحاج فطاطر عن مرافقتى ونجح فى محاولته. قال له "أنت كبير السن. ستموت على الطريق. أين كرامتك؟ هل سفرك أو ترحالك مع هذه النصرانية سيكون آخر أعمالك على هذه الأرض؟ حاشا لله!" ونظرًا لأن هذا الرجل الكبير كان عمره فوق الثمانين عامًا فنحن لم نأسف على تغييره لرأيه.

هناك واحد آخر من الإخوان جرى اقتراح مرافقته لنا، لكن هذا الإخواني طلب أربعين رجلاً لحمايتنا، على أن يكون من بينهم عشرة فقط من الجنود السود، لكن هذه المسألة أثارت شكوكنا ورفضنا مرافقة ذلك الإخواني لنا. علمنا بعد ذلك، أن ذلك الإخواني صدَّق شائعة السوق التي ترددت عن ثرائنا، ولذلك راح يخطط لقتلنا في الصحراء، والاستيلاء على نقودنا ثم العودة آسفًا ونادمًا، وهو يقول: إن قوة كبيرة من التبو Tebu حاملي الرماح قامت بالهجوم علينا، وأنه دافع عنا بشجاعة وأبلى بلاءً حسنًا، لكننا قُتلنا نحن والجنود السود على الرغم من ذلك. تصرف الرجل على هذا النحو لأنه كان يعرف أن السودانيين سوف يطيعون الأوامر الصادرة لهم من سيدهم السيد رضا ويحمونا إلى آخر رمق. هناك دومًا نوع من الاحتكاك البسيط بين هؤلاء المحاربين السود والعرب. ولا يمكن أن يجتمعوا مطلقًا. لهذا السبب قرر ذلك الإخواني الماكر أن تكون قوته كبيرة على النحو الذي يمكنه من قتل الجنود ونحن معهم. النسبة بين البدو والسودانيين توضح إصراره على أن يكون عدد البدو أكبر من عدد السودانيين كما أن قسوة الجنود السودانيين يجري تشجيعها بكل الوسائل الممكنة، إضافة إلى العقاب الوحشي حيث أن الجندي السوداني عندما يعصي أمرًا يجري جلده أو قطع يده!

تميز اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر بالحيوية بسبب آمال محمد المرتقبة في الزواج. كان من بين المسافرين ضمن قافلة موسى الشيب، رجل يدعى عمر؛ وكان مالكًا لجملين أو ثلاثة فضلاً عن كونه أعور ضخم الجثة، وحشي الملامح. قيل أن هذا الأعور له أخت شديدة الجمال. اهتز محمد لهذا الكلام. قام محمد بالتحريات المطلوبة وعرض في نهاية المطاف التقدم لطلب يد هذه الفتاة بعد العودة من رحلته. كان محمد رجلاً كبيرًا في عين البدوي. كان محمد يحظى بثقة السيد رضا، زد على ذلك أن محمد كان طويل القامة ممشوق القوام متناسق الأطراف؛ كما أنه كان عربيًا نحيفًا بهي الطلعة، يتباهى بعرقه

وتقاليده وموروثاته التى تحيط به من كل جانب. وافق عمر على العريس على الفور، واتفق الرجلان على أن يكون الصداق المقدم ثلاثة جمال يدفعها العريس إلى والد العروس. بعد ذلك، راح الجميع يضعون خططًا للزواج، للمرة الثالثة أو الرابعة. تناهى إلى مسمع حسانين أن بالإمكان شراء العبيد فى الكفرة وعليه قرر هو على الفور إضافة جارية جميلة إلى ما تملكه يداه منهن، عندما نصل إلى هدفنا البعيد المبتغى.

كان من ضمن القافلة رجل لم يشارك فى خطط الزواج هذه. ظل هذا الرجل طوال خمسة أيام يمشى متثاقلاً مع الجماعة، وهو يغنى ويتحدث حديثًا مبهجًا، مؤديا بذلك نصيبه من العمل، ولم يحدث مطلقًا أن ظننت أنه مختلف عن بقية الجماعة، إلى أن قام محمد من فرط حماسه للزواج، بإطلاق عقال جمله ونادى قائلاً: "أمسكه يا أعمى!" وهنا، وبلا تردد قام الصبى الأعمى، فاقد البصر، بالإمساك بالجمل. كان الأمر غير عادى بالمرة. ومن يومها بدأت مراقبة ذلك الصبى مراقبة لصيقة. رأيت هذا الصبى وهو يوجه الإبل إلى الاتجاه الصحيح. كان يقدر المسافة على نحو أفضل من الآخرين. وكان أكثر دقة فى تقديره للزمن. وقد ذكرنى هذا الصبى ببشار بن برد، شاعر العصور الوسطى العربى الحلبى الأعمى، عندما وصل إلى مدينة من المدن، وطلب منه أن يحنى رأسه فى أحد الشوارع نظرًا لوجود عارضة خشبية ممتدة عبر الشارع من منزل إلى منزل آخر. بعد ذلك بعشر سنوات وصل بشار بدابته إلى المدينة نفسها، واندهش رفاقه لأنه انحنى إلى الأسفل وسط طريق خال. وسألهم "هل لا زالت العارضة الخشبية موجودة؟"

البدو ليس لديهم فكرة عن تقدير المسافة. سأل أحدهم "كم ساعة تفصلنا عن عجيله؟" أجابوه "الصحراء لا تعرف الساعات." "هل هناك أيام فى الصحراء؟" "نعم، الصحراء فيها أيام. وإذا ما سرت بسرعة فهذا شىء. وإذا ما تراخيت، فذلك شىء آخر." وتتمثل الصعوبة فى تحديد المسافة بالأيام، فى أنه إذا ما نحينا



OUR CARAVAN APPROACHING AUJELA.

قافلتنا تقترب من العجيله



AUJELA.

العجيله

القوافل الكبيرة جانبًا، نجد أن تقدير كل واحد للمسافة إنما يتباين فى ضوء طاقته هو. ومن هنا نجد أن حياة البدوى كلها تختصر فى أقل تأثير ممكن. البدوى لا يستخدم سوى كلمات قليلة جدًّا. لأن الفعل العربى الواحد له عشرات المعانى. وعلى سبيل المثال الفعل "شيل" Shil يمكن أن يعنى "أبعد، ارفع، احمل، ارتد، تخلص من، أحزم، فُك، أسقط، ضَيَّع،" ألخ. الفعل "أكل" يجب أن ينصرف معناه إلى تناول الطعام، لكن عندما تقاتل جملان قتالاً عنيفًا وجدت محمد يقول: "إنهما يأكلان Are eating بعضهما." عرب الصحراء ليس لديهم أسماء للنباتات أو الزهور التى يرونها كل يوم. كنت قد سألت عن اسم شجرة ضخمة ريشية الشكل شبيهة بشجرة الكوروماندل Coromandel، والتى رأيناها أول مرة فى سوامى، وقيل لى: "ليس لها اسم. هى تستخدم فى عمل المنازل وفى الحطب."

كنا لا نزال عند الساعة الثالثة والنصف بعيدين عن العجيله بمسيرة أكثر من يوم واحد وكان ماؤنا قد بدأ ينضب نظرًا للإهمال من جانب الأسودين. تلت ذلك محاورة مقلقلة. سنحت لنا الفرصة برؤية يوسف الكسول وهو ينظر إلى الموقف بعين الخطر. لم يكن يتبقى معنا سوى علبتين من علب الطعام وحوالى رطلين من الدقيق ورطل من المكرونة. وتقرر أن نخيم مدة ساعتين لنيل قسط من الراحة بعد ركوب دام ثلاث ساعات، ثم نواصل المسير بعد ذلك على ضوء النجوم. أعطينا المرافقين لنا نصف الطعام مع آخر قطع من السكر، وأعددنا لأنفسنا قهوة على نار صغيرة فى حفرة حفرناها فى الأرض. كنا قد جمعنا فى ساعة مبكرة من النهار حطبًا من آخر بقعة من بقع الأعشاب الخفيضة التى مررنا عليها، وحمَّلنا ذلك الحطب على أحد الإبل. كرهنا فتح العلبة الأخيرة، لكننا كنا نعرف أننا يتحتم علينا المحافظة على الحبوب لتكون إفطارًا للرجال فى اليوم التالى. لم يكن لدينا جميعًا ما نأكله طوال النهار، سوى قليل من التمر وسلطانية صغيرة من لبن الإبل التى أعطانى إياها موسى الشيب الحبوب مع شروق الشمس. سوف أذكر دومًا ابتسامة

ذلك العجوز الملتوية عندما قال: "عندما تسعدين أنا أسعد أيضًا. وعلى شرف السيد رضا، نحن على استعداد لأن نحملك على رءوسنا!" من يمن الطالع أن كانت الليلة عظيمة. عند الساعة الخامسة بعد الظهر صلينا المغرب وإلى الأركـــان المعتـــادة أضفت سجدة داعية أن نصل العجيلة يوم غد. كان ينبغى ألا أنظر إلى ذلك علـــى أنه ممكن بأى حال من الأحوال، وأن تكون جماعتنا الكسولة قد جمعت هذا القـــدر الكبير من الطاقة. وعندما ظهر نجم المساء أحمر على الأفق جرى تحميل الإبـــل وبدأنا السير عند الساعة الخامسة والنصف فى ضوء قمر على شكل هـــلال فـــى سماء عامرة بالنجوم. معروف أن سير القوافل يكون أفضل أثناء الليل، والسبب فى ذلك أن الإبل لا تحاول الرعى أثناء الليل. الجو بارد، والرجال يبدو عليهم الوجوم، وهم يغنون أغانى برية مستمرة ويحثون دوابهم على إسراع الخطى مستخدمين فى ذلك صيحات، وصرخات غريبة "واصل سيرك، يا جميل!" "بـــيِّن نفـــسك، لأنـــك سترتاح حالاً!" "اصبر، أيها القلب القوى، لا تتعثر!" أو يكررون كورالاً مملاً "شىء لطيف! شىء لطيف!" "مع السلامة!" وإذا ما صمت شخص منهم لمدة تزيـــد علـــى دقيقة واحدة يروح الآخرون ينادونه بالاسم ويطلبون منه أن يكون صوته مسموعًا. وعليه، وفى ضوء زيادة البرد، والأغانى والصيحات المصاحبة لنا، واصلنا سيرنا مدة ثلاث ساعات ونصف الساعة، وعندها رأى موسى الشيب أننا يمكن أن نخـــيم فى سلام نظرًا لأننا أصبحنا على بعد مسيرة يوم واحد من عجيلة.

بدأت بعض الروابى الرملية تقطع سطح ذلك السهل الواسع الشاسع. وفـــى ضوء النجوم الأبيض، الواضح البارد، وفى ظل هبوب الريح الجنوبيـــة - التـــى تنغص الحياة فى الصحراء - قمنا بوضع أكياس البراغيث(*) فى موضع بعيد عـــن مهب الريح خلف أكبر الروابى ودخلت فى الكيس دون أن أغير ملابسى. حاولـــت

(*) المقصود هنا هو "أكياس النوم". (المترجم)

وضع أجنحة الكيس على رأسى، لكن الرمل كالعادة، كان يغطى كل شىء وأكلت حصى مع التمر ليكون ذلك بمثابة وجبة الإفطار. كنا قد قررنا استئناف السير قبل طلوع الفجر، لكن الإبل كانت قد ضلت بحثًا عن أى شىء من الحشائش. وعندما جمعنا الإبل، راحت تكشف عن ضيقها وعبقريتها عن طريق التخلص من أحمالها وعرقلة نفسها فى كل الأحزمة المتيسرة. كانت الريح قارسة البرودة، وكان البرّكان الذى استعمله فى أسوأ حالاته عندما لف نفسه حول كل شىء فيما عدا جسمى أنا! الفرّاجان رفضا السير لأنهما كانا يشعران بالبرد. أعمت الريح القبلية الإبل التى راحت تدور حول نفسها. وحتى حسانين نفسه لم يكن يشعر بالنشاط والحيوية لأنه لم يتناول سوى ستة أقراص من الحليب المخلوط بالمولت. وسط هذا الجو المتكهرب وجدتنى أفقد صوابى وقلت: "سأريكم كيف تسيرون." ونزلت من فوق جملى، ووضعت برّكانى على ذراعى، ورحت أسير بخطوات كبيرة فى اتجاه الجنوب. ربما يكون هذا العمل قد حث القافلة على الحركة، لكنه لم ينه عمل أسبوع تقريبًا. ولمدة عشرين دقيقة، وبينما كانوا يتبعون خطاى، كان عمر ومغرب يناقشان مسألة المسيحيين وأساليبهم. قالا: "هؤلاء النساء الإفرنجيات يمشين جيدًا إلى أن يصبحن بدينات ولا يقدرن على الحركة." غير حسانين موضوع الحوار مرة أو مرتين أو ثلاثًا، لكنه كان دائمًا يعود إلى الفرق بين النصرانى والمسلم.

واصل موسى الشيب المسن سيره ووجدته ينتظرنى على قمة مرتفع صغير تبدو منه مشارف الواحة التى اشتقنا إليها منذ زمن طويل، على شكل لون أخضر باهت يحيط به ضباب السّراب. قال: "فى هذه المنطقة يوجد بير موسى. سوف تأكلين الليلة بيضًا وخبزًا وتشربين حليبًا." قلت: "أعتقد أنى بحاجة أكبر إلى خياط" كى يصلح لى بنطالى الأبيض الممزق من فوق الساق والركبة "هذه الأشياء لابد من إصلاحها." قال موسى بشكل قاطع: "أعتقد أن الحصول على بنطال جديد هو الأفضل!" عند الساعة العاشرة صباحًا بدأنا نرى خط موسى الداكن عن بعد، لكننا

لم نصبح على مستوى واحد مع هذا الخط إلا بعد الظهر، وبدأنا نسير بصورة منتظمة فى اتجاه الجنوب عبر سهل رملى منبسط ليس فيه أى أثر يدل على وجود واد. ونظرًا لوجود بئر فقط فى موسى وعدم وجود قرية، فقد تركنا البئر واتجهنا شرقًا وواصلنا سيرنا مباشرة إلى العجيلة، التى تقع فى الطرف الجنوبى الغربى من واد على شكل حرف S، تمثل موسى طرفه البعيد الآخر. عند الساعة الثانية عشرة والنصف صعدنا فوق مرتفع بسيط، ورأينا من تحتنا واديًا أخضر واسعًا مليئًا بالنباتات الخفيضة الرمادية الخشنة، وكتلة من النخيل فى الجانب البعيد. قال محمد المتدين: "الحمد لله!" ونزل من فوق جمله لأداء صلاة الظهر.

الفصل الخامس

نجاحنا فى الوصول إلى جالو

عبرنا الوادى عند الساعة الثانية عشرة والنصف، وكانت وجوهنا تؤلمنا وتحترق بفعل الريح القاسية. كانت الريح محملة بالرمل والحرارة زائدة عن الحد. كان جسم الواحة الطويلة الملتوى مكونًا من حدائق النخيل، لكل منها بئرها المستقل أو آبارها المستقلة، والتى تعرف باسم السوانى(*)، لكن قرية العجيله تقع فى منطقة التكورُ الغربى البعيد. وهى منطقة السوانى توجد بعض البنايات القليلة المهدمة الجدران، حيث يوجد تُبُّه (ثوب)، زرقاء مهلهلة، تعلن منذ الوهلة الأولى هى والأشجار رفيعة الأغصان خشنة اللحاء، عن وجود شىء شبيه بأشجار التنُّوب أو نبات الست المستحيه، لكنه لا اسم له بطبيعة الحال.

سرنا متلكئين طوال ثلاث ساعات فى اتجاه الجنوب الغربى بموازاة خط نخيل السوانى وقد ظهر أمامنا برج مربع قديم على تل رملى فى جهة اليسار- قبر المرابط(**) سيدى صالح- لكننا تركنا هذا القبر وراءنا، قبل قمة مُرْتَفَع آخر أوصلنا إلى منظر العجيله التى كنا نشتاق إليها منذ زمن طويل. بدت الشمس باهتة خلف الرمال، لكننا أطلنا النظر مشغوفين بكتلة أشجار النخيل التى لا يقطعها سوى الكثبان الرملية البيضاء المنخفضة السطح التى تمتد حوالى ميل واحد فى اتجاه الجنوب. كانت المنازل المبنية من اللبن فى الناحية البعيدة من العجيلة، وكانت

(*) هذه الكلمة معروفة عند بدو ليبيا وعند بدو السعودية وربما كانت قريبة من كلمة "السواقى" المصرية التى تحدث صوتًا أثناء دورانها، وهذا الصوت مألوف أيضًا فى كل من ليبيا والسعودية. (المترجم)

(**) المرابط كلمة عاميه ليبيه إذا ما استخدمت صفة دلت على 'القداسة' وإذا ما استخدمت اسمًا أعطت معنى "قبر". (المترجم)

المنازل كلها مكومة تحت ظلال النخيل، وقد تبعثرت خلاليا، هنا وهناك، مجموعة من القباب الطينية الصغيرة مربعة الشكل على سطح مسجد من المساجد. ويبدو شكل المنازل هنا مختلفًا اختلافًا كبيرًا عنه فى إجدابيا، فهى منتشرة انتشارًا كبيرًا على سهل من الحجر الرملى الأبيض. تعطى العجيلة انطباعًا أوليًا عن بلدة مخرَّبة بسبب أحواشها الصغيرة المبنية من الطين دون أسقف، وممراتها غير المنتظمة المؤدية إلى المداخل، وجدرانها غير المكتملة؛ لكن المنظر رائع للغاية إذا ما نظرنا إليه على خلفية الشمس الغاربة.

خيمنا قبل الساعة الرابعة بقليل فى تجويف خلف آخر سور مصنوع من زعف النخيل المضفور وقد بلغنا من الجوع حدًّا عجزنا معه عن الانتظار لحين إتمام نصب الخيمة. وراحت أحلام ورؤى الحليب والبيض والخبز الطازج تتراقص أمام أعيننا. أرسلنا يوسف المتين يسأل عن هذه الأشياء. وفى ذات الوقت، كان عمر قد رحل إلى منزله فى البلدة، ليعود إلينا بعد وقت قصير ومعه سلة مليئة بالتمر الفاخر. كان عمر شخصية متباهية فقد وجدنا ممددين على أسرَّة المخيم، غير قادرين على الاهتمام بالطعام. كنا قد عثرنا على قطعة من الشيكولاتة فى حقيبة من الحقائب التى تُحْمَلُ على الظهر. طلب منى حسانين أن آكلها، لكن الصحراء لها قوانينها الخاصة. أما هنا فنجد قانون الأخلاق الأوروبى يختفى تمامًا. الإنسان يتحول إلى مخلوق متوحش بسيط قد يرتكب معظم الجرائم بوقاحة كاملة. وعلى العكس من ذلك، نجد أن الإنسان يفهم أن الأعمال التى تعد أمورًا طبيعية ومسموحًا بها فى لندن، يمكن أن تكون أخطاء لا تغتفر فى الصحراء الكبرى. القوانين التى يخضع لها الرحالة والجوالون هى: "يجب ألا تأكل أو تشرب أكثر من نصيبك أو حصتُك"، "لن يسمح لك بالتجوال فى الأماكن التى سبق لك أن زرتها، أو المسافات التى قطعتها."

بدّل عمر قميصه الوسخ الأبيض الممزق، هو وجيردته*(الزى الوطنى) بجُبَّه مطرزة زرقاء اللون، وجيردة مُقَلّمَة(**). شكرناه شكرًا جزيلاً على التمر، وأصغينا بلا مبالاة لتلك الحقيقة المرة التى مفادها أنه لا يمكن شراء أى شىء من عجيله. والذى لا شك فيه، أننا باعتبارنا ضيوفًا على السيد رضا - على حد قول عمر، فإن الأشخاص المهمين فى البلدة سوف يرسلون لنا هدايا من الطعام فى الغد، لكن فى الوقت الحالى، وبعيدًا عن التسول، لا يمكن عمل أى شىء. ولما كانت المسألة تتعلق بالحظ من قدرنا باعتبارنا مصريين مهمين يترحلون فى مهمة خاصة بالسيد رضا، فقد رفضنا شرح الحال التى نحن عليها، ومن هنا عقدنا العزم على تناول عشاء من أقراص الحليب والتمر. وفى اللحظة الأخيرة، ظهر واحد من ملائكتنا الحارسة، ألا وهو موسى الشيب، ظهر لنا مبتسمًا، ومنديله قرمزى اللون ملىء بالبيوض الطازجة! كان فرحنا لا يمكن التعبير عنه. لا أعرف عدد البيوض التى أكلتها. أذكر أنى كنت جاثية على ركبتى فى الرمل فترة طويلة تحت السماء الهادئة التى تضيئها النجوم، وأنا شبه عمياء بفعل الدخان الناتج عن الحطب المشتعل، وأنا التهم تلك البيوض الواحدة تلو الأخرى. قال حسانين: "أنا تعجبنى صلصتك الخاصة. سوف أفتقد طعم الرمل فى القاهرة!"

أفلحنا فى الاغتسال بعد ذلك بفترة قصيرة، وقد خفت فرحة الاغتسال هذه بفعل الحقيقة التى مفادها أننا كنا نعانى من طفح جلدى كان يغطى الجسم كله. كنا نطلق على ذلك الطفح من باب التأدب اسم حرارة، لكننى على يقين من أن ذلك كان وسخًا وأقذارًا! بعد الانتهاء من أكل البيوض، جاء إلينا محمد منفعلاً ليقول لنا: إن شيخ الزاويه(***)، عبد القاسم، ومعه الأخوان وأعيان القرية سيجيئون لزيارتنا،

(*) "الجيردة": كلمة ليبيه، ولعل المقصود بها هو "البردة" التى هى رداء وطنى عند الليبيين، وهى عبارة عن قطعة من الصوف أو الحرير. (المترجم)

(**) مقلمة: أى فيها خطوط. (المترجم)

(***) المقصود بالزاوية هنا المدرسة أو الكلية التى تقوم بتعليم الطقوس السنوسيه. (المترجم).



THE MOSQUE AT AUJELA WHERE IS BURIED THE CLERK OF THE PROPHET MOHAMMED.

المسجد الذى فى عجيله والمدفون فيه كاتب النبى محمد



INTERESTED SPECTATORS AT AUJELA.

متضرجات مهتمات فى عجيله

لأنهم سمعوا أننا نحمل لهم رسائل من السيد رضا. لم يكـن لـدينا ملابـس كـي نرتديها. ولم نستطع حتى تقديم الشاى المحلًى بالسكر لهم. وهنـا يجـيء موسـى الشيب لإنقاذنا مرة أخرى، واتفقنا على أن يتم اللقاء فى خيمته. اتشح حسانين على وجه السرعة بجردى الحريرى الجميل الذى كانت له كوفيه موشاة بالقصب جـاء بها من مصر وهو يضعها الآن على رأسه، تلك الكوفية الرائعة التى أعطانى إياها السيد رضا، والتى يلفها حسانين حول عنقه بطريقة جميلة. كان الاجتمـاع مهيبًـا للغاية. كان الشيوخ المحترمون يجلسون حول الخيمة الضيقة من الـداخل، علـى سجاد مصنوع من وبر الإبل ومصبوغ، وكانت بنادقهم مستندة إلى علـى عمـود الخيمة المركزى. وفى هدوء وجدية كاملة راحوا يقرءون الخطابات المرسلة مـن السيد إدريس ومن السيد رضا. وغمغم الأخوان فى صوت واحد: "أوامـر الـسيد على رءوسنا."

جرت بعد ذلك مناقشه التفاصيل. وأصبحت مسألة المسافة أمرًا صـعبًا مـن جديد. هناك تعبير شهير "المسافة التى يقطعها المرء بقربة واحدة". القربة عبارة عن جلد ماعز مجفف يستعمل فى حمل الماء. تتسع هذه القربة لحوالى أربعة إلى سـبعة جالونات من الماء. والبدو يقولون: إن الإنسان يمكن أن يكتفى فـى الـشتاء بقربـة واحدة فى مسيرة تدوم خمسة أو ستة أيام، ولكنها تكفى مسيرة ثلاثة أيام فقـط فـى الصيف. وبعد نقاش طويل قيل لنا إن المسافة تقدر فى الحقيقة بمسيرة ثلاثـة عـشر يومًا من جالو إلى الكفرة عن طريق القوافل المباشرة التى تمـر علـى واداى. وأن هناك بئرين، إحداهما فى بطًفال Buttafal، التى تبعد مسيرة يوم عن جـالو، وبئـر أخرى فى زايغن Zieghen، التى تبعد مسيرة سبعة أيام عن بئر بطًفال. بئر زايغـن هذا يقف وحيدًا فى الصحراء، موقعًا بطريق الخطأ على الخريطة على أنـه واحـة سرحين Sirhen. هناك طريق آخر يتجه من جالو إلى الكفرة، وهو الطريـق الـذى سار فيه رولفز الألمانى. هذا الطريق يمتد ناحيـة الغـرب إلـى واحـة تيـسربو

Taiserbo، التى تعد بطريق الخطأ واحدة من مجموعة واحات الكفرة. واحة تيسربو هذه تحتوى على العديد من القرى، وأكبر هذه القرى هى قرية كسبه، مابوس، والقصر، والوادى، التى يسكنها الزَّواوية Zouias والتيبو Tebus، ومعروف أن التيبو هم السكان الأصليون لواحة الكفرة، التى قام السنوسى بطردهم منها بصورة متدرجة عن طريق الغزو. ويوجد خلف واحة تيسربو مجموعة من العصابات القبلية المتوحشة، الذين يسعدون بنيبهم للقوافل، وقتلهم لمرافقيهم. هذه العصابات أعداء ألدَّاء للتجار، وتعد زايغن بين الحين والآخر واحدًا من أماكن التوقف الخطرة، لأن التبو ينهالون على الشرق قادمين من معقلهم الرئيسى فى ربيانه Ribiana، أو قد ينهال عليها الزّواوية من بُسيمه، ليقوموا بالهجوم على القوافل، ويختفون بعد ذلك فى الصحراء قبل أن تصل أنباء الهجوم إلى الكُفرة، لكن بجانب الخوف من الهجوم، هناك أيضًا الخطر الذى ينجم عن زحف الكثبان الرملية.

كما يمكن أيضًا السفر مباشرة من جالو إلى بُسيمه، وهذا طريق غير موقع على الخريطة. فى هذا الطريق يمر المترحل على 'الهاتيا،(*) فيما بين زايغن وتيسربو، التى يوجد الماء فى حوضها، كما يرى فيها المترحل أيضًا ذلك الجبل الغريب الداكن الذى يقع على بعد مسيرة يومين قبل الوصول إلى الواحة الواقعة فى ظل هذا الجبل الداكن. كانت بسيمه تروق لى بصورة دائمة بسبب جبلها الأسود الجميل وبحيرتها أيضا! بحيرة فى صحراء ليبية! هذا وحده يكفى أكبر عدد من اللصوص! حاولت جاهدة جعل عبد الله يتجاهل تيسربو، الشبيهة إلى حد بعيد بأية واحة صحراوية منبسطة، وأن يتجه مباشرة إلى منطقة الجبال الداكنة، لكنه كان مصرًا على رأيه. لم يكن على استعداد بالمخاطرة بذلك الطريق الخطير، ولذلك عقدت العزم أنا وحسانين على التفوق عليه فى المكر والدهاء. كان الرجل مستعدًا

(*) هاتيا: مفردة ليبية عامية تعنى "منخفض يحتوى على أشجار متشابكة". (المترجم)

لأخذى إلى تيسربو مصممًا فى سره على الذهاب إلى زايغن ومنها إلى الكفرة عن طريق القوافل الرئيسى. وافقت على طريق تيسربو، لكنى صممت تصميمًا أكيـدًا على مواصلة السير إلى هدفنا الرئيسى عن طريق بَسيمة.

سبق أن أتينا على ذكر الطرق الأخرى المؤدية إلى المدينة المقدسة. قلنا إن أحد هذه الطرق هو من جنوب واحة جغبوب، وهناك طريق آخر قادم من واحـة الفرافرة فى مصر، لكن هذين الطريقين يحتمان لمدة ثلاثة عشر يومًا بـلا مـاء. ويبدو أن أحدًا لا يعرف شيئًا عن طريق الفرافرة سالف الذكر، لكن الخسائر التـى تقع على طريق جغبوب تعد أمرًا مروّعًا. آخر الأعراب الذى حاول الـسفر عـن طريق جغبوب وافته المنية على الطريق بسبب فساد ما معه من ماء. وقد اضـطر السيد أحمد – وهو يعبر هذا الطريق مع أحد الجيوش – إلى ترك أمتعته، وخلّـف مخزوناته وخيوله وراءه. هناك جماعة أخرى حاولت عبور ذلك الطريـق، لكنهـا ضلت طريقها، وبعد أن توفى نصف أفراد هذه الجماعة، وصلت البقية الباقية منهم إلى واحة سيوه بطريق الخطأ. قال عبد القاسم: "لقد فقد المرشـدون صـوابهم. إن خطأ واحدًا يكفى لأن يفقد المرء حياته!" كنت مشغوفة جـدًا بـالعودة مـن ذلـك الطريق، لكنهم جميعًا جعلونى أحيد عن رأيى وأثنوا عزمى. قالوا: "عـودى إلـى جالو، لأن المسافة من جالو إلى جغبوب تقدر بمسيرة سبعة أيام فقط، لكـن هـذه الأيام السبعة ستكون بلا ماء. فقد جرى غلق الآبار فى فترة الحرب."

طرحنا أسئلة أكثر تحديدًا عن وضع واحة الكفرة. قالوا: خمسة أيـام مـن زايغن وسبعة أيام من تيسربو، يصل المرء بعدها إلى الواحة التى يطلـق عليهـا العامة اسم كِبَابو Kebabo التى هى واحة الكُفرة فى حقيقة الأمر. هـذه الواحـة ليست واحدة من بين مجموعة. إنما هى منعزلة تمامًا وتضم خمسة قرى.

قال الشيوخ أصحاب اللحى التى دب الشيب فيها، كل هذا الكلام فى ضـوء شمعتين خافتتين وهم جالسون فى خيمة موسى الشيب المتواضعة. كان جو الجلسة

عامرًا بالود. كانوا متعاطفين معنا ويودون مساعدتنا. قالوا: "لن تنالي سوى الخيــر من رحلتك. لقد باركك السيد إدريس. وعليه فإن مجيئك إلينا يعد شرفًا لنـــا. ابقــي معنا يومًا واسمحي لنا أن نراك مرة ثانية." كان الجو المحيط بنا عامرًا بالحمـــاس وأحسست أني كنت وسط أصدقاء.

تغير الأمر، بطبيعة الحال تغيرًا تامًا في فترة الصباح ويصعب علينـــا فـــي أوربا فهم عقلية أبناء الطبيعة هؤلاء أنهم بسطاء وعاطفيون. هناك حاجز بسيط بين حنانهم وكرمهم، يتمثل في التشدد الجنوني فيما يتعلـــق بمـــوروثهم مـــن العـــادات والتقاليد. كنا نلعب دورًا صعبًا وكانت خيوط ذلك الدور متـــشابكة. تحـــتم علينـــا التظاهر بالفقر خشية الهجوم علينا من قبل عصابات اللصوص، ومع ذلك كنا على استعداد لتقديم الرشوة إذا ما تطلب الأمر ذلك. تحتم عليَّ أيضًا أن أكـــون امـــرأة مسلمة، ولذلك كنت أتحدث مع الإخوان والشيوخ. تحـــتم علينـــا التظـــاهر بأننـــا مصريون مهمون حتى نكون جديرين بالحماية، ومع ذلك لم يكن معنا ملابـــس أو مؤن. كنا نتجول في مهمة سرية خاصة بالسيد لكننا ذهبنا إلى أماكن ليست فيها أية فرصة من فرص العمل. لم يكن مستغربًا أن يلاحقنا الشك بصورة مستمرة. كانت القصص والروايات عن امرأة مسيحية هي وسكرتيرها قد وصلت إلى هذا المكـــان قادمة من إجدابيا. كان ممكنًا أن يتعلقوا بنا على طول الطريق.

الظاهر أن بدويًا واجمًا جاء إلى خيمة موسى الشيب في الليلة السابقة واحتج احتجاجًا شديدًا على وصول هؤلاء الغرباء من مصر. قال: "هم ليسوا منا؛ ولابـــد من إخضاعهم للأسئلة البحثية المعتادة. وعندها سنعرف من هم وما هي مهمـــتهم." قال صديقنا: "هم يحملون رسائل من السيد. ألا يكفيك ذلك؟" قال البـــدوي مـــصرًا: "يجب أن يتعلموا أن الترحال في هذا البلد أمر صعب. لا يجوز للغربـــاء المجـــيء إلى هذا البلد." كان واضحًا أن رجلاً مهمًا من رجال البلدة كان يقف هذا الموقـــف نفسه، وقد ظهر ذلك في اليوم التالي بشكل واضح عندما وجدنا الإخوان منقـــسمين

إلى معسكرين. كان أحد المعسكرين منفذًا حرفيًا لرسالة السيد رضا ومقيمًا لوليمة على شرفنا. أما المعسكر الثانى، بقيادة أحد الأعراب الجامح، شيخ فخذ من قبيلة الزُوايا Zouia، والذى اعتاد على معارضة رغبات السيد رضا، فقد كان يرى تجاهلنا. جاءت النتيجة على شكل حل وسط. لم يضيفونا، لكنهم التقوا فى الزاوية(*) فى العصر واستقبلونا استقبالاً وديًا. ووقعوا بأسمائهم على وثيقة غريبة، تنص على إنه تنفيذًا لأوامر السيد رضا، فإنهم قد استقبلوا حسانين بك والست خديجة استقبالاً وديًا، وأنا أعتقد أنهم كانوا خجلانين عندما فعلوا ذلك، لأن شخصًا يدعى أحمد أفندى، جاء من جالو لتحصيل الضرائب الحكومية، قال لى بجرأة وشجاعة "سوف أوقع على هذه الوثيقة عندما ألقاك فى بلادى (قريتى) خلال أيام قلائل." وقد عرفنا بعد ذلك أن أحمد أفندى هذا ألقى خطبة موالاة فى الصباح، قال فيها أنهم يتعين عليهم جميعًا تكريم ضيوف السيد رضا، وإن الاستقبال الرسمى الذى جرى فى الزاوية كان بفضله هو.

يتراوح عدد الإخوان فى العجيله بين الثلاثين والأربعين. وشيخ الزاوية هو عبد القاسم. والزاوية تقع على أرض مرتفعة ارتفاعًا طفيفًا فى وسط المدينة. والزاوية عبارة عن مبنى من اللِّبن مربع الشكل له نوافذ لها عوارض ثقيلة، يشبه القلعة أكثر منه (مدرسة) أو إخوانية. فى الأسفل توجد بساتين من الخضراوات والبصل والقرع العسلى. وتجرى زراعة الشعير تحت جدران القرية المهدمة، ويرى الرائى فى المنخفضات الضحلة الواسعة صفوفًا من الطوب الرملى الذى يجرى تجفيفه فى الشمس. تجولنا فى الصباح خلال البلدة، ومن ورائنا جمع من الأطفال المندهشين الذين ربما لم يرو غريبًا من قبل مطلقًا. كانت النساء يختلسن النظر إلينا من مداخل الأبواب المنخفضة. كن ملفوفات فى طيات ثيابهن الزرقاء

(*) كلمة ليبية عامية يمكن تسميتها بالاخوانيه أو واحدة من إخوانيات سيدى إدريس السنوسى. (المترجم)

الطويلة التى كانت زاهية اللون فى ضوء الشمس. كنت أشاهد بين الحين والآخر ومضات من اللون البرتقالى أو اللون القرمزى. كن يلبسن أقراط من الذهب فى آذانهن، وكن يحملن وشم القبيلة على جباههن وذقونهن. السواد الأعظم من أهل العجيلة يتحدثون لهجة شبيهه بلهجة الطوارق، وشبيهه أيضًا بلهجة بعض سكان سيوة، لكن هذه اللهجة لا يفهمها أهل جالو.

سرنا خلال المسارات الضيقة الملتوية التى تحدها من الجانبين جدران عالية من اللِّبن، وكنا نرى هنا وهناك نخلة تظلل دغل رمادى اللون، إلى أن وصلنا إلى أكبر المساجد، سقفه مربع الشكل مغطى بقباب من الصلصال. التقينا عند المسجد بعضًا من الإخوان، الذين حيُّونا تحية حانية وأخذونا إلى الزاوية (الإخوانية) لمشاهدة قبة(*) عبد الله الصحابى، الذى يقال أنه كان كاتب النبى محمد ﷺ، وأنه مدفون فى هذا القبر. وعن طريق ممر ضيق يستطيع المرء الدخول إلى حوش رملى مربع الشكل سطحه ضيق ويمتد فى ثلاث اتجاهات ويجلس تحته الإخوان على الحصير. وهناك باب يؤدى إلى حوش أصغر من الحوش الأول، ومن خلال هذا الحوش الصغير يمر المرء خلال غرفه مؤدية إلى غرفة أكبر منها ومنها إلى المسجد. القبر موجود فى المنتصف، ومغطى بقماش قطنى صارخ اللون، والجدران معلق عليها مرايا رخيصة، وبيوض نعام، وهذه البيوض جاءت على سبيل الهدية من الحجاج الذين يأتون من واداى. طفنا حول القبر، ونحن نقرأ القرآن، ثم قبلنا القبر بعد ذلك، ثم قرأنا "الفاتحة" فى السر. يمضى الإخوان أيامًا بكاملها وهم يقرءون القرآن ويدرسونه حول القبر.

سألناهم عن قافلة رولفز، لكنهم لم يعرفوا شيئًا عنها سوى أن ماينسمان Mannismann كان موجودًا هناك قبل أن يبدأ رحلته المشىءومة إلى غرب

(*) المقصود بالقبة هنا هو "القبر الذى تعلوه قبة"، والمصطلح قريب جدا من المصطلحات العامية التى من قبيل "مقام" فى التعبير "مقام سيدى إبراهيم الدسوقى" أو "مقام السيد البدوى". (المترجم)

البلاد، بعد أن وقّع على تعهد وفاته عندما أقر كتابة أنه قام بالرحلة على مسئوليته الخاصة. قالوا لنا: إن الزاوية أسسها محمد المهدى فى العام ١٨٧٢ ويقع القصر التركى القديم، بالقرب من الزاوية، وهو مقر "القائمقام" العثمانى، ويستغل كتبه الحكومة السنوسية هذا القصر ويجعلون منه مكتبًا لهم.

كنا قد انتهينا منذ وقت قصير من تناول غداء قوى قدمه لنا فجأة عمر الكريم، وكان عبارة عن كتلة من الخبز الحار، والبيض مع دجاجة مطبوخة فى طبق من عصير شمى، وفلفل أحمر، وكنا نحاول تبريد أفواهنا وعيوننا التى كانت تدمع بفعل الفلفل الحار، عندما حدثت المفاجأة الكبرى بطريقة بسيطة وغير متوقعة. كانت أعيننا تفتش فى الأفق ساعات طوال. كنا قد ضخَّمنا عددًا كبيرًا من القطعان التى ترعى فى إطار القافلة التى كنا نشتاق إليها منذ زمن بعيد، وفجأة قال يوسف الذى كان يقف على مُرتفع فوقنا: "هناك قافلة قادمة علينا"، لكننا لم نعر كلامه انتباهًا. كنا قد تناولنا وجبتنا الطيبة الأولى منذ أثنى عشر يومًا. كنا ممنونين جدًا لعمر وكان شاغلنا الشاغل هو كيف نكافئه على كرمه. (فيما بين قوسين يمكن القول أن الشىء الوحيد الذى كان يريده عمر هو شىء من ذلك العطر الخيالى الذى تشمَّمه منى. وقد تمكنت فى نهاية الأمر من معرفة أن ذلك العطر كان من مسحوق الوجه الذى يسمى كوتى Coti، الذى استطعت الحصول عليه من القاهرة؛ وينصرف عمر وهو فى غاية السعادة بعد أن أعطيته ربع صندوق المسحوق.) وعندما نزل يوسف مهرولاً من فوق المُرتَفع كان يصرخ ويقول: "قافلتنا، الحمد لله! قافلتنا وصلت أخيرًا!" ويذهب الخمول والكسل عن الجميع ونروح نندفع إلى أعلا التل بسرعة أكبر بكثير مما يتطلبه الوقار.

كان يوسف صادقًا فى كلامه. كان هناك أثنا عشر جملاً واثنا عشر رجلاً على بعد حوالى مائة ياردة منا. وصل فى البداية شخص مهيب يرتدى برنسًا أبيض اللون، يدعى عبد الله، وهو مرشد شهير، يعرف الطرق الليبية كلها، ويقول

البدو عنه "هو صاحب قلب كبير"، وجاء من بعده، قائد القافلة عبد الرحيم، صغير الجسم، سريع الحركة، صاحب الوجه النحيف الضحوك وهادئ الطبع، وبشرته الأبنوسية اللون. جاء من بعده الرقيب مُراجع Moraja، الذى كان بيته فى الكُفرة، ومعه ستة رجال. كان الطباخ يمشى فى الخلف لكننا لم نره فى تلك الليلة، إذ أُوفِد على الفور لإعداد مائدة لأصدقائنا من الشيب وبعد موجة الفرح الأولى عندما راح كل واحد خلالها يصافح الآخرين عشرات المرات، وبعد أن عَمُر الجو بالتعبيرات "مبسوط" و "طيِّب" و "الحمد لله!"، رحنا نراقب تبريك الإبل ونحن مندهشين اندهاشًا كبيرًا. ولما كنا تعودنا على صلافه الفَراجين، فإننا لم نصدق أعيننا، إذ فى غضون خمس دقائق فقط، وتحت إشراف وعلى مرأى من عبد الكريم نفسه، جرى إطلاق سراح الإبل، وتكويم الأمتعة والبنادق، وسارع الرجال إلى نصب الخيام. لم يكن أمامى من شيء سوى أن أدعك عيناى وأشهق انبهارًا، فى حين كانت عيناى تتجولان حول الأمتعة بحثًا عن الجوالين اللذين أخذا بطريقة غامضة من مسكننا فى إجدابيا فى جوف الليل. تعرفت على هذين الجوالين الواحد بعد الآخر، وعاد الهدوء إلى نفسى، مع أنى عندما نظرت إلى الأسفل، رأيت أرجل بيجامتى المقَلمة ظاهرة من تحت ثوبى الأحمر اللون، والسبب فى ذلك أن البنطلون المصنوع من القطن، والذى أسئ استعماله كان قد تمزق كلية فى الليلة السابقة.

سألنا عن أخبار إجدابيا. قال عبد الله جادًا: "يقولون فى السوق إنك هربتى فى طائرة جاءت من عند الله ﷺ"؛ لكن عبد الرحيم ابتسم ابتسامته الصغيرة الحكيمة. قال عبد الله: "سألونى إلى أين أنا ذاهب بتلك القافلة الكبيرة؛ وقلت لهم: إنى مسافر لتأديب بعض البدو الذين لم يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم للسيد رضا." علمنا من خلال رسالة من أمين سرنا الأسود اسوداد الأبنوس، أن المراسل الثانى هو الذى أكتشف وجودنا فى الوادى الفارغ. كان المراسل الأول قد بحث وعاد بخفى حنين. وعرفنا أيضًا أن الإخوان هم والجماعة التى اعترضت على

سفرنا كانت غاضبة لهربنا، الذى لم يتطرق الشك إليه مطلقًا. هذا يعنى أن بعض عصابات اللصوص كانت فعلاً على الطريق، وسبب ذلك أنه بالقرب من بير الرسام، قام بعض البدو المسلحين باعتراض قافلة اللصوص التى كانت تسير ليلاً ونهارًا بغية اللحاق بنا (قطعت القافلة مسافة ٢٢٠ كيلو مترًا فى أربعة أيام ونصف) وسألوا اللصوص عن مقصدهم، فى حين سأل اثنان أو ثلاثة آخرون كانوا على مقربة منا: "أين المرأة النصرانية الثرية التى سوف تترحل فى اتجاه الجنوب ومعها مخزونات كبيرة من الطعام؟" قال عبد الكريم: "أنا لا أعرف شيئًا عن هذه المرأة. ونحن ليس معنا نساء، لكن إذا أردتم مقاتلتنا فسوف نسعد بذلك!" وهنا تراجع العرب المحبطون على وجه السرعة.

لم يطرق النوم جفونى دون مزيد من الدلائل على كرم السيد رضا. أحضروا جوالاً كبيرًا من التمر إلى خيمتى. "هذا التمر من بساتين السيد رضا. وقد تلقينا رسالة بتسليمه لك."

حدث تسامر(*) كبير فى مختلف الخيام فى تلك الليلة، تردد بين تبادل التهانى والتعبير عن أطيب الأمنيات. كان الشيب هم وبدونا يأكلون فى خيمة والجنود يأكلون فى خيمة أخرى. جرى إشعال العديد من النيران الصغيرة التى كانت تشتعل مرحًا. كنا نتنقل من خيمة إلى أخرى، ونحن نعد القهوة من البن الجديد الذى وصلنا؛ وكنا نقدم القهوة بالطريقة العربية الصحيحة. إذ كنا نتذوق القهوة فى البداية، ثم نعيدها إلى الإناء إذا لم تكن حلوة على النحو المطلوب. صعدنا بعد ذلك إلى المُرتَفَع (التل) الذى يعلو البلدة النائمة، وتحدثنا عن كل ما فعلناه، الذى كان قليلاً جدًا إذا ما قورن بذلك الذى يتحتم عمله. ومع ذلك، كنا قد كسبنا الجولة الأولى من اللعبة، وهنا أحسسنا بأن فرصة النجاح متاحة! لكن على الرغم من أن

(*) استخدمت المؤلفة كلمة 'فضل' Fadhling وهى كلمة ليبية تعنى "الجلوس والحديث". (المترجم)

الهدوء والأمان كان يلفنا وعلى الرغم أيضا من أن هدوء الصحراء كان يغمر أنفسنا، فإن بذرة الصراع الأولى التى يمكن أن تقضى على خططنا كلها، كان يجرى بذرها فى المخيم الموجود فى الأسفل. كان الأسودان قد تسمرت فى رأسيهما فكرة أنه يتعين عليهما حمايتنا. وضعا علينا حارسا. وجرت معارضة موسى الشيب، أثناء عودته متأخرا، عندما كان واقفا بجوار بالاته. قال موسى الشيب ردا على الحارس الذى يعارضه: "أنا مالك هذه الخيمة". وهنا جاءه أمر يقول: "إذن، أدخل الخيمة، أو أغرب عن هذا المكان تماما!" وجرى فى الصباح تسوية ذلك الخلاف الذى نشأ أثناء الليل. كان الجندى يؤدى واجبه ليس إلا، لكن قافلة الشيب هى التى أنقذتنا من الهزيمة أو بالأحرى الموت جوعا!

بدأنا مسيرنا عند الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الأحد المصادف لليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر، وأستمر مدة ثلاث ساعات إلى قرية جالو التى تقع فى منطقة مسطحة مغطاة بالزلط الناعم الصغير الذى يميل لونه الأصفر إلى البنى، والخالى تماما من أى أثر من آثار الحياة النباتية، لكن الجماعة كانت منقسمة على نفسها. كان الأسودان، الكسولان دائما عندما لا يكون لديهما دافعا لمضاعفة الجهد المطلوب، يركبان الإبل أو يجثمان فوق الجوالات والبالات. كان يوسف غاضبا، من منطلق أنه كان يود الركوب. قال يوسف: "الإبل لن تصل إلى الكفرة مطلقا إذا ما ركبها أحد منا. وبذلك يمكن أن نموت على الطريق. ستحدث معركة وسوف يقتل هذين العبدين الأسودين." أبتعد يوسف كى ينضم إلى محمد، وأبتعد الاثنان عن القافلة طوال النهار. تولى قيادة القافلة عبد الله، أعظم قصاصى الأثر فى ليبيا، الذى أستطاع فى الليلة السابقة استعادة أربع من ابل الشيب، التى ضلت طريقها فى الليلة السابقة، وتتبع عبد الله أثار أقدامها بين آلاف الآثار على الرمل الناعم إلى أن عثر عليها. ركزت البوصلة على عبد الله مدة ساعة لم يغير الرجل اتجاهه خلالها حتى ولو لنقطة واحدة. سرنا فى خط مستقيم تماما فيما بين



DESERT WELL AT JALO.

يئر صحراوية فى جالو

الواحتين. وعند الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا شاهدنا رقعة من النخيل عند الأفق- تلك هى شارُوف، الحد الشمالى للواحة الكبيرة. بعد ذلك بساعتين دخلنا شبه الدائرة إلى أقصى الجنوب ثم إلى ناحية الشرق. كان النخيل كثيفًا فى منطقة شارّوف. كان هناك حزام آخر من النخيل، أقل كثافة يزحف دائريًا إلى تجمع آخر كثيف من النخيل فى المنشيَه Manshia

نزل موسى الشيب من فوق جمله وراح يمشى ببهمة ونشاط. أبتسم مغرب. قال: "إنها الفيشه(*). هى الفيشه ولا شىء غيرها." عندما يقوم رجل برحلة، تقوم زوجته فى بعض الأحيان بوضع حبة من حبات القرع المجوف، أو إناء على سطح المنزل بغية استعمالها فى اصطياد الريح. وطالما ظلت هذه القرعة أو الإناء ينقر بفعل النسيم، يظل قلب زوجها أيضًا ينبض حبًا لها ويعود إليها بأقصى سرعة ممكنة.

دخلنا عند الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حزام النخيل غير الكثيف الموجود فى المنتصف. وجدنا النخيل فى هذه المنطقة مبعثرًا على رمل أبيض كثيف يرتفع صاعدًا إلى كثبان رملية منخفضة. لم يكن هناك أثر لقرية من القرى، على الرغم من وجود آلاف من آثار أقدام الإبل متجهه إلى الاتجاه نفسه. ثارت ريح باردة، وعليه حاولت النوم خلف البرّكان الذى كان يلفنى. عندما نظرت إلى الخارج بعد ساعة كان النخيل المبعثر قد بدأ يقل وكنا قد تحولنا إلى كثيب رملى واسع، وبدأنا نواجه مُرتفعًا آخرًا كان يقف عليه صف عتيد من المبانى المسوَّرة. مدن ليبيا الصحراوية، كل واحدة منها لها طابعها الخاص.

جالو فيها قريتين منفصلتين هما: قرية العرق El Erg وقرية أللبَّه Lebba. القرية الأولى تشبه القلعة منذ الوهلة الأولى. وهى طويلة، وبيوتها من اللبن الصلّد وأحواش هذه البيوت ذات الجدران القوية تشكل الخط الأمامى على هذا المُرتفَع.

(*) الفيشه: كلمة ليبية صرفه تدل على حبة من حبات قرع القلل تستخدمها المرأة تعويذه بغية الإبقاء على حب الرجل لها. (المترجم)

وخلف خط هذه الأحواش، توجد الشوارع المتعرجة الغريبة، والعقود المنخفضة العجيبة، والمساكن المتزاحمة المبنية من الطوب المجفف فى الشمس؛ لكن بينما كنا نسير بإبلنا نحو الأعلى رأينا بيوتًا أكبر حجمًا، فيها جماعات مبعثرة من النساء والأطفال الذين يرتدون ثيابًا سوداء ونيليه اللون. وإلى اليسار من هذه المبانى كان هناك امتداد شبية بخط أبيض طويل منخفض ومستوٍ يمتد إلى ما لا نهاية. أندفع محمد إلى الأمام منفعلاً عندما رأى ذلك الخط. صاح قائلاً: "هذا استقبال ملكى مقام على شرفك. الناس طيبون هنا. أنا مبسوط! آه، إنهم أناس

طيبون حقًا! أنا سعيد بحق! هم يحبون السيد رضا! وهم يودون إكرامه وإكرام ضيوفه!"

نظرت مرة ثانية وأنا مشوشة الفكر إلى ذلك الجدار الأبيض الطويل. كان الجدار عبارة عن كتله صلبة من الرجال العرب الذين يرتدون الملابس البيضاء. كان هناك صف بعد صف من البدو، يمتد فى نظام صارم بدءًا من ناصية المنزل الأخير على امتداد المرتفع كله، وبانتهاء صف الرجال تبدأ مجموعات النساء والأطفال. أدت الصيحات العاطفية إلى سريان الدفء فينا جميعًا. هكذا كان الاستقبال تلقائيًا وسخيًا وحنونًا. كنت أود الصياح تعبيرًا عن الشكر والامتنان، وانعكست علينا جميعًا ابتسامة محمد المعبرة عن الرضا. جرى اقتياد الإبل عن طريق الصياح، لتكون فى وضع منظم. وأصدر عبد الرحيم أوامره إلى رجاله ليشكلوا صفًا واحدًا. وهذا هو مِغْرب من فرط انفعاله راح يمسك جملى ويشدنى من فوقه. أخذ مِغْرب يسألنى: "هل أنت سعيدة؟ هل أنت سعيدة؟" كان يوسف يرقص فرحًا. حاولنا استجماع أفكارنا المشتتة وسرنا متجهين إلى أعلى المرتفع بطريقة تنم عن الوقار والاحترام. حقق السودانيون ذلك الوقار، بقيادة رقيبهم، لكن الآن وبعد أن أصبحت قدمى اليسرى أقل تورمًا، بدأت فردتى حذائى الأصفر تسقطان من قدمى بعد كل خطوة أخطوها، فى حين كان جيرد (بردة) حسانين يبدو غريبًا بفعل هبوب الريح.

لا يمكن أن أنسى مطلقًا تلك الكتلة، من الأشكال الطويلة الوقورة التى كانت ترتدى الجيرد (الزى الوطنى) والبرانس وتقف على شكل تشكيل عسكرى. كانت شمس الغروب تتوهج حمراء من خلفهم، فى حين كانت تنبعث من الأسفل زغاريد النساء. دخلنا على أننا غرباء، حجاج إلى أرض السنوسى. لا اعتراض لنا على ضيافتهم. لم يكن لدينا الحق فى دخول أشد بلاد العالم حراسة. الأمير والخفير، البدوى والشيخ، الكل يتعين عليهم أثبات حسن النية والطوية قبل أن تسمح لهم الطرق المتجهة صوب الجنوب بالدخول إلى المدينة المقدسة. كان جوازنا الوحيد إلى المرور هو حبنا للعرق العربى، وتعاطفنا مع عاداتهم وعقيدتهم وديـنهم. لم نجرؤ على تقديم أى دفع من الدفوع الأخرى. لم نطلب سوى حق البدوى فى التنقل مع إبله إلى حيث تناديه الصحراء. استجاب سيدى إدريس لرغبتنا من منطلق رؤية صوفيه. قال سيدى السنوسى: "العرب يحسون بمن يحبهم، وهم يستجيبون لهذه الرابطة؛ ستمضون بلا ضرر" بذلك نكون قد حصلنا على المباركة ومن هنا يصبح من حقنا التجوال جنوبًا إلى المدينة الصحراوية، وفى حراسة مناسبة وصولاً إلى الواحة الصحراوية الغامضة. لم نفهم تمامًا أننا جرى اعتبارنا ضيوفًا مكرمين الذين يعد عدم إكرامهم مسألة شائكة جدًا. كان السيد رضا قد كتب فى رسالته: "ستكون الضيافة التى ستقدمونها لهم، بمثابة ضيافة لنا شخصيًا."؛ وبذلك نكون قد تقاسمنا مع السيد رضا السنوسى، وبإرادته هو، سيادته على الصحراء.

عندما اقتربنا من الصفوف البيضاء انحنت تلك الصفوف لنا إجلالاً وتقديرًا، وراحت جوقة وقورة من "السلام عليكم، مرحبا، مرحبًا! بالسلامة" ترحب بنا، لكن الصفوف ظلت ثابتة فى أماكنها بلا اهتزاز. صافحنا القائمقام حميدة بك زيتون، ومعه شيخ الزاوية سيدى محمد السنوسى، الذى كان معه إخوان كُثر، حذوا حذوهم بأن راحوا يقبلون أيدينا ويلمسون جباهنا. رحنا نغمغم تعبيرًا عن امتناننا غير المحدود للشرف الذى أولونا إياه. قالوا لنا: "كل ما نملكه ملك لكم. نحن ننتمى إلى

السيد رضا." كانوا قد جهزوا لنا منزلاً بالفعل. تفرقت الكتلة البيضاء كي تسمح لنا بالمرور. ورحنا نسير خلف القائمقام في الشوارع الرملية الضيقة، يحيط بنا أعيان البلدة، ووسط همهمات الترحيب، والتبريك.

كان المنظر شكلاً من أشكال الفنتازيا، رأيته من خلال فجوة بين ثنيات البرُكان- شاهدت نساء يرتدين ثيابًا داكنة اللون ينظرن خلسة من مداخل منازل منخفضة، صياح أطفال يركضون نظرًا لأن سوط الحاجب ذو الشراشيب كان يبعدهم عن طريقنا، رأيت أيضًا الرمل الكثيف، الجدران الباهتة، ورأيت أيضًا تجمعًا أبيضًا من الكبراء الذين يبتسمون ابتسامة حانية ويتدافعون حولنا. تعثرنا في عتبة باب في غرفه ملحقة بالغرفة الرئيسية، التي دخلنا منها عن طريق أحواش صغيرة وممرات صغيرة إلى فناء صغير. قال القائمقام "هذا المنزل كله لكم، والحكومة في خدمتكم. سيجري إحضار الطعام لكم، وسوف نلبي كل ما تطلبونه بكل سرور."

لا يزال المشهد الأخير ماثلاً في ذهني. وقفت في مدخل أكبر الغرف، وهي غرفة من اللبن مساحتها أثنى عشر قدمًا مربعًا، فيها جذع شجرة من أشجار الصنوبر في المنتصف، يحمل سقف الغرفة المنبسط المصنوع من زعف النخيل المضفور، كانت أرضية الغرفة مكونة من طبقة سميكة من رمل الصحراء وغير مفروشة بالحصير. كان كبار الإخوان قد تجمعوا في الفناء وقرئت الخطابات المرسلة من السيد رضا. وجاءت همهمة تنم عن الرضا "هذا شيء طيب! شيء طيب جدا!"، وتلى ذلك القبلات والصيغة المعتادة "أوامر السيد رضا على رؤوسنا"، وهم يلمسون عمائهم ومعْرَقاتهم(*)!

(*) المُعرَّقه: بضم الميم وتشديد الراء وكسرها، عبارة عن طاقية تُلبس تحت العمامة منعًا للعرق. (المترجم)

كانت الساعة عندئذ تشير إلى الخامسة بعد الظهر، وكان الظلام قد بدأ يرخي سدوله، وهنا خطر على بالنا أن وقت تناول الوجبة الثانية قد حان. كنا قد تناولنا الوجبة الأولى عند الساعة السابعة في عجيله. لم يلق محمد بالاً لهذه الملاحظة. "سيعودون. سيحضروا لنا كل شيء. يجب أن نستعد لذلك." قام محمد بإحضار الحصير والسجاد من مكان ما، أعتقد أنه كان من عنده هو، وفرش الحصير والسجاد على الرمل وكان من الصعب ترتيب جوالات الغذاء المحفوظ والحبوب ترتيبًا فنيًا، لكن الرجل بذل أقصى ما في وسعه، في حين قمت أنا بعمل إضاءة ملكيه عن طريق لصق شمعة مضاءة في كل جوال من الجوالات. وعقب انتهائنا مباشرة كان الإخوان قد قفلوا عائدين إلينا، وكانوا يحملون هدايا- هذا يحمل تمرًا، وذلك يحمل زبدًا وطنيًا، وهذا شخص ثالث يحمل سلاطين كبيرة مليئة بلبن الإبل أو الماعز. وهذه دجاجة بيضاء تهفهف جرى وضعها في يدي، وذلك خروف ضخم جرى وضعه عند قدماي. وهذا خبز يكفي كتيبة من الجنود جرى تكويمه في سله مضفورة. وتلى ذلك البيض والشاي والسكر. عجزنا عن التعبير عن شكرنا وامتناننا لذلك الكرم. قلت وأنا مندهلة بالإنجليزية دون أن يلاحظ ذلك أحد "كله ما عدا الخروف."

بعد أن خمدت تلك الجلبة والضوضاء، وبعد أن قام محمد قرير العين بتكويم هدايانا الثمينة، جرى عقد مجلس حرب مُصَغَّر، جلوسًا على أكبر واحدة من الحصير. وضعوني في مكان الشرف. لكني أحسست أن الأمر يحتاج إلى شيء من الإنعاش، وعليه قمت أنا وفرّاج بإشعال النار في شيء من الحطب في ركن من أركان الفناء ونجحت في عمل قهوة ثقيلة محلاة بالسكر. كانت أمتعتنا مختلطة ببعضها، لكن الأسود أرتفع إلى مستوى المناسبة. فقد قام بإحضار علبة من القهوة، من مكان ما وقمت أنا بتكسير بلاطة كبيرة من السكر بواسطة قطعة من الحجر. ورحنا ننفخ النار ونهوّي عليها إلى أن أحمرت وجوهنا وغلى الماء. قفز محمد

منفعلاً، مما أدى إلى انقلاب الأشياء وقدم بعض المقترحات المستحيلة، لكن القهوة التي اشتريتها من بقالى فى لندن كانت طيبة، وعلى الرغم من وجود عجز فى الأكواب الزجاجية، فإن الضيوف تمتعوا بها تمامًا . ولما كنت قد أحضرت مجموعة من الأكواب على صينية من القصدير، فقد أحدثت تلك الأكواب انطباعًا طيبًا عن الست خديجة، وقررت الجماعة أن عدم نقاء دمها ربما يكون سببًا من أسباب التعاطف والتكريم وليس سببًا من أسباب التجريم!

انضم إلينا عبد الله الوقور، بوجهه الصارم، ولحيته الصغيرة السوداء، وهو، ومحروق بفعل الطقس إلى حد الاسوداد وذلك على العكس من برنسه الأبيض السميك. تحدثنا فى هذا المجلس عن الطرق والمسارات. كان يوسف المتين يود السير مباشرة إلى الكُفرة من الطريق الذى تسلكه قافلة واداى والعودة أيضًا من الطريق نفسه. كان القائمقام واثنان من الشيوخ هما إبراهيم بيشارى ومحمد مَغْرُوف يريدون الإعلاء من شأن تكريم السنوسى. ومن ثم أكدوا لنا أن الطرق كلها آمنة. كان عبد الله محبذًا للسفر عن طريق بُسيمه. قال بطريقة غير صحيحة تمامًا إن عصابة من الطوارق تسكن منطقة ربيانه Ribiana، وأن هدف هذه العصابة هو سلب ونهب كل الرحالة والمسافرين بين بُسيمه والكفرة. قال إن العصابات تعجز عن عبور الكثبان الرملية المنحدرة. والسبب فى ذلك أن الإبل تنزلق فى هذه الكثبان وتسقط من عليها أحمالها أو تتكسر أرجلها. وقال محرضًا أن "إبلنا ليست قوية، وليست معتادة على الرمال العميقة. وطوال سيرنا فى الكثبان سيقوم الطوارق بالهجوم علينا والاستيلاء على القافلة." سألته وأنا مصرة على مشاهدة بُسيمه أليست هناك وسيلة لتحاشى عصابات الطوارق هذه؟" "ليست هناك وسيله. سيعرفون المكان الذى سنمشى فيه، وسوف يختفون لمداهمتنا. لو أن الأمر يتعلق برجل واحد، فهو قادر على الهرب منهم، لكن كيف لقافلة أن تمر دون أن يراها أحد؟" وروى أيضا قصة مزعجة حدثت منذ أسابيع قلائل عن هجوم ناجح

قام به الطوارق، أسفر عن الاستيلاء على الإبل، وترك أولئك الذين لم يقتلوهم يولون الأدبار. صدقت هذه الرواية، لأنى تعرفت فى الصحراء الفرنسية، أولئك الطوارق المقنعين، هم وإبلهم سريعة العدو التى تتغذى على التمر. والطوارق لا يرفعون مطلقًا اللثام عن أفواههم، لكنهم يعدون ملح الجماعات البدوية- فهم لا يكلون ولا يملون، ولا يخافون، كما أنهم قساة وغلاظ القلوب!

ذكر إبراهيم بشارى الحقيقة التى مفادها أن هناك طريقًا بين تيسربو وزايغن، مدته حوالى

ترحال يوم واحد أو يوم ونصف على أكثر تقدير، وعليه لن يتعين علينا بعد الوصول إلى تيسربو مواجهة الكثبان الرملية أو الطوارق، وبذلك يمكننا الذهاب إلى البئر الوحيدة التى على طريق القافلة، ونستطيع من خلال مسيرة خمسة أيام الوصول إلى واحة الكفرة. كان يوسف الشخص الوحيد الذى أعترض على ذلك. قال يوسف: "هناك أعداء للعرب فى بُسيمه. الخطر ماثل هناك بصورة مستمرة." لكنى أصريت تمامًا وقلت: "شرف السيد رضا بين أيديكم. يجب أن تثبتوا للإفرنج أن نفوذ السيد رضا يبلغ من القوة حدًا يمكنه من حماية أهله وشعبه فى كل مكان." أثارت هذه العبارة حمية الرجل. وبعد أن قررنا البقاء فى جالو مدة يومين أو ثلاثة لشراء القرب المطلوبة لنقل الماء الذى يكفى جماعتنا الكبيرة، والطعام المطلوب للرجال، والحصول على المعلومات الكافية عن الطريق، وحتى نستطيع إعادة تنظيم القافلة بشكل عام، وأننا سوف نتجه بعد ذلك إلى تيسربو، أنفض الاجتماع بكثير من "السلام عليكم" و "رحمة الله!".

استطعت فى نهاية المطاف تكريس أنتباهى كله على الطعام! فى البداية أصطحبنى موراجا لإلقاء نظرة على الخروف، الذى جرى ذبحه بالفعل، وسلخه وتقطيعه. قال الرقيب: "إختارى القطعة التى تعجبك وسوف نأكل نحن ما يتبقى بعدك." أخترت فخذة وانصرفت على وجه السرعة، لكن السود كانوا مندهشين من

قناعتى واكتفائى بالقليل. اندفع خلفى اثنان ومعهما قطعٌ من اللحم غريبة لم يسبق أن رأيتها على أية مائدة من موائد العشاء، وفرضا علىّ هذه القطع وقالا: "هذه القطع طيبة جذا. ستسعدين بها."

أمضينا يومى العشرين والحادى والعشرين من شهر ديسمبر، فى بيت الرمل الصغير، الذى فيه متاهة من الأحواش القديمة والغرف المؤدية إلى غرف أخرى أكبر منها. وبعد أن أمضينا أربعًا وعشرين ساعة بين جدرانه المضيافة كنت لا أزال مفتقدة الطريق من الباب الرئيسى إلى باب غرفتى، كانت الانحناءات والمنعطفات معقدة ومتشابكة ويبدو أن المسألة ليست معقدة للغاية فيما يتعلق بالحصول على الطعام والقرب التى تكفى لسبعة عشر شخصًا لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وبخاصة أن القائمقام رجل قدير ونشيط مثل حميدة بك زيتون. ومع ذلك كنا نعمل حوالى ثمانية عشر ساعة من أصل أربع وعشرين ساعة كل يوم. كميات الدقيق المطلوب للقافلة! نعم، الحبوب موجودة فعلاً فى القرية، لكن لابد من طحن الحبوب، ومن أجل هذا الغرض لابد من توزيع حصة من تلك الحبوب على كل منزل من منازل جالو حتى يتسنى طحنها، وسبب ذلك أن كل أسرة لا تملك سوى طاحونة يدوية واحدة، تقوم بتشغيلها امرأتان ترتديان ثيابًا زرقاء. ستة عشر قربة للماء! نعم، لكن البعض من هذه القرب يتسرب منها الماء، وليس لدينا زفت كى نصلح به هذه القرب.

كان ذلك هو حال كل شىء. الجنود لن يبدءوا الترحال دون أن يكون معهم كمية كبيرة من الزيت الذى يستعملونه فى طبخ حبوبهم. كان محمد يود شراء كسوة جديدة لكنه أحس بالارتياح عندما علم أن الأسعار كانت أرخص بكثير فى الكُفرة. وهذا عبد الله الأسمر لن يتحرك بوصة واحدة دون أن يقتنع أن القافلة تحمل ما يكفى من الماء. معدل الماء المستخدم يوميًا بواسطة الفرد فى الجيش لا يزيد على جالون واحد يستعمله فى الغسل والطبخ والشرب. كانت جماعتنا تضم

سبعة عشر فردًا، وهذا يعنى أننا يتعين أن نحمل معنا ١٣٣ جالونا من الماء. أكبر القرب تتسع لحوالى سبعة جالونات فقط، والجمل يحمل أربعا من هذه القرب وهذا يعنى أن خمسة أحمال يتعين تخصيصها للماء فقط. وهذا شيء مستحيل، إذ كان مطلوبًا منا أيضا أحمال من التمر لحيواناتنا، بواقع جوال واحد لكل رأس فى اليوم الواحد، ولم يكن لدينا سوى ثمانية جمال فقط.

أمضينا كل لحظة من اللحظات التى لم نكرسها للنظر فى هذه التفاصيل العملية أو تسوية مظالم الرجال- كانت لدى يوسف مظالم جديدة فى كل يوم، بل أن حسانين نفسه أحس بالظلم والاستياء نظرًا لأن الترزى لم ينه قميصه وسرواله الأبيض الجديد فى الوقت المحدد- كانت مسألة الحصول على المعلومات من السنوسيين أمرًا صعبا. والسبب فى ذلك أن أبسط شيء يمكن أن تتولد عنه شكوك كثيرة. مجرد إبداء ملاحظة عن سعر الملابس القطنية أو مكان بئر من الآبار يمكن أن تثير كثيرًا من التوجس بالشر. منظر القلم الرصاص وكراسة الملاحظات يجعلهم يغلقون شفاههم. الإنسان بحاجة إلى صبر لا ينفذ وفهم لا ينفذ أيضًا قبل أن ينجح فى اختراق تحفظ السنوسيين. فهم أناس صامتون وفى أى اجتماع من الاجتماعات العربية قد لا يكون الكلام أمرًا ضروريًا. والناس بعد أن يتبادلوا "كيف حالك" التى تتكرر عشرات المرات، و "طيب" يلتزمون الصمت المطبق ويروحون يحملقون فى الفضاء وهم يحتسون الشاى الأخضر الثقيل. ومن المعروف أن الصحراء تولد التحفظ. والإنسان إذا ما ترحل وحيدًا أيامًا أو أسابيع عدة دون أن يرى إنسانا، ودون تبادل ولو كلمة واحدة مع شخص آخر، يتعلم التواصل مع نفسه ومع ربه، ويضع قلبه فى غرفة محكمة الغلق.

السنوسيون يصعب الاقتراب منهم بصفة خاصة؛ نظرًا لأنهم عبارة عن جماعات دينية محكمة مقتنعة بعدم الوثوق بالغرباء، بل إن عدم الوثوق هذا قد يصل إلى حد الكراهية! النصرانى ليس هو الشخص الوحيد الذى لا يعبر حدودهم،

وإنما لا يسمح لأى عربى من خارج جماعتهم بالسير فى طرقهم. من هنا فإن مجىء أى غريب، حتى وإن كان فى حماية "السادة"، يولد عاصفة من التحذير، والنقد، والشك. وعندما يجرى تبديد هذا الشك، ويصبح الغريب حليفا، تبدأ صداقتهم المخلصة فى الظهور، ويبدءون فى الترحيب بهذا الغريب كما لو كان واحدا منهم. العبارة التى تقول: "كل ما لدينا ملك لك" ليست شكلاً من أشكال الكلام فى ليبيا. هذه العبارة تكون صادقة مادام جو الصداقة قائما، لكن المرء قد يتعين عليه العمل ساعات أو أياما لخلق الانطباع الصحيح، ومجرد كلمة عابرة قد تدمر هذه الصداقة. وأنا أرى أن البساطة الكاملة وقلة الكلام هما أفضل طرق الاقتراب . الكلمة المزوقة تؤثر فى الليبيين، وهم يقولون: "كلامك زى العسل. اسمح لى بالعودة حتى أشرب منه." لكنهم

يغمغمون فيما بينهم وبين أنفسهم "هو واحد من حواة الكلام. فلنحترس منه مخافة أن يسحرنا!"

السنوسيون يتشككون دوما فى الدافع الخفى، ومن الأفضل فى مثل هذه الظروف إشباع حبهم للغموض وتركهم يحلون شفره ذلك الغموض بصورة متدرجة. عقيدة السنوسيين هى أساس حياتهم، والسنوسية شأنها شأن أى مذهب من مذاهب التقشف والزهد، تعزلها الممارسة الصارمة عن بقية الإنسانية. والسنوسيون خارج نطاق انعدام الثقة والشك الذى يتولد من طريقة حياتهم، وبعيدا أيضا وبمعزل عن أى كود غير الكود الخاص بهم، يعدون بسطاء شأنهم شأن البطاركة الرعاة فى الماضى. ذهنيه (سيدنا) إبراهيم موجودة فى ليبيا فى هذه الأيام. زد على ذلك أن السنوسيين يسهل التأثير عليهم، والإساءة إليهم والإضرار بهم مثل الأطفال. الفقراء من السنوسيين يكشفون دوما عن فضول مشوب بالظن مثل فضول الأطفال؛ كما أن لديهم أيضا فضول الأطفال فى طرح الأسئلة والتعلم منها. والسنوسيون عندما يضمون أحدا إلى صداقتهم، يبدأ الشيوخ منهم يسألون عن السياسة فى الشرق

الأوسط، وقد يستمر الواحد منهم فى مناقشة الإمبراطورية العثمانية، والحجاز ومصر على امتداد ساعات. ومع ذلك، وقبل أن يحاول المرء المزاح لابد أن يكون قد أمضى وقتا طويلاً فى "التسامر".

بدأ التجار المهمون هم والشيوخ المهمون أيضا يأتون الواحد بعد الآخر لزيارتنا. وأخذت الدائرة الجالسة على سجادتنا الوحيدة المفروشة تحت السقف المصنوع من سعف النخيل تتسع شيئا فشيئا. وراحت الوجوه الجادة الملتحية تنظر إلينا خلسه من طراطير البرانس ذات اللون الأزرق الغامق، والتى فيها خطوط حمراء. وهذه هى الأيدى التى أحرقتها الشمس تذب مختلف أنواع الذباب، مستخدمة فى ذلك مذبات مصنوعة من سعف النخيل. كان القائمقام المتين موجودا، بوجهه الذكى الشاحب ولحيته المستديره السوداء غير الحليقة، وشفتاه لمبتسمتان، كما كان هناك أيضا جربوع أفندى، الذى يوحى وجهه بتعبير مضحك ربما كان أوروبيا- شفتان حاسمتان، فك مربع، بشره شاحبة، وابتسامة عريضة محيرة. أظن أن الدم الفندالى يجرى فى عروق جربوع أفندى. كانت أم جربوع أفندى تعيش فى بنغازى، وكان هو مهتمًا بالأساليب الأوروبية. كان هناك أيضا شيخ الزاوية أبيض الوجه، محمد السنوسى، الذى كانت له عينان حالمتان، وفك متدلٍ؛ وكان هناك أيضا الشيخ العزيز المتين محمد مغروف Maghruf، صاحب الوجه المدور الخالى من الخطوط، والبنى اللون مثل لون البندق، وكانت على وجهه مجموعة من الدوائر تبدأ من منطقة فمه إلى عينيه المستديرتين عسليتى اللون، وكان هناك أيضا الشيخ إبراهيم بشارى الرحال، الذى قاد قافلته المحملة من واداى إلى مصر، ومن الكفرة إلى بحيرة تشاد.

اكتشفنا بعد شرب كثير من الشاى المحلىً بالسكر، وأصوات المص والمزمزة عالية الصوت. وبعد أن عطرت قهوتنا الهواء، أن جالو عبارة عن مجتمع من التجار. ويعد النخيل فيها أمرا غير ذى بال. واكتشفنا أن القرية تعيش

على التجارة، نظرًا لأن جالو تقع على طريق القوافل الرئيسية بين السودان والموانئ الليبية. وقد أنشأ سيدى محمد المهدى هذا الطريق الصحراوى الكبير عبر واحة الكُفرة. قبل عهد سيدى محمد المهدى كانت القوافل تمر عن طريق طرابلس وفزان. وقد عرفنا أن العاج كان يجرى إحضاره إلى واداى نظير خمسة أو عشرة فرنكات للرطل الواحد، وأنه بعد خصم تكاليف الرحلة الطويلة، كان البدو يحصلون على ربح يعادل حوالى خمسين فى المائة فى بنغازى. كانت القوافل المتجهة إلى الجنوب تحمل معها الإبر، والصابون، والمعطرات، والصنادل، والأقمشة القطنية، والسكر والشاى. وكانت تلك القوافل تعود بالعاج، والريش، والصبية الذين يجرى تهريبهم كعبيد، وكذلك البنات من سن الثامنة إلى سن العاشرة. بعض هؤلاء البنات كن جميلات- مجرد مخلوقات صغيرة، سوداوات الوجوه، كن ينظرن إلى الخارج من خلال طراطير البرانس المصنوعة من وبر الإبل. جرى إيفاد هؤلاء الجوارى والعبيد من قبل سادتهم ليحضروا لنا هدايا من البيض والحليب وكانوا ينظرون إلينا باحتقار إلى أن استرضيناهم بحفنات من التمر.

ناقشت الدوائر الصديقة المسارات الصحراوية كلها، سواء أكانت موقَّعه أو غير موقَّعة على الخريطة. عرفنا موقع كل بئر من الآبار ومذاق الماء فى كل من هذه الآبار. تعلمنا أيضًا أن الجمل فى فصل الشتاء يمكن أن يسير خمسة عشر يومًا بلا ماء، إذا كان يحمل حملاً خفيفًا وتجرى سياقته بحرص وعناية. وعليه تصبح كلٌّ من سيوة، وجغبوب، والفرافرة بمثابة مخارج من الكُفرة، على الرغم من أن أقل الأخطاء أو الأحداث قد يحمل الهلاك فى طياته. مع استطالة الساعات ومع ازدياد حلاوة القهوة، انتقلنا من المسائل العملية إلى السياسة. وتحولت الأنظار كلها إلى نضال مصر من أجل الحرية باعتبار ذلك النموذج الذى تحذوه ليبيا فى المستقبل وقد اندهشت، من أن بريطانيا كان يَنْظَرْ إليها نظرة احترام وحب. وجرى تدمير الزوايا السنوسية فى مصر نتيجة للسياسة الخاطئة التى كان يتبعها السيد

أحمد. كان واضحا أن البلاد كلها أدركت عدم اهتمام بريطانيا بليبيا، ومن ثم دخلت فاترة فى مشروعات مانيسمان ونورى. ينظر الناس إلى السيد أحمد نظرة احترام وتقدير باعتباره مسلمًا خالصًا، لكن السياسة التى يتبعها تعد أمرًا مؤسفًا. الناس ينظرون إلى السيد إدريس باعتباره منقذًا ومخلِّصًا لبلاده. جاء السيد إدريس إلى المقدمة فى لحظة رأى خلالها السنوسى أن مشروع الأرض كلها أصبح فى أيادى أوروبية. واستطاع السيد أدريس من خلال سياسته الحاذقة المحافظة على قوة شعبه، الذى يحترمه لصداقته مع بريطانيا ولموقفه الذكى الودى من إيطاليا. الشعب يتطلع إلى السيد إدريس على أنه يحافظ على ليبيا للسنوسيين، فى الوقت الذى يفهمون فيه حقيقة أن إيطاليا سيكون لها دومًا موطئ قدم فى ليبيا. ولا يزال الوقت مبكرًا على استيعاب الدستور الجديد فى ليبيا. شروط الوفاق التى جرى التوصل إليها فى رجيما Regima لم تنتقل بعد إلى الواحات الصحراوية. من هنا كان لا يزال هناك شىء من الشك فى أذهان الزائرين فيما يتعلق بمستقبل بلادهم.

وعندما يتعرف السنوسيون السياسة الإيطالية واسعة الأفق، فإن ذلك سيحدث تفاهمًا ممتازًا بين السنوسيين وحلفائهم اللاتينيين. وهذا يعنى أن رفاه البلد كله سوف يعتمد على هذا التفاهم الجيد. هناك رجلان مسئولان عن بدأ هذا التفاهم. معروف أن البدو مدينون تمامًا بسلامهم الحالى إلى روح سيدى إدريس التقدمية المباشرة. وإيطاليا مدينة بتفاهمها لحاكم برقة السيناتور دى مارتينو، الذى يبدو وكأنه أول سياسى أوروبى من هذه الحقبة، يفهم أن حقيقة التعامل مع الأعراق العربية تحتم التمسك بما يُقطَعُ من وعود. قال لى سيادة السيناتور دى مارتينو عندما كنت مقيمة معه فى بنغازى "**سياسة إخلاف الوعود سياسة رديئة ولا تصيب نجاحًا. الضلال هو الذى صنع إنجلترا. الأمانة تقضى أن أتمسك بكلامى!**(*)"

(*) وردت هذه العبارة باللغة الفرنسية وهى من ترجمة المترجم. (المترجم)

عندما أشعلنا الشموع وبعد إضافة أوراق النعناع إلى الشاى ازداد وثوق ضيوفنا بنا. حكوا لنا عن حبهم للحرية وعن رغبتهم فى حياة هادئة خالية من التآمر السياسى. لقد أصابتهم الحرب بأضرار كثيرة، لأنها أدت إلى رفع الأسعار وإغلاق الطرق. ووصلت تجارة البلاد إلى ما يشبه التوقف. وتوقفت صادرات الجلود تمامًا.

انخفض الشعور بالمرارة إلى حد كبير، لكنه يمكن أن يشتعل من جديد جراء أى عمل من أعمال العدوان. كان العرب يتطلعون فى تلك اللحظة إلى عدم تقدم إيطاليا نحو الداخل إلى أبعد مما وصلت إليه، لكنى أتصور أن تجار العرب سوف يتطلعون إلى تمكين أنفسهم من التسهيلات المتزايدة للتجارة والتى ستوفرها الحماية الإيطالية لبرقة. سألنى الشيخ إبراهيم عن مملكة الحجاز. هناك زاوية سنوسية شهيرة قريبة من مكة، كما أن الروابط بين ليبيا والحجاز يجب أن تكون وثيقة بصفة دائمة بسبب الحج إلى "بيت الله!" وأنه لمن مصلحة كل مسلم مخلص، وبخاصة أولئك المتشددون الزاهدون، أن يعم السلام أراضى الملك حسين. كان الجميع مهتمين بمستقبل الأمير فيصل العملى، وسألونى عن موعد عودته إلى دمشق. واضطررت أمام هذا السؤال المحرج إلى الإجابة عنه بطريقة مراوغة، لكن الموضوع جرى التركيز عليه بشكل غير معتاد. سألنى القائمقام في شيء من الاستياء "ألن تقوم إنجلترا بمساعدته؟" حاولت شرح سياسة بلادى المعقدة، لكن أكبر الشيوخ سنًا هز رأسه تعبيرًا عن القلق والاستياء. قال كبير الشيوخ متسائلاً: "أليست إنجلترا قوية بالقدر الذى يمكنها من حماية حلفائها؟ لقد أعربنا عن أسفنا عندما أعلن السيد أحمد الحرب على إنجلترا، لأننا كنا نحسب أنها عتيدة وقوية. هل دب الضعف والوهن فى بريطانيا فى هذه الأيام؟" غيرنا مجرى الحديث تغييرًا طفيفًا، لكن هذه اللدغة الصغيرة اعتملت فى صدرى.

وقيل لنا من جديد-إن نفوذ بريطانيا تناقص فى السنوات الأخيـــرة. صـــحيح أننا كسبنا الحرب وانتصرنا فيها، لكننا خسرنا السلام! ربما نكون قد خسرنا شـيئًا آخر أكبر من ذلك! وبينما كنت أستمع إلى انتقادات ضيوفنا من البدو، خطر علـــى بالى الخطاب الأخير الذى استمعت إليه حول هذا الموضوع. جاء هذا الخطاب من فم سياسى كبير فى حفل عشاء أقامته جمعية آسيوية فى لندن، وكان ذلك الخطـــاب يحدد سياسة بريطانيا المستقبلية فى الشرق الأوسط، هذا الخطاب أربك ببلاغته كل من استمعوا إليه لكنهم كانوا يجهلون حقيقته!

الفصل السادس

عيد الميلاد فى الصحراء

واحة جالو مكونة من قريتين يفصل بينهما بضع مئات من الياردات. قريــة العرق El Erg، وهى مقر الحكومة وتحتوى على القصر، وإن شىءت فقل مكتب الحكومة، أو بالأحرى منزل القائمقام وفيها أيضا زاوية جديدة تضم حوالى أربعين من الإخوان. القرية عامرة بالحوارى الدائرية الضيقة، التى تحيط بها جدران خالية من النوافذ، تخترقها مداخل منخفضة فوق مرتفع ومنخفض عند الطرف البعيد من سفح كثيب رملى كبير، يستطيع المرء أن يرى من فوقه ميلاً بعد ميل من النخيــل المبعثر، مع بئر هنا وبئر هناك، جرت تقوية فتحاتها باســتخدام جــذوع النخيــل. جرت العادة أن تتحوط بعض الأشكال حول فتحة هذه البئر. وعادة تتبادل أطــراف الحديث بين الناس أثناء جلب الماء من البئر فى النهار. وحول الآبار ترى الثيــاب ذات الألوان النيلية الزرقاء والبرتقالى والأحمر وهى ألوان تعبر عن ذوق النــساء غير المتحضرات وتعد تناقضا صارخا بلون الرمال البيضاء المتوهجــة. ويــرى المار عند باب كل مسجد من المساجد مجموعة من الأشكال المُقَمَّطة، الغارقة فــى النوم أو التأمل، وهى تذب الذباب العنيد كى يبتعد عنها.

تجولت خلال منخفض لِبّه Lebba على ظهر حمار كبير أبيض أعارنى إياه حميدة بك زيتون. لِبّه عبارة عن قرية توءم اللهم باستثناء أن الشوارع أوسع وأكثر استقامة، كما أن البرج المربع لمنزل سيد هلال يهيمن على المكان كله. بينما كنت أمر أسفل شبابيك ذلك البرج، لمحت وجها شديد الجمــال، ومــن فوقــه الحجــاب الأزرق الياقوتى ينظر إلىّ خلسة. كان ذلك الوجه مستديرا وزيتونى اللون، والكحل الأسود يبرق من حول عينين أكثر اسودادا طويلتى الرمــوش ولامعتــين. كانــت علامات الوشم على الذقن والشفتين، مما ساعد على إبراز أســنان بيــضاء مثــل

اللؤلؤ، وحلق كبير من الفضة، عامر باللون الأحمر، ومطروح على جدائل شعر أسود مثل سواد منتصف الليل.

لبّه فيها زاوية قديمة جدًا، أسسها سيدى محمد بن على. تجولت خلال حوش تلك الزاوية المليء بالنخيل إلى أن وصلت إلى صحن المسجد، الذى حيانى فيه الشيخ عمر بتحية حارة، وقال لى إنه كان سعيدًا بلقاء كل من يسرى فى جسمه الدم الإنجليزى. قد منى الشيخ عمر إلى كل أساتذته وإلى السواد الأعظم من تلاميذه الأذكياء، الذين أرادوا أن يطلعونى هنا وهناك وفى الحال، على مدى إتقانهم للكتابة. قلت وقد سرت همهمة من الدهشة والاحتقار خلال الجماعة "أنتم أمهر منى، لأنى لا أستطيع كتابة اللغة العربية." "هى لا تستطيع الكتابة وهى بهذا الكِبَر، هى كبيرة جدًا. أظن أنها أكبر من فاطمة أو عائشة!" أو أية امرأة من الصحابيات فى السنوات الماضية! زاوية لِبّه فيها مائة طالب وحوالى ثمانين من الإخوان. المسجد الطويل المنخفض صغير جدًا، ونظيف وأبيض، بعقوده الرملية، وجدرانه المصنوعة من النخيل- يوجد قليل من الحصير المصنوع من سعف النخيل المفروش على الأرض، كما أن المسجد له "محراب" صغير مدهون؛ قال الشيخ متفاخرًا "بناء هذا المسجد يتكلف مائتى مجيدى"؛ وبدأ الرجل من جديد، يتكلم عندما كنت أغادر المسجد كلامًا طيبًا عن بلادى، جاء كما لو كان بلسمًا للنقد الذى وُجِّه إليها فى مساء اليوم السابق.

عقدنا فى أمسيتنا الأخيرة مجلسًا (اجتماعًا) فى منزل القائمقام. تركنا أحذيتنا عند باب الرجل وجلسنا مُرَبَّعين حول جدران الغرفة، الخالية من كل شىء اللهم باستثناء حقيبة كان بداخلها أدوات كتابية قليلة الاستعمال. تساءلت بطريقة خفيفة الظل "أليس كل شىء جاهزًا الآن لنبدأ سيرنا غدًا مع طلوع الفجر؟" خرجت من فم يوسف أغرب "إن شاء الله." أنا أجد صعوبة كبيرة فى جعل الذات الإلهية مسئولة عن كل شكوك الشرق! كررت السؤال، وكان فى كل مرة يبرز بعض المصاعب.

قال موراجا، ذلك الرقيب المتين: "الزيت لم يأت بعد." رد حسانين ردًا خشنا "خُـذ جنديين وأحضر الزيت." تراجع الرقيب ولزم الصمت مخافة أن يُجبَر على مغادرة المكان قبل وصول الحليب الحار اللذيذ المحلى بنكهة القرفة. كان محمد يود تحرير بعض الرسائل إلى إجدابيا. أوضح عبد الله أن بعض القراب كانت جديدة ومدهونة بالزيت بدلاً من الزفت، الأمر الذى سيجعل الزيت ينصهر فـى الطقـس الحـار ويتسبب فى جعل رائحة الماء كريهة. أما يوسف فكان يود صراحة البقـاء تحـت سقف يمكنه أن يأكل وينام تحته طول النهار. كان على وجه يوسف تعبير ينم عـن الاستياء المعتاد، ومن خلال التثاؤب الكثير كادت عيناه تختفيـان داخـل شـرخين ضيقين. كان المرافقون لنا قد ارتدوا أبهى ملابسهم فى جالو. وهذا عبد الله ارتدى بردته (جيرد) الصوفية البيضاء بياض الثلج هى والبرنس، ومعها حـزام قرمـزى اللون يحمل مسدسه الخشبى قديم الطراز، المرصع بكثير من الفضة، لكن محمـد ويوسف ارتديا سترات مطرزة قصيرة تجمع بـين اللـونين الأخـضر والأزرق، وبردتين مقلمتين من الحرير من فوقهما عقال.

كنت أنا الوحيدة التى لم تبدل ملابسها ورحت أتساءل عن مدة بقائى مرتدية الثوب الأحمر غير المغسول هو والبرّكان. الماء ليس متوفرًا فى جـالو، وعليـه يجرى إرسال الغسيل على بعد مسيرة يوم إلى بَطفَال Buttafal. هذه هـى البئـر الأخيرة على الطريق المؤدى إلى كل من الكفرة وتيسربو. وعليه قررنـا الرحيـل إلى هناك فى الصباح على أن نخيم يومًا بجوار مياه البئر الحلوة، قبـل أن نـشرع فى رحلتنا الشاقة إلى الجنوب. وعندما وجدوا أننا مصرون على ما قلناه انتعش كل المرافقين لنا، وقد اندهشت اندهاشا كبيرًا عندما وجدت يوسف الكسول يصحو فـى صبيحة اليوم التالى عند الساعة الرابعة صباحًا وهو جاد فـى عمـل التجهيـزات المطلوبة. لا شىء يأتى فى الشرق إلا قبل اللحظة الأخيرة، لكن المرء يجب عليـه دومًا أن يكون مستعدًا لوصول ذلك الشىء فى اللحظة التى يكون هو قد اتخذ قرارًا

بالاستغناء عن ذلك الشيء. وعليه وبعد أن تم حزم الأشياء كلها، بدأ البيض المسلوق والخبز، الذى جرى طلبه قبل أربع وعشرين ساعة، فى الظهور وكان لابد من وضعه فى أول كيس يصادفنا من بين الأكياس.

مسألة تحميل قافلة يتعين عليها قطع مسافة مائتين وخمسين ميلاً منها مسير سبعة أيام فى منطقة خالية من الماء ليست بالأمر السهل أو الهين. نظرت إلى جمالنا الثمانية عشر بشيء من القلق. بعض من هذه الإبل كانت صغيرة وضعيفة. كان واحد من هذه الإبل مجرد صورة حية لكل ما يمكن أن تكون عليه صورة الجمل. ربما كان يجرى استعمال هذا الجمل استعمالاً ناجحًا بواسطة سلاح الهجانة فى الخرطوم، ليكون مثالاً للضباط المتحمسين كى لا يقبلوا على شرائه. كانت أرجل هذا الجمل متآكلة، وكان سنامه طريًا، وكانت رجلاه الأماميتان تصطكان ببعضهما أثناء السير، لم يكن صدره بالمستوى المطلوب، وكانت منطقة ما تحت كتفيه عامرة بالالتهابات. يزاد على ذلك أن كثيرًا من النوق كانت عشارًا. على كل حال، لم يكن هناك مبرر للجأر بالشكوى قبل بداية الرحلة. كنت قد فهمت منذ زمن بعيد أننا سنصل إلى الكُفرة، إذا ما شاء الله ذلك، وكلما توغلنا فى الصحراء، كنت أحس أننى فى قبضة قوة خفية. لم أندهش مطلقًا عندما كانت المصاعب تتراكم أمامنا، ثم تختفى بدون سبب فى اللحظة الأخيرة. بدأت أحس بثقة قوية فى القدر الذى جرنى من الصيد، ورحلات الصيد وأرسل بى إلى الصحراء البيضاء لاكتشاف المكان المقدس الذى ظل سرًا لفترة طويلة. كان إحساسى بالقسمة(*) والنصيب قويًا إلى حد أنه منعنى من الانشغال أكثر من اللازم بإبلنا الضعيفة، علمًا بأنى كنت على يقين من أنها تحمل أحمالاً أكبر من طاقتها. تزايدت جماعتنا لتصبح تسعة عشر رجلاً بعدما أضيف إليها عبدتان سوداوان ترتديان بركانين

(*) استعملت المؤلفة كلمة Kismet وهذه الكلمة مأخوذة عن الكلمة التركية عربية الأصل Qisma، وهى ما يطلق المصريون عليه اسم "القسمة والنصيب." (المترجم)

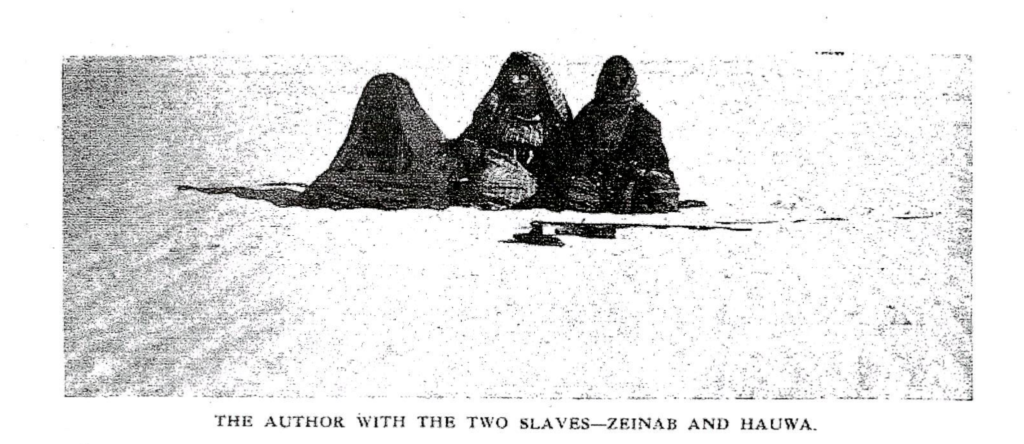
زاهيا الألوان، وبعض الأشياء القليلة الأخرى، وهما ملك أحد السادة، أراد إرسالهما إلى الكُفرة.

على الرغم من الجهود المبذولة لم تكن القافلة جاهزة للتحرك قبل الساعة الحادية عشرة والنصف، عندما بدأنا التحرك خارجين من المدينة المضيافة خلال ريح شمالية غربية قوية ووسط فيض من أطيب التمنيات، والأسف والدعاء. كنا قد عقدنا العزم على مواصلة السير أثناء الليل على أن نصل إلى طفَّال عند الساعة العاشرة مساء، غير أن القدر شاء غير ذلك، فقد اشتدت الريح قبل أن تختفي جدران جالو عن أنظارنا، وتحولت الريح إلى أسوأ الرياح القِبْلِيَّة التى لم نشهدها من قبل. كانت الريح تأتى من خلفنا، لأننا كنا ميممين صوب الجنوب الشرقى، ومع ذلك كانت الإبل تترنح وتدور حول نفسها، محاولة الاحتماء بعضها ببعض. كنت على وشك السقوط من فوق جملى الأشقر. كانت البطانيات السائبة هى والحصير السائب كله ترفرف على شكل دوائر واسعة وبدأت أحمال الإبل تترنح وتهتز بطريقة خطرة. وكان النخيل على الجانبين ينحنى ويتشقق فى تلك العاصفة الهوجاء المفاجئة، فى الوقت الذى كانت تتمزق فيه الأوراق الكبيرة، وتتطاير محدثه صوتًا من فوق رءوسنا. وتحول الهواء إلى ملاءة سميكة من الرمل حَجبت الشمس وضاع منا الاتجاه. اصطدمت هبَّات الريح بوجوهنا وكادت تعمى أعيننا. كان المنظر بمثابة أغرب المناظر التى رأيتها، ولمدة دقيقة واحدة اختفت الإبل والأشخاص فى موجة الضباب الأبيض الكثيف؛ بعد ذلك كان يظهر رأس، أو بطانية تهفهف أو جزء من جمل يمشى، ولمدة لحظة من خلال هذا الضباب ليختفى من جديد فى ذلك الشفق الموجع. تعثرنا واختنقنا وسقطنا خلال هذه العاصفة الهوجاء، إلى أن تبين عبد الله أن محاولتنا لا طائل من ورائها. وخلال هدوء دام لحظة ظهر على يسارنا خط من أشجار النخيل، وصبى صغير رابض بجوار بستان مزروع بالبصل، والفجل، والقرع العسلى. حولنا اتجاه إبلنا صوب الملجأ

المنخفض، وغاصت أرجل الإبل إلى ركبها فى الرمـل بجانـب مجموعـة مـن الأشجار رمادية اللون، عديمة الأسماء. أعطى الصبى مرشدنا بعضًا مـن الفجـل أثناء مروره عليه، وعلى الرغم من قسوة الرمل المتطاير، تحول الـصبى نحـوى وابتسم. قال: "رحلة مباركة". "إنظرى إلى الخضرة التى أعطونا إياها!" وكان هـذا دليلاً على مدى بعد فكر الإنسان هنا عن فكر الناس فى كل من لنـدن وبـاريس، الأمر الذى جعلنى أشعر بالارتياح الكبير الذى ولَّده كلام هذا الرجل فى داخلى.

لففت حولى أثقل البطانيات وحفرت لنفسى حفرة فى الرمل، فى الوقت الذى ينهال علىّ فيه وابل من التراب والحصى. ومن خلال فتحة ضيقة فـى البطانيـة رأيت السود وقد ربطوا الكوفيات حول أفواههم وأنوفهم، وهم يترنحون تحت وطأة الجوالات والصناديق. كان السود يبدون كما لو كانوا أشباحًا علـى شاشـة خلفيـة فانوس من الفوانيس، إذ كانوا يختفون مع كل هبَّة من هبات الريح القويـة. كانـت مسألة نصب خيمة أمرًا مستحيلاً. جرى تبريك الإبل على شكل شبه دائرة، حيـث كانت تتأوه ولا تحاول التحرك. وجرى تكويم الأمتعة لتكون زرائب، وقبعنـا فـى الجانب المحمى من هذه الزرائب مدة أربع أو خمس ساعات، والبطانيـات تغطـى وجوهنا، والمناديل ملفوفة حول أفواهنا. ظننت أن المرافقين لنا سينظرون إلى تلك العاصفة باعتبارها نذير شؤم، لكن محمد كان هو الوحيد، الذى ابتسم وكان التراب يغطى شفتيه. قال محمد: "ستكون هذه الرحلة ناجحة. وسـيحالفنا الحـظ خلالهـا، وسبب ذلك أن السيد عندما يسافر أو يترحل تهب ريح قِبْلِيَّه دومًا من هذا القبيل!"

حدث ذات مرة عندما كنت أحاول تغيير وضعى المعوجّ، أن أحسست شـيئًا طريًا متهدلاً خلفى. نظرت من خلال لفافاتى بحذر ووجدت وجه زينـب الأسـود، أجمل الجوارى، يكاد يصل إلى كتفى. أمسكت زينب يدى وقبلتها بشدة وبـصدق، فى الوقت الذى اقتربت فيه رفيقتها هُوَا Hauwa منا. لم يكن بركاناهمـا كـافيين لحمايتهما من الرمل المسعور، ولذلك عرضت عليهما نـصيبًا مـن بطـانيتى،



THE AUTHOR WITH THE TWO SLAVES—ZEINAB AND HAUWA.

المؤلفه مع إثنين من العيدات : زينب وهوا

وتصادقنا ونحن تحت الغطاء السميك. كانت زينب صغيرة السن، حوالى ستة عشر عامًا، ومستديرة الوجه، ولها شفتان منحنيتان، وعينـــان كبيرتـــان بلـــون القطيفـــة منكسرتان تواضعا. كانت هُوَا تبدو أكبر سنًا بحكم بـــشرتهما المتجعـــدة وأســـنانها الصفراء غير المستوية، لكن عمرها لا يزيـــد علـــى أربعـــة وعـــشرين عامًـــا. السودانيون يتزوجون، عندما يكون الآباء ميسورى الحال ولديهم المال، عندما تبلغ البنت سن التاسعة والولد فى سن الثالثة عشرة من هنا نجـــد أن هـــؤلاء العبـــدات أبانوسيات البشرة قد يصبحن جدات فى الوقت الذى تكون فيه البنـــت الإنجليزيـــة تتساءل عمًا إذا كانت قد وصلت إلى السن الذى يسمح لها بالزواج! كان لدى رفاقى الصغار أسئلة كثيرة وتعليقات كثيرة أيضًا، وكان ذلك كله مختلطًا بشكرهن للـــسيد رضا والثناء عليه. أرادتا أن تعطيانى البيض الذى اشـــترتاه لأنفـــسهما، ومـــسألة رفض الهدية فى الشرق أمر مستحيل. ويجرى قبول الهدية بطبيعـــة الحـــال دون التعبير عن الشكر والامتنان. كنت أندهش فى بداية الأمر إذا مـــا أعطـــى إنـــسان إنسانًا ساعة أو مسدسًا، وأخذه بلا تعليق، ولكنى بدأت أفهم بصورة متدرجة أنهـــم يعطون ويأخذون بنفس البساطة.

كانت زينب تلبس حلقًا ضخمًا من الفضة وأساور من الفضة وحزامًا مطرزًا من الجلد فيه حوالى عشرة أكياس صغيرة تحمل فيها مستلزمات زينتها، فى حـــين كانت هُوَا قد ربطت برَكانها على شكل طرطور، مستخدمة فى ذلك شـــريحة مـــن الجلد قرمزية اللون تحمل بعض الأحجبة فى جيوب صغيرة. كانت كل من زينـــب وهُوَا، تضعان عصًا عريضة من المرجان قرمزى اللون فـــى فتحـــات أنوفهمـــا. وعندما انحسرت العاصفة عند الساعة الخامسة والنصف مساء خرجتا من البطانية وراحتا تشغلان نفسيهما، فى إعداد الوجبة البدوية المسائية.

كان هناك فى ذلك الوقت مخيمان متنافسان فى الزرائـــب المتجـــاورة. كـــان الجنود يطبخون دقيقهم مُشةَ المذاق خلف جدار من الجوالات الثقيلـــة. وفـــى دائـــرة

أخرى كان كل من محمد ويوسف، ومعهما المرشد هو وصبى جمال أسود، يُسوُّن شايًا ثقيلاً حلو المذاق، فى حين كانت الفتاتان فى مخيم صغير بجانب مأوى الرجال. كان محمد حانيًا عليهما بصورة مستمرة، إذ كان يقرضهما بطانية بين الحين والآخر، لكن أحدًا لم يشغل باله بهما اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بالطبخ أو غسل الملابس. صحيح أن البدو فى الأماكن التى يسمح فيها طول مقامنا بنصب الخيام، كانوا يكتفون دومًا بالزريبة، تاركين لزينب وُهوًا استعمال خيمتهم، لكن البنتين قبلتا الأمر الواقع، أنهما بعد أن تركبا طوال اليوم، يتعين عليهما القيام بعملية الطبخ والغسل والتنظيف، والعمل بصورة عامة على راحة المجموعة العربية.

كنا نريد فض المخيم بعد وجبة المساء، لكن على الرغم من انحسار العاصفة الرملية فإن الريح كانت لا تزال باردة. أوضح عبد الله أننا يتعين علينا السير طوال الليل ونصل فى الصباح متعبين بشكل لا نقوى معه على العمل، وأن ذلك سيكون مضيعة للطاقة، والسبب فى ذلك أن حطب الرحلة يتعين جمعه من المنطقة المجاورة لقرية بَطِّفال Buttafal. دخلت بعد ذلك فى كيس نومى محتمية بسور النخيل عند الساعة السابعة مساء، وصحوت ثانية عندما كان الجو لا يزال حالك الظلام. حثت الريح الباردة السود على العمل الجاد، وتلا ذلك قدر كبير من الجرى والغناء هنا وهناك، لكن الشمس أشرقت ونحن كنا لا نزال نقوم بتحميل الإبل ولم نبدأ المسير إلا بعد الساعة السابعة.

كنا قد خيمنا على حافة واحة جالو مباشرة. خلَّفنا وراءنا آخر النخيل، وكنَّا نرى أمامنا أكبر المناطق استواءً شهدتها عينى. كانت هناك مساحة كبيرة من الرمل المختلط بالحصى الذى يميل لونه إلى الاصفرار، تمتد إلى حافة الأفق القريب. حسبت أننا عبرنا الأرض المستوية الرتيبة التى كانت أمامنا، لكن فى اليوم الثالث والعشرين ركبنا دوابنا خلال أرض سنجابية اللون مستوية مثل طاولة البلياردو، لم يكن فيها نصل أو عود واحد من العشب، أو طائر واحد، أو حتى

حشرة واحدة أو تل واحد. كان الأمر يبدو وكأننا فى آخر الدنيا، وأننا اقتربنا من حافة الأفق المستديرة التى سنسقط من فوقها! كانت الأشياء الوحيدة التى غيرت هذه الرتابة غير العادية عبارة عن مجموعة مبعثرة من الهياكل العظمية التى سبق أن نفقت فى نهاية المسيرة الطويلة من الكفرة أو تيسربو. كنا نرى من حين لآخر عظمة من عظام ساقى الجمل مغروسة بطريقه رأسيه كى توضح الاتجاه الذى كان يقف فيه.

كان يومًا صحوًا باردًا ريحه شمالية غربية. ويبدو أن الإهمال العَمْدى لقدمى هو الذى أدى إلى شفائها، ولذلك استطعت السير مدة ساعتين مع عبد الرحيم. كان عبد الرحيم يتقد حماسًا لوصول نفوذ السنوسى إلى كل من برنو، والسنغال، والسودان، وواداى، وراح عبد الرحيم يعطينى ويقدم لى قائمة بالزوايا الرئيسية. قال: "الوحيدة واداى هى التى ليست فيها زاوية. وسبب ذلك أن السلطان قال لسيدى بن على، 'سنكون دائمًا أصدقاء وحلفاء لك، لكنك إذا بنيت زاوية هنا فإن الشىء التالى الذى يتحتم عليك عمله هو أن تجىء إلى هنا وتغزونا!'" كان القومندان كثير الكلام وانسابت ذكرياته عن الماضى من بين شفتيه. كان القومندان الشخص الذى أرسله سيدى أحمد ليقتل مختار، الضابط السنوسى الذى كان يعمل لحساب تركيا، والذى سبق أن هاجم بومبا Bomba فى الأراضى المصرية دون صدور أوامر مباشرة من سيده بذلك. كان مختار فى جغبوب عندما تشاجر سيدى هلال مع عمه، وبناء على حكم الإعدام هرب الرجل إلى طبرق خلال ثمان وأربعين ساعة. وصف السيد الشاب أهوال المائتين والخمسين كيلو مترًا ليصل إلى عند تناول العشاء فى منزله فى جدابيا، ثم راح يشكو وسط سجاده الوثير وملابسه الرائعة، وهو يضحك من ذكريات عظامه التى كانت تؤلمه وقوته التى كانت تخور فى بعض الأحيان.

كان عبدول مُلمًّا أيضا بأعمال رمضان شتيوى، ذلك الزعيم العربى الـذى صد الإيطاليين على امتداد سنوات كثيرة فى طرابلس(*) Tripolitania، لكنه قُتـل منذ شهور قلائل فى معركة ضد أورفيلا Orfella. ويبـدو أن تحـالف رمـضان شتيوى مع السيد أحمد كان مجرد فتور لهمّته، وسبب ذلك أن رمضان شتيوى، فى إحدى المرات وعندما كان يوفر الحرس الخاص لبعثة ألمانية كانت تحمـل مبلغـا كبيرا من المال إلى السيد Sayed فى برقة تلقى رجاله أوامر بقتل التيوتـونيين(**) عندما يكونون على بعده من مصراته Misurata. استولى رمضان شتيوى علـى الذهب الرسمى وجرى تقسيم الثروة الخاصة بالبعثة بين القتلة.

أشار يوسف عند الظهر إلى ارتفاع طفيف بدا لنا من بعد. قال: "بير بُطَّفـال موجود خلف هذا التل." وفى ظل وجود بقع خـضراء أخـرى علـى خارطتنـا المدهشة، بدأنا نتطلع إلى رؤية حتى ولو نخلة واحدة، ومجموعة قليلة من الأدغال وأشجار الحطب عند الشفق. هذا المنخفض الخفيف ليس فيه مجرد عود واحد مـن أعواد الحشائش. هذه المساحة الواسعة من الرمل الناعم السميك ليس فيها أى حجر أو حتى عصا، أو حتى حزمة من حزم نبات المريميه(***) الأخضر. لم يكن يـوم وصولنا إلى بير بُطَّفال ورطة أو مأزقًا. وقبل أن يتيسر الوقت لنـا للـسؤال عـن مكان البئر، استشاط عبد الله غضبًا هو واثنان من السود. فقد ألقوا بأنفسهم جـاثين

(*) تريبوليتانيا (حاليًا طرابلس): وهى تقع فى الشمال الغربى، وتحدها برقة من جهة الشرق وفزَّان من ناحية الجنوب وتونس من ناحية الغرب. وتقدر مساحتها بحوالى ١٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع ويقدر عدد سكانها بحوالى ٨٠٠٠٠٠ نسمة (القسم الأكبر منهم من العرب والبربر المسلمين وفيها أيضًا خليط من الزنوج). وهى حاليًا عاصمة ليبيا وميناؤها العميق الرئيسى الوحيد، ويصل معدل سقوط المطر السنوى فيها إلى حوالى ١٥ بوصة؛ وتشكل طرابلس قسمًا من الصحراء الكبرى، مع جزء من صحراء الحمأده الصخرية (فى الجنوب الغربى)؛ والمصارف الرئيسية فى طرابلس هى الوديان. ويربى البدو فيها الإبل، والغنم والماعز، وتجرى زراعة الشعير، والقمح والزيتون فِى الواحات. (المترجم)

(**) التيوتونى: هو من ينتمى إلى العرق الجرمانى قديمًا، والمقصود هنا هو "الألمان". (المترجم)

(***) المريميه: نبات صحراوى. (المترجم)



OUR CAMP AT BUTTAFAL (AUTHOR IN WHITE).

مخيّمات بُطّفال (المؤلفه ترنترى الذى الابيض)

على ركبهم وراحوا بصيحات إيقاعية يرمون الرمل بشدة من فوق أكتافهم. ولم نفهم مطلقًا أنهم كانوا يحفرون البئر التى ردمتها الريح القبلية التى هبت فى اليوم السابق، وقد غاصوا إلى منتصف أجسادهم فى الرمل ثم بدأ لون الكومة المحيطة بهم يتحول إلى اللون الداكن وتزداد نسبة الرطوبة فيه.

كرست المجموعة نفسها فى مساء عيد الميلاد لغسل ملابسها، مع بعض المشروبات الخفية من بئر بُطَّفال العذب، الذى يمثل أول ماء طيب تذوقناه منذ أن غادرنا إجدابيا. عملت كل من زينب وهُوا بجد وصبر بغية إعادة ملابس الجماعة إلى لونها الأبيض السابق. وتعين على أن أستر نفسى بجرده (برده) فى الوقت الذى كان فيه ثوبى الأحمر فى الوعاء المصنوع من الصفيح الذى كان يُستعْمل مغسلةً. كان السود عراةً حتى الوسط، متجمعين بجانب البئر وصررهم من فوق رءوسهم. وفى فترة العصر ظهرت فى الصحراء بقع بيضاء، سرعان ما اختفى بياضها الشبيه ببياض الثلج بين الرمل المنجرف الثائر. على كل حال، كان هناك جو عام من الإحساس بالنظافة، وسعدنا عندما ظهر موسى الشيب قادمًا من ناحية جالو، ومعه ثلاثة من الحمير وجمل، بحثًا عن ماء بطَّفال الذى يمكن بيعه فى جالو، التى فيها مياه الآبار مالحة، نظير نصف مجيدى لكل قربة. سعدنا لأنه كان هناك مبرر "للتسامر" مع هذا الرجل، ولذلك ضغطنا وشددنا على أن يبقى معنا ذلك الرجل الحنون كبير السن لتناول وجبة الظهيرة معنا، ومن ثم الجلوس معنا حول النار فى أكبر زريبة من الزرائب، وقمنا بإعداد الشاى الأخضر، فى الوقت الذى راح فيه عبد الله يقطع شرائط جلد الماعز ليصنع منها نعله، فى حين قام حسانين بإصلاح ساعات الجماعة، التى توقفت كلها بسبب العاصفة الرملية، أما محمد فقد قام بفتل حبل بدائى من ليف النخل.

شاهدنا الإبل فى تلك الليلة وهى تتغذى فى ضوء القمر. خطر ببالى فى ذلك الوقت أن وضع التمر كله على شكل كومة واحدة، نظرا لأن الإبل الشرهة أكلت حصة أكبر من الحصة المخصصة لها، فى حين حصل الأكلة البطيئون على

النصيب الأصغر، فيها شيء من الغباء. من هنا، وجدت أنه ليس من حقى مناقشة عبد الله فى أمر يعد من صلب اختصاصه. بعد أن أكلت الإبل، دار نقاش حول ما إذا كان يتعين على الإبل أن تشرب فى تلك الليلة أو فى الصباح التالى. أخيرًا تقرر أن تُسقى على الفور، وكانت مسألة اندفاع الإبل إلى البئر مُسَلِّية. لم يكن مسموحًا سوى لاثنين فقط منها بالاقتراب من الوعاء فى كل مرة، وكان البدو يداومون على تزويد الوعاء بالماء طول الوقت وهم ينادون: "تعال واشرب- وستصبح قويًا بعد ذلك! تعال واشرب- وستصبح قويًّا بعد ذلك!" وتغيرت هذه اللازمة عندما هاجت الإبل "ألا ترى كيف أن شريك يرشنى بالماء! ألا ترى أن شريك يبللنى بالماء!"

أدركت فى تلك الليلة معنى الوحدة فى الصحراء. كانت الخيام الأربع هى والمجموعة المؤتلفة عند البئر، بمثابة إشارات متناهية الصغر على أرض الصحراء الخراب الجرداء، التى يصبغها ضوء القمر بلونه الفضى محولاً إياها إلى بحر مستمر بلا تموجات أو حدود. وكيف أن قافلة قوية يمكن أن تختفى فى الصحراء الليبية ولا يبقى منها أى أثر سوى قليل من النمل الذى تسحقه الأقدام على أرض رمليه. كنت أشتاق إلى مجرد نخلة واحدة تكسر تلك الرتابة المخيفة. لم يكن هناك داع لاقتتال وحدة الطبيعة المؤلمة مع طاقة الإنسان والطبيعة التى يُرْثى لهما. بوسع الطبيعة (الصحراء) التخلى عن الصراع والتوتر للبشر الذين يشبهون الهموش، والذين يعبرون الصحراء فى وجوم لا يعرف الحدود، وعندما تخور قوى حيويتهم المحزنة جراء القتال مع رياحها وجفافها، اللذان تستطيع بهما الصحراء دفن البشر "بلا جلبة أو ضوضاء داخل انجرافاتها السحيقة تحت صفاء ابيضاض أقمارها." فشل الوقود فى البداية. وتلاه الفشل فى الطعام. وأعقب ذلك نضوب آخر المياه.

"بايمان الأطفال الصغار وضعنا أنفسنا أرضًا ومَتْنًا، اتبعنى! هيا تعال!
من العظم الذى على جانب الطريق
ستعود لتكون أنت"

كان المخيم - في يوم عيد الميلاد - مستيقظًا وعلى قدم وساق اعتبارًا من الساعة الثامنة صباحًا. كان الجميع مستعدين لإظهار القدرة على التحمل في تلك المسيرة الطويلة. وعليه عندما خرجت من خيمتي عندما كان القمر لا يزال منيرًا، لم أفهم سبب عدم وجود الغناء أو الصياح، وعدم الاندفاع هنا وهناك بالبالات المحيَّرة. كان العرب والسود على حد سواء واقفين ومنتشرين على شكل تجمعات محبطة. كان محمد - وهو يلف سجادة فيها رسوم مربعة الشكل، حول معطف المطر المبطن بصوف الغنم - يجهز سكينًا حاميًا. يزاد على ذلك أن الإبل نفسها كانت تأتي ببعض الحركات التي توحي بأنها كانت مكتئبة. كانت واحدة من النوق ترقد بجانب النار مطرقة الرأس. وقد ظهر أن تلك الناقة كانت هي السبب المباشر لهذا الاستياء، على الرغم من أن السواد الأعظم من الحيوانات كان يعاني معاناة شديدة من وجبة التمر غير المعتادة ومن بعدها شرب كمية كبيرة من الماء. واتضح أن الناقة كانت تعاني معاناة شديدة. كان الزبَد يخرج من فمها ومن فتحتي أنفها، وكان عنقها ملفوفًا على شكل انحناء مشوه ومتصلب، وكان جانباها يؤلمانها. لم أكن لأصدق مطلقًا أن أشد أشكال عسر الهضم يمكن أن تصل بالحيوان إلى مثل هذا الحال خلال سويعات قليلة. قال يوسف "ستموت الناقة. جهز السكين!" قال عبد الله متعجبًا: "انتظر! انتظر! سوف أحاول كيَّها في البداية!" من الواضح أن الصحراء ليس فيها من العلاج سوى شيءين النزف والكيّ. حاولوا اللجوء إلى النزف في البداية دون جدوى، نظرًا لأن البرد كان شديدًا وبالتالي منع انسياب الدم. دفعوا الناقة التعيسة بعد ذلك على جانبها وكووها باستعمال حديده ساخنة على بطنها. واحتجت الناقة على ذلك احتجاجًا لا يقل عن رفضها لحمولتها، لكن يبدو أن الدفء بث الحركة في جسمها، لأنها حاولت النهوض واقفة على أرجلها، وتفر هاربة مع باقي الإبل، تلك المجموعة بائسة المنظر وكان من بينها ناقة أخرى عرجاء تمامًا.

ازداد التوتر حدة، خلال فترة الصباح الضائعة، بين الزريبتين اللتين تكونتا على عجل. هؤلاء هم السود الذين غضبوا من الإساءات التى وجهت إليهم لركوب الإبل فى المسافة ما بين عجيله وجالو، استطاعوا الآن استعادة إبلهم. قال السود: العرب لا يعرفون شيئًا مطلقًا عن القافلة كما أنهم لا يستطيعون تغذية الحيوانات بطريقة سليمة. ازداد سوء حال الناقة عند الظهر، وأمضى محمد وعبد الله وأنا معهما فترة العصر كلها بجوار الناقة، ونحن نحاول إعطاءها علاجات يائسة بدءًا من المساج إلى الصابون! وعندما غادرنا المكان فى حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر كان واضحًا أن الناقة فى نزعها الأخير، ولذلك أخذنا استعدادنا لمواجهه مشكلة رحلة مدتها سبعة أيام بلا ماء وإبل قليلة. تناقشنا فى مسألة الأمتعة التى يمكن الاستغناء عنها إلى أن قال يوسف بهدوء، بما أننا بقينا يومًا إضافيًا فى بُطّفال، فلن يكون لدينا تمر يكفينا مدة أسبوع. وهنا قال محمد: إننا ينبغى أن نعلن قائمقام جالو بنفوق جمل السيد، الأمر الذى يعنى تأخيرنا يومين آخرين.

عقدنا اجتماعات كئيبة، أصررت فيها على بدء المسير على الفور، لكن يبدو أن الجمل كان يحمل قداسة صاحبه، وبالتالى لا يمكن ترك جسم الجمل فى بُطّفال. قلت: "حسن جدًا، سوف نرسل واحدًا حاملاً هذا الخبر، لكن يتعين علينا ترك هذا المكان عند طلوع الفجر. سوف نعطى نصيبنا من التمر للإبل، وسوف يعوض ذلك مسألة تموينات اليوم."

ظهرت بعد ذلك المشكلة الحقيقية. وصل الاحتكاك بين السود والبدو إلى الحد الذى خشى الطرفان معه دخولهما فى قتال فى نهاية المطاف، ولم يود أحد من المعسكرين تقليل عدد أفراده. وعندما اقترحت إعادة واحد من السودانيين، رفع عبد الله يده. قال عبد الله: "نعم، نعم، أعيدى أربعة أو خمسة. ستكون الرحلة أسهل فى عدم وجودهم،" لكن عبد الرحيم رفض رفضًا قاطعًا الاستغناء عن أى واحد من جنوده. علق عبد الرحيم قائلاً: "فى الليلة التى ظننا فيها أننا سيجرى الهجوم علينا

ونحن خارجون من إجدابيا، تركنا عبد الله وراح لينام مع قريب لـــه، كـــان علـــى مقربة منا." وخيم الحزن على الجماعة كلها، وأنا كنت حزينـــة لأن الإبـــل كانـــت محملة بأكثر من حمولتها، وكان المرافقون محزونين أيضا لأن كل طـــرف مـــن الأطراف كان يخشى المخاطرة بقوته، نتيجة خسارته لأحد مقاتليه؛ وأســـتمر ذلـــك إلى أن ظهر شكل أسود على المرتفع الخفيف الذى تركنـــا خلفـــه الجمـــل الـــذى يحتضر. قال محمد: "ما شاء الله! هذا هو تأثير سيدى إدريس! معجزة! معجـــزة!" وبعد حوالى دقيقتين سار مصدر كل متاعبنا بهدوء عائدا على المخـــيم. لابـــد أن يكون استقباله قد أدهشه إلى حد بعيد، فقد أندفع الجميع للقاء ذلـــك الـــشكل، وهـــم يطلقون نيران مسدساتهم وبنادقهم فى الجو الذى تضيئه النجوم، وبعـــد ذلـــك راح السود يرقصون رقصة برية خيالية على أنغام موسيقى كانـــت تُعـــزف بواســـطة أصابع عبد الله على علبة من الصفيح. وبذلك ينتهى أبشع أعياد الميلاد التى شهدتها فى حياتى.

الفصل السابع

مرشد زائف فى طريق خالٍ من الماء

بدأنا تحركنا الفعلى صوب الجنوب فى اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر. تأخرنا يومًا بسبب العاصفة الرملية وكذلك التأخير الناجم عن الجمل المريض أفقدنا أربع وجبات. كنا قد سمحنا بنصف جوال من التمر فى الصباح ونصف جوال فى المساء، وبذلك لم يعد يتبقى لدينا سوى خمسة جوالات فقط للأيام السبعة. وأيا كان الأمر، فقد اشترينا تموين الجنود من السكر، وسلَّمنا القسم الأكبر من تموينا، لنصل إلى الكمية المطلوبة من العلف. فيما يتعلق بقرب الماء، فإن أقصى ما يمكن أن يحمله الحمل هو ثماني قرب كبيرة، تحتوى كل واحدة منها على خمسة جالونات من الماء، وثمانى قراب صغيرة تحتوى كل واحدة منها على أربعة جالونات. حذرنا جماعتنا المكونة من ستة عشر فردًا بأنهم ينبغى عليهم استعمال ١/٨ كمية الماء الموجودة معهم يوميًا. ثم اعتمدنا على الله بعد ذلك وبدأنا السير جنوبًا عند الساعة الثامنة والنصف صباحًا، نظرًا لأن وزن البضائع وتوزيعها توزيعًا دقيقًا، ناهيك عن المشاجرات التى دارت بين السود والعرب، استنفدت أكثر من ساعتين.

لا يوجد أى مسار أو طريق من هنا إلى تيسربو، وسبب ذلك أن أحدا من هنا لا يقصد هذه القرية. فى جالو كلها لم نصادف سوى اثنين من البشر سبق لهما زيارة الواحة. قال أحدهما إنه قصد الجنوب ووصل إلى منطقة النخيل فى مساء اليوم السادس. أما الرجل الثانى فكان رقيبنا المدعو موراجا، الذى مر خلال تيسربو وهو فى طريقه إلى الشمال قبل تسع سنوات وأنه قطع الرحلة فى ست مسيرات طويلة. أما عبد الله، مرشدنا حاد البصر، بوجهه الأسمر الشبيه بوجه الذئب، والذى يضيئه لمعان أسنانه البيضاء، فقد أعلن أننا إذا ما اتجهنا مباشرة إلى

تيسربو فى اتجاه الجنوب الغربى، فإننا قد ننحرف كثيرًا نحو أقصى الغرب ونخسر أنفسنا جميعًا. وعليه، أقترح علينا عبد الله السير جنوبًا طوال الأيام الخمسة الأولى، وأن يكون تحركنا على هدى من العلامات الأرضية غير الواضحة التى على طريق الكفرة، ثم ننحرف غربًا بعد ذلك، ركبنا اليوم بطوله على دوابنا فى أرض خراب حارقة جرداء، ومستوية على نحو لا يمكن تخيله أو وصفه. لم ير المرء سوى مسافة أميال قليلة على الجانبين. هذا يعنى أن عالمنا كله أصبح عبارة عن قرص أصفر مستوٍ، يعكس أشعة الشمس الحارقة على شكل سراب. كان الانكسار الوحيد فى هذه الرتابة يتمثل فى وجود هيكل عظمى لجمل من الجمال بين الحين والآخر. حدث ذات مرة أن ظهرت ربوة بنية اللون. عند حافة ذلك القرص وحسبنا أن تلك الربوة كانت دغلاً من الأدغال، أو قافلة من القوافل، إلى أن تراقصت موجات السراب مبتعدة لتكشف أن تلك الربوة كانت عبارة عن بعض العظام المتهدلة التى كانت لا تزال تتعلق بها مادة بنية اللون. أكلنا بيضًا مسلوقًا وبعضًا من التمر فى وجبة الغداء، لكننا التزمنا بالقاعدة الموضوعة التى تقضى بالشرب فى الصباح والمساء. بعد أن مضينا فى طريقنا، بعد أن اتفقنا على ألا يركب أحد منا الإبل إلا إذا كان مريضًا أو خائر القوى، أكد لى موراجا أن رحلتنا قد لا تكون محظوظة، لأننا فشلنا فى الوفاء بالعادة العربية الأصيلة التى كانت تحتم علينا نحر شاة فى بُطْفال. يبدو أن هناك تقليدًا مفاده أن أى عضو من أعضاء القافلة إذا ما زار واحة للمرة الأولى تقام له وليمة على شرفه. ونظرًا لأن أحدًا من رجالنا لم يسبق له زيارة الواحات كلها التى نعتزم زيارتها، فقد توصلنا إلى أن هذه الرحلة ستكون مُكلفة!

اندهشنا بحق لأن السود مشوا طوال النهار دون غمغمة أو توقف من حين لآخر كى يرقصوا ويغنوا. هذه هى الناقة التى أوشكت على النفوق أمس تحمل حملها وهى فرحة مسرورة. قال محمد بشكل قاطع: "لقد ركبها الشيطان، لكن روح

سيدى إدريس هى التى شفتها." عند الساعة الخامسة بعد الظهر، أشار لنا يوسف على كلب Kalb المتِمَّة Motemma، التى قال يوسف أنها على الجانب الأيسر، لكنى لم أستطع رؤية أى شيء شبيه بالربوة.

رأينا الشمس وهى تغرب وسط روعة اللهب الذى يمثل روعة الصحراء الكبرى، ومشينا مدة ساعة أو ساعتين فى ضوء النجوم، وتلا ذلك طلوع قمر برتقالى اللون فى اتجاه الشرق، وحول الصحراء إلى بحر فضى غريب. واصلت قافلتنا الصغيرة مسيرتها عبر هذه الوحدة الشاحبة التى لا نهاية لها، وبينما كنت أنظر إلى البقعة البيضاء التى كانت تقودنا، عرفت سبب عدم وجود ملحد فى الصحراء. **هذا يعنى أن الإنسان يتعين عليه الوثوق بشيء أقوى منه وأبعد منه أثرًا. فى أوروبا، إذا لم يكن هناك إله يساعد، فإن هناك - فى أضعف الأحوال - العلم، والتليفون، والقطار السريع أو الطائرة. فى ليبيا، حيث لا يستطيع البدوى طلب النجدة باللاسلكى، حيث لا توجد لافتات إرشادية، أو جراح، أو ميكانيكى لتحسين وسائل الاحتراق الداخلى، وحيث لا يوجد طعام يُشْترى أو يُنتقى، وحيث لا يوجد تحذير غير الموت، فإن المترحل الوحيد لابد أن يعلق أو يربط إيمانه بقوة تفوق قوة ذلك المرشد هادئ الوجه الذى يكون مصير القافلة بين يديه.**

عندما التقانى عبد الله على التل المجاور لصف النخيل فى عُجيله، نظرت إلى وجهه القوى الصارم، الذى تكسوه الخطوط ويوحى بالذكاء، وعيناه اللتان توحيان بالاعتماد على النفس، وأحسست أن بوسعى الاعتماد على هذا الرجل والوثوق به فى قيادتنا إلى بر الأمان عبر هذه الرمال الخالية من الماء إلى واحة تباين حجمها طبقًا لخيال المتكلم. عندما نظرت إلى تلك البقعة الجرداء المضاءة بنور القمر، والخالية من أى عود من عيدان الحشائش، أو أى حجر من الأحجار، يمكن أن يكسر سطح هذا القرص، ذلك الشكل الصغير الذى يمشى متثاقلاً يجر وراءه فى التراب طرف جرده (بردته) الأبيض، بعد أن وهنت طاقته بعد مسيرة

دامت اثنتى عشرة ساعة، أحسست بمدى هشاشة أى شيء تعتمد عليه حياتى وحياة سبعة عشر شخصًا آخرين غيرى. ونحن عندما نجلس على الكراسى الوثيرة فى الضوء الكهربى ونروح نتحدث عن "الغريزة البدوية"، نجد أنفسنا نقر ونعترف بعمل قوة أكبر من قوة عنصر الراديوم أو البخار! قد تعتمد أوروبا على مئات العلوم، لكن فى ليبيا ليست هناك سوى عقيدة واحدة، وأمل واحد هو، "الله أكبر!"

نصبنا المخيم عند الساعة السابعة والنصف بعد الظهر، وبعدها بساعة واحدة خيم الصمت على مجموعة الخيام الصغيرة الهادئة هدوء الرمال المحيطة بنا.

استيقظنا عند الساعة السادسة صباحًا من اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر، وغادرنا المكان عند الساعة الثامنة، نظرًا لأننا سبق أن قررنا أن أفضل الطرق لقطع مسافة الخمسين كيلو مترًا المطلوبة فى اليوم هى السير المستمر مدة إحدى عشرة ساعة أو أثنتى عشرة ساعة، على أن نتناول وجبة جافة قبل بدء السير ووجبة أخرى مع دخول المساء. وعندما نهض آخر الإبل واقفًا على أقدامه أشار يوسف إلى مجموعة من التلال المنخفضة الصغيرة فى اتجاه الشرق. قال: "هذه هى الحميمات Hameimat التى على الطريق المؤدى إلى زايغن Zieghen".

كان حليفنا المتين فى حالة من التأمل فى ذلك اليوم. وعلى الرغم من الحرارة الشديدة كان ذلك الحليف يرتدى معطف المطر المبطن بالصوف والمزرَّر بإحكام ومحزَّم بإحكام أيضًا، وكانت هناك قطعة من القماش أبيض اللون ملفوفة على خديه. قال لى فجأة: "ما أهى أعظم عطايا الله ﷺ للإنسان؟" أحسست أن ذلك السؤال كان بمثابة اختبار لعقيدتى الإسلامية، ولذلك رددت عليه على الفور "القرآن". نظر الرجل إلى نظرة احتقار واستخفاف "الجمل! لولا وجود الإبل هنا، لما كان هناك تمر، أو طعام، أو أى شيء آخر!" وصمت الرجل قليلاً ثم أردف قائلاً: "لو لم توجد الإبل هنا لما وجد الرجال!"

تكوين الصحراء للشخصية أمر عجيب. هذا هو حسانين بلغ من الغموض حدًا لم ينه معه مطلقًا جملة من الجمل أو عمل من الأعمال. تطورت لدى قدرية تختلف اختلافًا كبيرًا عن أفكارى المعتادة. وهذا يوسف راح يكشف عن دلائل فخره واعتداده بنفسه من وراء كسله الشديد. وهذا عبد الله صار هو الآخر متحفظًا، وعظيمًا شأنه فى ذلك شأن الكثبان الرملية التى تحرس الواحة المقدسة، لكن محمد كشف عن أحسن صفاته. كان العرب كلهم شجعانًا وأصحاب بطولة هادئة قوية، الأمر الذى جعلنا نتمتع فيما بعد بعدد من الأيام يعد على أصابع اليد الواحدة، لكن محمد كان عطوفًا بلا حدود، وكان تفاخره شيئًا جميلاً ونظيفًا، ناجمًا عن صمت وعن دين. فقد أقسم محمد على عدم الركوب وتمسك بقسمه على الرغم من الألم الشديد. كان محمد يبتسم، بعد انقضاء سويعات قليلة على وفاة أى شخص من الأشخاص. صفح محمد، وبلا كلمة واحدة، عن إهمال كاد يكلفه حياته. كان محمد يعمل دومًا وبلا توقف حتى يستريح الجميع، وكانت المرة الوحيدة التى رأيته يفقد فيها هدوءه، بمعزل عن صبره، عندما استهزأ الجنود بتابعه عمر. فيما يتعلق بالسود، كان خليطًا من الأطفال والحيوان. كانوا يكتئبون عندما يعانون. ويَسْعَدُون عندما يطريهم أحد. كانت أفكارهم تتبلور فى بساطة وببطء وكان الجدال معهم أمرًا مستحيلاً. تراهم أحيانًا شجعانًا، وجبناء فى أحيان أُخرى؛ وفى هذه المناسبات يكشف السود عن صبر وإخلاص رائعين وغير متوقعين تمامًا.

أطلقنا على المخيمين المتعارضين كنية "الدببة السوداء" و "الملوك الرُّعاة"، بعد أول نزاع سيئ دار بينهما، والذى نشب فى اليوم التالى. لم تكن لدى عبد الرحيم صغير الحجم القدرة البدنية على السير مسافة ثلاثين أو ثمانية وثلاثين كيلو مترًا كل يوم، ولذلك لم نندهش عندما ركب فى هدوء فوق أحد الجمال، لكن عندما حذا موراجا حذوه ومعه آخرون أعربت عن أحتجاجى الشديد. ومن سوء الطالع، أن يوسف شاركنى هذا الاحتجاج ونعت الجنود "بالعبيد!" جاء ذلك بمثابة بداية التفجير،

وكانت هناك معركة وشيكة فى غضون دقائق معدودات. أمسك العرَيف بندقيته، فى حين أخرج محمد مسدسه الخشبى الكبير. وهنا وجدتنى أصب الزيت على الماء المضطرب، وبعد رجائى الحار مرات عدة للطرفين، خفت حدة الموقف عما كانت عليه. واعتبارًا من تلك اللحظة أصبح هناك عداء شديد بين المخيمين.

خيمنا عند الساعة السابعة بالقرب من مجموعة من هياكل الإبل العظمية، التى راحت إبلنا تمصمص عظامها فى شىء من التأمل. كانت تلك هى اللحظة الوحيدة من اليوم كله، التى رأيت فيها كلا من زينب وهُوَا، لأنهما كانتا مشغولتين بطهى وجبه العرب المسائية على بعض أعواد الحطب الذى جرى جلبه من المنطقة المجاورة لبُطْفال. على امتداد هذه الرحلة الطويلة كلها، لم نر سوى شكلين مدثرين ببطانيتين خشنتين مرًا علينا بلا حراك، صامتين على جمليهما. لم ينظرا قط من داخل ثنيات البطانيات. لم يتكلما قط حتى مع بعضهما البعض. كنت أتساءل عما إذا كانا يفكران فى شىء بعينه، ومع ذلك ربما كانت واحدة منهما، أما للشيخ السنوسى صاحب القوة الكبرى مستقبلاً. فى الإسلام الأبوة هى الأساس، وسواء أكانت الأم عبده أم أميرة، فإن الابن الأكبر يكون هو الوارث.

غادرنا المكان عند الساعة السابعة والأربعين دقيقة من صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس، وتعين علينا السير مدة إحدى عشرة ساعة ونصف الساعة قبل أن نتمكن من قطع مسافة تقدر بحوالى ستة وأربعين كيلو مترًا. وكان ذلك بمثابة أول يوم تحقق فيه القافلة معدلاً يزيد على أربعة كيلو مترات فى الساعة، نظرًا لعدم وجود مغريات للإبل تجعلها تتجول طلبًا للرعى، لكن فى اليوم الثانى كان الجميع متعبين وواجمين، وكان صعبًا جعل الرجال يقودون الإبل فى خط مستقيم. فى اليوم الثالث بدأت أقدام السود تلتهب. وأنا نفسى تورمت قدمى مرة ثانية وكان من الصعب جدًا السير مدة زمنية أيا كانت فى شبشب كبير بلا كعب. كان كل من حسانين ويوسف يعرجان، ولم يتمكن موراجا من الوقوف على رجليه

نظرًا لالتهاب شرايينهما. كنت متعبة على نحو لم أتمكن معــه مــن الابتــسام إلا بصعوبة بالغة، لكن من يمن الطالع أن التوزيع غير المنتظر لجوال من التمر أدى إلى بث الشجاعة فى نفوس القافلة إلى حد ما. شتت السراب كومتين صغيرتين من الرمل إلى تلين، وراح يوسف يتلاعب بأن جمعً آخر هيكل عظمى ليأخــذ شــكله الحقيقى بحيث كانت واحدة من أرجله مرفوعة إلى أعلى. لم أضــحك إلا بعــد أن لاحظت أن جمجمة بشرية كانت تتوج ذلك الهيكل العظمى!

تعين علينا تقسيم انتباهنا بالتساوى بين المخيمين. وإذا ما مشينا ساعة مــع عبد الله، وسمعنا منه كيف أن وكيل خصمنا فى إجدابيا حاول أن يرشيه حتى يمنعه من مرافقة القافلة وكيف أن الوكيل المشار إليه قد نال الضرب الذى يستحقه، تحتم علينا أيضًا تكريس وقت مماثل أيضًا للحوار مع موراجا للاستماع خلاله عن أمجاد السودان وشجاعة جنوده. لم يكن سهلاً مطلقًا الحفاظ على تهلــل الجميــع خــلال مسيره دامت إحدى عشرة ساعة بلا طعام أو ماء. وفى المــساء وبعــد أن أكلنــا نصف تعييننا اليومى من اللحم وحفنة من التمر- نظرًا لأننا كنا نحمل أقــل كميــة ممكنة من الطعام- كان هناك موكب متعاطف أعتاد أن يسلب منا الكثير من النــوم الذى نحن بحاجة إليه. عالجنا أقدامنا المتورمة والملتهبة، كما عالجنا الصداع الناتج عن الشمس، وألم الأسنان الناتج عن أكل التمر، وعالجنــا الالتهابــات، والحمــى، ومجموعة أخرى من الأوجاع قبل أن ندخل إلى كيس نومنا- وهذا مجرد شىء من الأمان النسبى نظرًا لأننا بدأنا نعانى من طفح رملى!

بدأنا مسيرنا عند الساعة السادسة والأربعين دقيقة من اليوم التاسع والعــشرين من شهر ديسمبر، وعند الساعة العاشرة أعلن محمد أننا وصلنا إلى الوادى الفــارغ. وأنا شخصيًا عندما نظرت إلى هذا الوادى من جميع الزوايا، لم أر منخفضًا مــن أى نوع، لكن الجميع قالوا إن هذا الوادى الفارغ يقع فــى منتــصف الطريــق، وعليــه ارتفعت الروح المعنوية. وعلى الرغم من ذلك، كان اليوم متعبًا، نظرًا لأننا فى ذلــك

CARAVAN ON THE MARCH BETWEEN BUTTAFAL AND TAISERBO.
(A seven days' journey across desert of this character.)

القافلة فى الطريق مابين بَّطفال وتيسربو
(مسير سبعة ايام فى صحراء لها مثل هذا الطابع)

الوقت كنا جميعًا قد أُصبنا بالعرج. لم يكن محمد قادرًا على الوقوف علـــى قدميـــه، لكنه رفض بإباء وشمم أن يركب. أما السود فقد اعتادوا السير متقدمين الإبل بحوالى نصف ميل تقريبًا، ثم ينامون ووجوههم فى الأرض، فى حين كان رفاقهم يــستلقون على ظهورهم، باعتبار ذلك شكلاً أصيلاً من أشكال التدليك.

تناول عبد الله قطعة من قشرة بيضة من بيوض النعـــام أســـقطتها إحـــدى القوافل المارة القادمة من واداى. قال لنا متشككًا فى معلوماته "كان النعام هنا منـــذ سبعين عامًا." سألته "ماذا يأكل النعام؟" رد على سؤالى ردًا غامـــضًا "آه، طعامًـــا، يأكل طعامًا كثيرًا!"

سقط بعض المطر فى المساء، وأدى ذلك إلى عرقلة عملية الطهـــى، لكنـــه وفر لنا بعضًا من الماء. كنا قلقين بشأن ما معنا من ماء، نظـــرًا لأن واحـــدًا مـــن فناطيسنا بدأ الماء يتسرب منه، وقام السود بإفراغه من الماء أثناء الليل. كنـــا قـــد تعودنا على وضع قرب الماء أمام خيمتى وأقوم أنا بنفسى بتوزيع حصص المـــاء. كان عدد كبير من القراب يتسرب منه الماء بشكل سيئ وعلى الرغم من الحـــرص الزائد كنا نحسب أن الجميع سيكونون عطشانين بحلول اليوم السابع. أنا شخـــصيًا، كنت أشرب كوبًا واحدًا من القهوة الساخنة فى الصباح وكوبين من الشاى البارد أو الماء أثناء الليل. خيمنا عند الساعة السادسة وعشر دقائق بعد عصر ذلك اليوم.

بدأنا مسيرتنا عند الساعة السابعة من صباح اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر، وخيمنا عند الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة بعد عصر اليوم نفسه. كان نهار اليوم حارًا بشكل شديد وكانت الإبل منهكة مثل الرجال تمامًا. هذا واحد جُرحـــت قدمه، وذاك تيبَّس كتفه. وهذان التهب ظهراهما وتحتم تقسيم حمليهما علـــى بقيـــة الإبل الأخرى. وعلى الرغم من ذلك، سُمِح لبعض الجنود بالركوب، نظرًا لتـــورم أقدامهم تورمًا سيئًا. تغير منظر الأرض تغيرًا طفيفًا، فقد تميـــزت أرض الـــوادى الفارغ القريبة منا ببعض التموجات الرملية الخفيفة، لكن انبـــساط الأرض أمامنـــا

أصبح بلا عوائق، على الرغم من أن لونها الأصفر الرتيب كانت تتخلله بقع من الحصى داكن اللون. وقد مكن ذلك السراب من بناء تلال وجزر سوداء وسط موجاته الزرقاء المتنقلة.

شهد اليوم الحادى والثلاثون من شهر ديسمبر تحركنا عند الساعة السادسة والنصف صباحًا والذى تواصل حتى الساعة السابعة مساء وقطعنا خلاله ستة وأربعين كيلو مترًا، نظرًا لخطورة الموقف المفاجئة. كان عبد الله فى اليوم السابق قد فاجأنا بإصراره على حتمية أن ينحرف مسارنا قليلاً إلى الجنوب الشرقى، نظرًا لعدم عثور الرجل حتى ذلك الحين على علامة أرضية على الطريق المؤدى إلى زايغن. وعندما ناقشنا الموقف فى جالو، كان عبد الله قد أكد لنا فى هدوء وبصورة قاطعة أنه سبق له السفر إلى تيسربو وأنه يعرف الطريق. كنا قد كررنا سؤاله عدة مرات ، وكان يؤكد لنا فى كل مرة وثوقه بقدرته على إرشادنا للوصول إلى أية واحة من واحات الجنوب، على الرغم من حثه لنا بعدم الذهاب إلى بُسيمه تحسبًا لخطر الهجوم علينا.

الخريطة التى معنا توضح لنا الآن أن المسافة من بطَّفال إلى تيسربو تقدر بحوالى ٣٥٠ كيلو مترًا. والعرب يقولون بشكل عام إن هذه المسافة تقدر بمسير سبعة أيام، وهذا يعنى السير يوميًا ما بين أحد عشر وأثنى عشرة ساعة بمتوسط أربعة كيلو مترات فى الساعة الواحدة. وعلى الرغم من تغيير عبد الله للاتجاه، وطبقًا للمسافة التى قطعناها، فإن ذلك يعنى أننا أصبحنا داخل منطقة الواحات فى تلك الليلة. كنا قد توقعنا ذلك يقينًا فى مساء اليوم السابق، عندما لاحظنا شيئًا من الغموض فى تصرفات مرشدنا. قال محمد فى اليوم السادس "لا تتحدثى إليه، وإلا سيفقد صوابه. مسألة فقدان الصواب هذه عند المرشدين تكون شبيهه بالحمى، وإن شىءت فقولى: مرض معروف عندهم. كان شيئًا غير طبيعى بحق أن أرى التغيير الذى ظهر على وجه البدوى فى ذلك اليوم. لقد تغيرت قسمات وجه الرجل، فى

حين ظهر القلق والاضطراب في عينيه. كان الرجل يحنى ظهره أثناء سيره ويداوم السؤال عما إذا كنا نسير في خط مستقيم، إلى حد أننا ظللنا نوجهه إلى آخر ذلك اليوم بواسطة الخارطة، التي كان لدينا ألف سبب وسبب لعدم دقتها. وهنا يجب ألا يغيب عنا أننا على الرغم من تحديدنا لمحلنا بشكل عام فإننا لم نكن نعرف مكان تيسربو. وزعنا نصف تموين الإبل في اليوم الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر، وحاولنا تخفيض حصة الماء أكثر من ذى قبل، على الرغم من وقف صرف كوب ماء الغسيل بسبب التسريب الذى حدث في بعض القرب."

طلع علينا اليوم الأول من العام ونحن مكتئبون. لم يكن معنا سوى شيء قليل جدًا من العلف للإبل، إضافة إلى أن ما معنا من الماء لم يكن يكفى يومين فقط بواقع ما يقل عن البنت(*) قليلاً لكل فرد من أفراد القافلة. أحسسنا بشيء من الفرح ونحن نقوم بتحميل الإبل، عندما أشار عبد الله إلى وهج خافت في اتجاه الشرق، وقال: إن تلك كانت مازيل Mazeel، التي هي بعض الروابى الصغيرة التي كان يتطلع إلى رؤيتها في اليوم السابق. في الإصباحات الصافية، وبعد حوالى ساعة من طلوع الفجر، وعندما تكون الصحراء شديدة الانبساط، يظهر عند الأفق سراب لمنطقة تبعد عنا مسيرة يوم واحد. وهنا ولبضع دقائق قليلة يرى المرء صورة للشيء الذى يكون على بعد ٥٠ كيلو مترًا، أبعد مما هى عليه في الواقع. والعرب يطلقون على ذلك اسم "الجزء المقلوب". في اليوم الأول من شهر يناير، المصادف لليوم السابع من رحلتنا، رأينا ذلك السراب أول مرة- رأينا أدغال الحطب والروابى واضحة تمامًا في اتجاه الجنوب، ومع ذلك تحول مرشدنا ناحية الغرب من تلك الأدغال والروابى. كان جملى مريضًا بسبب تغذيته بصورة غير عادية على التمر. كان حسانين هو الآخر يحس ألمًا شديدًا في قدميه الملتهبتين. وقد

(*) ثمن جالون، أو ٠,٥٦٨ من اللتر. (المترجم)

تسببت الريح الشمالية التى هبت علينا طيلة أسبوع كامل هى وشمسها المحرقة، فى إصابة كتفى الأيمن بالروماتيزم. كان الحطب الذى معنا قد انتهى، وحدثت مشاجرة حادة بين السود والبدو بخصوص هذا الأمر، إذ راح كل طرف يتهم الطرف الآخر بأنه استعمل أكثر من النصيب المحدد له.

واصل عبد الله سيره بضع ساعات فى اتجاه الجنوب الغربى، ثم بدأ بعد ذلك يتجول هنا وهناك بصورة طفيفة. كان السود يودون ضرب عبد الله. يزاد على ذلك أن محمدًا نفسه كان متضايقًا منه. واصلنا سيرنا فى اتجاه الجنوب. تحتم على حسانين ركوب دابته طول اليوم، واحمرت عينا محمد، مع ألم قدميه، ومع ذلك واصل كفاحه. فى تلك الليلة لم تشعل أية نيران فى المخيم، وكنت أتوقع اغتيال عبد الله. وعلى الرغم من ذلك، سمعت عبد الله، عندما صحوت فى صباح اليوم الثانى من يناير، يضحك، وتمنيت أن يكون قد استعاد صوابه، لم نجرؤ على استئناف السير "إلا بعد أن بدا المنظر لنا مقلوبًا"، وبالتالى كشف لنا كل ما هو أمامنا وعليه شغلنا أنفسنا بتحديد مكاننا وموقعنا الحقيقى. الخريطة التى معنا تقول: إننا حاليًا داخل حدود تيسربو! وقد أثار ذلك لدينا تساؤلاً حول ما إذا كانت تيسربو واحة واحدة مستمرة أو أنه بالإمكان السير بين مجموعتين من النخيل دون أن نرى شيئًا!

أرانا السراب عند الساعة الثامنة صباحًا كثيبًا رمليًا حادًا فى أقصى الغرب. كنت أود الذهاب مباشرة إلى ذلك المكان، أملاً فى أن نتمكن من تسلقه عند غروب الشمس، وبالتالى نرى كل ما هو موجود خلف ذلك الكثيب، لكن كلا من عبد الله وموراجا أصرا على عدم وجود كثيب من هذا القبيل فى أى مكان بالقرب من تيسربو. قال المرشد بصورة قاطعه: "إذا ما سرنا غربًا وتوغلنا فى السير سنصل إلى جهنم." كان مستحيلاً فى ظل الخطر الحالى المجادلة فى مسألة السير فى الصحراء غير المأهولة الواقعة خلف تيسربو. ولم نجرؤ على المخاطرة بكل شىء ونحن ليس معنا سوى ماء يكفى ليوم واحد فقط، وليس معنا علف للإبل، لكنى

تيقنت أن تيسربو كانت أصغر وعلى مسافة أبعد بكثير عما نراه في اتجاه الغرب. وأنا على يقين أننا إن وصلنا إلى ذلك الكثيب قد نكون وصلنا إلى تيسربو. في هذه اللحظة تشكل ضباب كثيف وحجب عنا كل شيء، وعليه قررت السير جنوبًا مدة خمس ساعات، وخلال هذه المدة، وطبقًا للمعلومات التي حصلنا عليها من جالو وطبقًا أيضًا للخريطة التي معنا سنكون قد دخلنا فعلاً إلى تيسربو، وربما استطعنا تعرف بعض العلامات الأرضية القريبة من بُسيمة.

كانت المسيرة مرعبة. فقد كان الجميع يعلمون أنهم من الناحية البشرية، سيموتون عطشًا خلال يوم أو يومين. كانت أقدامهم جميعًا قد تورمت، ولم يكن أحد منهم لديه ما يكفيه من الطعام، ومع ذلك كان الجميع يضحكون. قال فرَّاج في أدب "واضح إن الله شاء لنا أن نموت، لكن أحدًا لن يموت أمام سيدي عبد الله." أشك أن المرشد سمع هذا الكلام. واصل المرشد سيره، وهو يحملق حملقه بلهاء توحي بتدني روحه المعنوية، وراح يتجه صوب الغرب في البداية ثم صوب الشرق بعد ذلك. كان محمد يمشي على رجليه المتورمتين مترنحًا. قال محمد في هدوء "أنا أفضل الموت بجوار متاعي. والذي لا شك فيه أن عبد الله ويوسف يفضلان التجوال هنا وهناك إلى النهاية، لكني لا أعرف هذه المنطقة، وأنا أحمد الله أن النهاية ستكون سريعة!" راح الجميع بعد ذلك يتكلمون عن الموت، وكنت مندهشة لتقبلهم مقدمات الموت بهدوء وعن طيب خاطر. الشيء الوحيد الذي كان يحفزهم هو وفاة المرشد. قال الأطرم "والله، سيتقدمنا سيدي عبد الله ويهدينا إلى الطريق الصحيحة!" قال شاكري بطريقة حازمة "عندما أتأكد أن الموت أصبح حقيقة، سوف أرميه بالرصاص لأرديه قتيلاً." قال فراج "لكنه نعتك أمس بالغباء." أقلقت هذه العبارة شاكري إلى حد ما. ثم انشرح صدره بعد ذلك. قال: "سأنعته أولاً بالغباء، ثم أرديه قتيلاً بعد ذلك بفتح النار عليه." انقشع الضباب فجأة وسط هذا الحوار، ليكشف من جديد عن الأرض المنبسطة نفسها التي نسير عليها، لكنها

كانت شاحبة ورملية وخالية من أى ظل من ظلال الحشائش أو الحطب الذى يوحى بأمل وجود واحة من الواحات.

أنا أندهش من تأثير اليأس على الإنسان. فى ذلك الصباح لم يتمكن حسانين من وضع قدمه على الأرض، لكنه عندما أدرك اقتراب نهايته، مشى مدة ثمانى ساعات دون أن يحس أى شىء من الألم. نسى محمد أوجاعه هو الآخر، وأنا بدورى وجدتنى أتعجب من الطريقة التى تجعلنى أفيق على وجه السرعة من ذلك الكابوس الحقيقى. وعندما لم يسفر مسارنا الجنوبى عن شىء سوى البحيرات والبرك الخيالية الزرقاء- نظرًا لأن الشمس الحارقة بدأت هى الأخرى تزيد من متاعبنا- بدأنا نتشاور، متجاهلين عبد الله، وقررنا السير فى اتجاه شرقى جنوبى شرقى إلى أن نفد ماؤنا واستسلمت إبلنا للتعب والإرهاق. خطر ببالنا أن السير فى هذا الاتجاه عامر بكثير من احتمالات الخلاص، وقد نصادف الطرف الشرقى القصى من تيسربو، إذا ما كان قريبًا من موقعه على الخريطة، أو قد نجد أنفسنا فى ذلك الجزء من البلاد الواقع جنوبى زايغن أو بين الكثبان القريبة من بُسيمه. سلمنا بأن تلك المواقع قد تكون بعيدة على نحو يصعب معه الوصول إليها بالإبل، لكن إن استطعنا الوصول إلى مكان قريب منها، فإن ذلك قد يمكننا من إرسال مراسل طلبًا للعون، ونمكث فى مكاننا انتظارًا لعودة ذلك المراسل. كنا نعلم أن هناك شيئًا قليلاً من الماء فى عُلب الخضار، وكنا نتطلع إلى البقاء يومًا آخر على قيد الحياة بفضل هذا الماء.

كان سراب عصر ذلك اليوم مريعًا. وأنا لا أدرى إن كان الإرهاق قد أثر على أعيننا، لكننا كنا نرى تلالاً، وكثبانًا رملية، وأدغالاً فى جميع الاتجاهات، وكانت كل هذه الأشياء دومًا هى تلك البقع السوداء التى كنا نراها من قبل. فإن قائمقام جالو قد قال: "إن ذلك طريق بسيط إلى تيسربو، لكن الخطأ فيه - أيا كان - يمكن أن ينتهى بالدمار!" ترى هل ارتكبنا ذلك الخطأ بالفعل؟ الغريب بحق أننى لم أشعر

بالغضب تجاه عبد الله، حتى عندما اعترف فجأة أنه لم يذهب إلى تيسربو منذ عشرين عامًا. واقع الأمر، أن مسحة غريبة من القدرية تملكتنا جميعًا. راح البدو يناقشون الكوارث الأخرى التى على هذه الطرق الجنوبية المرعبة.

هذا رجل وافته المنية بعد أن فشل فى العثور على الماء وهو على بعد خمس عشرة ياردة منها فى مرة من المرات. وهذا رجل آخر فسد مساؤه وهو على طريق الكفاره، وعثر عليه ميتًا بجوار إبله، التى ذبح واحدًا منها بغية شرب دمه. لم يهتم السود بشكل عام بتلك الحكايات المخيفة وهم يواصلون سيرهم فى هدوء وهم يخفون انفعالاتهم. أعطيت السود آخر كيس معنا من أكياس التمر، لكنى حذرتهم أن ذلك التمر قد يزيد من إحساسهم بالعطش. وردوا على بروح معنوية عالية بأنهم لا يودون الشرب. كان السود رائعين فى عصر ذلك اليوم. فقد راحوا يغنون ويضحكون ويُسرَّون عن أنفسهم مع بعضهم البعض. واصل عبد الرحيم، ضئيل الجسم، مضيه قدمًا بابتسامة مخيفة على شفتيه، حاملاً بندقيته على كتفه، متناسيًا ضعفه. كان عبد الله الشخص الوحيد من بين أفراد القافلة، الذى تدنت روحه المعنوية عالية، وراح يسير خلف القافلة مطرق الرأس. وفجأة وعندما ظهر أمامنا مرتفع بسيط فى اتجاه الجنوب، سارع عبد الله قَاصدًا ذلك المرتفع، لمزيد من الرؤية، لكنه عاد إلينا بعد ساعة وهو أكثر اكتئابًا من ذى قبل. بدأت ساعات الظهيرة تدخل علينا ببطء. لم أحس أنا نفسى بالعطش، لكننا جميعًا كنا قد شربنا القليل جدًا من الماء إلى حد أن قرب الماء أصبحت جافة بشكل غير عادى. تشققت شفاهنا ولثانا والتهبت. ولم تحصل الإبل فى اليوم السابق إلا على نصف كمية العلف المحدد لها، كما أنها لم تحصل أيضًا صباح هذا اليوم على أى شىء من ذلك العلف، ولذلك بدأت تتضور جوعًا. حاولت الإبل أكل حشو سُرُج الأمتعة، وكانت تجرى صوب كل بقعة من بقع الحجارة الأرضية السوداء بحثًا عن الحشائش والأعشاب.

ظهرت لنا عند الأفق الشرقى عند الساعة الثالثة عصرًا بعض الكثبان الرملية الخافتة. توقعنا أن يتعرف عبد الله على تلك الكثبان، لكن ربما كانت حالة الرجل المعنوية فى منتهى السوء، نظرًا لأنه لم يتحمس لهذه الكثبان. راح كل من يوسف ومورَاجا يتناقشان فيما بينهما حول ما إذا كانت تلك الكثبان هى الهاتيا(*) التى بين زايغن وتيسربو. إن صح ذلك، فهذا يعنى احتمال وجود حياة نباتيه فى الجانب البعيد من هذه الهاتيا (المنخفض) وبذلك يزول غموض موقعنا الحالى. جرى الجميع تقريبًا صوب تلك الكثبان، ولم يبق سوى عبد الحافظ هو وعمر ليتوليا قيادة الإبل، التى كانت تتعثر تعثرًا شديدًا. كان ذلك اليوم التاسع الذى يمر على الإبل دون أن تشرب، لكن ذلك كان أقل خطرًا من ندرة الطعام. ولمدة ساعة كاملة مُجهدة راح الجميع يناضلون محاولين السير بأقصى ما وسعهم الجهد، يعرجون، ويترنحون، بأفواه جافة، وعيون مُحمرَّة، تتراقص من أمامها صفحات الماء والبَرادَ من فوق تلال السراب الداكنة. وفجأة ألقى يوسف الذى كان فى المقدمة بنفسه على الأرض ووجهه للأرض وراح يقبلها، وراح الرجل يرقص رقصة مجنونة وهو حاسر الرأس، راح خلالها يلوّح بكوفيته الطويلة على طرف عصاه. اندفعنا نحوه للانضمام إليه، ووجدناه يطبطب على تل صغير فيه عدد من العصى الجافة الهشة. قال يوسف ببساطة: "هذا حطب دغل من الأدغال. إن شاء الله! سيكون هناك المزيد من الحطب فيما بعد." ظهرت ربوتان أخريان بعد ذلك بمسافة قصيرة، فيهما القليل من الأغصان الخضراء الصغيرة الخشنة، تقاتلت عليها الإبل إلى أن اختفى آخر أثر من آثار ذلك العشب. كانت الشمس قد أوشكت على الغروب فى ذلك الوقت، وكان علينا جرجرة أطرافنا المتعبة مهرولين على أمل الوصول إلى تلك الكثبان الخادعة فى وقت نتمكن فيه من المنظر الواضح الخالى

* كلمة ليبية: تعنى "منخفضًا يحتوى على أدغال الحطب". (المترجم)

من السراب الذى يأتى عند غروب الشمس. كان الأمر سباقًا يرثى لها بين الواقفين عن السير والعرج، سبقنا الآخرون، أنا وحسانين رأينا الآخرين وهـم يـصعدون الكثيب- رأيناهم يطيلون النظر فى اتجاه الشرق- ثم رأيناهم بعد ذلك يغوصون بلا حراك على شكل مجموعات صامتة. أعتقد أنى أحسست فى تلك اللحظة أن شهادة ضمان موتنا أصبحت جاهزة. تحولت صوب رفاقى فى يأس. "الأخبار سيئة. لـو كانت هى الهاتيا لكانوا قد رقصوا." قال حسانين: "نعم، هذا صحيح، لأنهـم كـانوا سيحدثون جلبة وضوضاء."

حبونا صعودًا إلى قمة تلك السلسلة من الكثبان الرملية المتموجة التى تمتـد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، ونحن نتطلع إلى رؤية المـستوى نفـسه، تلك المنطقة الرتيبة التى تقع خلفنا. اندهشنا بدلاً من ذلك، عندما وجدنا أنفسنا ننظر إلى مجموعة قليلة من الكثبان الرملية الأكثر انخفاضًا فى رقعة من الأرض متغيرة تمامًا عن الرقعة السابقة. كانت هناك على كل جانب رُبًا وتـلالُ غيـر مـستوية تغطيها أعشاب متحللة، بنية اللون وبلا أوراق، لكن على بعد حوالى مائة ياردة فى الأمام كانت هناك مجموعة من الأدغال الضخمة الخضراء. لم أتمكن من فهم فتور الجنود الذين كانوا يهيلون الحصى أسفل المنحدر. تعجبت فجأة "المؤكـد أن هنـاك ماء فى هذا المكان." قال فرَّاج: "والله! لكن العبد لله لا يعرف ذلك! كل مـا يقولـه عبد الله هو أن هذه المنطقة ليست زايغن." وبينما كنت أجرى نازلة مـن الكثيـب اندفعت الإبل خلفى إلى الرقعة الخضراء. لم تأكل الإبل من تلك الخـضرة. مـن الواضح أن تلك الأدغال الريشيه الكبيرة ليست علفًا للماشية، وأن الأشياء الوحيـدة الأخرى بين هذه التلال، تمثلت فى هيكلين عظميين كانت الحوافر وعظام القفـص الصدرى باقية بهما. قال عبد الله فجأة "هذا المكان اسمه العطش. هنـا فـى هـذا المكان بئر قديمة، لكن ماء هذه البئر سيقتلكم! الماء مالح وعسر".

اضطررنا عند هذا الحد إلى تصديق كلام عبد الله، لكنى بدءًا من هذه المرة اكتشفت أنه كان مخطئًا تمامًا. الماء مالغ فى بئر العطش، لكنه صحى تمامًا والبئر يمكن فتحها فى أى وقت من الأوقات. كل ما فى الأمر أن البئر مملـوءة بالرمـل نظرًا لأن المسافرين لا يمرون بهذا المكان إلا إذا كانوا ضالين طريقهم ومضطرين إلى بئر العطش بفعل ظمئهم الشديد! كان الحطب متوفرًا ولـذلك أشـعلنا نيرانـًا ضخمة، من باب التهوين على أنفسنا، لكننا لم نستطع طبخ أى شىء فـى غيـاب الماء. أكل السود المكرونة نيئة، وحاول العرب أكل الدقيق، على الرغم من تقديمنا اللحم المعلَّب لهم. حصل الجنود على كوب واحد من الماء لكل واحد مـنهم، لكـن البدو لم يشرب أحد منهم، وعليه تعين علينا اقتسام زجاجتنا معهم. استحلبنا أقراص الحليب المخلوط بالمولت وشربنا بشغف الماء الذى فى بعض علب الجزر المعلب، والذى كان رطبًا وباردًا. لم نجرؤ على أكل حصتنا من تموين اللحم تحسبًا للملـح، قمنا بعد ذلك بتمزيق السُروُج لكى أعطى ما بها من قش للإبل، لأننـا عرفنـا أن بإمكاننا مواصلة السير يومًا آخر عن طريق ركوب الدواب.

جاء صباح اليوم الثالث من شهر يناير كثيف الضباب. وكانـت تموجـات الضباب الأبيض تلطخ سطح الأرض، عندما كنـا نُحمِّـل الإبـل فـى صـمت، مستخدمين فى ذلك البطاطين، والخيام، وكل الأشياء الطرية لتكون بمثابة عرّاقـات ندعم بها الأمتعة المنفوشة. أكلنا علبة من السبانخ المحفوظ لكن الجو كان رطبًـا، وكان الموكب الأجوف الذى بدأ موليًا وجهه شطر الشرق طوال الهاتيا(*) على أمل العثور على واحد من الآبار فى المنطقة المجاورة لزايغن. كان عبد الله قـد علـق كثيرًا من الآمال فى الليلة السابقة، لكن كل ما يستطيع قوله اليـوم هـو "إن شـاء الله!". غادرنا العطش عند الساعة السابعة والثلاثين دقيقة، ورحنا نسير حول الرُبى

(*) كلمة عامة ليبية تعنى "منخفضًا يحتوى على أدغال الحطب". (المترجم)

الصغيرة التى كانت شبيهه بالقبور بطريقه غريبة. شكلت ثلاث من تلك الرُبى الخضراء استراحة قصيرة للإبل، لكن لم يكن هناك ما يشير إلى وجود الغرود(*) التى تدل بشكل عام على وجود الماء. انتشرت المجموعة كلها على شكل طابور متلكئ عبر الأفق، وراحوا يمشون فى اتجاه الشرق، وكانوا يتحرون كل مرتفع مهما قل ارتفاعه بحثًا عن الماء. أخيرًا، قال محمد: "إذا قطعتم حلقى الآن فلن تجدوا فيه قطرة واحدة من الدم" مشيرًا بذلك إلى الفكرة العربية التى مفادها أن المرء عندما يخاف الموت ويخشى منه فإن الدم الذى فى جسمه كله يندفع إلى رأسه. قال فرّاج بصورة حاسمة "لقد حان الآن موعد وفاة سيدى عبد الله". قالها وهو يضع أصبعه على زناد بندقيته، وعندها – وبطبيعة الحال – يحدث، ما لم يكن منتظرًا، المستحيل، إذ ظهرت عند الأفق عتامة داكنة خفيفة.

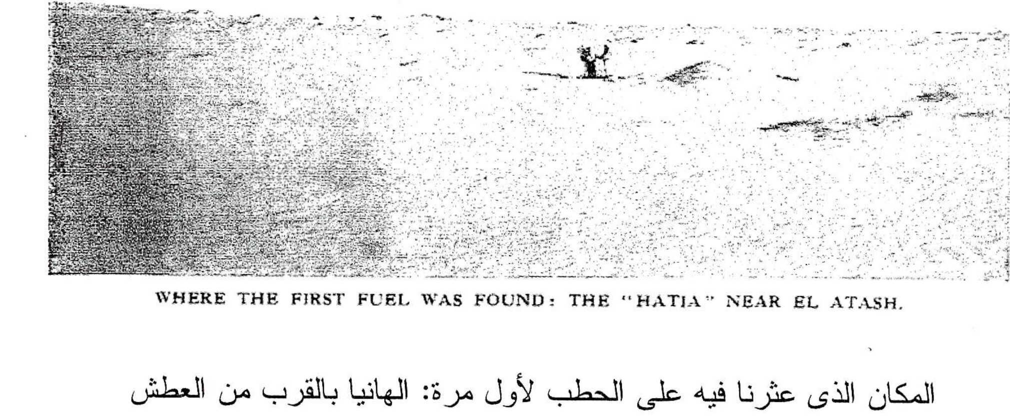
أنا لا أتذكر شيئًا مطلقًا عن الساعتين اللتين أعقبتا ذلك. وأنا لا أعرف بالضبط أن كنت قد مشيت أو ركبت أو جريت. ولا أعرف ذلك الذى حدث أيضًا للآخرين. كان كيانى كله متركزًا على تلك الرُبى الخضراء التى كانت تظهر وتنخفض بصورة مستمرة ثم تعاود الظهور من جديد إلى أن تبلورت فى نهاية المطاف عند الساعة الثانية والنصف عصرًا، على شكل مجموعة قليلة من النخيل وبعض الغرود التى تكسوها الجُذامه وإن شىءت فقل: القش. أذكر أنى ترنحت فى تجويف ورأيت بعض الأشكال السوداء العادية، وهى ترفع الرمل، ثم رأيت بعد ذلك جماعة صامتة جاثمة على حافة تلك الحفرة الحديثة التى تعنى الحياة أو الموت. بدأ الماء فى الظهور ببطء شديد جدًّا، نظرًا لأن الجماعة اختارت على عجل مكانًا سيئًا، ومع ذلك جاء الماء. وعندما بدأ الماء ينز من خلال الرمل الرطب، جاءت البركة الطينية الأولى محركًا للعواطف البدائية فى قلوبنا– حركت

(*) استعملت المؤلفة هذه الكلمة بنسجها العربى فى صيغة الجمع Qherds، وهى تعنى "الكثبان الرملية". (المترجم)

فى قلوبنا الفرح، النجدة، الاعتراف بالجميل والشكر الذى يصعب التعبير عنه بالكلمات! بعد ذلك بحوالى ساعة أو ساعتين عادت الحياة إلى مجراها الطبيعى من جديد، وولدت المياه العميقة فينا فكرة تناول وجبة مشبعة وشهية. وأخذ حمام فى أكبر وعاء من الأوعية الموجودة فى المقصف.

وأنا أتساءل هنا عن عدد القراء الذين يمكن أن يتفهموا حقيقة تلك الأيام الثلاثة، نظرًا لأن الضياع فى أوروبا يعنى مجرد الرجوع إلى الخريطة أو اللجوء إلى عابر سبيل، أما فى ليبيا فالآبار ليست موجودة فى معظم الأحيان وهى على بعد مئات عدة من الأميال، يزاد على ذلك أن المصادفة هى صاحبة الدور الأكبر، فقد تمر قافلتان خلال العام وقد لا تمر أية قافلة على الإطلاق! قلة وربما قلة قليلة جدًا من القراء هم الذين سيفهمون حقيقة أولئك الرجال الهادئين، المُتْعَبين، ذوى العيون المترقبة، من أمثال، ذلك الإيطالى الذى أُطلق أسمه على أحد جبال طرابلس، والفرنسيين الستة الذين تبعثروا فى الصحراء البيضاء الكبيرة جنوبى عين صالح Insalah، وأى واحد من الأستراليين الذين أصابهم الإرهاق لعدم وجود الماء، إضافة إلى واحد أو اثنين من الإنجليز فى الأركان الغريبة التى أحرقتها الشمس فى إمبراطوريتنا التى لا تعرف الرحمة!

خيمنا على مقربة من أكبر مجموعة من النخيل وعلى مقربة من البئر المباركة، واسترخيت طوال فترة العصر على سرير المخيم وبجوارى زمزمية الماء، التى كنت أشرب منها كل بضع دقائق، وعندما كنت لا أقوى على الشرب بحكم الشِبع كنت أروح أُرجرج الزمزميه بين الحين والآخر، كيما أسمع صلصله الماء اللذيذ داخلها. وعلى الرغم من كل ذلك الفرح، كنا لا نزال داخل الغابة، نظرًا لأن الهاتيا لم يكن فيها علف للماشية. كانت الإبل كلها واهنة بعد الرحلة الطويلة والصيام الذى تبعها. كان لابد من دفع الإبل من هنا إلى هناك، ومن دغل صغير إلى أجمة أصغر منه. كانت تلك عملية مرهقة لأن رجالنا المُتْعَبين وأنا معهم تعين



WHERE THE FIRST FUEL WAS FOUND: THE "HATIA" NEAR EL ATASH.

المكان الذى عثرنا فيه على الحطب لأول مرة: الهاتيا بالقرب من العطش

علينا ترك زمزميتي مرة أو مرتين للوقوف على سير الأمور. كان عبد الله وعبد الحافظ قلقين تمامًا في تلك الليلة، لأن الإبل لم تشرب كما يجب، وعليه قمنا بتمزيق بعض الحصير المصنوع من القش، ونقعناها في الماء وقدمناها للإبل. حاولت تقديم الأرز ليكون طعامًا للإبل، لكن عبد الله قال: إن الإبل ستموت إذا ما أكلت الأرز.

استعاد مرشدنا شيئًا من هدوئه عندما أدرك أننا كنا نخيم في العطش في منطقة زايغن، على بعد مسافة لا تقل عن مسيرة يوم ونصف أو يومين شرقي تيسربو الخادعة. أنشرح صدري عندما فهمت ذلك، لأنه كان واضحًا أن القدر كان يهيئ فرصة تحقيق رغبتي القديمة في السفر إلى بُسيمه من الطريق غير الموقع على الخريطة والذي استهواني عندما كنت في جالو.

شرحت ذلك للمرافقين لي، ووجهت بخيبة أمل كبرى. كان المرافقون لي يودون السفر إلى زايغن ومنها إلى الكفرة عن طريق القوافل الآمن. أكدوا لي أن بُسيمه شديدة الخطورة، وأن فخذًا متوحشًا من قبيلة الزُوايا Zouia يعيش في بُسيمة، ويهاجمون القوافل الغريبة كلها من الوهلة الأولى. عرفت أيضًا أنه في الوقت الذي تعد الكفرة مجموعة كبيرة من الواحات في المنطقة المحيطة بالقبة المقدسة، وأنها سوق صحراوية كبيرة، ومركز تجارة الصحراء الكبرى كلها، فضلاً عن كونها مركز رئاسة الحكومة السنوسية، والعاصمة المقدسة أيضًا لدين هذا الرجل، فإن بُسيمة - على الرغم من تخلخلها السكاني - تعد هي الأخرى وبدرجة صغيرة مركزًا من مراكز "المال والأعمال"، نظرًا لأن القوافل القادمة من واداي وجالو تزور هذه الواحة الصغيرة. بُسيمه ليست فيها زاوية أو مسئول حكومي. ويتمسك الزُاويون بشدة باستقلالهم ويرفضون الاعتراف الكامل بسلطة السادة وذلك من باب تحاشي دفع الضرائب النقدية، وذلك على الرغم من احترامهم الكبير للأسرة السنوسية ورغبات هذه الأسرة. هؤلاء الزُاويون لم يشاهدوا قط

جنديًا واحدًا داخل حدودهم، ولا يسمحون للغريب مهما كان عرقه أو مذهبه بأى حال من الأحوال، بالدخول إلى منطقتهم.

قال يوسف مكتئبًا: "إذا لم يقتلونا فى الواحة، فسوف يكمنون لنا خارجها بين الكثبان الرملية ويقتلوننا ونحن فى طريقنا إلى الكفرة". قلت إن من رأيى أننا قادرون على ذبح قلة قليلة من الزاويين فى البداية، لكن محمدًا كان متخوفًا من ذلك. وأردف يوسف قائلاً: "إنها منطقة سيئة"؛ "لماذا لم يسمح لنا الله ﷻ بالوصول آمنين إلى تيسربو؟ تيسربو فيها زاوية وقد سمعت عن شيخ هناك، سيدى محمد. لقد كان أخوه معى فى زاوية جغبوب".

سألت عن القبائل الموجودة فى تيسربو، وقيل لى إنها ثانى الواحات من حيث الحجم، لكنها ليست مهمة ومخلخلة السكان، وأن كثيرًا من نخيل تيسربو مملوك لأناس يعيشون فى بُسيمة؛ وقيل أيضًا إن فيها عددًا قليلاً من التبو Tebus وفيها أيضًا بعض الزّاويين، الذين يشكل السنوسيون القسم الأكبر منهم. قال موراجا: "هناك جماعات مختلفة، لكنهم جميعًا ناس طيبون. يوجد خلف تيسربو منطقة قتال وعراك. الغريب لا يمكنه الذهاب إلى هذه المنطقة. ونحن إذا هربنا من أهل بُسيمه سنقع فى أيدى التبو Tebus فى ريبانة Ribiana أو قد نقع فى أيدى الطوارق الرحل".

وعلى الرغم من هذه التشخيصات الكئيبة، أوضحت للجميع أن الإبل لا يمكن أن تسير مدة خمسة أيام إلى الكفرة بدون طعام، وأوضحت أيضًا أننى لن أصدق أفكار عبد الله بأى حال من الأحوال، عن موقع واحة تيسربو. وبدلاً من ذلك جعلت كلا من المرشد وموراجا يسحب كل منهما فكرته عن الجبل الشهير فى بُسيمه. خطط الرجلان فى الرمل سلسلة طويلة ومنخفضة ومربعة القمة. قلت بحزم: "هذا جيد جدًا. عند غروب الشمس سوف نتسلق إلى قمة أكبر غرد (كثيب) هنا ونتبين ما إذا كنا نستطيع تحديد مكان ذلك الجبل!" وبعد أن نحيت جانبًا تمامًا

عن أذهاننا خارطتنا المزينة وعديمة النفع، استطعت بعد ذلك إثبات أن تيسربو تقع فى الناحية الغربية، وأنها تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى وأنها لا يمكن أن يزيد طولها عن ٢٥ إلى ٤٠ كيلو مترًا، فى الوقت الذى كنت عاقدة فيه عزمى على الاتجاه جنوبًا حيث توجد بُسيمة.

كانت الصحراء قد أوشكت على قتلنا جميعًا بطريقتها التى لا تعرف الرحمة، لكننا عندما تسلقنا الكثيب الرملى، ورأينا الروعة الحمراء تختفى متحولة إلى اللون البنفسجى والرمادى البارد الشبيه بلون الرمل، فى الوقت الذى كان نجم السماء يتوهج فيه كما لو كان قطرة من لهب سائل فى كأس لازوردى(*) اللون؛ سامحنا نجم السماء، لأنه كان فى اتجاه الجنوب، أى فى الاتجاه الذى أوحت به لنا "الغريزة"، والذى ظهرت لنا فيه سلسلة جبلية سوداء سوادًا خافتًا، ومنخفضة ومربعة الشكل عند الأفق. حددت بعض الاتجاهات تحسبًا للسراب وأمرت بالتحرك فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى على الرغم من الاحتجاجات الشديدة والتوسلات.

واقع الأمر أن الجميع كانوا متعبين إلى حد أننا لم نتحرك قبل الساعة السابعة والنصف. راحت الإبل تتأوه ألمًا بصورة مستمرة، رافضة الوقوف على قدميها. كنت قد صممت على ملء القرب بالماء، بحيث يكفينا طوال مسيرة تقدر بأربعة أيام، على الرغم من قول عبد الله: إن المسافة تقدر بمسيرة يومين فقط، وفى غياب السُرج كان من الصعب موازنة الحُزَم التى جرى تحميلها على بطانيات ملفوفة، أو الخيش الملفوف. كان اليوم بطوله سلسلة متوالية من الأحمال المتغيرة. عندما برك أحد الجمال أرضًا بسبب التعب ورفض التحرك، أنزلنا عنه حمله ووضعناه على جمل آخر. لم يركب أحد على الإبل، على الرغم من التهاب الأقدام.

(*) اللازوردى: الأزرق الياقوتى. (المترجم)

بعض السود تكون أقدامهم قوية، أما نحن فلم نجرؤ على السير بالإبل إلى أبعد مما وصلنا إليه. غادرنا بعد مضى حوالى ثلاث ساعات التلال الصغيرة هى والعصى المتفرقة فى "الهاتيا"، وأصبحت الرمال المتصلة على شكل موجات رملية كبيرة منبسطة أمامنا. وقفنا فى اللحظة الأخيرة، لجمع الحطب الهش المطلوب لإشعال النار فى المساء، وواصلنا سيرنا بصورة منتظمة حتى الساعة السادسة بعد الظهر.

ظهرت لنا فجأة قارّة(*) بسيمة عند الساعة الثانية عشرة والنصف. بدت لنا تلك القارة عند الأفق، سلسلة جبال صلبة سوداء اللون، لكننا كنا نعلم أنها تبعد عنا مسيرة أكثر من يوم واحد. سارت الإبل متجولة هنا وهناك، وكانت تتخلف إلى الوراء وتتعثر أحيانًا. وأشك أن سرعتنا كانت تزيد على ميلين فى الساعة الواحدة. تحولت الموجات الرملية فى فترة العصر إلى كثبان رملية ضخمة مستديرة الشكل. لم نستطع الاتجاه مباشرة إلى العلامة السوداء الموجودة على بعد مسافة كبيرة منا، ولكن تحتم علينا الانحراف شرقًا تحاشيًا للكثبان الرملية العالية. فى حوالى الساعة الرابعة أيقنت أن الإبل لا يمكن لها التحرك خطوة واحدة. بركت جمال عديدة فى آن واحد، لكننا استطعنا جعل هذه الإبل تقف من جديد، وذلك عن طريق الأغانى بصفة خاصة! معروف أن القوافى السودانية المتكررة لها تأثير كبير على الإبل المرهقة، لكن صيحة "الذّاريايان"!(**) "لقد وصلنا الدار أيها الكُسالى!" بدأت تحظى بالمزيد من الترحيب. عندما خيمنا فى التجويف الكبير الواقع بين الكثبان الرملية الكبيرة، كان الوقت مصادفًا، لتلك الساعة الباردة التى تسبق دخول الليل. كانت النجوم قد بدأت تطغى على آخر أشعة لضوء الشمس الوامض فى فترة غروب

(*) القارّة: فصيحة وهى قسم من الأقسام الرئيسية التى ينقسم إليها اليابس. (المترجم)

(**) الدارياپان Adaryayan: صيحة تستخدم عند توقيف الإبل وهى تعنى "لقد وصلنا أيها الكسالى". (المترجم)

الشمس، فى حين كان الجبل الغامض - الذى كان يلهب خيالى منذ زمـــن بعيــد، بشكله البنفسجى الداكن، موجودًا فى الناحية الجنوبية.

بدأنا تحركنا من جديد عند الساعة السابعة والنصف من صبيحة اليوم التالى المصادف لليوم الخامس من شهر يناير، ودخلنا على الفور متاهـــة مـــن الكثبـــان الرملية الكبيرة، المنحنية متماسكة الظهر، وكانت فيها بقـــع رمليـــة ناعمـــة فـــى التجاويف التى غاصت فيها الإبل وعلى النقيض سارت الإبل على نحو أفضل مـــن اليوم السابق، على الرغم من وجود سلسلة مستمرة من المطالع والمنـــازل. ربمـــا كان منظر السلسلة الجبلية الغريبة المخيفة الموجودة أمامنا، والتى كانـــت ســـوداء سواد الفحم، على خلفية من الرمل الأبيض. ربما كانت ريح الجنوب الباردة هـــى التى لفحت وجوهنا ونحن نمشى أثناء هبوبها. وصلنا، فى جميع الأحوال إلى الجبل العجيب الذى ظهر لنا فى البداية على شكل سلسلة جبلية مستوية لها قمة مـــستوية أيضًا، والتى أضافت إلى ذلك الشكل هيئة مربعة الشكل، وشبيهة أيضًا بقمع السكر فى كل جانب، لكن هذه الكثبان لم تعد الآن سلسلة جبلية على الإطلاق لكن سلـــسلة من القمم المرتفعة، بعضها مربع الشكل، والبعض الأخر مستدير الـــشكل، لكنهـــا جميعًا كانت من الحجر ولونها أسود كالح، وتتخللها بقع منخفضة يميل لونها إلـــى الاحمرار. كنت أرى هذه السلسلة، بعينَى غير المتمرستين فى الجيولوجيـــا، علـــى أنها فوران بركانى شاسع صلب، يتجاوز شرقى السلسلة الرئيـــسية مـــن الـــتلال، ودخلنا بعد ذلك أرضًا جهنمية(*) جرداء. كان فى منتصف الكثبان الرملية المتموجة منطقة يصل طولها إلى حوالى ثمانية كيلو مترات من الأحجار السوداء المبعثـــرة. كانت كتل هذه الأحجار الهشة السوداء سواد الأبنوس على شكل خطوط- وبدا لـــى الأمر وكأن ألواح العالم الإردوازية اللون جرى إلقاؤها فى هذا الإقليم المـــوحش،

(*) استعملت المؤلفة كلمة Inferno وهى الكلمة التى استعملها دانتى وحده دون سواه، لتعطى معنى "جهنم". (المترجم)

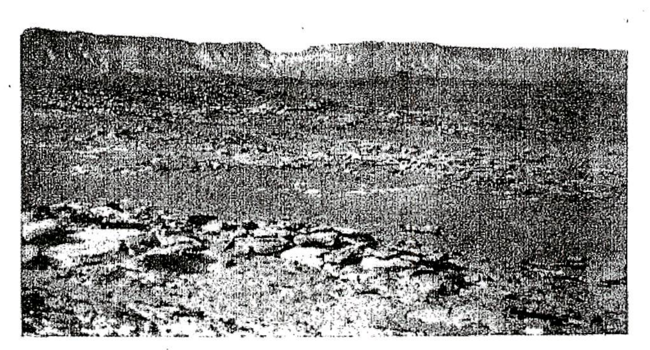
على شكل أكوام غير منظمة. أبلغنى الخبراء بعد ذلك أن ذلك الحجر الأسود كـــان عبارة عن حجر رملى نوبى مشبع بالحديد والمنجنيز، وأنه لا علاقة لـــه إطلاقــا بالبراكين. كانت الأحجار الأخرى عبارة عن أحجار رملية باهتة اللون، وحفريات خشبية، وصوّان.

مشينا مدة ساعتين نتعثر ونصلصل عبر هــذه الأرض الــسوداء الجــرداء المبقبقة، ورحنا ننتقى بعض العينات من الأحجار التى تيسرت لنا، ثم صعدنا بعــد ذلك إلى ضفة وعرة بين تلين داكنى اللون، وهنا وجدنا خط نخيل بُسيمه الطويــل ينتشر أمامنا وفيه البحيرة التى ظهرت على شكل شريط فضى رفيع- هــذا مــاء حقيقى وليس سرابًا- كان يعد فى خيال إجدابيا نوعًا من الخيال بعد أن وصلنا إلى الرقعة الحجرية القريبة من القارّة، وجدنا أننا كنا نسير فى تشكيل شبيه بتــشكيلات المال والأعمال- كان هناك ثلاثة جنود فى المقدمة، وكانت الإبل تسير فى الوسط، وكان الكشافون موزعين على أعلى الكثبان الرملية، فى الوقت الذى كان فيه كــل واحد مستعدًا ببندقيته أو مسدسه. وهنا نجد عبد الله نفسه - وهو من الــزّاويين - يستهزئ بالسود وهو يقول: "انظروا إلى الأمام، أيها الجنود، إنكم تصلون الآن إلى الأرض التى يتقاتل فيها الرجال!" ومن هنا أصبح كل واحد من العبيــد متعطــشًا للقتال والأخذ بالثأر!



THE MOUNTAINS OF BUSEIMA.

جبال بُسيمه



MOUNTAINOUS COUNTRY AT BUSEIMA.

المنطقة الجبليه فى بُسيمه

الفصل الثامن

البحيرة التى فى الصحراء

عندما اقتربنا وأصبحنا على مستوى واحد مع التلال الرملية، قرر عبد الله المضى قدمًا إلى شرح خطتنا السليمة وسنوضح ما إذا كان بالإمكان التخييم فى الواحة. كنت مندهشة عندما رأيت أن عبد الله نفسه لم يستطع دخول القرية بدون بندقيته، فى حين راحت بقية الجماعة ترجونى بأن آخذ فقط علفًا للإبل وأواصل السير إلى الكفرة، لكننى لم أكن على استعداد أن أخدع فى بحيرتى وجبلى، وهما أول ما رأيت فى ليبيا! طردتهم وأنا انزل محتجة على ما يترنون: نزلت المنحدر الحجرى إلى أن انتهت الأرض الجرداء فى وادى رملى صغير عامر بمجموعات ضخمة من النخيل، والنباتات الخشنة بنية اللون، نصفها حشائش والنصف الآخر طحالب. وبينما كان عبد الله يتحسس أوضاع القريتين التى كانت كل واحدة منهما عند نهاية شريط النخيل الطويل الذى يُحُد البحيرة، قمنا نحن بنصب الخيام بحيث تكون مواجهة للجبل، الذى بدا لونه أرجوانيًا ونحاسيًا فى شمس العصر.

بينما كان الجنود مفعمين برؤى الهجوم الليلى، راحوا يحثوننا على تحاشى التجمعات النباتية الخضراء، التى تعلقنا بظلها الظليل، ونصب خيمتنا فى الأرض المكشوفة على حافة الأرض الحجرية الجرداء، ولكنى رفضت طلبهم، عاد إلينا عبد الله بخبر مفاده أن شقيق شيخ الزاوية فى تيسربو يعيش فى بُسيمة، وأنه سيجىء لزيارتنا ومقابلتنا. وقد أحضر مرشدنا معه أختًا شاحبة الوجه عيناها شبيهتان بالقطيفة، تلف حول عنقها عقدًا ثقيلاً من الفضة معلقًا فيه أحجبة جلدية كثيرة. أعطتنا جلد- جدى مملوءًا بنوع طيب جدًا من التمر كبير الحجم، نظرًا لأن زوجها كان مالكًا لنخيل وبساتين فى بُسيمة، وهنا بدأت الحاشية تحس بالسعادة والانفراج.

كنا نقوم بإعداد القهوة ونحن مبتهجون بالتمر النظيف لأول مرة- كان طعم التمر الذى سبق أن أكلناه وحتى ذلك الحين له نكهة الرمل إلى حد بعيد- عندما جاء سيدى محمد المدنى Madeni، شقيق شيخ تيسربو، ومعه سيدى عمر وسيدى بو رجيا Bu Regea، وكانا مستعدين للترحيب بنا ترحيبًا كريمًا باسم السيد Sayed. اتضح أن شقيق الأول كان فى الكفرة فى ذلك الوقت، وهذا يعنى أننا كنا سنفتقد ذلك الرجل لو أننا وصلنا إلى تيسربو. أعد عبد الله شيئًا من الشاى فى حين أعددت أنا شيئًا من القهوة، وجلسنا جميعًا فى الزريبة الصغيرة وظهورنا للشمس وأرجلنا ممددة فى اتجاه القمم الصخرية المدهشة. وبدأ "السَّمر" من جديد، وتعلمنا فى هذه المرة أشياء كثيرة، نظرًا لأننا عندما كنا نسأل عما إذا كان الماء جيدًا ،كان سيدى محمد يقول: "الماء عذب فى بئر النصرانى!"

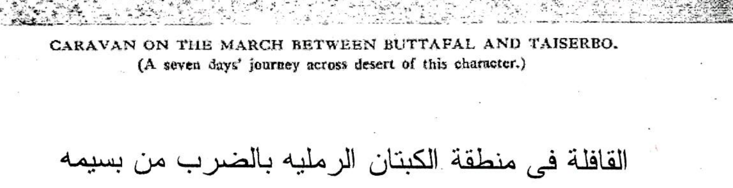
"النصرانى؟ هل حفر نصرانى تلك البئر؟" "نعم؛ جاء منذ سنوات كثيرة، نصرانى إلى هنا، هاربًا من الكفرة، التى فقد فيها كل مقتنياته، وحفر هذه البئر." وبذلك نكون قد تمكنا فى نهاية المطاف من العثور على آثار رولفز! وفى انفعال كبير، تبعنا الشيخين. وبعد حديث دام ساعة اكتشفنا أن رجلاً يدعى كُريِّم Korayim بو عبد ربُّه هو الذى حمى رولفز فى الكُفرة، وأنقذ حياته بأن هرب معه إلى بنغازى، وأن ولده المدعو حميد بو كُريِّم كان فى الكفرة فى ذلك الوقت. تعرفون أن بُكر بو حُطين، هو الرجل الذى كان يود قتل رولفز، وقال: إن ولده منصور كان يقيم فى إجدابيا فى ذلك الوقت ولم يعرف شيئًا عن الرحلة التى قام بها الألمانى إلى الجنوب، لكن فيما يتعلق بعبارته التى تفيد أنه سافر من جالو إلى تيسربو فى أربعة أيام ونصف، قالوا إن ذلك أمر ممكن تمامًا، نظرًا لأن الزّاويين فى الزمن القديم اعتادوا أن يسافروا راكبين فى هذه الرقعة من الأرض الخالية من الماء، دون توقف، وكانوا يتناولون وجباتهم وهم ركوب على ظهور الإبل. كانت أسرة سيدى المهدى والسنوسى قد بدأتا السفر ببطء والتخييم على جانب الطريق.

الشيء الغريب الذى أجمعوا عليه جميعًا هو أن رولفز أثنـــاء هروبـــه مـــن الكفرة ومروره خلال بُسيمه أثناء عملية الهروب، كان على انفراد مع كُرَيْم، فـــى حين يقول رولفز انه كان معه ثلاثة من الألمان. كان الاسم الذى عرفوا بـــه ذلـــك المستكشف التيوتونى(*) هو مصطفى بك. الغريب بحق، أن كلا من سيدى عمر هو وبورجيا Bu Regea ثبت أنهما ابنا أخ "حب الله" Haballah العبد، الـــذى أتـــى رولفز على ذكره بأنه شيخ لعيط النِّيره Ait Anira، وهم فخذ مـــن أفخـــاذ قبيلـــة الزُّاويا فى الكفرة، والذى يعد من سلف آخر سلاطين التيبو، فى حـــين اتـــضح أن عبد الله من الأقارب المباشرين للشيخ "حب الله العبد".

حاولنا فى الكفرة اكتشاف المكان الذى دار فيه القتال. قالوا: "لم يكن هنـــاك قتال. لقد كان الرجل نصرانيًا. وجاء إلى هنا دون أذن من سيدى المهـــدى، الـــذى كان فى جغبوب فى ذلك الوقت. وقد استحق الموت. لقد أُكلـــت قافلتـــه بواســـطة بوجطين والزّويا ولم تصل القافلة إلى القرى مطلقًا". سألت: "أين خيَّم إذن؟" قـــالوا: "نحن لا نعرف ذلك: كنا صغار السن فى ذلك الوقت. كانت تأثيرات الـــسنوسى لا تزال فى بدايتها. لم يكن فى الكفرة وقتئذ سوى أربعة فقط مـــن الإخـــوان، لكـــن النصرانى لم يتقدم نحو داخل البلاد". استحال علىَّ الحصول منهم علـــى تفاصـــيل، لكنهم كانوا يعتقدون اعتقادًا راسخًا أن التيوتونى الشجاع خيم على حـــدود الكفـــرة وأُجبر على التراجع بعد أن خسر قافلته. وانشرح صدرنا لأن كلا من عبد الله هـــو وزائرينا الاثنين لم يكونا فخورين بعلاقتهما أوصلتهما بسلطان التيبو. قالا: "كـــان ذلك قبل الإسلام. لقد كان التيباويه Tebawiya كفارًا."

سألنا ما إذا كان هناك أحد من هؤلاء المتوحشين باقيًا فى بُسيمة، وقيل لنـــا إن التيباويه Tebawiya كانوا ينقرضون بسرعة، وفى الوقت الـــذى جـــرى فيـــه

(*) واحد من التيوتون وهم شعب جرمانى أو سلتى قديم (المترجم)



CARAVAN ON THE MARCH BETWEEN BUTTAFAL AND TAISERBO.
(A seven days' journey across desert of this character.)

القافلة فى منطقة الكبتان الرمليه بالضرب من بسيمه

إدخال البعض منهم فى الإسلام واستمروا فى العيش فى كل من الكفرة وتيسربو، فإن بقية هؤلاء التيباويين تربعوا على عرش ربيانه Ribiana. وأضاف الرّاوى الذى كان معنا، إنه فى الوقت الذى خضع الزّاويون فيه واستسلموا لسيدى بن على السنوسى، كان التيباوية خدمًا أو عبيدًا لهم، لأنهم كانوا قد جرى غزوهم وإنزال الهزيمة بهم على أيدى قبيلة الفوايا Fawai، التى أجبرت على الخضوع للغوازى Ghawazi، الذين أُجبروا أيضًا على الخضوع والرضوخ أمام شجاعة وقتال الزّوايا. جاءت هذه القبيلة من فزّان، التى لا يزال يتبقى فيها بعض من تلك القبيلة فيما يطلق عليه اسم أولاد بو حسّان Aulad Bu Hassan.

نمت فى تلك الليلة وأنا أُحس بالانتصار، نظرًا لأن الظلال التى ظلت تغلف الواحة الليبية الغربية منذ زمن طويل بدأت تتقشع بصورة متدرجة. وفهمنا فى ذات الوقت مدى صعوبة محو التاريخ الحديث من الذاكرة العربية الحريصة.كنت أتطلع بشدة إلى فتح مقبرة من مقابر التيباويه، لكن رغبتى فى تحقيق ذلك جعلتنى أتحدث قرابة مدة ساعة تقريبًا عن المومياوات المصرية، حتى نتمكن من أن نسأل ما إذا كان الكفار الذين عاشوا فى بُسيمه يدفنون موتاهم بالطريقة نفسها. وهنا ينبغى أن أُقر أن سيدى محمد المدنى كان أذكى العرب الذين التقيتهم وأوسعهم أفقًا. فقد عرفت من ذلك الرجل قدرًا كبيرًا من تاريخ انتشار النفوذ السنوسى فى الصحراء الكبرى، وعرض علينا إطلاعنا على سائر أنحاء الواحة فى اليوم التالى.

استيقظنا فى ساعة متأخرة من اليوم السادس من شهر يناير واكتشفنا توقف ساعتينا، لكن الشمس كانت قوية، وعليه تصورنا أن الساعة لابد أن تكون حوالى الساعة الثامنة، وعجلنا بتناول إفطار مكون من القهوة، والتمر والخبز غير المخمور كى نبدأ رحلة استكشافنا. تأخر استئناف مسيرنا بسبب مشاجرة عنيفة بين السود والبدو حول مسألة القيام بإعادة عمل سُرج الأمتعة وإحضار الماء للمخيم. وعلى الفور عزفت عن الكلام الرقيق ورحت أعبر بصوت عالٍ عن تقديرى لهم جمعيًا، وفى غضون لحظات قليلة كان فراج الأطرم يزحف فى اتجاه ومعه قربة

من قرب الماء، فى حين راح شاكرى يجرى إلى الوادى بحثًا عن "ليف" النخيل. حدثت فى الصباح الباكر أيضًا مشاجرة صغيرة حول من الذى يتعين عليه الذهاب إلى القرية لشراء خروف المناسبة. وهنا عرفنا أن السودانيين لا يجرءون على الدخول فرادى إلى القرية. كان السودانيون قد أمضوا القسم الأكبر من الليل فى حراسة من النوع البدائى تمامًا. فقد قاموا بإشعال نار وجلسوا فى نطاق ضوئها، وبالتالى كانوا صيدًا سهلاً لكل من يود فتح النار عليهم. كانوا يتحدثون أيضًا بأعلى أصواتهم، الأمر الذى أزعجنا أثناء نومنا، ومن الطبيعى أن يصبح السودانيون بعد هذه الطاقة غير العادية مرهقين. وقد أدى وصول الخروف المخلَّط باللونين الأبيض والأسود، الذى كان يقتاده عمر المتفائل، إلى بث شيء من الفرح فى نفوس الجميع، وتركتهم يضعون خطط تقسيم لحم ذلك الخروف.

كانت مسألة شراء الطعام أمرًا مستحيلاً فى واحات الصحراء التى ليس فيها زبائن منتظمون أو أسواق منظمة. فكل أسرة من الأسر فى الصحراء تنتج ما يكفيها فقط. وعليه لم يكن هناك ما ينبئ بظهور الخبز، والبيض والحليب على الرغم من ذيوع صيتنا كأثرياء. ويعد التمر استثناء من هذه القاعدة. المجيدى الواحد يشترى جوالاً كبيرًا من التمر، وعلى الرغم من أن كلاً من واحتى بُسيمة وربيانة لا تدفعان ضرائب نقدية، فإنهما تطعمان إبل السيد رضا مجانًا إذا ما تصادف ومرت تلك الإبل بهاتين القريتين. يزاد على ذلك أن هاتين القريتين تدفعان نسبة مئوية من جوالات التمر كل عام للحكومة. حيث يجيء أحد المسئولين من الكفرة لتحصيل وجمع هذه التمور. وقد عرض علينا فقرون **Faqrun** بعضًا من تلك الجوالات التى كانت مخزنة استعدادًا لنقلها. قال لنا: "أنتم ضيوف السيد. ومن حقكم أخذ هذه الجوالات". وعلى الرغم من عدم وجود علف أو عشب لحيواناتنا، فقد كانت هناك مقننات وفيرة من التمر. كنا قد ساومنا كثيرًا على الخروف مع أنثى سليطة الرأى، كانت ترتدى ثياب بُسيمه الجذابة– ثوبًا أبيض وحزاما قرمزى

اللون، وقطعة من القماش أسود اللون ملفوفة بطريقة غير محكمة حول الوجه مثل الغطاء الذى تضعه الراهبة على رأسها، كما كانت ترتدى برْكانًا من اللون الوردى واللون الزعفرانى، مزدوجًا ومطروحًا على رأسها كما لو كان شالاً كبيرًا. وأخيرا اشترينا الخروف مقابل أربعة عشر مجيديًا، وهنا ظهر فجأة صبى صـــغير ومعـــه عشر بيضات، طلب مجيديًا ثمنًا لها (أى بواقع خمس بنسات لكل بيـــضة). ســـاهم عبد الله بتقديم لبن ماعز لاذع الطعم مخلوط باللغبى(*) الطازج. تقضى المراســـيم السنوسية الصارمة أن كل من يسكر باستعمال اللَّغبى سوف يُجلد ويُغرَّم.

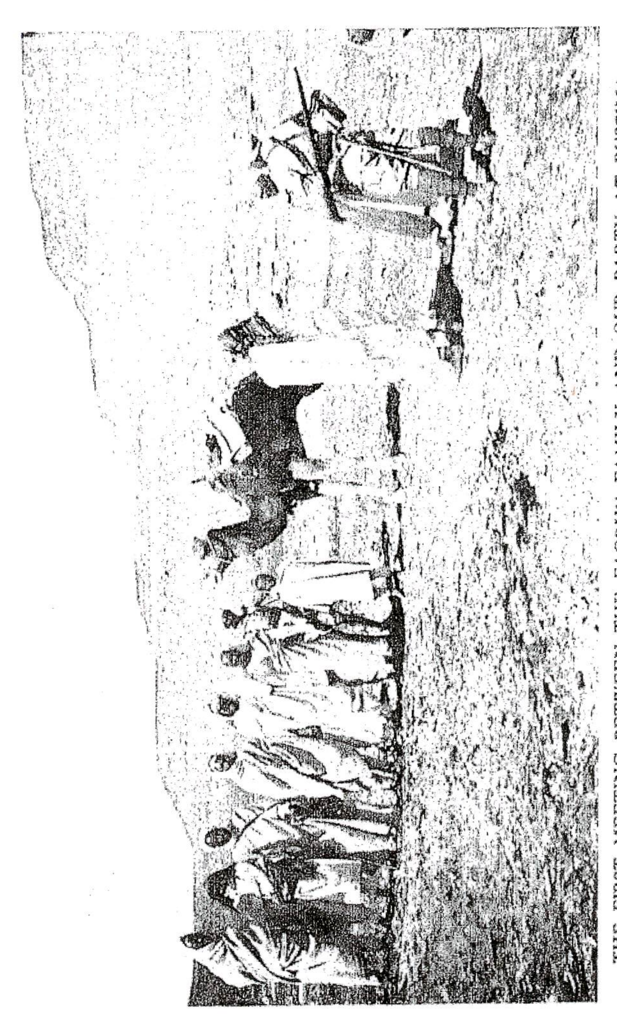
ركبنا بعد أن سوَّينا المنازعات كلها جملين هما أقل الإبل إرهاقًا ورحنا نشق طريقنا عبر أرض ملحيه جرداء تقع بين مخيمنا عند نهاية شـــريط النخيـــل شـــبه الدائرى وبين القرية التى على الطرف الآخر. كان السير صعبًا نظـــرًا لأن الملـــح كان على شكل تشكيلات غير مستوية، لكن الصباح كان جميلاً، وصـــافيًا وبـــاردًا على الرغم من سطوع الشمس. كانت على يميننا سلـــسلة مـــن القمـــم الـــصخرية المرتفعة، وقد اختفى عنها اللون الأسود، ولكن لونها كان مشوبًا باللون الأرجوانى، على خلفية من الكُثبان الرملية الشاحبة الموجودة فى الخلف. وعلى الجانب الغربى كانت هناك بحيرة زرقاء اللون، يصل طولها إلى حوالى ثمانية كيلو مترات، شديدة الملوحة، إلى حد تعذر معه عيش الأسماك فيها، لكنها كانت نصف شفافة. كانـــت كتل النخيل هى والرمال ذات اللون المرجانى الخافت تقع خلف هذه البحيرة، نظرًا لأن التراب الأحمر الذى يسقط من الجبل كان يصبغ بلونه المنطقة المحيطة به.

مررنا فى منتصف الطريق الجدب المالح على سيدى محمد، وقبل مغادرتنا المكان كان كل السكان الذكور فى بُسيمة قد انضموا إلينا. ولك أن تتخيل دهـــشتنا

(*) اللغبى: كلمة ليبيه عاميه، تعنى "عصير النخيل المتخمر". الذى يتخمر بعد أربع وعشرين ساعة مكونا بذلك مشروبًا روحيًا قويًا جدًا. (المترجم).

عندما وجدنا أن عدد هؤلاء الذكور يصل إلى عشرين رجلاً! وإذا ما أضفنا إليهم الرجال والنساء والأطفال فأنا أعتقد أنه كان هناك أكثر من خمسين آدميًا فى منطقة الخطر، وهو ما أدى إلى تخوف جماعتنا المسلحة تسليحًا جيدًا من الاقتراب من القرية! وبدأنا بعد ذلك نتشكك فى حكايات جماعات اللصوص واسعة الانتشار، وحكايات القوافل التى جرى السطو عليها وتقتيل أفرادها.

وصلت أيضًا إلى استنتاج مفاده أن نفوذ السنوسى كان أكثر دوامًا وثباتًا فى الواحات الصغيرة عما هو معروف. كان سيدى محمد قد قبّل خطاب السيد رضا السنوسى، ولمس به رموش عينيه، وأثنى الرجل أيضًا على عائله فقرون Faqrun المهمة، التى كانت تراود الجماعة المرافقة لنا، شكوك كثيرة عنها؛ وإن هذه العائلة لم تتوقف للترحيب بنا بل للتأكد من أننا فى حماية سيدى إدريس. وبعد أن تأكدت العائلة من ذلك قام الأخوان فقرون: ميهوب وصلاح، باستقبالنا استقبالاً وديًا للغاية وفرّجونا على قرية التيبو على الشاطئ الشمالى الغربى للبحيرة. لابد أن هؤلاء التيباويين Tebawiya يعيشون حياة غير مستقرة، لأن منازلهم صغيرة، وغريبة الشكل، فهى عبارة عن سلسلة من الإنشاءات الدائرية الصغيرة شبيهه بالأفران المحلية الضخمة. بعض هذه المنازل يحتوى على ثلاثة أو أربعة من "الغرف" المستديرة، الموجودة بلا تنظيم، بجوار بعضها البعض، كما لو كانت خلايا فى قرص من أقراص العسل. كانت تلك المنازل مبنية من الحجر ونوع من المُلاط الصلب، وكانت بلا نوافذ اللهم إلا إذا كانت هناك بعض النوافذ فى الأعلى. ومن سوء الطالع أن كل هذه المنازل كانت بلا أسقف، ويصل ارتفاع أعلى الجدران إلى حوالى ١٥ قدمًا وثمانى بوصات. ولم يكن هناك سوى باب واحد فقط يؤدى إلى التجمعات المنزلية الكبيرة.



THE FIRST MEETING BETWEEN THE FAQRUN FAMILY AND OUR PARTY AT BUSEIMA.

أول لقاء بيننا وبين عائلة الفقرون فى بُسيمه

كنا قد مررنا قبل وصولنا إلى هذه الأطلال، ناحية الشرق بواحد من التلال الرملية الدائرية الصغيرة التى تشكل تلك القارَة، وأبرزوا لنا بعض المعالم غير الواضحة لقلعة من قلاع التبو. كانت هناك قلعة أخرى على الصخرة الرئيسية من الجبل المقابل، وهذا يعنى أن التبو كانوا عرقًا محاربًا. كانت تلك القلاع صعبة الاختراق، نظرًا لوقوعها على قمة صخور شبه عمودية، تتحكم فى وتطل وتشرف على المنطقة المحيطة بها فى حدود خمسين كيلو مترًا من كل جانب، كما تشكل فى ذات الوقت فكرة دفاعية جيدة جدًا، لأنها لابد وأن تكون قد أفادت من مختلف السلاسل الصخرية وذلك يجعل منها جدرانًا ومتاريس وحواجز. يزاد على ذلك أن هذا الشعب البدائى كان يدفن موتاه وهم فى وضع الجلوس، وهذا هو الوصف الذى أورده رولفز عن الميت الذى رآه فى تيسربو، لكن جرت العادة بلف جلود الغنم حول الميت وهو فى هذا الوضع. ومن الواضح أن هذا الشعب لم تكن لديهم فكرة عن المنسوجات وأنهم لم يكونوا يرتدون سوى الجلود.

جاءت قرية بُسيمة الأساسية، الموجودة عند الطرف الشمالي الغربى من البحيرة، هى وبساتين التمور المسوَّرة تسويرًا جيدًا، والمرعية رعاية جيدة، والتى تزرع فيها خضراوات قليلة، وقليلٌ من أشجار التين التى تمتد إلى حافة الماء، مفاجأة لنا لأنها لم يكن فيها سوى ستة بيوت، هى عبارة عن بنايات مربعة لها جدران صلبة جيدة البناء، وفيها أفنية منتظمة الشكل ومشطبة تشطيبا جيدا ولها أبواب خشبية متينة. كان منظر البيوت أنيقًا ومريحًا، وليس فيه شيء من مظهر التداعى الشائع فى القرى العربية. تَركنا رجال بُسيمه فى هذا المكان بعد أن وعدونا بالحضور إلينا ليتقاسموا معنا لحم الخروف السمين فى فترة المساء. واصل سيدى محمد جولة حول البحيرة ليرينا بير النصرانى، تلك الحفرة الصغيرة الموجودة فى منطقة جذور مجموعة من النخيل. كنا قد أحضرنا معنا فناطيسنا كى نملأها بالماء، على اعتبار أن هذا الماء هو أفضل ماء متيسر فى الواحة، وبينما كان الأسودان يقومان بسكب

السائل البارد ببطء، كنا نحن "نتسامر" فى الظل ونرسم خرائط على الرمل، محاولين تحديد موقع تيسربو المُضلل "التى يلتزم كل رجل فيها قرينه ولا يغادرها؛ ومن هنا فإن أحدًا لا يلتقيهم ولا يسمع شيئًا عنهم." اكتشفنا أن ربيانه Ribiana، تقع على بعد مسيرة يوم ونصف فى اتجاه الجنوب، عبر رمال سيئة ، مما يضعها فى منتصف الكفرة (Kebabo) طبقًا للخريطة التى معنا.

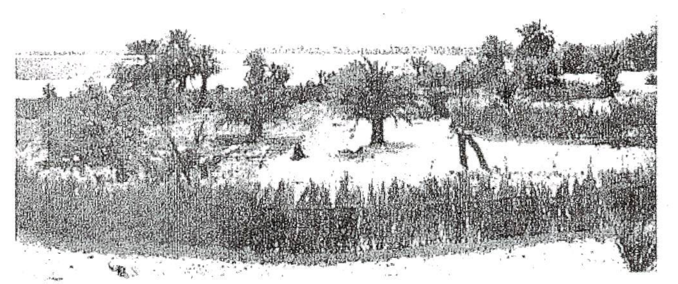
درنا - بعد مغادرة البئر - حول الحدود الخارجية لشاطئ البحيرة وكنا نعجب ما إذا كنا قد دخلنا أرض الخيال بطريق الخطأ. كان الأمر لا يصدق نظرًا لأننا بعد أربعة عشر يومًا أمضيناها فى رمال لا تطاق، رتيبة الشكل، وعديمة الطابع، وجدنا أننا ما زلنا موجودين على خلفية فيروزية زمرُّدية الألوان ومن الجمشت(*) أيضا. بُسيمة، هى أحب الواحات إلى قلبى من بين الواحات التى رأيتها فى حياتى، وبخاصة تلالها الوردية الغربية- التى لها أرجوانية المجوهرات وقرمزية منعكسة على صفحة السراب الملحى الذى يطوق أكثر البحيرات زرقة على مستوى العالم. هذا اللون بكامله واضح تمامًا على خلفية الكثبان الرملية الشاحبة الناعمة. الرائى يرى ذلك اللون من خلال إطار من جريد النخيل المتدلى، ومن بينه شكل وردى، متشح بوشاح قرمزى اللون، ويحرس قطيعًا من الماعز بالقرب من بركة داكنة موجودة بين عيدان السمار الخضراء العالية, توقف الزمن فى ذلك اليوم عندما رحنا نتجول ببطء من خضرة النخيل إلى ذهبية الرمال، ثم نعود بعد ذلك إلى خيامنا فى الوادى. لم نكن قد تناولنا شيئًا منذ الإفطار المكون من التمر والخبز غير المخمور، وعليه طلبنا من فراج طهى جزء من لحم الخروف- المعلق الآن على شكل أقسام أنيقة فى جذع نخلة سميك- بأسرع ما يمكن، لكن المؤكد أن يومنا كان مفتوحًا، لأن الشمس كانت قد غربت عندما أحضر الأسود

(*) حجر كريم بنفسجى اللون. (المترجم)

غداءنا وهو يبتسم- فخذ من الضأن يبدو وكأنه شيء في وعاء تحمير صغير ومعه بيضتان صغيرتان مغطاتان بالرمل من فوق اللحم!

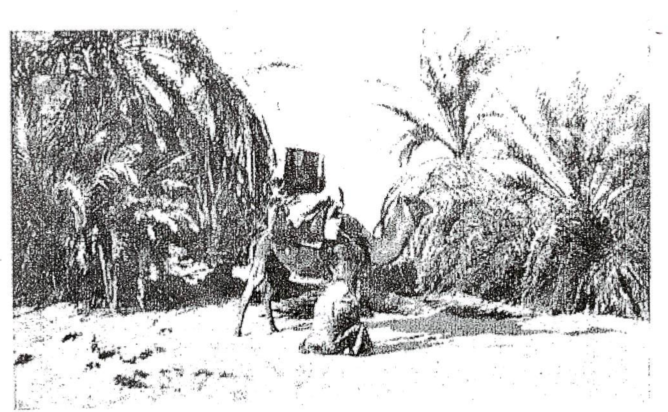
حضر بعد ذلك اثنان من الفقارين Faqruns هما: سيدى محمد وسيدى عمر ومعهما بورجيا Bu Regea كى يشاركونا فى الخروف المطهو والمقسم على طبقين كبيرين من الأرز. أكل الجميع من طبق واحد مستخدمين أصابعهم، وراحوا يبتلعون الطعام بسرعة، دون أن يتكلموا، لكنهم كانوا يحدثون مصمصات عالية الصوت. شربنا بعد ذلك قدرًا كبيرًا من الشاى الأخضر الأمر الذى أصبح النوم معه شيئًا مستحيلاً، وعلى ضوء النجوم، وفى ظل استعمالنا لمجموعات النخيل على سبيل الجدران، جلسنا حول نار صغيرة ورحنا نتحدث ببطء مع وقفات طويلة بين الحين والآخر. قيل لنا إن سيدى ادريس عندما ذهب خلال الواحة خيم مدة يومين تحت مجموعة كبيرة من النخيل تبعد مسافة ستة أقدام عن البحيرة الزرقاء، ومن هنا أصبح الناس ينظرون إلى هذا المكان بشيء من الخوف والتوقير. أبلغنا ضيوفنا أن الأمير سافر إلى ايطاليا منذ فترة وجيزة لزيارة ملك إيطاليا. وهنا بدت الدهشة والحيرة على سيدى محمد من قيام الشخص المقدس بسابقة من هذا القبيل. سألنى سيدى محمد "لماذا لم يأت لزيارة السيد؟ لأن الزائر، وليس المُضيِّف هو الذى يمنح التشريف فى أرض العرب".

برزت فجأة مسألة الرحيل وناقشنا فى البداية إمكانية الذهاب إلى تيسربو أولاً، اعتقادًا من وصف رولفز أنه لابد من وجود بعض أطلال التبو المهمة فى ذلك المكان. زعم رولفز المغامر الألمانى أن تيسربو كانت مقرًّا لسلطنة التبو ، وأوحى أيضًا بأن بعض الأنقاض الموجودة فى ديرانجيدى Diranjedi تشير أنها ربما كانت معقلاً للسلطان الحاكم مطلق السلطة. هذا السبب هو الذى شوّقنى إلى زيارة ثانى واحة صحراوية من حيث الحجم، وذلك على الرغم من الحقيقة التى مفادها أن هذه الواحة من الناحيتين الجيولوجية والتجارية جرى وصفها بعدم الأهمية. وتعد الكفرة



GARDENS AND LAKE AT BUSEIMA.

البساتين والبحيرة فى بُسيمه



AUTHOR ON A CAMEL AT BUSEIMA

المؤلفه تركب جملاً

مركزًا لعالم الصحراوات؛ بسيمة على سبيل المثال، تنتج أفخر أنواع التمور فى ليبيا، وتجيء القوافل من جالو لجلب هذه التمور؛ وربيانه Ribiana هى مقصد العناصر الخارجة على القانون فى المناطق المجاورة لها. قيل لنا إن فى ربيانه حوالى خمسمائة من التبو، لكن ربما كان ذلك الرقم غير صحيح.

تقف تيسربو خارج الدائرة التجارية وترضى لنفسها بحياة هادئة تتكفى فيها على الذات. بلغتنا أخبار عن عدد سكانها الذى يقدر بحوالى ٥٠ نسمة كحد أدنى ومائتى نسمة كحد أعلى. وفيما يتعلق بحجم تيسربو قيل إن طولها يتردد بين ٢٥ و ٣٠ كيلو مترًا وإن عرضها يقدر بحوالى عشرة كيلو مترات. وهى تمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، لكن الطرف الشمالى القصى منها ينحرف قليلًا فى اتجاه الغرب جنوبى جالو. وتضم تيسربو حوالى إحدى عشرة قرية أكبرها قرية الجزيرة Gezira، التى ليس فيها سوى عشرة منازل. والمسافر من الشمال يتعين عليه الوصول إلى عين جلالات Ain Jelalat أو عين طالب Ain Talib، اللتين تبعدان عن بعضهما مسافة كيلو متر واحد. وقرية الجزيرة تقع على بعد كيلو مترين من هاتين البئرين؛ والجزيرة فيها زاوية سنوسيه، وشيخ هذه الزواية هو سيدى محمد المدنى، وهو شقيق صديقنا الذى يحمل الاسم نفسه. وتقع مابوس Mabus العواديل el Awadil ومابوس جاب الله Mabus Gaballa على بعد حوالى كيلو مترين فيما بينهما. وتقع كوسبية Kusebeya على بعد حوالى ستة عشر كيلو مترًا شرقى الجزيرة، وتعد كوسبيه أبعد نقاط الواحة من ناحية الشرق. وتقع قرية الوادى على بعد حوالى ثمانية كيلو مترات غربى عين جلالات، فى حين توجد قرية العبد El Abd على بعد كيلو متر واحد بعد ذلك. وفى أقصى الغرب توجد تونس - قصر درانجيذى فى الوادى - حيث توجد بعض مبانى التبو القديمة، التى ربما كان أحدها قلعة أو قصرًا. ويعد الوادى أكثر الأجزاء سكانًا. وهناك أيضًا بعض الأنقاض فى دحوه Dahwa، وفى عين جلالات، وفى الجزيرة.

توجد مجموعات من النخيل حول القرى كلها، كما توجد فيما بين هذه القرى رقع من نبات 'الحلفا'(نصفه من الحشائش والنصف الأخر مـن نبـات طحلبـي صحراوى). هناك أيضا حزام من أشجار "الحطب". عبارة عن روابى صغيرة فيها بعض الحطب وعلف الماشية ويطوق الواحة كلها. بعـض القـرى الـصغيرة لا تحتوى إلا على منزلين أو ثلاثة. والمساكن الكبيرة تبنى من الرمل والحجر، لكـن المساكن بائسة الحال فهى عبارة عن مآوى مصنوعة من سعف النخيل المجـدول ولها أحواش صغيرة مربعة الشكل من خشب النخيل.

جاءنى القسم الأكبر من هذه المعلومات من الشيخ المدنى، الذى يعيش قومه بصفه أساسيه فى واحة جغبوب، حيث تدور بينهم وبين عائلة أخرى من الإخـوان مشاجرات عنيفة. سُفِكت فيها الدماء، وأمر السيد أحمد شريف بتهجير المدنى قسريًا إلى تيسربو، التى يعيش فيها حاليًا اثنان من أشقائه. كان الشقيق الذى التقينـاه قـد تشاجر مع هذين الأخوين وطُرد بعد ذلك إلى بُسيمة. هذا الشخص الـذى التقينـاه يقول كلامًا طيبًا فى حق أسرة السنوسى وأن المدنيين لا يزالون موالين مخلـصين لأسرة السنوسى، على الرغم من كلام سيدى محمود غير الطيب فى حق كل مـن واحة الكفرة وواحة جغبوب باعتبارهما مركزًا للحضارة والثقافـة وعـن بُـسيمه باعتبارها ظهيرًا خلفيًا لهما.

أنفقنا ساعات ونحن نرسم على ضوء النار خرائط على الرمل، فـى حـين كان القمر الذاوى يتلألأ شاحبًا فى السماء الإفريقية المدهشة الزرقاء زرقة الزمرد، لكنها رقيقة رقة الحجاب اللازوردى الذى ترتديه العروسة الشركسية. كان فـرَّاج الاطرم بين الحين والأخر يتخيل مارًا خياليًا قائلاً "مين هناك؟" كانت تحـدث بـين النخيل خشخشة بين الحين والآخر، وكان شاكرى يقول إن تلك قطة كانت تتحـرك داخل مخزن طعامنا المؤقت. قبل تلك الليلة لم تكن لدى فكرة الإثارة الناجمة عـن جمع المعلومات الجغرافية. كنت أخطط منذ عام كامل لمسألة وصولى إلى الكفرة،

كان يملك على كل خيالى وبخاصة أن أعرف أن تلك الواحة مقدسة، وهى نــواة لأكبر إخوانية إسلامية، محمية حماية قوية من كل الغرباء، وأن هذه الواحة تعــد مركزًا لذلك التأثير العتيد الذى تناوبت كل الدول الأوروبية القتــال ضــده. وفــى الوقت الذى رحت فيه أتعلم بصورة متدرجة المزيد عن هذه المجموعة من المــدن الصحراوية: الهوارى، الجوف، بويمــا Boema، تُوليــب Tolelib، وتــولاب، وزروق Zuruk ومدينة تاج المقدسة، وبعد أن أدركــت أن هــذه المــدن تمثــل العنكبوت عندما يكون فى وسط شبكته وخيوطه، وأن خيوط ذلك العنكبوت تمثلــت فى طرق القوافل الطويلة التى تنتشر فى كل الاتجاهات من طرابلس إلى السودان، ومن بحيرة تشاد إلى مصر، كان الجانب التجارى من المشكلة يملك علىّ فــؤادى. تتحكم الكفرة فى نصف تجارة الصحراء الكبرى. قلة قليلة جدًّا من الطرق القديمــة هى المفتوحة فى الوقت الحالى، فى حين تكاد الطرق الأخرى لا تــستخدم إطلاقًــا بسبب عدم وجود الآبار، لكن المستقبل عامر وحافل بإمكانات لا حصر لها. لــيس هناك داع للإبقاء على الإبل كوسيلة نقل رئيسة فى ليبيا. خزانــات المــاء يمكــن توفيرها فى كثير من المواضع المعروفة والمتنوعة، كما هو الحال فى المسافة مــا بين جالو وواحة جغبوب، والتى أمر السادة بحفظ الماء على امتدادها فــى جــرار كبيرة من الحجر كى يستفيد منها المسافرون.

عدنا فى تلك الليلة التى أمضيناها فى بُسيمة، بعد مغادرة الضيوف للمكــان، إلى الخيمة ونحن متعطشون لرسم الخرائط. قفلت باب الخيمة وأخرجــت الجهــاز الذى احتفظ به. أتلفت أوراقًا كثيرة وضاعت البوصلة منى فــى الرمــل عــشرات المرات قبل أن أتمكن من إنتاج أول خريطة كروكية عن الواحة الصحراوية، لكنى شعرت أن الجهد الذى بذلته يستحق الثناء بعد أن رأيت الآبار التى أضــفناها إلــى الخريطة الصادرة عن مصلحة المساحة المصرية فى العام ١٩١٥ الميلادى. قــال

حسانين – وهو يهيل مزيدًا من الرمل عن شعره المهوش: "لعلنا نكون قد وفرنا على الأوربيين الذين سيأتون بعدنا قدرًا كبيرًا من المتاعب!"

أمضى سيدى محمد الليل فى مخيمنا. وأظن أنه فعل ذلك تحاشيًا لمسيرة العودة الطويلة أثناء الليل، لأنه يقيم فى الطرف القصى من أبعد القريتين. اكتشفت فى الصباح أن سيدى محمد بات فى مخيمنا كنوع من التحوط. ومن الواضح أن حكايات الخطر لم تكن ساذجة مثلما كنا نظن. كان رجال الفقرون قد قالوا لسيدى محمد: " والله ! لولا خاطر سيدى المدنى لكنا قتلناكم جميعًا!" بقيت مسألة تنفيذهم لذلك القتل سرًّا غامضًا، لكن لا يمكن أن يكون هناك شك فى مسألة كراهية بُسيمه للغرباء. كانت هناك امرأة شاحبة الوجه، برزت خارجة من بين الأدغال لتتحدث إلى موراجا أثناء خروجه من المخيم. كان دم ذلك الرقيب خليطًا من الدم العربى والسودانى. وكانت ملابسه الحمراء الباهتة اللون وأثماله البنية اللون، مثل لون بشرته. سألت المرأة موراجا غاضبة "لماذا أحضرت هذين المصريين هنا؟ نحن لا نريد الغرباء ولا نرغب فيهم. اجعلهم يرحلون وإلا سيعانون!" فى صبيحة اليوم السابع من شهر يناير كان الرعب قد أصاب كل أفراد الجماعة. لم يكن من اللائق أن أسألهم عما إذا كانوا خائفين من مجرد حفنة من الأشباح. أستعاد الجميع كل قصصهم القديمة، وراحوا يرجوننا وعلامات الرعب على وجوههم، أن نغادر المكان على الفور.

الشىء الذى يرثى له هو أن روح محمد المعنوية كانت منخفضة للغاية خلال أيام العطش الثلاثة الأخيرة. قال محمد: "لقد أعطانى الله حياة جديدة. وأنا لا يمكن أن أخاطر بهذه الحياة مرة ثانية." كنا قد تعودنا تمامًا على جبن كل من يوسف وعبد الرحيم، ذلك الرجل النحيف صغير الجسم الذى يرثى له، وليس له بنيه قوية أو روح قتالية، لكننى كنت جد آسفة على حال محمد. كان محمد أعظم خلفائى، وهو جاهز ومستعد دومًا للعمل أو المخاطر. يبدو أن ذهن الرجل بدأ

يعانى هو الآخر مثل جسمه تمامًا. كنت أتساءل حول مدى جدواه لنا فى المستقبل. وبينما كنت أشوى البيض على نار ذكية الرائحة رحت أعد شيئًا من القهوة مستخدمة فى ذلك شيئًا من "ماء بئر النصرانى"(*) الذى كان عذبًا، لكنه كان يصيب فم من يشربه بالجفاف الشديد، تمنيت لو أن المرافقين لنا أستوعبوا المشهد بعض الشيء. كانت الأشياء الوحيدة التى تتحرك وسط الكثبان الرملية والصخر الأرجوانى والذهبى اللون، هى تلك الطيور الصغيرة ذات الألوان الخليطة من الرمادى والأسود، والشبيهة بطيور الذُعرة المائية- التى يسمونها فى مصر "أبو فصاده". أنا أرى أن أجعل الحشرات استثناء، إذ كانت هناك أنواع عدة من الخنافس، إضافة إلى الجراد الرملى الطويل، والبعوض بطبيعة الحال، الذى كان رحيمًا أو كارهًا للأوروبيين شأنه فى ذلك شأن السكان الآخرين فى بُسيمة.

تسلقنا بعد الإفطار قمة من القمم الصخرية. وأكد لنا موراجا أن هذا الأمر قد يستغرق النهار كله. أكملنا عملية التسلق فى ثلاثة أرباع الساعة، حوالى مائة متر. كان مستوى مخيمنا فى الوادى يقل ارتفاعه عن ٣٨٠ مترًا. كان المنظر رائعًا. كانت الواحة بكاملها تمتد من تحتنا، وفيها تلك الفجوة الكبيرة التى تقع بين القمم الصخرية التى جئنا من خلالها قبل يومين، ومن خلف هذه الفجوة وعلى جميع الجوانب كانت توجد خطوط من الكثبان الرملية المتموجة بيضاء اللون، وهى تبدو أكثر انحدارًا عندما ننظر إلى ربيانة فى اتجاه الجنوب أو إلى الكفرة فى الجنوب الشرقى. كانت هنا بقعتان سوداوان تقطعان رتابة تلك المنحنيات شاحبة اللون- كانت البقعتان تُمثلان طلائع صخور قارّة بُسيمة.

اكتشفنا فى طريق عودتنا عددًا كبيرًا من منازل التيبو المدمرة والمبعثرة هنا وهناك على الأرض الملحية الجرداء التى بين مخيمنا وبين القمم الصخرية. كانت

(*) المقصود "ببئر النصرانى" هنا هى تلك البئر التى حفرها رولفز الالمانى بالقرب من جذور مجموعة من النخيل. (المترجم)



ZOUIA WOMEN AT BUSEIMA.

نساء زويّات في بسيمه

جدران المنازل لا تزال بحالة جيدة، وكانت أكبر حجمًا من المنازل الموجودة عند الطرف البعيد من البحيرة. كان قطر أكبر الحجرات الشبيهة بخليه النحل حوالى ثمانية أقدام وست بوصات. تركت حسانين ليبلغ المرافقين لنا أننا سنبدأ التحرك فى صبيحة اليوم التالى، وأن يستمع إلى الخطط التى وضعوها للدفاع أثناء السير على الطريق، و ذهبت بصحبة عبد الله لزيارة أقاربه فى القرية المجاورة. كانت شقيقة عبد الله تعيش فى كوخ منخفض مبنى من جريد وسعف النخيل وله حوش صغير فى مقدمته، وله جدار من منسوج من سعف النخيل. لم يكن هناك أى شىء داخل هذه الغرفة الوحيدة سوى بعض الحصير المصنوع من أوراق السرخس المضفور، وبعض الأطباق المصنوعة من الحشائش المضفورة والمملوءة بالتمر، وكانت هناك قرعتان من قرع القُلل، وقربة مصنوعة من جلد الماعز مملوءة بالماء، وبعض البطاطين التى يرثى لحالها. حياة هؤلاء الناس تعتمد بكاملها على النخلة. وهم يبنون منازلهم من النخلة، ويصنعون حصيرهم وأطباقهم من سعفها، ويأخذون من النخلة طعامهم، وشرابهم، وسلالهم، وخيوطهم، وأحذيتهم، والحشو الذى يضعونه فى سرُج الإبل.

تجمعت حولى نساء عديدات فى تلك الظلمة البَراد. كان القسم الأكبر منهن جميلات، ووجوههن زيتونية اللون، وذقونهن مدببة. كانت عيونهن سوداوات ومن حولهن رموش ثقيلة سوداء، وكانت ملامحهن متناسقة، وأسنانهن من أجمل أنواع اللؤلؤ الذى رأيته فى حياتى. قلن لى إن ذلك بفعل التمر، وكان الشىء الذى جعلهن يهتممن بى اهتمامًا شديدًا هو ذلك الطربوش المصنوع من الذهب! ظنت تلكم النساء أن هذا الطربوش شكل من أشكال المجوهرات الجديدة ورحن الواحدة بعد الأخرى يفتشن ويتفحصن سنِّى التعيس. قلت: "عندما يكون لدينا ذهب فنحن نصنع منه القلادات والأقراط. فلماذا تضعين الذهب فى فمك؟" أصررنا على فك حزامى الأحمر الزاهى، الذى كنت ألفه دومًا حول وسطى، ورحن ينزلنه إلى الأسفل نحو

أردافي، الأمر الذى جعلنى الأطول من بين النساء العربيات كلهن. أريننى مجوهراتهن كلها- أقراط ضخمة مصنوعة من الفضة، قلادات وأحجبة- وسألننى عن عدم وجود شلوخ توضح قبيلتى. أمضينا ساعة جميلة مع بعضنا البعض فى الغرفة المصنوعة من النخيل، وتخلل هذه الساعة شرب حليب الماعز المحمض من أطباق مصنوعة من خشب النخيل، وأكل التمر الأسود الجاف البالغ من الصلابة حدًا يصعب معه قطعه بالأسنان.

يمتد طريقان من بُسيمة، يسير أحدهما جنوبًا إلى ربيانة، ويصفه الناس بأن طوله يقدر بمسير حوالى يوم ونصف عبر كثبان رملية كبيرة، وهو طريق صعب لا يرغب أى مرشد فى السير فيه؛ أما الطريق الثانى فينحرف قليلاً صوب الجنوب الشرقى، طوله يقدر بمسيرة ثلاثة أيام ونصف منها يومان صعبان تمامًا. ويمكن مواصلة السير من ربيانة عبر الكثبان الرملية المرتفعة نفسها إلى مجموعة قرى الكُفرة. وباستخدام الطريق المباشر يصل المسافر إلى هوارى Hawari لكنه إذا ما استخدم الطريق الطويل يصل إلى طولاب Tolab. سلكنا الطريق المباشر بلا تردد، نظرًا لأن إبلنا كانت لم تستعد بأى حال من الأحوال. عافيتها من الرحلة الكارثيه الأخيرة. كانت ناقتان من بين النوق على وشك الولادة فى أيه لحظة، وكانت النوق كلها تبدو عليها النحافة والضعف. راح عبد الحافظ يهز رأسه حزنًا على النوق. قال: "ربنا كبير، لكن الكثبان الرملية كبيرة أيضًا!"

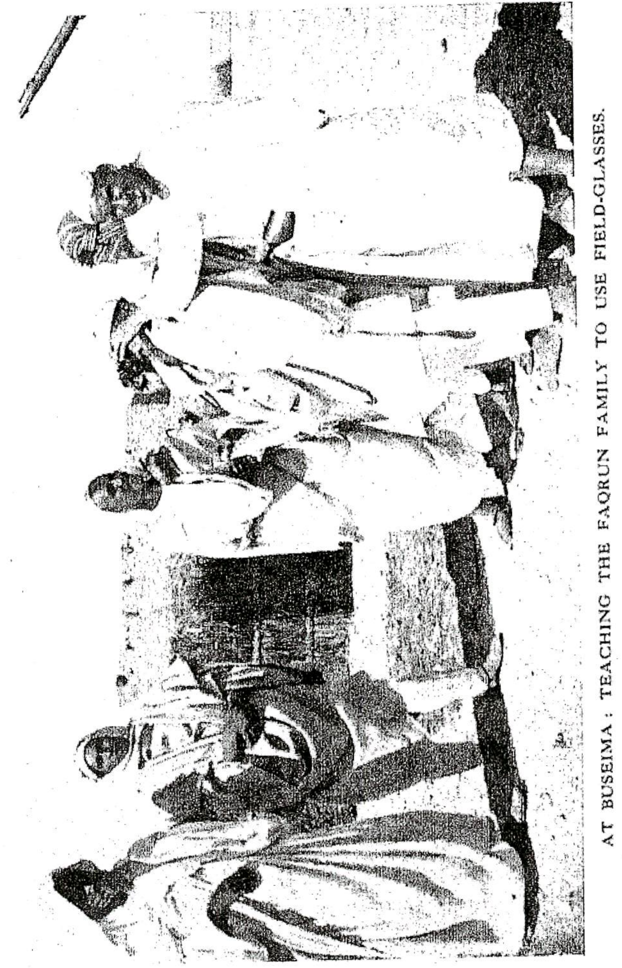
غادرنا بُسيمة عند الساعة الثامنة والعشرين دقيقة من صباح اليوم الثامن من شهر يناير. سار معنا بورجيا Bu Regea إلى أول قمة من قمم سلسلة التلال الرملية، ومن فوق هذه القمة شاهدنا منظرًا رائعًا للواحة كلها، شاهدنا النخيل، والبحيرة، والجبال التى كان لونها مثل لون الأسمنت على خلفية ذهبية. قرأنا "الفاتحة" فى صمت على قمة مرتفع حاد؛ بدأنا بعد ذلك، وبعد كثير من التمنيات الطيبة والدعاء بالبركة، سرنا خلال متاهة الكثبان الرملية. وقد استقر المشهد

الصغير في ذهني بسبب الخيانة التي كنا نعرف أنها ترتكز عليه في الليلة السابقة، كان واحد من أسرة الفقرون - بعد أن أكلوا من طعامنا - قال ليوسف: "والله! لولا أن قوتنا مساوية لقوتكم، لمنعاكم من الرحيل الآن"؛ في الوقت الذي حث فيه الشيخ المدني المخلص محمد على مغادرة الواحة بأسرع ما يمكن.

وصل جاسوس في صبيحة يوم رحيلنا، قادمًا من ربيانة ليقول: "أن عائلة البزامة Bazama عادت لتوها من جدابيا، وهم يقولون لنا إن هناك غرباء قادمين إلي هذه القرية. ونحن لا يمكن أن نصدق أن السَّيد صرَّح لأي غريب بزيارة الكُفرة. وأنا مُوفد للوقوف على هذه الحقيقة." كان الحاج فطاطر، ذلك الإخواني كبير السن، والذي عقد العزم على مرافقتنا في رحلتنا، قد حذر عبد الله بما يفيد أن السَّيد The Sayed يتعين عليه عدم السماح للبزامة بالذهاب إلى ربيانه إلا بعد عودتنا سالمين. ووسط التعقيدات التي أحاطت برحيلنا جرى تجاهل ذلك الإنذار أو التحذير، ولكن بعد تكرار كلام الجاسوس علينا أحسسنا في نهاية المطاف أننا فهمنا الموقف. كان هناك - منذ مغادرتنا إجدابيا - تيار تحتي غريب مفاده أننا كنا عاجزين عن الفهم. استقبلونا استقبالاً كريمًا وديًا، ومع ذلك كانت هناك مسحة من الشك تغلف خطواتنا، في الوقت الذي كانت تروج فيه الشائعات وتسبق خطونا. كانت هناك شائعة عصابة اللصوص التي تكمن لنا بالقرب من بير رسَّام Bir Rassam. كان هناك أيضًا تغيير الواجهة في عجيلة. وحتى في جالو نفسها كان هناك ظل خافت غير سهل، فسّره حميدة بك زيتون بقوله: إن بعض الشيوخ جهلة ومن الطراز القديم. ثم جاء بعد ذلك العداء الحقيقي لبُسيمة، ومعه كل الشائعات والإنذارات التي أصابت كل المرافقين لنا بالرعب والفزع، لكننا تجاهلناها ولم نعرها اهتمامًا. وقد تبلور الأمر في وصول الجاسوس، الذي وفرت لنا حكايته التي رواها لنا، كل الأسباب التي تجعلنا نسلم بأننا سيجري الهجوم علينا ونحن في طريقنا إلى الكُفرة، نظرًا لأن الجاسوس أجرى بعض التحريات الدقيقة عن قوة جماعتنا وعن الحاشية المرافقة لنا.

كان محمد هو الشخص الوحيد الذى فسّر لنا ذلك الغموض. قال محمد: إن البازاميين أسرة سنوسية محترمة وعريقة، وإنهم إخوان من قديم الأزل، وإن الذى أرسلهم الى الكفرة هو سيدى بن على، وأن جد البزامة كان واحدًا من الأربعة الأساسيين الذين تقرر لهم تثقيف الزَّوايا فى الدين الإسلامى. وقيل أيضا إنه حدث فى الماضى نزاع قديم حول امتلاك بعض أراضى ربيانه بين السادة وعضو من أعضاء أسرة البزاميين، لكن السيد أحمد رضا السنوسى سوى هذه المشكلة وديًّا بأن جعل البزاميين شيوخًا على ربيانه. ومن سوء الطالع أن هؤلاء البزاميين تحاشوا أو امتنعوا مؤخرا عن دفع ضريبة "العشور" للحكومة، من منطلق أنه ليس لديهم عدد كاف من الخدم كى يقوموا بفلاحة أراضيهم. كان سيدى إدريس قد أبعدهم مؤخرًا عن السلطة وعين محلهم رجلاً آخر. وعليه راحت أسرة البزامة عن بكرة أبيها تبحث عن الثأر والانتقام. وهل هناك فرصة أحسن من قتل ضيوف السيد، وبخاصة أولئك الذين يقومون بمهام سنوسية مهمة؟

بوسعنا الآن جمع الخيوط كلها مع بعضها البعض. وهذا يعنى أننا هيأنا للصوص فرصة الطمع، وأن ما حدث فى عجيلة جاء نتيجة لوقاحة زاوىّ فظ رفض إقامة وليمة للمسافرين، وأرجعنا شائعات الخطر فى بُسيمة إلى توتر خيال المرافقين لنا. واقع الأمر، أننا ربما كنا مدينين باستمرار وجودنا على قيد الحياة، إلى هروبنا التنكرى فى المقام الأول، لأن هذا الهرب التنكرى هو الذى ضلل إجدابيا. ثم بعد ذلك، إلى طلاقة لسان حسانين فى الليلة الأولى التى أمضيناها فى خيمة الشيب فى العجيله، كما يُعْزَى استمرار وجودنا أيضًا فى جالو إلى ولاء وإخلاص القائمقام؛ ويرجع فى بُسيمه إلى صغر عدد السكان الأمر الذى أنقذنا من الهزيمة؛ لكن ماذا سيحدث لوجودنا فى الكُفرة؟ قد يكون للبازاميين تأثير كبير فى الكُفرة، وفى الواحات العربية الكبيرة تكون هناك دومًا أحزاب تبلغ بها السعادة حدًّا يصعب معه أن تلتمس لنفسها عذرًا عن عدم الدخول فى شجار بسبب الأمور



AT BUSEIMA: TEACHING THE FAQRUN FAMILY TO USE FIELD-GLASSES.

فى بسيمه: تعليم اسرة الفقرون استعمال نظارة الميدان

التافهة. هذا يعنى أن الطابع المقدس للمكان والتشدد الوحشى من جانب السنوسيين كبار السن يمكن أن يهيئ لأعدائنا الفرصة لإثارة الشكوك التى قد تتولد عن مجىء غرباء لأول مرة فى تاريخ بلادهم. كان محمد ويوسف مضطربين للغاية، تمنيت مائة مرة لو أنهما لم يقوما بهذه الرحلة الجنوبية! يزاد على ذلك، القصة التى نسج خيوطها البازاميون، وهى القصة الوحيدة التى يمكن أن توحِّد كل الأحزاب والعائلات ضدنا، والتى مفادها أن سيدى إدريس باع كلا من الكُفرة، وربيانة، وبُسيمة للأوروبيين، وأن الغرباء المسيحيين (جرى تقديم بعض الشكاوى بحقى إلى ملكة إيطاليا!) كانوا يفدون بغرض تجميع كل أنواع المعلومات عن البلاد، حتى يمكن لهم بعد ذلك احتلالها بسهولة! وما لم يتم تكذيب تلك الشائعة على وجه السرعة، فإن الأيدى كلها ستكون ضدنا الأمر الذى سيجعل حياتنا لا تساوى معشار درهم واحد!

قدَّرنا أن الجاسوس قد يمضى قرابة نصف يوم فى "التسامر" فى بُسيمة، وأنه سوف يستغرق يومًا فى العودة إلى ربيانة. وتوقعنا إنفاق المزيد من الوقت فى تنظيم الهجوم، وعليه كنا نأمل - من خلال سرعة الحركة - الوصول إلى هوارى دون قتال. هذه المسألة لن يكون لها وزن كبير سواء أكنا منتصرين أم لا، نظرًا لأننا فى حال الانتصار سنكون قد بدأنا صراعًا دمويًا مما يجعل أقارب القتلى، يكمنون لنا عند عودتنا.

من سوء الطالع أن الكثبان الرملية تسببت فى جعل التقدم السريع أمرًا مستحيلاً. تبعثرت الأحمال غير المحزَّمة فى كل الاتجاهات. كان لابد من حث الحيوانات على السرعة وبصورة مستمرة خلال الكثبان الرملية. تحتم علينا الدوران حول أكبر الكثبان الرملية وكان مسارنا فى ذلك اليوم متعرجًا وبطيئًا إلى أبعد الحدود. وصلنا إلى ارتفاع ٥٨٠ مترًا، حيث موجات كبيرة من الرمال، وسلاسل من الكثبان الرملية تمتد على كل الجوانب بطريقة غير منتظمة. وصلنا

عند الساعة الثالثة بعد الظهر إلى رقعة شبه مستوية من الأرض ليس فيها سوى كثيب رملي واحد مدبب القمة يصل ارتفاعه إلى ما يقرب من ١٠٠ متر في أبعد أطرافه. تسلقنا ذلك الجانب وشاهدنا منظرا رائعا فوق ذلك البحر من الرمال الهائجة المضطربة. كانت قمم بُسيمه الصخرية العالية تبدو لنا غارقة وسط الكثبان الرملية. وظهر في الأفق الغربي تشكيل آخر مربع القمة، داكن اللون مثل القارة التي غادرناها. هذا التشكيل هو جبل ربيانه. بدا هذا الجبل لي وكأنه يبعد عنا مسافة ٦٠ كيلو مترا. كانت تلال فاضل وهوايش فيما بين زايغن والكُفرة تبدو لنا واضحة في اتجاه الشرق، وكأنها مجرد بقع صغيرة نيلية اللون وسط سلاسل متحركة من الرمال. اضطررنا عند الساعة الخامسة بعد الظهر إلى التخييم نظرا لأن واحدة من النوق كانت تلد حَمْلها. مشت تلك الناقة حتى اللحظة الأخيرة، ثم ظهرت بعد ذلك بساعة وكأنها استعادت عافيتها، لكن المؤسف، أن وليدها كان يحتضر، الأمر الذي أحزن العرب حزنا شديدا، نظرا لأن الإبل هي بمثابة الذهب عند العرب، أما الذهب عندهم فهو البداية والنهاية، كما أن هناك أشياء كثيرة أخرى بين هذه البداية وتلك النهاية!

أضحكني السودانيان كثيرا في تلك الليلة. قال فراج متهللاً " لا تخافي! سندافع عن حياتك. رددت عليهما - وفي ذهني ذكريات الرعب الذي أصابهما في بُسيمة - لا تشغلا أنفسكما بالدفاع عني. فأنا أستطيع القيام بذلك على أحسن وجه. ركزا على دفاعكما عن أنفسكما!" جاء ذلك بمثابة وجهه نظر انتزعت إجابة أو ردًا حزينا، "لكني لا أريد القتال بلا سبب. هناك فتاة صغيرة أود أن أتزوجها عندما أعود!"

كان صباح اليوم التاسع من شهر يناير شديد البرودة، الأمر الذي جعل الحاشية المرافقة لنا تتباطأ يأسا في تناول وجبتهم. السودانيان يفضلان الشمس الحارقة على أقل لمسات البرد، التي يمكن أن تؤدي إلى تجمدهما. بدأنا سيرنا عند الساعة الثامنة صباحا، وأحرزنا تقدمًا كبيرا عن اليوم السابق، على الرغم من الحقيقة

التى مفادها أن البعير - بعد أن استعاد عافيته تماما - كان لابد من حمله فيما يشبه السّله الكبيرة على ظهر أمه. كانت الكثبان الرملية مختلفة الاستواء والأحجام. كنا نصادف فى بعض الأحيان - ولمسافة كيلو أو كيلو مترين من الرمال المتموجة - تموجًا خفيفا، ثم نصل بعد ذلك إلى كثبان رملية كبيرة الحجم مثل الجبال الصغيرة، كنا نشاهد من فوقها منظرًا للسلاسل الصخرية الأربع السوداء فى اتجاه الشرق، والجنوب والشمال والغرب. وعند الساعة العاشرة صباحًا، تسلقنا قمة سيف البرام Seif el-Biram، التى يقول العرب إنها أعلى نقطة على الطريق. الناس هنا يطلقون عليها اسم "كثيب أوعية النار"، نظرًا لأن نساء الزُّوايا، حملن معهن - أثناء هروبهن من الاحتلال التركى - أوانى الطهى الفخارية على جمالهن. وعندما كانت الإبل تنزل المنحدرات الوعرة فى الكثيب الرملى الضخم سقطت أوعية النار من فوق ظهور الإبل وتكسرت كلها! كررت قافلتنا هذه التجربة إلى حد ما، فقد انهار القسم الأكبر من أمتعتنا، كما انقلبت أيضا امرأة غريبة كانت تسافر معنا- أرملة شاحبة اللون، خلفت وراءها طفلها فى بُسيمة لأن أسرة زوجها رفضت إعطاءها ولدها - وكانت تلك الفتاة قد طلبت منا حمايتها إلى أن تصل إلى الكفرة حتى تنضم إلى أهلها هناك، هذه الفتاة انقلبت رأسا على عقب. ومن حسن حظها أن كان الرمل طريًّا وناعمًا! هذا الرمل بدأ لونه يتحول إلى اللون الوردى ونحن نتجه صوب الجنوب، ثم تحول لونه إلى لون المرجان الباهت. ومن سوء الطالع أن ناقة أخرى بدأت تظهر عليها آلام الوضع، بعد أن قطعنا ثمانية وعشرين كيلو مترًا، الأمر الذى اضطرنا إلى التخييم عند الساعة الثالثة بعد الظهر. ومن يمن الطالع أن ذلك المولود لم يكن معتل الصحة، وعليه لم يخيم علينا الحزن الذى تملكنا مساء الليلة السابقة.

جلست مع كل من يوسف وعبد الله عندما كانت تُنْصَبُ الخيمة فى المكان الفسيح الواسع، المكشوف تمامًا للهجوم، لكن روح الصحراء القدرية، أصابتنا بالإهمال. حكيا لى قصصا عن سيدى المهدى، الذى يزعم البدو أنه لا يزال حيًّا،

وأنه جوّال متصوف فى الصحراء الكبرى. وأنه سيعود فى يوم من الأيام، ليقـود السنوسى إلى مزيد من العظمة والقوة "إن شاء الله!" يقولون: إن سـيدى المهـدى اختفى فجأة فى جارو Garu فى الطريق إلى واداى Wadai، وأن شخـصنا آخـر دُفن مكانه فى المرابط(*) المقدس فى الكُفرة. وكمثال على استمرار وجود سـيدى المهدى على قيد الحياة، كانوا يقتبسون التجربة التى مر بها بعض العرب الجالسين حول نار مخيمهم وسط الكثبان الرملية، فى ضوء النجوم. جاءهم غريب وسـألهم عن أخبار المهدى. أجابوه "لقد توفى سيدنا؛ "هذا هو ما يقوله السادة فى الكفـرة ". "إنه حى". قال الغريب: "هو فى وسَط Wasst". وترجم البدو هذا الكلام على أنـه يعنى أن سيدى المهدى كان فى مدينة تسمى"وسَط" فى الجزائر، وسارعوا عائـدين بالخبر إلى الكُفاره. تساءل الشيوخ "لماذا لم تقبضوا على الرجل؟" "كان ذلـك هـو المهدى. إنه حى. لقد قال لكم إنه كان'فى وسَط'، 'بيـنكم'". التلاعـب بالكلمـات العربية أمر صعب فى اللغة الانجليزية. كلمة "فى وسط" تعنى "بين" "فى منتصف"، فى حين تعنى كلمة "فى" "in" فى الانجليزية. وكلمة وسَط Wasst ربمـا كانـت اسمًا لمكان.

كنا فى الليلة السابقة قد خيمنا ونحن نحس بالقلق والخوف. كان كـل واحـد منا منتبهًا إلى بندقيته. وأذكر أن حسانين وأنا دار بيننا نقاش شرس حـول بندقيـة قديمة، خلّفها أحد الجنود وراءه بعد أن تخلى عنا فى جالو، وبذلك قلل عدد جيـشنا إلى ثمانية أفراد بالإضافة إلى القومندان والرقيب. واقع الأمر أن السلاح الذى كان يملأ قلوب العرب هو طبنجة حسانين عديمة الجدوى. لقد كانت ماسورتها الطويلة تدخل الرعب فى نفوسهم. وقد بلغنا أن عبد الله قال لواحد من أصدقائه أن احمد بك حسانين لديه مسدس يستطيع أن يصيب الناس الذين يكونون على بعد مسيرة ساعة!

(*) كلمة عامية ليبيه، تعنى 'قبر شخص مقدس' إذا ما استخدمت اسما وتعنى"مقدس" إذا ما استعملت صفة. (المترجم)

كشرت الصحراء فى الليلة التالية عن أنيابها من جديد- وهذا نوع من التحذير المميت الذى يصيب الإنسان بعدم الاكتراث بالمستقبل- "ما الذى يعنيه أمس الميت، والغد الذى لم يولد بعد، حتى يمكن أن يكون اليوم طيبًا؟" واقع الأمر، أن الأيام محيِّرة للغاية، نظرًا لوجود إما شمس حارقة تحرق من خلال البُركان القطنى الرقيق الملفوف فوق المنديل، أو ريح قارسة تخترق عظام البشر. قد يوجد الاثنان فى آن واحد فى بعض الأحيان ومن هنا يتجمد جانب من جانبى الرجل ويُشوى الجانب الآخر! من هنا يتشقق جلد الإنسان ويلتهب فى ظل مثل هذه الظروف، لكن كانت هناك ساعة واحدة يستحيل أن أعفو فيها عن الصحراء. تمثلت هذه الساعة، فى اللحظة التى خرجت فيها عند الساعة الخامسة صباحًا وأنا أرتعد من كيس البراغيث العامر بالدفء إلى ظلام أسود سواد القار، ورحت أدوس بقدمىَّ على رمل بارد برودة الثلج، ورحت أعبث باصابعى التى أصابها الخدر، بحثًا عن شمعة وبعض أعواد الثقاب، ورحت أواصل سحب الملابس الباردة المتخشبة التى يتساقط من كل واحدة منها زخه من الرمل. ونروح فى الوقت نفسه وأسناننا تصطك ببعضها البعض ندعو بصوت عال ونحيى بصوت عال، على الرغم من عدم احتواء ذهن الواحد منا سوى على الهجاء القاسى! ومع ذلك، كانت الليالى طيبة. وفى تلك الليلة بالذات، كان شاكرى Shakri هو القائم بالحراسة، إذ وضع نفسه على خلفيه السماء المضاءة بالنجوم، فوق قمة كثيب رملى، وفى حال ما إذا كان وجوده غير واضح تمامًا، كان يروح يعزف أنغامًا صغيرة حزينة على ناى من الخشب.

بدأنا تحركنا عند الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم العاشر من شهر يناير، بعد تناول إفطارنا المعتاد المكون من نصف طبق من الأرز مع اثنى عشرة ثمرة وكوب من القهوة. وإنه لمن المدهش حقًّا أن يعتاد المرء القيام بكثير من العمل اعتمادًا على قليل من الطعام. سرنا مدة إحدى عشرة ساعة وربع الساعة،

قطعنا خلالها ٤٤ كيلو مترًا فى اتجاه طيران الغراب، ولم نتناول عند الظهيرة سوى حفنة من التمر. يزاد على ذلك، أننا عندما كنا نصل إلى المخيم ننشغل برسم الخرائط والتدوين على أن يتم ذلك قبل تناول العشاء.

بدأت أنا وعبد الله التحرك فى ذلك اليوم قبل الآخرين، وكنا فى المقدمة، نظرًا لأن الجو كان شديد البرودة وكانت الشمس لم تشرق بعد فوق الكثبان الرملية. وسرعان ما استوقفنا منظر شيء أبيض كان على بعد مسافة قصيرة منا فى الناحية اليسرى. عندما استطلعنا أمر ذلك الشيء الأبيض، ثبت أنه مُذكر أليم بقسوة الصحراء التى تجاوزناها قبل أسبوع. اتضح أن ذلك الشيء عبارة عن ثلاثة هياكل عظمية بشرية مُكومة فوق بعضها وشبه مغطاة بالرمل. قال عبد الله ممتعضًا "إنه العطش". لابد أن هذه المأساة كانت قريبة العهد نظرًا لأن ملابس الرجال البيضاء كانت لا تزال بحالة طيبة، كما أن جلد الأيدى كان لا يزال أصفر وجافًا. انحنت المرأة الغريبة حزنًا وإشفاقًا على تلك الهياكل. قالت: "ثلاثة رجال ضلُّوا طريقهم أثناء سفرهم من ربيانه إلى الكُفرة." " لقد عثروا على أمتعتهم لكنهم اختفوا." قال الجنود، إنهم ربما كانوا سودًا، نظرًا لوجود كثير من الأحجبة السودانية معهم، كان معهم رجل ثعلب، وعظم كامل لطائر من الطيور، لكنى لن أسمح للرجال بإزعاج ذلك المنظر المهجور أكثر من ذلك. ومضينا فى طريقنا للانضمام إلى القافلة ونحن نقول: "رحمة الله عليهم."

كان البعيران الوليدان محمولين فى سلتين، كل منهما على جانب من جانبى أكبر ناقة بين النوق، وكان علينا التوقف بين الحين والآخر كى نجعلهما يتغذيان. قطعنا مسافة كبيرة، نظرًا لأن الكثبان الرملية كان انحدارها يقل بصورة متدرجة. بدأنا عند الساعة الثامنة صباحًا ارتقاء آخر المرتفعات الكبيرة ورأينا أمامنا بحرًا من الموجات المرجانية المنخفضة نظرًا لأن الرمل كان يزداد احمرارًا على حمرته مع وجود كتله جبلية سوداء أمامنا. تزايد انفعالنا، عندما استطعنا بفضل النظارات

المكبرة، متابعة هذه السلسلة من الموجات، التى لا يعتريها التقطع فى أى جزء من أجزائها، إلى أن تصبح على مقربة تماما من موقع قارة(*) ربيانة. واقع الأمـــر أن الأفق كله بدا لنا وكأنه محاط بشبه دائرة من التلال البنفسجية غير المنتظمة، والتى تمتد من فاضل Fadil وهوايش إلى الشمال الغربى وإلى الغرب بلا انكـــسار إلـــى الموقع الذى توجد فيه الكُفرة، وإلى السلسلة الطويلة من جبل نيـــرى Neri. ومـــن الخريطة أدركنا أننا قدرنا هذه التلال على أنها عبارة عـــن مجموعـــات صـــغيرة منتظمة. هذا المنظر الرائع للأرض المحاطة بصخور غريبة لم يكن متوقعًا علـــى الإطلاق وعلى نحو بدا لنا وكأننا اكتشفنا بلادًا جديدة. واعتبارًا من هذه النقطة بدت تلك السلاسل وكأنها تمتد على شكل نصف دائرة يمتد من الـــشمال الغربـــى إلـــى الجنوب الشرقى. وهنا راح حسانين يقتفى أثر خرائطه الرملية. قال حـــسانين "ألا ترين أن قارة الهوارى استمرار لجبل نيرى؟" أجبته وأنا منفعلة انفعالاً شديدًا "هـــذا صحيح، كما أن قارة ربيانة تكاد تكون مقطوعة بعض الشىء عن الطرف الآخر." واصل حسانين كلامه "ألا تعرفين أن جبل الهوايش كان اسمه الحقيقى كيد العـــدو Keid el Adu، لأن أحدًا لم يستطع المرور من خلاله أو عبوره؟" قاطعته قائلة: " لكى يدخل الأرض المطوقة أو المسوَّرة." "هذه الواحات بطبيعة الحـــال مرتبطـــة ببعضها على شكل دائرة، بواسطة التلال السوداء. تيسربو Taiserbo وحدها ليس لها قارة– إنها تقع خارج هذه المجموعة."

وبدأت اعتبارًا من هذه اللحظة أنظر إلى بُسيمة، والكُفرة، وربيانة على أنها الواحات الجبلية فى ليبيا. قد يأتى الجيولوجيون – فى يوم من الأيام – إلـــى هـــذه الأماكن ويثبتون خطأ أو صواب نظريتنا، لكنى أرى أن حـــدائق النخيـــل منعزلـــة وسط الرمال الحمراء، وأن كل حديقة من هذه الحدائق لها جرفها الذى يحميها، مما يجعلها تظل إلى الأبد بمثابة بلد شبيه بالجزيرة، بين أذرع الجبال السوداء الغريبة.

(*) قارة: كلمة ليبيه تعنى "التل الصغير" وهى فصيحة. (المترجم)

الاسم "هوايش" معناه "الوحش الكبير"؛ وبناء عليه رحت أسأل كلا من يوسف وعبد الله عن هذه الجبال. قالا: "لا أحد يذهب إلى الهوايش. الجن يسكن هذه المنطقة!" "هل حدث أن ذهب أى إنسان إلى جبل نيرى؟" "لا؛ إنهم يخافون هذا الجبل." "ما الذى يخافونه هناك؟" "هم لا يعرفون ذلك الشىء الذى يخافونه." "هل رأوا شيئًا معينًا هناك؟" "لا. عندما يقتربون من الجبال يراودهم شعور ما." "هل هناك رجال فى تلك الجبال؟" "لا. لا يوجد هناك طعام أو ماء. الناس كانوا يعيشون من قديم الأزل فى ذلك المكان وكانوا يشربون ماء المطر." "ربما يكونون لا يزالون موجودين هناك؟" "لا. لا يوجد هناك سوى الجن." "ما شكل هؤلاء الناس؟" "لم يرهم أحد." "كيف تعرفان أنهم هناك؟" "فى فترة الصباح يسمع المرء فى بعض الأحيان ضوضاء عالية كما لو كانت صادرة عن عدد كبير من الطيور." "ولم يحدث أن رأى إنسان أى شىء هناك؟" "لقد رأوا عظامًا." "أى نوع من العظام؟" "هم لا يعرفون." "إنهم خائفون." وتأكيدًا لهذه النقطة قال يوسف إن العظام كانت كبيرة الحجم ورسم صورة فى الرمل تمثل فقرات من شىء شبيه بالإنسان والجمل! وأنا أكرر هذه العبارة لكى أوضح مدى صعوبة الحصول على معلومات من العربى الليبى!.

الفصل التاسع

الخيانة فى هوارى

خلّفنا وراءنا عصرًا الكثبان الرملية ودخلنا أرضًا منبسطة، منطقة متحدرة فيها بداية موجات رمليه بها صخور وعرة أرجوانية اللون، تشكل جزءا من جبل نيرى يمتد جنوبًا على شكل كتله غير منتظمة من القمم والسلاسل الجبلية مربعة القمم ولها امتدادات داكنة من الأحجار تتخللها صخور بركانية. فى هذه المنطقة كان لون الرمل شبيهًا بلون الطوب المحروق، وكانت تتخلله بين الحين والآخر خطوط حمراء لها حمرة الورد، وبقع مبعثرة من الأحجار مختلفة الألوان، شبيهة بتلك الأحجار التى جمعتها من بُسيمة. كانت بعض أجزاء الأرض شبيهة بالمنمنمات الزرقاء والبنفسجية والحمراء. ولما كنا نتطلع إلى الوصول إلى هوارى مع صبيحة اليوم التالى، فقد واصلت القافلة تحركها السريع طوال فترة غروب الشمس، إلى أن تحول لون الأرض إلى لون بنى داكن، وبدأت القمم الصخرية الحادة تمزق السماء البرتقالية اللون بقممها البنفسجية الداكنة. بركْنا إبلنا تحت أول موجة كبيرة من الرمال المستديرة، ومن هذه المنطقة تمكنا من رؤية قارة هوارى المظلمة- التى تعد استمرارًا لجبل نيرى- وفى الوقت الذى حققنا فيه نجاحًا، كانت بقية الحاشية يتملكها نوع جميل من الرعب!

كان أفراد القافلة قد بلغهم أن رجلاً ترك قافلة البازاما Bazama فى الهرّاش وذهب إلى الكُفرة. ألمح عبد الله، أن هذا الرجل يمكن أن ينشر كل أنواع التشهير والتجريح عنا، وهنا امتقع وجه عبد الرحيم وطغى شحوبه على لونه الأبنوسى! والمحزن هو أن محمد كان قد فقد أعصابه تمامًا إلى حد أنه هو الآخر أُصيب بالرعب والفزع. من الواضح أن محمد قد تغير كثيرًا خلال الأسبوع الماضى. هذا يعنى أن محمدًا لم يعد ينظر بعد إلى الدنيا بنظرته الصبيانية

الصريحة القديمة. تردد الرجل ووهنت عزيمته. لقد توقف عن الغناء أو الضحك في هذه الأيام. وأنا أرى أن محمدًا كان بحق الرجل الوحيد الخيالي والحساس من بين أفراد القافلة، ومن هنا يصبح هو وحده الذي استحضر رؤى الموت عطشًا. يزاد على ذلك أن تفاخره المتحفظ جرح جرحًا عميقًا بفعل الموقف من بُسيمة، على الرغم من عدم اعترافه مطلقًا بذلك الموقف. فمن سوء الطالع أنه شاهد تلك الهياكل العظمية، واستخدم خياله الخصب في استنتاج التفاصيل وعمل المقارنات. وقد أكمل ذلك إنهياره وضعفه الصحي. ومن هنا انضم محمد إلى كل من المرشد والجنود عندما راحوا يرجوننا تجاوز هوارى أثناء الليل، ثم الوصول إلى الكفرة قبل طلوع الفجر، وبذلك نكون قد تمكنا - عندما يصحو الناس في تاج - من الاستقرار في واحد من منازل السيد Sayed، وبذلك نكون في حوزة دفاع مسلَّح. تناقشنا وتجادلنا دون جدوى. كان الجميع قد تنبئوا بهجوم منظم علينا في اللحظة التي ستقع فيها أنظار أهل هوارى علينا. وإنصافًا ليوسف، أقول: إنه كان الشخص الوحيد الذي قال إن ذلك كله هراء. قال: "قد يكون هناك لصوص، لكن كيف لهؤلاء اللصوص بالهجوم على عبيد السيد؟" وبذلك نكون قد اكتشفنا في يوسف حليفًا غير منتظر، ومن هنا حاولنا أثناء جلوسنا حول نار المخيم، بث قليل من الشجاعة في أفراد القافلة، مع الإصرار في الوقت نفسه على البقاء في هوارى.

كان اليوم بالغ الحرارة، وكانت أقدامنا قد تفققت من جديد، وربما يكون ذلك قد حدث بفعل الاكتئاب الذهني. كان يوسف بمثابة البارومتر الرئيسي الذي يمكن الاعتماد عليه. وعندما تخلى الرجل عن معطفه المبطن بفراء الخروف، وعندما واصل سيره في ثوبه الأبيض المهفهف، واضعًا طاقيته على رأسه، مثلما فعل في عصر ذلك اليوم، عرفنا أن الجو لابد أن يكون شديد الحرارة. لم يحدث قط أن رأيت محمد يسير دون أن يكون معه لفاحه المصنوع من الصوف، وقد لفّه عند الجزء العلوي من معطفه الممزق الذي لا يسمح بتسرب الماء.

شاهدت الشمس فى اليوم الحادى عشر من شهر يناير، وهى تشرق من فوق قمة كثيب رملى كبير وفر الحماية للنائمين. وراح لون الرمل الكثيب يتحول ببطء إلى اللون الوردى عندما بدأت قمم جبل نيرى أرجوانية اللون تظهر على شكل كتل منخفضة غير منتظمة فى اتجاه الجنوب، فى حين ظهرت إلى الشرق من هذه القمم، صخرة قارة هوارى الوحيدة السوداء. بدت تلك الصخرة وكأنها تبعد عنا مسيرة يوم واحد فى أحسن الأحوال. قال عبد الله، أننا يتعين علينا الوصول إليها عند الظهر. وبينما يممنا سيرنا صوب هذه الصخرة حاولت استخلاص المزيد من الحكايات عن الجبل الجدب الذى على يميننا، نظرًا لأنى كنت مفتونة بوصف الأصوات التى تُسمع فى ذلك المكان، "ضوضاء طيور". يقول هورنمان Hornemann، وهو يتكلم عن واحة تيبو Tebu: إن أهل عُجيلة يصفون كلام سكان هذه الواحة على أنه "شبيه بصوت الطيور". والعجيب بحق، أن المرأة التيبية Tebu التى التقيتها، كانت تصدر عنها أصوات حلوة عالية الوقع، تبدو كما لو كان تغريدًا شبيهًا بتغريد الطيور. وهنا وجدت موراجا هو وعبد الحافظ يتطوعان بإعطائى معلومة مفادها أن "آثار أقدام" شُوهدت على مقربة من الجبل الذى يسكنه الجن. سألتهما "آثار أقدام ماذا؟" أجابا "حسن، هى آثار الزواحف والثعابين!" جاء التضاد لم أُطق أن يتحول الجن أو وحش ما قبل التاريخ إلى حية أو ثعبان!

تجاوزنا الرمال الوردية بعد ساعتين ودخلنا سلسلة صخرية جرداء، وتلالاً صغيرة على الحدود الخارجية للجبال. كانت الألوان غير عادية بالمرة. كانت تصادفنا بين الحين والآخر ضفاف قرمزية اللون فيما بين مساحات من الحجر الأسود السائب، الذى تتخلله هنا وهناك كتل رمادية اللون، وكتل وردية اللون، وأيضا كتل بنفسجية اللون عند سفوح القمم الصخرية الأصغر حجمًا. كان لون الرمل المحيط بنا أحمر يميل إلى اللون الطحينى أو البنى الفاتح، وبدأت الأحجار تزداد كثافة على كثافتها، وعثرنا أيضًا على أنابيب غريبة جوفاء، وكرات جوفاء

أيضًا ثقيلة وسوداء، لكنها كانت مملوءة بالرمل. كان طول أصغر هذه الأنابيب يصل إلى حوالى بوصة واحدة أما أكبر الكرات فكان عرضها يزيد على قدم واحدة. انشرح صدر السود لهذه اللعب الجديدة وراحوا يكسرون الكرات الصلبة لكى يشاهدوا الرمل وهو ينساب منها، وراحوا بعد ذلك يستخدمون تلك الكرات أكوابًا وشمعدانات. أنا لم أر هذا التكوين من قبل مطلقًا ولا أعرف ماهيته. تجاوزنا قارة هوارى عند الظهر. هذه القارة لا تبدو متميزة عن بقية جبل نيرى، لأنها ليست سوى قمة صخرية واحدة من بين قمم كثيرة أخرى محيطة بها، لكن بعدها بياردات قليلة، بدأت السلاسل الحجرية هى والرمل أحمر اللون تتدرج فى الارتفاع على نحو يسمح للرائى بمشاهدة شيء شبيه بحافة تلك السلاسل وذلك الرمل فى وسط من الرمل شاحب اللون، يقع إلى الخلف من تلك السلاسل. هنا نجد السراب، عدونا القديم، يهيمن على هذه المنطقة، ولذلك صَعُب علينا فى البداية تمييز الزائف عن الحقيقى. كانت تلال قارة الكفرة أرجوانية اللون، تلوح لنا عند الأفق البعيد. كانت الواحة الرائعة الغامضة، التى كانت تبدو لنا قريبة، لكنها ليست فى متناولنا، تقع فى مكان ما خلف هذه القمم والمنحدرات الصخرية. كنا، حتى تلك اللحظة، ننظر إلى هوارى باعتبارها جزءًا من الكُفرة، لكن يوسف أشار فرحًا بإصبعه إلى موجة رملية شاحبة، تسبق التلال البعيدة من الأمام، وقال متسائلاً: "هل ترين الرمل الأبيض؟ قبل أن نصل إلى ذلك الرمل – أى تحته مباشرة – يوجد نخيل هوارى، لكن الكفرة 'بعيدة(*)' أى أنها خلف الجبل."

مضيا طوال ساعتين متلكئين عبر بلاد غير مستوية السطح، تتخللها مناطق قليلة وروابٍ من الأحجار، وفيها أيضًا المزيد والمزيد من النقاط التى تمنى النفس دون أن تحقق الأمانى، والتى كانت تتبدى لنا فى اتجاه الجنوب، مما جعلنا نتساءل

(*) استعملت المؤلفة الكلمة العربية 'بعيد' ودونتها بحروف رومانيه bayid. (المترجم)

ما إذا كانت تلك الجبال ستنتهي أم لا. الناس في الصحراء لا ينتظرون بعضهم بعضًا. هذا يعني أن كل واحد يمشي بطريقته وخطوه المفضل. وأنت إذا لم تستطع مسايرة ذلك، فسوف تتخلف، ولن يتوقف رفيقك ليسألك عن سبب تأخرك. وإذا ما توقفت لنفض الرمل عن حذائك، فلن يتوقف معك رفيقك. لأن هذا كله لا يتفق مع العرف السائد في الصحراء اللهم إلا إذا أصابك المرض. والبدو يتحدثون دومًا عن المسارات الطويلة الخالية من الماء على أنها "الطرق التي لا نتوقف فيها من أجل رجل توافيه المنية. نحن نتوقف ساعة واحدة من أجل جمل من الجمال، ونتوقف ساعتين من أجل عربي، ثم نتركهما بعد ذلك!"

وفي نهاية المطاف هبت علينا موجة عاتية من الرمال أقوى من كل الموجات التي هبت علينا من قبل، مكنتنا من رؤية هوارى رؤية شديدة الوضوح، إذ كانت على شكل طريق طويل ضيق من النخيل يمتد مسافة ١٢ كيلو مترًا في اتجاه الشمال والجنوب، وفيه مجموعتان صغيرتان منعزلتان من النخيل عند الطرف الجنوبي. ومن حول هذا الشريط يوجد حزام من الرمل شديد الاحمرار، مقسم إلى آلاف من الروابي الصغيرة، عامرة "بالحطب"(*)، تلك العصي الجافة الصغيرة التي سبق أن رأيناها من قبل. وهنا بدأت ناقة ثالثة تكشف عن أعراض الولادة، لكننا خلّفناها ومعها عبد الحافظ، وواصلنا المسير، وتمكنا من دخول الواحة عند الساعة الثالثة بعد الظهر.

كان النخيل المنخفض السميك ذو المجموعات الخضرية يبدو رماديًا تقريبًا على خلفيه رمال تشبه الزهور المنثورة. كانت هناك قلة قليلة من النخيل الطويل، ولذلك كان من السهل قطع سباطات كبيرة من البلح أصفر اللون، شديد الحلاوة وله طعم عسل النحل. لم أكن معجبة تمامًا بذلك النوع من البلح. بدأ الرعب يتملك

(*) استعملت المؤلفة الكلمة العربية "حطب" hattab. (المترجم)

المرافقين لنا، وخاصة عندما سألتنا مجموعة السود - التي تجاوزناها عندما كانت تجنى البلح وسط دائرة مشهودة من الماعز والنساء اللاتى يرتدين ملابس زرقاء اللون - "أين القافلة التى فيها مسيحى؟ لقد أرسل لنا البازاما أخبار هذه القافلة."

توجهنا مباشرة عبر الطرف الجنوبى للواحة، قاصدين حدائق النخيل المملوكة للسيد Sayed، والتى كانت بحالة ممتازة ومحاطة بأسوار من زعف النخيل، وفيها آبار كثيرة، وصفوفٌ من النخيل الذى جرت زراعته مؤخرًا، ورقع متواصلة من الأرض المزروعة بالخضروات، شديدة الخضرة وسط الرمال الرتيبة الحمراء حمرة الطوب الأحمر. كان عبيد السيد السنوسى يسكنون هذا الجزء كله من الواحة، ورأينا أعدادًا من السود، رجالاً، ونساء وأطفالاً، كانوا جميعًا يعملون فى الحدائق أو يقودون حميرًا صغيرة لونها رمادى شاحب محملة بالتمور والبلح. خيمنا على حافة القرية وألمت بعبد الرحيم نوبة عندما رآنى أتجول مبتعدة عن المكان كى أقوم بتصوير المنازل، ذات اللون الأبيض اللامع والمبنية فى المسافات فيما بين النخيل. جرى عبد الرحيم خلفى وهو يكاد يموت رعبًا وفزعًا. وهنا بدأت الحالة العامة للأعصاب تسبب الكثير من القلق.

منازل الهوارى تكاد تكون شبيهه بالبنايات الأوروبية. وهذه المنازل جيدة الإنشاء ومبنية من الطوب الرملى على شكل صفوف منتظمة؛ وأسقف هذه المنازل مربعة الشكل، صلبه ومسطحه، ولها نوافذ، لكن عددًا كبيرًا من الأحواش لها جدران منخفضة تمامًا، وكلها مرتبه وواسعة. وما أن انتهينا من نصب الخيمة حتى جاءنا موسى سكويرين، شيخ الزاوية ليسألنا عن مقصدنا ومبتغانا. وسرعان ما جاء بعده كبار رؤساء الزاوية ومن بينهم موسى غاربيل ومنصور بوبدر وهو من الجبيل Gebail. وفى الحال أصبحت هناك دائرة مكونة من اثنى عشر رجلاً كانوا يتحلقون حول الزريبة التى أقمناها على وجه السرعة، فى الوقت الذى سارع فيه عمر - تابع محمد الأمين - إلى عمل القهوة. كان القبليون مهمومين فى بداية

الأمر، وكنا نحن بدورنا نتساءل عما إذا كان ذلك ناجمًا عن وصولنا إلى الهوارى، إلى أن ظهر لنا أن رجلاً عقد صفقه لشراء العبيد من قافلة واداى قبل ذلك بأيام قلائل. ودفع ٤٠٠ مجيدى (حوالى ٧٠ جنيهًا انجليزيًا) ثمنًا لرجل وامرأتين، وإن الرجل أصبح يعانى من مرض شديد فى الوقت الحالى. قال الرجل وهو حزين "لقد كانت صفقة خاسرة". وكرر الجميع هذه الجملة نفسها. "أوامر السيد على رءوسنا" وأردف قائلاً إن زيارتنا تلقى ترحيبًا كبيرًا. "مجيئكم بركة لنا. بارك الله فى سادتنا وبارك فى كل من يأتون إلينا من طرفهم!" ومع ذلك، أطلق عبد الرحيم فى تلك الليلة شائعة مفادها أننا كنا مسجونين ولن يسمح لنا بالتحرك إلا بعد أن يصل من الكفرة تصريح لنا بذلك.

كنا قد بلغنا من النعاس حدًا يمنعنا من تحرى صدق هذا الأمر، لكن وصلتنا فى صبيحة اليوم التالى هدايا من اللبن المحمَّض ومن الحليب، مع دجاجتين، وبناء عليه خطر على بالنا خاطر مفاده أنه من المحتمل أن رجال الزاوية وهم يقدمون فروض الطاعة والولاء لضيوف السيد السنوسى، كانوا حريصين على إستجلاء أن الغرباء يصعب عليهم اختراق حدودهم المؤمنة تأمينًا جيدًا. توسل كل من يوسف ومحمد إلينا بعدم التحرك من المخيم، الذى نصبوه فى مكان غير محمى، شديد الحرارة، وعامر بالذباب وذلك من باب تحاشى واتقاء شر اللصوص الموجودين فى بيارات النخيل. قال يوسف ومحمد "انتظرى إلى أن يجىء الكبار للقائنا. وبعدها يمكن السير بسلام." كان ذلك مجرد عذر، لأن الهوارى هى مجرد قرية صغيرة تعانى الكثير بسبب قربها من المركز الرئيسى. هذا يعنى أن حياة قرية هوارى بكاملها تعتمد على البلدة الواقعة خلف الجبال. المشايخ الكبار، هم والأخوان يعيشون فى كل من الجوف jof وتاج Taj. والمرء لا يتوقع العثور على وزراء للتاج فى كل من كلابهمام وتوتنج. من هنا نجد الناس فى هوارى يقولون: "لا يوجد أى شىء هنا. الأشياء كلها تأتى من الكفرة." كان كبير مشايخ المكان بوشناف Bush Naf فى الجوف فى تلك اللحظة, من هنا كنا قد أرسلنا عبد الله ليبلّغ عن قدومنا ويقدم أوراق اعتمادنا إلى وكيل سيدى إدريس، وليقوم بتجهيز منزل لنا فى تاج.

أفرطنا في صباح ذلك اليوم في أكل البيض والتمر، والخبز الطازج المخمور- أوه، لكن مذاقه لذيذ- كما شربنا أيضا لبن الماعز. بعد ذلك، وبينما كان حسانين مسترخيًا- لاستيعاب روح الصحراء على حد تعبيره- خبأت آلة التصوير في طيات شال البركان، وسترت بشرتى البيضاء وخرجت لاستطلاع البلدة. كان العريف هو وفراج الكبير قد عرضا على مرافقتهما لي، لكنهما لم يحسا بالسعادة إلا بعد أن فهما أنى لا استرعى اهتمامًا كبيرًا. شاهدنا حدائق كثيرة مرتبة ترتيبًا جيدًا إذ كانت تزرع فيها الخضراوات والخوخ والشعير والتين الشوكى. كان فى كل حديقة من هذه الحدائق سودانى واحد أو سودانيان يقومان بتشغيل الآبار البدائية، بمساعدة الحمير الرمادية الصغيرة بديعة اللون، وهى أنظف الأشياء التى شاهدتها فى ليبيا. تجولنا فى القرية كلها، ولم نصادف أية معارضة، ولم يكن فى القرية شىء يمكن تصويره إلا النذر القليل. كانت المنازل الكبيرة المربعة بأحواشها المعقدة، ومبانيها الإضافية، مبعثرة هنا وهناك بين النخيل أو على مساحات الرمال الواسعة الجرداء. لم تكن فى القرية شوارع أو ممرات ملتوية كما هو الحال فى كل من جالو وعجيلة. كان هناك جامع صغير عديم القيمة، وبناية مربعة منخفضة مربعة الشكل، ولها صف من النوافذ، وزاوية صغيرة أنشأها سيدى المهدى العظيم، ولها قبة(*)، شبيهة بمعلف الحصان، ولها حجر عمودى عند كل طرف من طرفيها (كانت من قبل مئذنة للزاوية)، كل ذلك كان يشكل مجموعة واحدة فى طرف من أطراف هذه القرية. تسلقنا كثيرًا من تلك الكثبان الرملية قرمزية اللون، شبه المغطاة بشجيرات ريشيه رمادية اللون سبق أن التقيناها من قبل، وذلك حتى نتمكن من الحصول على مجال أفضل للصورة، لكن المنازل المبعثرة كانت على بعد مسافة كبيرة.

مررنا أثناء عودتنا على بنايه أو بنايتين لها روقان من الطوب اللّبن، وكنا نرى عقديهما فوق جدران فنائيهما. خرجت بعض النساء وجئن يتكلمن معى بأصوات عالية وواضحة. كانت تلك النساء غير محجبات، وممشوقات القوام،

(*) استخدمت المؤلفة هنا الكلمة العربية "قبة" qubba

ويرتدين ثيابا لونها أحمر غامق، وغير مُحزَّمات ولذلك كن يشكِّلن مجموعة جذابة من تحت شجرة شوكية كبيرة بين جدران رملية عالية. كان كل ما يسألن عنه هو الدواء، وعندما عدت إلى خيمتى التى ملأها الذباب كانت هناك مجموعة قد بدأت بصورة متدرجة حول الخيمة وكل واحدة منهن تشكو من ألم مختلف. دخلت أكبر واحدة منهن إلى خيمتى وجلست وهى قلقة على سريرى الذى يُفْرد وينطوى، ثم خرجت شاكرة بعد ذلك عائدة إلى وضعها ومكانها المعتاد على الرمل. كان علاجى لتلك النساء بسيطًا، يتكون أصلا من حمض البوريك والكنين، لكن النساء اللاتى حصلن على ذلك الدواء ربطن هذه الأقراص ربطًا محكمًا على أطراف شيلانهن barracans، ورحلن وهن يدعون لى بالبركة.

وفجأة حجب وميض الرؤية عن المنطقة الواقعة خلف باب خيمتى. كان أصغر الحمير رمادية اللون، والذى كان شبه مغطى بحصير كبير من اللونين الأحمر والأزرق، والذى كان لا يزال مغطى ومحملاً بمنسوجات شكل متهدل صغير يرتدى ثوبا قرمزيًا لم أره فى حياتى، ويقوده صبى صغير يرتدى قميصًا أبيضَ مهلهلاً، فى حين راح صبى آخر يضرب ذلك الحمار من الخلف. وأعلن أحد الفرَّاجين أن "والدة الشيخ موسى جاءت لزيارتنا". انفكت تلك الثنيات ودخلت خيمتنا وتكومت على شكل كومة حمراء على الرمل، ومن بين هذه الثنيات ظهرت كبرى النساء سنًا من بين النساء العربيات اللاتى رأيتهن، وأضعفهن بنيانًا. كانت المرأة منحنية الظهر ومتجعدة الوجه بشكل لا يصدق، وبلا أسنان، وشبه عمياء، ومع ذلك كان حديثها شيقًا عن السَّادة، وأهدتنى فى نهاية المطاف مسبحة إسلاميه مباركة من سيدى المهدى.

ونظرًا لشدة الحرارة فقد سعدت جدًا عندما وصلت الزيارة إلى نهايتها، وتمنيت لو أننا أجّلنا رحيلنا إلى وقت العصر بدلاً من صبيحة اليوم التالى. اقترح حسانين علينا التجوال فى الناحية الأخرى من الواحة حيث توجد قرية صغيرة

أخرى، هوارى. استعرنا حمارًا من شيخ الزاوية، الذى أبلغننا أنه يخشى قتلنا قبل خروجنا من البلاد، ونادى مرشدًا ليدلنا على الطريق. فى هذه اللحظة كان هناك حوالى ستة من الزَّوايين جالسين فى زريبتنا، لكن أحدًا لم يتحرك. وهنا بدأت أتفهم المعاناة التى لقيها رولفز عندما بدأت أطيل النظر إلى وجوه هؤلاء العرب القاسية المصابة بالأنيميا. قد يكونون شجعانًا، لكنهم ليست لهم نظرات المحارب البدوى شديد البأس صحيح أن لهم عيونًا صغيرة ماكرة زائغة وكثيرة الحركة، ووجوهًا طويلة وضيعة، وشفاها رقيقه، وتجهمًا يبعث على الضيق بين الحاجبين. ويُعْرف الزَّاويون بأنهم قبيلة سيئة وأنه لا يمكن الوثوق بهم مطلقًا وإلى أبعد الحدود. وعندما قدمنا لهم رشوة من الشاى والسكر نهض واحد منهم لمرافقتنا، لكن لم يوافق أحد من الجنود على المجيء معنا. اختبأ كل من موراجا وعبد الرحيم فى خيمتهما وقال يوسف إنه مصاب بالعرج. وكنا على وشك الانصراف وحدنا عندما هب محمد واقفًا وأمسك ببندقيته. قال متعجبًا "إنهما نسران! ولن أكون أقل منهما شجاعة." بعد أن سرنا حوالى مائة باردة سمعنا وقع خطوات خلفنا على الرمل، ورأينا فراجًا الكبير، الذى أصبح بمثابة عبدنا الشخصى، ومعه العريف ينضمان إلينا فى هدوء.

لكن تقدمنا سرعان ما وصل إلى ما يشبه التوقف بفعل مجموعة من الشبان والصبية الذين اندفعوا يجرون أمامنا بطريقة وحشية. راحوا يصيحون قائلين: "لا تمشوا! لا تمشوا!" وراحوا يشيرون إلى مجموعة كبيرة من العرب الذين يرتدون ملابس بيضاء ويجرون فى اتجاهنا. عدنا للقاء هؤلاء الرجال. قال محمد : "بالله عليك لا تذهبى! هنا أمر سيئ ينتظرنا. أنا لا أعرف كنهه. هيا بنا نعد إلى المخيم!" لكنه اضطر فى النهاية أن يتبعنى. كان العرب جميعهم مسلحين وكانوا جميعًا يبدو عليهم الغضب الشديد، لأنهم كانوا يتحدثون بصوت عال. اعتدت حمل مسدساتى

دومًا تحت حزامى. وأفلحت فى إخراج تلك المسدسات لتكون تحت ثنيات شـالى، ورحت أتعجب وأنا فى منتهى السعادة من عدد الطلقات التى يمكن لـى الحـصول عليها. تظاهر العريف بأنه منشغل بالحمار، لكن وصل إلينا فرَّاجنًا وكان شـاهرًا بندقيته. أحاط بنا الزّاويون، مجموعة من البشر الهمجيين الذين كـانوا يهـددوننا. صاحوا قائلين: "لن تتحركوا من هنا إلا بعد وصول أوامر مـن الجـوف بـذلك!" وفجأة راح حسانين يعرب عن خاطر من خواطره " لقد سبق أن حَـذَّرونا مـنكم. ونحن نعرف ذلك جيدًا. لن نسمح للغرباء بالمجيء إلى بلادنا. إنهم يموتـون هنـا على وجه السرعة! " قال حسانين معبرًا عن غضبه: "أتريدون إثبات أنكم شـجعان وأنكم ستدافعون عن بلادكم حتى الرمق الأخير، لكن يتعين عليكم أن تتصرفوا هذا التصرف مع الغرباء، وليس مع ضيوف السيد السنوسى "وقعوا فى حيـرة كـانوا ينتظرون منا أن يتملكنا الخوف والفزع. وبدلاً من ذلك زاد غضبنا على غـضبهم. وأنت إذا ما استطعت جعل العربى يتكلم فإنه غالبًا ما ينسى إشعال النار.

بينما كنا نتجادل بصوت عال، كنا نتجه صوب المخيم، الـذى انعقـد فيـه "مجلس" كبير بعد وصولنا إليه، وجلس أفراد ذلك المجلس خارج خيمتنـا. انـضم بعض التيبيين إلى الزّاويين. كان التيبيون شديدى السواد مثل العبيـد الـسودانيين، لكن وجوههم كانت تدل على الذكاء والفطنة. السواد الأعظم من التيبيين لا يتكلمون العربية، لكن رئيسهم شرح لهم الموقف واندهشنا عندما وجدناهم ينـضمون إلـى جانبنا. قالوا: نحن نرحب "بضيوف السيد السنوسى فى بلادنا." وهنـا زاد غـضب الزَّاويين بزعامة بوبدر، أكثر من ذى قبل. تساءلوا: "لماذا لا يـأتى مراسـل مـن الجوف؟" "لقد غادر سيدى عبد الله ليلة أمـس ووعـد بإرسـال بعـض الأخبـار والمعلومات. وقد أبلغناه بأنهم يجب ألاَّ تغادروا المكان إلا بعد وصول إذن بذلك".

رحنا ننظر إلى بعضنا البعض بطريقة بلهاء. لم نكن قد طلبنا من المرشد إرسال مراسل، فضلاً عن أنه لم ينطق لنا بكلمة واحدة حول هذا الأمر، أو حتى عن تهديد أفراد قبيلته لنا. قلت وأنا ممتعضة "إنها مؤامرة". وغمغم حسانين قائلاً: "نعم، إنها مؤامرة، لكن أين- ولماذا؟" وينحنى محمد إلى الأمام إشارة إلى الانتصار. لمعت عيناه، وكان صوته قويًا. وأنا أعتقد أن محمدًا فى هذه اللحظة استعاد احترامه لنفسه واستعدنا نحن أيضًا حليفنا. صاح محمد قائلاً: "أنا أفهم ذلك كله. والله! لن يرتاح بالى إلا بعد تصفية حسابى مع عبد الله الذى خذلنا وباعنا. وأنتم يا أهل هوارى، أغبياء، وقد أهنتم ضيوف السيد سنوسى لأنكم تشبهون المرأة الحمقاء السوقية التى تشترى ذلك الذى يعرض عليها فى المرة الأولى!" وهمس فى أذن أحمد حسانين باللغة العربية وعلى نحو سريع لم أتمكن معه من فهم ذلك الذى قاله له. صاح الآخر بصوت أعلى من الأصوات الغاضبة "بالله عليكم، اسمعوا وصدقوا، لأنى أقول الحقيقة!" وهنا توقف الشيخ زرُّوق، شيخ الهوايج عن التعجب من أنه إذا لم يجئ مراسلٌ من الجوف فى الصباح فإن الزاويين سيعرفون أننا خدعناهم وإن ذلك سيكون أمرًا صعبًا علينا. واصل حسانين كلامه "أنتم هنا لا تحصلون على الأخبار، وتصدقون أول من يجىء إليكم". "لقد قال لكم عبد الله إنكم يجب أن تثبتوا للغرباء أنكم شجعان وأقوياء مخافة أن يظن الناس أن بوسعهم دخول بلادكم بسهولة ويسر. أليس هذا صحيحًا؟" أقروا بصدق الكلام على مضض، بل إن البعض منهم كان يفتعل الابتسام، وهو يقول: إن ذلك هو واقع الحال. وهنا خطر على بالهم الفكرة التى غيرت ذلك التلاعب الذى يرمى إلى إحداث انطباع لدى الغرباء عن ذلك الواقع المرير. "أن عبد الله سيرسل مراسلاً إذا ما وافق الأخوان على رسالتكم وعلى استقبالهم لكم. المسافة قصيرة لكن أحدًا لم يصل بعد".

اختفت وتلاشت الابتسامات بعد هذه الكلمات وازدادت الوجوه الشاحبة القاسية مكرًا على مكرها وشكًا على شكها. تجمع التيبيون من خلفنا. قد تكون معركة جيدة، وهنا خطر ببالي وتساءلت فيما بيني وبين نفسي عما إذا كانت البنادق الزّاوية من النوع الحديث أم لا. القتال عملية مثيرة دومًا وليست شبيهةً بذلك اليوم المخيف القاسي من العطش الذى عجز فيه الإنسان عن مقاتله الطبيعة! قال حسانين منتصرًا "لم يأت مراسل بالفعل. ولن يأتي أحد مطلقًا. لقد خُدعتُم، وخُدعنا نحن أيضًا معكم. كنتم ستمنعوننا غدًا من السفر. وكانت ستحدث معركة. أنتم شجعان ولكن عبيد السيد السنوسى شجعان أيضًا. وربما يُقْتَلُ ضيوفه ويُنْقذُ عبد الله. هل تعرفون سبب ذلك؟" وتلا ذلك سرد قصة المرشد الذى فقد صوابه وخسر سمعته فى ذات الوقت وهنا رحت أركز فجأة على مؤامرة عبد الله الصغيرة. إذا لم يعد أحد من القافلة إلى جدابيا، وإذا لم يظهر الغريبان، اللذان يعدان الشاهدين الرئيسيين عليه، فذلك يعنى نجاة عبد الله. لقد كان يعرف حق المعرفة أن أحدًا لن يستخدمه مرشدًا بعد الخطأ الذى ارتكبه فى تيسربو وانفضاح أمر ذلك الخطأ. هذا يعنى أن مستقبل عبد الله يعتمد على إغلاقنا لأفواهنا. هذا يعنى أيضًا أن أحسن فرص عبد الله تتهيأ له بين أهله وأقاربه من الزّاويين المتشككين، الذين لا يثقون دومًا بالغرباء، وهم متشددون ومحبون للحرب والقتال، ومع ذلك فإن القافلة لن يمكن الهجوم عليها طالما كان هو معها. ومن ثم اقترح عبد الله علينا تمهيد الطريق أمامنا فى تاج. وعندما وافقناه على ذلك، أصبح من السهل عليه إثارة كبرياء وشكوك الزّاويين فى هوارى. "اكشفوا عن شجاعتكم بعدم السماح لأولئك الغرباء المتشككين بعبور حدود أرضكم. إذا صدقت قصتهم ووافق شيوخ الجوف على استقبالهم، سوف أرسل لكم مراسلاً". لم تكن لديه نية مطلقًا فى إرسال أى أحد لينقذنا من العداء المتزايد فى هوارى، وقدّر أيضًا أنه فى غضون يوم أو يومين سوف يتعين علينا القيام بمحاولة الهرب وبالتالى يجرى فتح النار علينا. وهنا سوف

يضطر السود إلى الدفاع عنا، وبذلك تُدفن وتختفى قصه فشل عبد الله، مع القتلى إثر انتهاء المجزرة العامة.

بعد أن كشف محمد تلك المؤامرة، ارتفع حسانين إلى مستوى المناسبة. وراحت كلماته تتدفق حاملة معها بلاغة الذهن البدوى، وعندما غاصت الأذهان في نهر الكلام أخرج محمد رسالة سيدى إدريس. "هل تنتظرون أوامر من الجوف في الوقت الذى أرسلنا فيه سيدكم إلى هنا؟ هل هذه هى اللعنة والإهانة التى توجهونها إليه فى الوقت الذى يثق فيه بكم، فى مساعدتكم لضيوفه؟ " تلت ذلك فترة من الصمت غير المريح. لم تجرؤ الأعين الزائغة على النظر إلى عيوننا. وهنا راح الشيخ سعد، فقيه البلدة – الذى كان يلعب دور المتحدث الرسمى ضدنا – يتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة. وهنا قام منصور بوبدر بطلب شاه على وجه السرعة. وبدأت الجماعة فى الانقسام إلى ثنائيات وثلاثيات. وبدأت جماعة تتشكل لصالحنا. وهنا تعجب موسى غاربيل، "ما يقوله هو الحق. لقد أخطانا". تواصل الجدل بعد ذلك مدة ساعة على الأقل، على الجوانب كلها، لكننا تجاهلنا كل ذلك الجدل ورحنا نرتب فى خيمتنا فى صمت مع محمد انتقاما لما جرى لنا. سعدت جدًا عندما أمسك محمد بناصية الأمور من جديد. "والله" كررها خمس مرات متتالية. "لن أرى زوجتى مطلقًا مرة ثانية إذا لم يلق عبد الله جزاءه من السيد السنوسى!"

بعد أن انتهينا من إسقاط مؤامرة المرشد، استدعانا يوسف وهو يبتسم. قال يوسف لأحمد حسانين: " كلماتك نارية. الناس يحسون أنهم ارتكبوا حماقة وهم نادمون على ما فعلوا. "أحسست أن ذلك كان انتصارًا لأحمد حسانين، وعليه تركته يتلقى اعتذار الزّوايين فى شىء من البرود، لكن هذه الاعتذارات لم ترضهم. أصر موسى غاربيل هو وبوبدر على توديعى فى الصباح. قلت لهما فى برود "يسعدنى أن ارتاح فى منزل سيدى إدريس. لقد قال لى إنها ستكون رحلة سهلة، لكنى أعتقد أنه كان مخطئا فى ذلك". لاذ الزّاويون بالصمت.

أبلغني يوسف بعد ذلك أن عبد الله أصَرّ على أن القافلة يتحتم عليها أن تتبعه إلى الجوف في اليوم التالي دونما انتظار لوصول أية أخبار من الكُفرة. وفي سبيل التأكيد، كان قد أبلغ أهل هواري أننا كنا نبحث عن الذهب في الجبال، وأننا سوف نعود ومعنا جيش لغزو الأرض وأخذ الكنز الذي تحتوي عليه!

عندما دخل الظلام جاءت البنتان العبدتان زينب وهوا إلى خيمتي. قالتا: "ظننا أننا سنموت جميعًا اليوم، لكننا سعداء الآن. الناس هنا ليسوا طيبين، لكننا أُنقذنا!" وجاء انتصارنا الأكبر، في اللحظة التي جاء إلينا فيها وفد من الزُوايين، ليوقظنا ليسألنا ما إذا كنا لا نمانع في الذهاب إلى هواويري ونحن في طريقنا إلى الكفرة في الغد. لم يجرؤ الوفد على الاقتراب من الخيمة، وآثروا إرسال يوسف حاملاً إلينا غصن الزيتون المقدم منهم.

الفصل العاشر

ولائم المكان المقدس

من هنا، يكون اليوم الثامن عشر من شهر يناير، قد شهد النهايـــة الـــسعيدة لرحلتنا الطويلة، بدلاً من أن يشهدنا أسرى وسجناء، ننتظر ظهور حمار أبيض عند الأفق يركبه مراسل غاضب، ونحن جلوس وسط دوامة من شراشيب الطـــرابيش، والبنادق والأرجل الطويلة التى تنتهى بأحذية ناصعة الصفرة، فـــى الوقـــت الـــذى تتمايل فيه شراشيب الطرابيش تمايلاً شرسًا فى تموجات مختلفة. حدث ذلـــك كلـــه لأن عبد الله تفوق على نفسه بالحيلة والدهاء. ولما كان عبد الله يستهدف تـــدميرنا تدميرًا كاملاً، فقد ذهب إلى القائمقام فى الجوف وحذره من أننا كنا مسيحيين مـــن إيطاليا متنكرين كأننا مسلمون وأننا كنا نقوم بجمع كل المعلومات عن البلاد حتـــى نتمكن من غزوها فيما بعد. رد عليه ذلك المسئول قائلاً: "هـــذا مـــستحيل. إنهـــم يحملون رسائل من السَّادة." قال عبد الله "ماذا تعنى هذه الكتابة؟" "أقول لك، إنهمـــا خدعا السادة. وهما منذ أن بدءا التحرك أخذا فى السر، يرسمان بعض الخـــرائط. أنهم يركِّبون ساعات على أقدام الإبل، والسيدة(*) تلبس ساعة فى يدها طول الوقت [يقصد بوصلتى]. وهما يعلقان شيئًا غريبًا على خيمتيهما- سلاحًا يقتلونا به إذا مـــا اقتربنا من الخيمة [يقصد البارومتر(**) ومعهما نظارات تكبر البعيد عند النظر من خلالها." رسم عبد الله هذه الصور الآثمة لمخططاتنا الأمر الـــذى جعـــل القائمقـــام يصمم على حماية سادته المحبوبين بأى ثمن. من النتائج التى يمكن أن تترتب على الخطأ الذى وقعوا فيه. قال القائمقام بطريقة حاسمة "يجب ألا يغـــادروا هـــوارى. ويجب أن يرحلوا من هنا خلال أيام قلائل ويعودوا من حيث جاءوا. وبذلك يمكـــن

(*) استعملت المؤلفة كلمة 'ست' المصرية Sitt. (المترجم)

(**) البارومتر: جهاز قياس الضغط الجوى لتحديد الارتفاعات. (المترجم)

إنقاذ شرف وكرامة سادتنا." وافق عبد الله على ذلك على الفور عن رضا وطيب خاطر، ظنًا منه أن ما تبقى لنا خلال الأيام القلائل القادمة هو العودة من حيث جئنا! وطاشت الضربة. "يتعين عليك الآن أن تحمل أمرًا إلى كل من يوسف ومحمد قميش." وهنا راح المرشد يحتج، ويدافع ويجادل. لكن القائمقام كان حازمًا في كلامه. كان الوقت عصرًا، وكان هناك متسع من الوقت، يُمكن من الوصول إلى هوارى قبل دخول الليل. وهنا قام المسئول النشط بالتعجيل بخروج عبد الله من البلدة، وهنا أدرك المتآمر أن خطته الوضيعة التى كانت تهدف إلى تدميرنا بدأ يتهددها الخطر.

كان عبد الله يعلم أن محمدًا إنسان ذكى، وكان يعرف أيضًا أن يوسف معروف لدى كثير من الناس فى الكُفاره. وكان على علم أيضًا بأن الاثنين مخلصان ومواليان. ومن ثم إذا لم نُقتَل على وجه السرعة، خلال عملية التحرى تلك، فإن خطته الخائنة سينكشف أمرها. كان عبد الله يهدف من وراء ذلك كله إلى عدم دعوتنا إلى دخول الجوف على الفور. لم تكن لدى عبد الله حتى ولو مجرد الرغبة فى العودة إلينا حاملاً إلينا أمر احتجازنا، لأنه على الرغم من أن ذلك الأمر قد يثير بعض القلق لفترة وجيزة، فإن (عبد الله) سوف يعانى الأمرين بعد ذلك. ومن هنا أمضى عبد الله الليل فى الجبال ولم يصل إلى مخيمنا إلا عند الساعة التاسعة صباحًا، أملاً فى أن نكون قد دخلنا فى شجار وصراع مع الزّاويين، نظرًا لأنه كان قد أصدر تعليمات ليوسف بتحرك القافلة عند طلوع الفجر.

لا أدرى من منا كان مذهولاً أكثر من الآخر، عبد الله أم أنا! فى تلك اللحظة لم أكن أعلم شيئًا عمّا فعله فى الكُفاره. كل ما كنت أعرفه هو أننا قفزنا إلى استنتاجات خاطئة فى اليوم السابق، وعندما راح يغمغم بعينين كسيرتين قلقتين، بأننا لن نستطيع مغادرة هوارى، نظرًا لأنهم كانوا يجهزون لنا منزلاً فى الجوف، وأن تجهيز هذا المنزل سوف يستغرق أيامًا عدة، لكن العبدتين يتعين عليهما مواصلة

سيرهما على الفور، هنا فقط أحسست أن هناك خطأ ما. حاول عبد الله، تجنب إطلاع يوسف ومحمد على المذكرة في وجودي، لكني لم أمكنه من ذلك، وعليه فإن الورقة التي يفترض أن تكون خاصة، جرت قراءتها أمامي. كانت الورقة تقول: "يجب أن تفهموا أنكم لن تتحركوا من هواري إلا بعد تلقي أوامر أخرى بذلك." غمغم عبد الله بكلام غير مترابط عن ذهابه إلى القرية، لكن هذه الملاحظة جعلتني أعجل بالتصرف. حيث إنه إذا ما عرف الزّاويون بخبر تلك الرسالة فسنصبح في عداد الأسرى. وحتم ذلك علينا إرسال شخص موثوق به إلى تاج لكي يستطلع ما الذي حدث قبل أن يقوم رجال القبائل المتشككون بوضع حراسة حول مخيمنا. كان محمد هو الشخص الوحيد الذي لم تعجبه الفكرة، لأنه لم يكن في حوزته الأمر الكتابي الصادر عن وكيل السيد السنوسي، والذي يقضي بعدم تحركه؟ ومع ذلك رضي محمد عن قناعة. أعتقد أن الأميال الطويلة التي قطعناها ومشيناها جنبًا إلى جنب، عبر رمال ساخنة، وتحت سماء أكثر سخونة، وأعتقد أيضًا أن الماء الثمين الذي تقاسمناه، والنكات التي أطلقناها على قدمي المتعبين، والليالي الباردة الأولى التي تقاسمنا خلالها البطاطين والمعاطف، إضافة إلى ذلك اليوم الذي مزقنا فيه سُرُج الأمتعة ووزعنا قشها على حيواناتنا الجائعة، على أمل تزويدها بوجبة غذائية أخرى، أعتقد أن ذلك كله آتى بثماره. أقسم عبد الله: "والله! سوف أكتشف الحقيقة." كاد أن يفقد عبد الله سيطرته على نفسه. ودخل مندفعًا إلى الخيمة ومعه عبد الرحيم الجبان، في الوقت الذي كان أحمد حسانين يسطر فيه خطابًا رقيقًا إلى القائمقام. إنسابت من بين شفتيه احتجاجات الغضب. هدد بإحضار واستدعاء الزّاويين. تأتأ القومندان الصغير في كلامه. وتراخت عزيمة محمد.

رأيت في تلك اللحظة حلمًا عن الكثير من الأيام شديدة الحرارة والليالي المرهقة وهي تنقضي مثل سراب وقت الظهيرة. هذا الهدف الذي ناضلت وعملت من أجله، والذي درست اللغة العربية من أجله، خلال أشهر الصيف الجميلة في

لندن، والذى اخترت برقة هدفًا له، والذى انكفأت من أجله على خرائط المسارات والخرائط العادية بدءًا من الخرطوم إلى طرابلس، والذى جعلنى أغوص خلال المجلدات الضخمة بدءًا من بطليموس إلى بهم Behm ودوفيرير Duveyrier، هذا الهدف وجدته يهتز فى ذهن هذا الرجل. كل عصب وكل عضلة كانت لا تزال تعانى وتتألم من هذه الرحلة الشاقة، وهو يتحدث عن الجهد الفائق المضنى الذى بذلناه. وهذا كله لابد أن يكون أثقل وزنًا من مؤامرة عبد الله الدنيئة. وثبت ذلك بالفعل! لم يكن هناك بشكل أو آخر تواجد للمرشد أسمر الوجه أو القومندان المتذلل. طلب حسانين إحضار حمار لمراسلنا ووضع الرسالة بارعة الصياغة فى جيب سترته. وبعد ذلك أصبحت أنا ومحمد وجهًا لوجه، وأطلت النظر إلى عينيه اللتين تشبهان عيون الصبية الصغار، ورحت أشد على يديه، وأنا أبثه كلمات قليلة تعبر عن ثقتى التامة به، وعرفت على الفور أنه لن يخذلنا!

بعد ما حدث لم نعد نهتم بمسألة عدم مغادرتنا للمخيم، ولا بوجه عبد الله العاصف، ولا باختباء الجنود فى خيامهم باستثناء فرّاج المخلص، الذى كان يقدم لى كل ساعة هدايا صغيرة من باب التعاطف معى، تمثلت فى الجزر الأبيض، ونوعٍ من العشب الجاف الذى يصنع منه نوع من السبانخ السائلة! كان علىَّ التظاهر بالمرض والرقود فى فراشى طوال اليوم خلف ستارة الحريم وذلك من باب الهرب من الزّاويين الذين لا يوثق بهم، الذين كانوا يتلصصون على الخيمة كل دقيقتين أو ثلاث للتأكد من أننا لم نهرب. كان الوقت محرجًا للغاية، والسبب فى ذلك هو انعقاد المجالس الواحد بعد الآخر خارج المخيم، لكننا لم نكن نُدْعى لحضور هذه المجالس إضافة إلى أن أصدقاءنا التيبيين لم يكونوا موجودين، وذلك على الرغم من دخول فتاة برونزية اللون، ذات مرة إلى خيمتى الموضوعة تحت الحراسة، وهى تبتسم، وفى أنفها حبة من حبوب الفول السودانى مغروسة فى فتحة فى أنفها، وقدمت لى أربع بيضات وهى تردد فى إشفاق كبير عبارة "كيف حالك".

جاء محمد عند غروب الشمس، وهو يبتسم منتصرًا، ومقطوع الأنفاس، بعد أن قطع مسافة تزيد على عشرين كيلو مترًا على ظهر حمار إلى بلدة تاج، فى بلاد غريبة لم يسبق له أن رآها من قبل، وخالية من أى مدق من المدقات وأية علامة من العلامات الإرشادية، وبعد أن تجادل عن حق مع القائمقام من أجله المحافظة على نفوذ وسلطان امرأته، وبذلك أقنع القائمقام بحسن نوايانا، وعرف أيضًا القصة الكاملة لخيانة عبد الله، ثم ركب حماره الأبيض بعد ذلك وعاد لإنقاذنا متكبدًا مشقة السفر فى تلك الرمال الوعرة- فعل محمد ذلك كله فى ظرف ثمانى ساعات. **والذى لا شك فيه أن محمد أكد فى ذلك اليوم ثقتى الكبيرة بالعرق العربى ومستقبل هذا العرق.** جاء محمد ومعه رسالة ترحب بنا ترحيبًا شديدًا. "بأصحاب السعادة ضيوف السادة الموقرين"، وتطلب الرسالة منهم التوجه إلى الكفرة فى صبيحة اليوم التالى، وأن يشرفوا البلدة ويباركوها بحضورهم إليها.

العقلية الليبية متغيرة ومتقلبة شأنها شأن البارومتر. فى تلك الليلة، تجمع حولنا أولئك الرجال، الذين كانوا يودون قتلنا قبل ساعات، وراحوا يحكون لنا القصص التى سبقت مجيئنا. تباينت هذه القصص تباينًا كبيرًا، وعلى الرغم من أن القسم الأكبر من هذه القصص كانت تركز على أننا طلائع لجيش قادم لغزو البلاد، فإن واحدة من هذه القصص كانت تزعم أننا أبناء عمومة رولفز وأننا جئنا نتحرى المعاملة التى لقيها ذلك الرجل. قال زرُّوق العجوز: "أنا أتذكر هذا النصرانى جيدًا. لقد جاء إلى هنا بصحبة قافلة زاويًه Zouia". سألناه "كم كان عدد النصارى الآخرين الذين كانوا معه؟" قلنا ذلك وفى ذهننا الحكاية التى رويت لنا فى بُسيمه، التى مفادها، أن الرجل أثناء عودته ربما كان وحيدًا." لم يكن معه أحد. لقد جاء وحيدًا ومعه حصانه الكبير وطباخ يدعى على Ali". كان الشيخ دقيقًا فى هذه الرواية. لقد أبلغنا أن "مصطفى بك" ذهب إلى هواويرى من باب تحاشى القرية

الأكبر، ثم قام بعد ذلك بالاتجاه صوب شرقى كثبان الكفرة الرملية وتلالها الرملية أيضًا، وأنه خيّم خارج بويما Boema حيث جرى أسره هناك.

طلع علينا يوم الرابع عشر من شهر يناير بأبشع صور المناخ الصحراوى، كانت الشمس بلا أدنى شك حارة، لكن ريحًا صرصرًا هبت علينا من الشرق، مثيرة سحبًا من الرمل جعلت تقدمنا فى مسيرتنا أمرًا صعبًا. ومع ذلك أرسلنا القافلة إلى الكفرة رأسًا، فى حين قصدنا نحن هواويرى. سمح لنا الزّاويون بالذهاب إلى حيث نشاء، لكنهم نبهونا إلى أننا ربما نرهق أنفسنا بلا داع، نظرًا لوجود ثلاثة منازل فقط فى الطرف البعيد من الواحة، من منطلق أن النخيل الذى فى هذه المنطقة مملوك لأناس فى كل من الجوف وبويما Boema. يزاد على ذلك، أننا أحسسنا أنه يتعين علينا زيارة المكان، ليكون ذلك بمثابة درس للجنود، الذين رفضوا مرافقتنا فى اليوم السابق. وبعد أن لففت نفسى حتى عينىَّ فى أسمك البطاطين، وفى الجرد(*)، وبعد أن فتحت رجلى على ظهر الحمار العارى خلال دقيقتين، سرنا خلال الريح الشرقية لنصل إلى نهاية واحة هوارى الضيقة.

ثبت أن تلك القرية التى أُسرنا فيها كانت كبيرة على عكس ما كنا نتوقع، فقد كان هناك مزيد من المنازل المبعثرة على طول طريق النخيل. وعندما سألنا عن عدد سكان الواحة، كانت الإجابة عبارة عن كلمة واحدة تتعلق بالحجم، والطول، والكِبر، والعظمة، والقوة، والوفرة، والتعدد ألخ، ("واجد(**)"- لكنى أتصور أن عدد السكان فى هذه الواحة لا يزيد بحال من الأحوال عن مائتى نسمة أو ما يزيد قليلاً على ذلك. كانت هناك فجوة بين نخيل هوارى ونخيل التابع الصغير الذى يتبعها، الذى لا تزيد مساحته على عدد يعد على أصابع اليد الواحدة من الكيلو مترات،

(*) الجرد: بكسر الجيم وتسكين الراء: كلمة ليبية تعنى "الزى الوطنى" وهو عبارة عن شريحة طويلة من الصوف أو الحرير. (المترجم)

(**) واجد: كلمة بدوية تعنى "كثير". (المترجم)



TAJ, ABOVE THE VALLEY.

قرية تاج : أعلى الوادى



TAJ, FROM THE VALLEY.

منظرتاج من الوادى

والذى كانت منازله الثلاثة محاطة بقلة قليلة من أشجار التين الضخمة. كانت ثمار التين كلها صغيرة الحجم وغير ناضجة، لكن الزّواوى شرس الملامـــح، صـــاحب الشعر الكستنائى، والعينين الزرقاوين، وصاحب الجبهـــة المنخفـــضة، والجمجمـــة الضيقة، الذى كان يرافقنا أسقط بعض ثمار التين أرجوانية اللون من أعالى الشجر. كان طعم التين طيبًا جدًّا، وأراحنا بعض الشيء من الريح المخيفة، التـــى جمـــدتنا ونحن فى منتصف النهار،

أثناء سيرنا على الغرود(*) الحجرية التى تقع على الطريق إلى الكُفرة.

تواصل الرمل الأحمر، وبدأ يختلط أكثر وأكثـــر بمنـــاطق مـــن الأحجـــار السوداء، فى الوقت الذى بدأت فيه سلاسل صـــخرية ترتفـــع فيمـــا بـــين الـــتلال المنخفضة السوداء أو الرُّبى الكبيرة، التى بدأت أحجامها تتزايد بعد هـــوارى، فـــى الاختفاء عن أنظارنا بجوار غرودها أرجوانية اللون. كنا كلمـــا صـــعدنا سلـــسلة صخرية باهتة نرى أمامنا تلالاً سوداء نقول: "هذه هى التلال الأخيرة- وخلف هذه التلال يوجد سر الصحراء الكبرى". خاب أملنا عشرات المرات عندما كانت البقاع الحجرية والصخرية تحجب رؤيتنا. أخيرًا وعندما بدأنا ننظر من فوق ربوة عاليـــة لم نر شيئًا سوى روابى وتلال منخفضة، كانت فيها جلاميد الصخر المتكسر تطغى على الرمال الحمراء، بدأنا نتعجب ما إذا كانت الكفرة نكتة كبيـــرة اســـتطاع بهـــا الذهن الأفريقى الانتقام من الفضول الأوروبى. كانت الخرائط كلها تظهـــر واحـــة الكفرة على شكل كتلة صلبة منبسطة خضراء اللون، من خلف قارة هوارى، وبذلك نكون قد قطعنا بالفعل حوالى ٨٥ كيلو مترًا فيما بعد تلك القمة الصخرية الكبيـــرة، وأصبحنا نرى حوالى نصف هذه المسافة أمامنا وليس فيها أى أثر من آثار النخيل. قلت: "انظروا! هذا هو الرمل بدأ يظهر من جديد عند الأفق. الرمل أكثـــر شـــحوبًا

(*) "الغرود" واحده "غرد" بكسر الغين، وهو الكثيب الرملى الحجرى، وهى أصلا كلمة عامية ليبية. (المترجم)

فى هذه المرة وهناك أيضًا المزيد من التلال." رد على رفيقى ردًا حاسمًا "إن صح وكانت الكفرة بعد هذا الرمل وتلك التلال، فسوف أتوقف هنا وأرسل إلـــى الـــوطن طلبًا لطائرة."

غطينا وجوهنا بعد ذلك فى جيرداتنا، ورحنا نواصل سيرنا على غير هدى، إلى أن أعطتنا الصحراء سرها فجأة، وعندما رأينا منظرًا من أعجب المناظر فـــى العالم ينتشر أمام أقدامنا، حاولنا إطالة النظر إلى ذلك المنظر، ورحنـــا بعـــد ذلـــك نفرك أعيننا للتأكد من أننا لسنا نائمين ورحنا نصف أنفسنا بالغباء، لأننا لم نخمـــن تفسير هذا الغموض على أنه– وادٍ من الوديان!

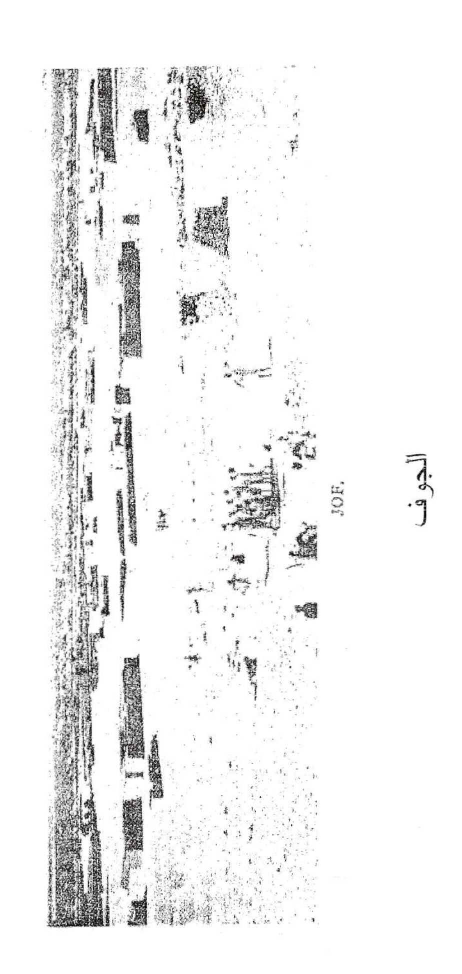
هذا الأمر هو الذى يجعل المرء يكاد يسقط على حافة الـــصخرة الـــسوداء الأخيرة نازلاً إلى رمل الواحة الناعم شاحب اللون قبل أن يدرك وجود مثـــل هـــذا الرمل. يقولون: إن التوقع أفضل من الإدراك. ويقولون أيضًا: إن النجـــاح عـــديم الطعم، وإن القتال والصراع هما اللذان يخلقان الإثارة، لكنى لا أحس أى نوع مـــن الخجل عندما أعترف بالإثارة عندما انكشف أمامى عالم كامل جديد. ففى الناحيـــة الشرقية حيث تمتد، المنحدرات الصخرية الشاهقة، نجد قرية تاج المقدسة تجثم فـــى مواجهة السماء، مرتفعة عن الواحة التى تحميها. ونجد أيضًا كتلة الزاوية الضخمة ترتفع عن مجموعة المنازل المحصنة، الصلبة، مربعة الشكل، داكنة اللون والمبنية كلها من الطوب الحجرى أسود اللون والملاط أحمر اللون المصنوع من الرمـــل. هذه الجدران المغلقة التى لا نهاية لها، لا تفشى سرًا من الأسرار، لكن فيمـــا بـــين الأحواش الموجودة هنا وهناك، ترتفع المداخل الثلاثية ذات العقود، فى مبنى مـــن المبانى الكبيرة، كما كانت هناك بقع بيضاء فهمنا منها أن هناك مراقبين يراقبـــون وصولنا إلى المكان.

هذا هو المكان المقدس عند السنوسيين، والذى توجد فيه منازل السادة وقبـــة سيدى المهدى المشرّفة، مع مجموعة من الأروقة الدراسية والتعليميـــة، ومـــسجد،

وكلها تبدو كما لو كانت قلاعًا مخيفة، ونظرًا لأن تاج ليس فيها عود من العشب أو بقعة خضراء حتى تقلل من رتابة الصخر الأسود والرمل الأحمر. أسفل تاج، يوجد وادٍ يمتد شرقًا وغربًا؛ هذا الوادى مسطح، ورماله الشاحبة التى يميل لونها إلى اللون القرمزى الخفيف، تقطعه كتله كبيرة من النخيل والحدائق الخضراء، وأشجار السنط، وأشجار التين، والأدغال ريشية الورق، التى تطوق بحيرة متموجة شديدة الزرقة- هذه البحيرة فى الناحية الغربية؛ وفى الناحية الشرقية خلف المظهر الحارس الموجود على الصخرة شديدة الانحدار، يوجد المزيد من النخيل المبعثر هنا وهناك؛ وتجيء بعد ذلك بحيرة واسعة أخرى مستديرة وشبيهة بالزمرد، فى حين تحيط بالوادى كله مجموعة من الغرود أو التلال المنخفضة بنفسجية اللون. تنتشر متبعثرة هنا وهناك، على صفحة الرمال التى اكتست حمرة بلون الورود، قرى تبدو جدرانها القوية الداكنة كما لو كانت محصنة ضد الأسلحة الضخمة أكثر منها ضد الأعين المتلصصة التى أصابها الإحباط نتيجة السرية الشديدة.

تقع بلدة الجوف فى المقدمة بجوار أكثر الحدائق خضرة، وفى الناحية الشرقية من البحيرة المالحة الأولى. أما زرُوق فتختبئ بين النخيل خلف الجوف. أما قرية طولاب Tolab هى وقرية توليليب Tolelib فتقعان على بعد مسافة كبيرة يصعب معها رؤيتهما؛ لأنهما تقعان عند الطرف الغربى من الواحة، التى يتوهج عنده اللونان الزمردى والمرجانى عند سفح التلال الغربية أرجوانية اللون. توجد قرية بوما فى الناحية الشرقية، على الطريق المؤدية إلى البحيرة الثانية، ومعها قرية بُويما الأصغر منها، والقريبة منها، ومن خلفهما يوجد أيضًا المزيد من النخيل، إلى أن تبدأ الرمال الشاحبة فى الارتفاع إلى القمم الصخرية الشاهقة قاتمة اللون التى تغلق الواحة السرية من ناحية الجنوب.

أطلنا النظر، وحدقنا فى المنظر، تخوفًا من أن يتلاشى كل هذا المنظر الجميل ويختفى من أمام أعيننا ويتركنا ضائعين فى تلك الأرض الجرداء القاتمة



JOF.

الجوف

الموجودة خلفنا. أحسسنا بعد ذلك بمدى توعكنا وإرهاقنا جميعًا، نظرًا لأن البئر الوحيدة فى هوارى - والتى سُمح لأتباعنا المشكوك فيهم والمراقبين، بالوصول إليها - كانت تحتوى على ماء سيئ جدًا فضلاً عن أننا جميعًا كنا نعانى من آلام فجائية غريبة. قال محمد: "والله! إنه جميل، وأنا حامد وشاكر، لكن كم أنا بحاجة إلى النوم!" ولف محمد نفسه بجرده وألقى بنفسه على أقرب رقعة من الرمل. وحذوت أنا حذوه أيضًا، إذ وضعت بطانية على رأسى، وراحت بقية الحاشية تفعل الشيء نفسه بجوارى، الأمر الذى جعل القافلة التى لحقت بنا، توقظ حوالى ستة أفراد من المستكشفين المرهقين قبل دخولنا الموقر والمحترم إلى المكان المقدس.

جاء عبد الله لاستقبالنا؛ لأنه كان قد أخذ كلاً من زينب وحواء فى الليلة السابقة، إلى منزل السيد رضا، نظرًا لأنه ليس من المناسب أن ينظر الناس إلى عبيد السيد رضا الشخصيين. حاول تجربة طلقته الأخيرة عندما رآنى راكبة جملاً. صاح بصوت عال على أن يسمعه التنابلة الآخرون. "أنزلى! أنزلى، يا خديجة! لا يمكنك الركوب فى هذه المكان المقدس!" كنا لا نزال على بعد حوالى نصف ميل من أقرب المنازل إلينا، ولذلك تجاهلناه، لكننا نزلنا عندما وصلنا الربوة الأخيرة، وقمت بتغطية وجهى كاملاً، ومشينا ومن خلفنا تسعة متخذين وضع القتال من خلفنا، متجهين صوب جماعة شديدة الاحترام جاءت لتحيتنا.

وإذا ما نحينا السادة والإخوان جانبا لمدة لحظة واحدة، وجدتنى أتحدث فقط مع تجار وموظفين حكوميين، وعدد من شيوخ الزوايا الصغيرة والبدو، يعد على أصابع اليد الواحدة. **نحن الآن نلتقى رجال السنوسى العظام، الإخوان المهمين، رجال الدولة النجباء، فضلاً عن الرؤساء الدينيين. رحبوا بنا ترحيبًا حارًا ووقورًا، ذلك الوقار البسيط غير المتكلف الذى لم يتعلمه الغرب من الشرق، نظرًا لأن المرتبة فى الوقار عند الغرب عبارة عن سلم يمكن أن يرتقيه الجميع، لكن الوقار فى الشرق أمر مختلف. هذا عالم غريب تمامًا، يصعب الوصول إليه**

بالمرة، من قبل أولئك الذين لا يرثونه، إلى حد أن الشيخ يمكن أن يعزم الجمَّال إلى الجلوس معه والتحدث إليه، وقد ينحنى أحد الإخوان من باب التأدب مع بائع الخبز. الناس يتكلمون عن ديمقراطية الشرق لأنه ليس هناك سوى فارق واحد- الحُرّ يُولد من العبد، هذا يعنى أن البنت السودانية السوداء قد تكون أُمًّا لمهدى من المهديين! هذا الشرق غير المعيب ليس فيه أى ظل من ظلال الديمقراطية. لا يوجد سوى الوراثة. الرجل هنا يحيا بعظمه والده ووالد والده (جده)، وهو عندما لا يتباهى بهما فإنه يتعلق بأهداب عظمة قبيلته.

فى وجود تلك الشخصيات الوقورة التى كانت ترتدى جُـرُدًا(*) ناصعة البياض ومن تحتها ألوان ثرية، برتقالية، وحمراء وأرجوانية، وكان كل واحد منهم يرتدى جبة فخمة مطرزة، دخلنا أول منزل من المنازل الكبيرة على حافة الصخرة. كان ذلك مسكن سيدى إدريس، وعليه كرَّمونا تكريمًا كبيرًا. كان هناك واحد من الأروقة المسقوفة التى شاهدناها من فوق التل وتطل على الحديقة، ممتدًّا بطول جانب من جوانب الحوش الرئيسى، وكان ذلك الرواق يفتح على غرفة طويلة أيضًا، سقفها مرتفع بما فيه الكفاية، ومفروشة بسجاد فاخر، وكانت جدران الغرفة المليسة بالجبس مزينة بنصوص من القرآن، وفجوات فى الجدار عبارة عن نوافذ غير مزججة محمية بشيش أخضر اللون، معلق فوقه كرات زجاجية كبيرة شبيهة بتلك الكرات التى نعلقها على شجرة عيد الميلاد. كان سقف الغرفة مغطى بقماش من الشيت المنقوش، وصف من المصابيح المبهرجة، ومعها المزيد من الكرات الخضراء والزرقاء التى تتدلى من السقف. وجدنا أنفسنا جالسين على شكل دائرة تواجه الباب المفتوح مع أربعة من الإخوان الموقرين. كان يجلس فى مكان الشرف السيد صالح البسكرى، وهو ابن عم سيدى العابد، وكيله ويشغل منصب

(*) واحده "جيرد" وهو عبارة عن غطاء للرأس والكتفين يصنع من الصوف أو الحرير، والكلمة ليبية عامية. (المترجم)



THE FOUR EKHWAN WHO RECEIVED US AT TAJ.

الاخوان الدربعة الذين استقبلونا فى تاج

قائمقام الكُفرة، وكان يرتدى ثوبًا شديد الاصفرار وفيه شيء من السواد، وكانت أكمامه الكبيرة مبطنة باللون الأرجوانى. كانت جبهته من النوع العريض الذى ينم عن الذكاء، وكان خداه الأحمران حمرة البرونز بهما غمازتان، وكان له شارب طويل أسود اللون من فوق شفتى فمه الحاسم، كما كانت له لحية صغيرة أيضًا. كانت عيناه مشغوفتين، وابتسامته صريحة، لكنه كان رجل دولة شرقيًا بمعنى الكلمة قليل الكلام، الأمر الذى كان يستر وراءه فكرًا كثيرًا.

كان السيد عبد الرحمن بوزينينة، جالسًا بجوار السيد صالح البسكرى؛ السيد عبد الرحمن بوزينينه رجل صغير الحجم، صاحب لحية عريضة رمادية داكنة، ووجهه يوحى بالتأمل، وحاجباه مستويان، وفتحتا أنفه متسقتان مع جسمه. ربما كان هذا الرجل فيلسوفًا أو مقدسًا! ويجيء محمد بو فضل بعد هذين الاثنين، وهو شقيق القائمقام الغائب، وهو شخص ضخم الجسم، يرتدى ملابس شاحبة له ما صُفْرة الزعفران، وكوفيه صفراء اللون ملفوفة مرات عدة حول رأسه على العمامة، بحيث يؤدى ذلك إلى إخفاء وجه الرجل الممتلئ المشرق، بابتسامته العريضة وعينيه المضحكتين، بين ثنيات كوفيته. كانت الشخصية الرابعة لرجل كبير السن، طويل وواهن، له لحية مدببة متدلية، وخدين غائرين، وبرشمان بلون ثيابه، لكن شيئًا من العِراَفة والتكهن كان يلمع فى عينيه العامرتين بالحيوية. هذا الرجل هو السيد عثمان القاضى، الذى يعرف عجائب سيدى المهدى؛ يزاد على ذلك أن العقيدة العاطفية التى تصنع الشهداء، كانت متجلية فى هذا الرجل. قرأ هذا المجلس الصغير رسائلنا مرات ومرات وأعربُوا فى هدوء وامتنان عن أقناعيم بتلك الرسائل. وهنا أثير موضوع احتجازنا فى هوارى، وصاحبته الابتسامات. قالوا: "أنتم لم تحسنوا اختيار مراسلكم. لو سمعتم ما قاله عبد الله لتعاطفتم مع ترددنا. نحن لم يعجبنا كلام الرجل. على كل حال، سوف نعفيكم من عبد الله." تحدد القرار. ورحنا نتعجب من ذلك الذى يمكن أن يحدث لعبد الله. العدالة بطيئة فى الشرق، لكنها عندما تحدث تكون فاصلة.

بعد انصراف زوارنا مباشرة، وبينما كنا ننصب حواجز من الخيش الملـــون في الغرفة الطويلة، جاءت إلينا عبدات سوداوات يحملن وليمة في أطبـــاق كثيـــرة زرقاء اللون، فوق صينية كبيرة من النحاس الأصفر. وضعت تلك الصينية علـــى مفرش قرمزى اللون على الأرض وجلسنا بجانبها مربعين، ورحنا نغمس أصابعنا أولاً في طبق من الأطباق ثم بعد ذلك فى طبق آخر. قال حسانين: هذه هى المتعـــة الحقيقية للكُفاره." قالها حسانين وهو يلتهم القسم الأكبر من الطلى المطبـــوخ فـــى "الملوخية"، ذلك الصنف من الطعام الشبيه بصلصة السبانخ غير غليظـــة القـــوام. كنت قد التزمت الصمت بسبب فرحى التام- وسعدت جدًّا بذلك النوع من الخـــضار العجيب الذى اكتشفته فى خلطة من الخلطات، المكون من لحم مع شيء من المرق غليظ القوام وله طعم الزُبد. تمنيت لو أن حسانين لم يعثر علـــى ذلـــك الـــصنف، ورحت أشجعه على مواصلة التهام الملوخية، لكنه انقض على ذلك الصنف فجـــأة. "هذه بامية! وهى موجودة عندنا فى مصر." قال حسانين هذا الكلام ودار بيننا سباق على ذلك الصنف فيما بعد! الواضح أن الكفرة ليس فيها سُكّر. الأقة مـــن الـــسكر ثمنها فى الكفرة ثلاثة مجيديات، وعليه لم تكن الحلوى ضمن الوليمة التى أرســـلت إلينا، لكن جرى بعد ذلك إحضار وعاء كبير طويل العنق ومصنوع مـــن النحـــاس الأصفر يسمونه إبريق لنغسل أيدينا وأفواهنا، وعندما بدأنا نـــنفض بقايـــا الرمـــال المتخلفة فى أكياس نومنا على امتداد خمسة أسابيع، كنت أُحسُ سعادة غامرة.

أشعر وكأنى لا يتعين على الاعتراف بذلك، لكن المؤكد أن اليوم الخـــامس عشر من شهر يناير يبرز فى ذهنى على أنه يوم الطعام! لقد وصفت كثيرًا من أيام الصوم، الأمر الذى دفعنى إلى الإحساس بسرور بالغ فى تدوين مذكراتى اليوميـــة عن تلك الليلة، فى الوقت الذى راح فيه أحمد حسانين يخط بعض رسائله الحـــارة معبرًا بها عن شكره وامتنانه لسيدى إدريس والسيد رضـــا الـــسنوسى؛ آمـــلاً أن تصلهما هذه الرسائل عن طريق القافلة المتجهة إلى الشمال.

بعد أن استيقظت مباشرة رحت أُحدِّق في البساط الذي يجمع بين اللونين الأحمر والأزرق، ووجدت أمامي السيد محمد الجذّاوي (الذي جاء إلى هنا من جدة قبل أربعين عامًا، كتابع من أتباع المهدي المقدس، وأصبح الآن وكيلاً لسيدي إدريس والسيد رضا السنوسي) ومعه هدية عبارة عن طبق مملوء باللبن المحمَّض، طبق كبير مسطح مصنوع من سعف النخيل، محمل بتمر جميل بلا نوى، وكبير الحجم، وناعم ونظيف، وذهبي اللون ومن النوع الذي يذوب في فم آكله- هذا النوع لا تعرفه ولن تعرفه أوروبا مطلقًا! أبلغونا أنه ستكون هناك مأدبة عند الساعة التاسعة صباحًا، للمجموعة كلها، وأن تلك المأدبة ستكون في منزل السيد صالح، وعليه وصلنا إلى ذلك المنزل ونحن نرتدي أنظف ملابسنا، لم يكن المنظر بهيأ جدًّا، فقد تعين على ارتداء جيرد عليه حزام أحمر اللون، نظرًا لأن البركَّان الذي أرتديه مضى عليه أربعين يومًا دون أن يُغسل!

جاءنا العبيد لكي يدلونا على الطريق، ومشينا خلف هؤلاء الأشخاص السود سواد حبات الكرز، في طريق رملي متعرج بين جدران عالية، عبر فضاء واسع أمام المباني الضخمة التابعة لزاوية سيد أحمد الشريف العالية ومربعة الشكل. بدأت ألاحظ قلة عدد المنازل في تاج، لكن المنازل كلها كانت من النوع الكبير، بنايات مركبة لها متاهة من الأحواش والممرات. واقع الأمر أن أهم الأخوان، هم الذين يعيشون في هذا المكان المقدس، هو ومجموعة منازل السادة، التي تشغل حوالي ثلث مساحة هذه البلدة؛ كما يعيش في هذه البلدة أيضًا العاملون كثيرو العدد في هذه الزاوية. من هنا، لم نر سوى طبقتين من الناس بين جدران هذه البلدة قاتمة اللون. رأينا عبيدًا كثر في رداءات مقلمة زاهية اللون، ويضعون فوق رءوسهم عمائم شديدة البياض وجُرُدًا من الحرير فوق جلابيب أو ثياب خيالية الألوان. لاحظت رجلاً ضخمًا بهي الطلعة يرتدي ثوبًا له حمرة البرتقال "أبو دمَّه"، وشيءا شبيهًا بشال أبيض له حواف قرمزية موضوعًا على كتفيه، لكن كان من الصعب أن أرى

HASSANEIN BEY TALKING TO EKHWAN AT TAJ WHILE THE AUTHOR PHOTOGRAPHED THEM.

حسانين بك وهو يتحدث إلى الاخوان فى تاج، فى حين كانت المؤلفة تقوم بتصويرهم

رؤية واضحة من خلال الفتحة الصغيرة جدًا التى سمحت بها لنفسى مــن خــلال الثياب التى أسدلتها على نفسى.

كنت فى الصحراء مهملة فى مسألة الحجاب مثلما كنت فى مسألة ســميتى خديجة، أولى زوجات محمد ﷺ، تلك السيدة قوية الشخصية، التى عمل النبى فــى خدمتها عندما قاد قافلتها إلى سوريا قبل أن يتزوج صاحبة هذه القافلة التى كانــت تكبره بعشرين عامًا. كان لابد من الحذر البالغ فى الكُفاره، وكان علىَّ تعلم القــدرة على التحمل، وبخاصة ذلك الصداع المستمر الناجم عن ثنيات الملابس الثقيلة، كما تعلمت أيضًا التقاط الصور السريعة من بين ثنيات تلك الثياب. كان عبد الله الخائن قد علمنا شيئًا واحدًا- إخفاء آلات التصوير وكراسات الملاحظات بحرص بالغ!

كان منزل سيد صالح شبيهًا بمتاهة حوش هاميتون. يزاد على ذلــك، أنــى على الرغم من دخولى هذا المنزل، فإنى لم أكن قادرة على العودة مرة ثانية مــن الطريق الذى جئت منه. التقينا شخصًا زاهيًا كان يرتدى عباءة لونها أخضر غامق، لها حواف مذهبة، من فوق زيه الكاكى، فى الحوش الثانى، الذى تركنا فيه جنودنا يتغذون غذاء ملكيًا فى غرفة من غرف ذلك الحوش المؤدية إلى الخارج. أحصيت بعد ذلك أربعة أحواش أخرى وخمسة ممرات قبل أن يُؤخذ كل من محمد ويوسف لحضور مأدبتهم المنفصلة. كان مرشدنا لا يزال ينتعل ذلك الحذاء الأصــفر الــذى كان يتخلى عنه أمام العديد من المداخل. أخيرًا، وبعد أن تخطينا حوشــين آخــرين وعديدًا من الممرات، دخلنا الحوش الرئيسى، الذى له شُــرَف واســعة مفروشــة بالحصير والسجاد تمتد على الجانبين.

بعد أن خلعنا أحذيتنا، دخلنا للقاء مضيفنا الرسمى، الذى رحــب بنــا ترحيبًــا حارًا، وراح يشير لنا بيديه عبر المكان الواسع فيما بين العقود ليرشدنا إلــى الغرفــة العالية الطويلة التى بدت لنا جدرانها وكأنهــا مغطــاة بالــساعات والبــارومترات، والترمومترات وأشياء أخرى من هذا القبيل. وأنا لا أستطيع إحصاء عــدد الأجهــزة

التى كانت فى تلك الغرفة، لكنى وصلت إلى الرقم خمسة عشر، وكان معظم هذه الآلات تعمل. شاهدت عند كل طرف من طرفى الغرفة صفًا من الصناديق المدهونة التى يحملها عظماء الرجال معهم فى رحلات قوافلهم الطويلة، وشاهدت أيضًا فى القسم الأكبر من الفجوات الموجودة فى الجدار، والمفروشة بالسجاد، أدوات الشاى من مختلف الأصناف والأشكال والأحجام والألوان. شاهدت أيضًا بيانولا فيها شرائط من أوبرا باجلياسّى Pagliacci وأوبرا كارمن Carmen. كانت هناك بُسط سميكة داكنة اللون مُكَوَّمة فوق الأرض المفروشة بالحصير، ومن فوقها صفوف من المخدات التى تطوق جدران الغرفة من الداخل، لكن الشىء الذى سرّنى أكثر – بعد التعيينات الهزيلة التى كنا نعيش عليها طوال الرحلة – ذلك القماش قرمزى اللون، الذى له فرنشات على أطرافه، وموضوع فى وسط الغرفة حول صينية مستديرة من النحاس الأصفر محملة بالطعام ومن حولها كل أنواع الأطباق والقوارير.

تمنى لنا مضيفنا شهية طيبة. "بالهناء! بالشفاء!" ثم اختفى بعد ذلك؛ وهنا رفع عبد إبريقًا من الفضة والنحاس الأصفر ليصب منه ماء على أيدينا فى طشت له غطاء مزركش كان يحمله زميله العبد الآخر. قام عبد ثالث بإحضار أكواب القهوة السوداء التى لها نكهة الفلفل الأحمر. جلسنا بعد ذلك مربعين بجوار تلك الصينية، وقد انفتحت أعيننا دهشة على ذلك الذى وضع أمامنا. الكرم العربى خرافى وهائل. كل إنسان يقدم أحلى وأفضل ما عنده، لكن العظماء من الرجال هم القادرون على إقامة الولائم الشبيهة بولائم ألف ليلة وليلة؛ وكانت المأدبة التى أُقيمت لنا واحدة من هذا القبيل. أعادت تلك المأدبة إلى أذهاننا ذكريات حفلات العشاء الهائلة التى أقامها لنا السيد رضا فى إجدابيا، وبخاصة أننا مدينون له هو وسيدى إدريس بالترحيب الكبير الذى لقيناه فى الكُفرة، التى تعد أخلص وأوفى الواحات الليبية، لأنها تعد أساسًا للعقيدة السنوسية. استمعت إلى أحمد حسانين وهو يكرر على وجه السرعة النقاط الرئيسية فى الخطبة التى انتوى أن يلقيها أمام



THE KAIMAKAAN AT TAJ.

قائمقام تاج

القائمقام بخصوص رحلة العودة، وصافحته مهنئة إياه على تلك النقاط. قلت له متعجبة "لا تنشغل بتلك التفاصيل الآن! إلى متى، فى رأيك، سيتركوننا وحدنا مع هذا الطعام؟"

اشتملت المائدة على اثنى عشر طبقًا من لحم الطَّلى المطهى فى صلصات أو مرق دسم مختلف الأشكال، علاوة على إناء ضخم يحتوى على بقايا غريبة، أتصور أنها تنتمى هى الأخرى إلى الحياة الخاصة لخروف من الخراف، وكانت تطفو فى مرق دسم وغزير. كانت هناك حوالى عشرين بيضة مسلوقة ومقشرة موضوعة فى أطباق من الفضة، علاوة على خمس عشرة كومة من الملوخية الخضراء اللزجة التى كانت تخفى كل أنواع الأشياء الفاخرة المركَّبة. تلت ذلك سلاطين من اللبن الرايب، الذى بدأت أستسيغ طعمه، أو أوراق النعناع المطحونة، وسائل غير معروف ظننته خلاً طيب الرائحة، فضلاً عن قوارير الماء، نظرًا لأن العقيدة السنوسية لا تبيح المشروبات الروحية. وعندما توقفنا لالتقاط أنفاسنا أحضر لنا عبد آخر طبقًا آخر، كان فى ذلك الطبق عصير ليمون حامض، لكى يفتح شهيتنا وعندما لم يحقق العصير هذا الهدف، ظهر أمامنا كوب آخر من القهوة المفلفلة قبل أن نقوم بغسل أيدينا وأفواهنا. وأعطيت لنا بعد ذلك مذبَّات، واتكأنا على الحشيات الجافة ونحن نحس نوعًا من التخمة الجميلة، إلى أن انضم إلينا مضيفنا، وبدأنا مسائل المال والأعمال على الطريقة الشرقية، فى الوقت الذى أعدت فيه لنا ثلاثة أدوار من الشاى، كان أولها مر المذاق، والثانى معطرًا فى حين كان الدور الثالث مُنَعْنعًا. كان لدى مضيفنا طقم من أطقم الشاى المصنوعة من الفضة، جرى نشره أمامه، فى الوقت الذى راح هو بنفسه يُسخِّن براد الشاى على نار هادئة، فى حين قمنا نحن بالدوران حول الموضوعات القريبة من قلوبنا، محاولين طول الوقت الاقتراب، والتراجع ومتحاشين العقبات أو شبهات العقبات، ومحاولين الحصول على موافقته الكاملة عن طريق ترك مسألة أسفارنا المستقبلية

بين يديه. وعندما أنهيت كوبى الفارغ الثالث، قام أحد العبيد بسكب العطر علىَّ، وقام عبد آخر بتقديم مبخرة مصنوعة من الفضة من فوقها بخور مشتعل له دخان ذكى الرائحة كى أجفف يدىَّ المبتليتن فوقه! لم يسبق لى من قبل مصادفة هذه العادة الطيبة فى سائر أنحاء الشرق صاحب الجود والكرم.

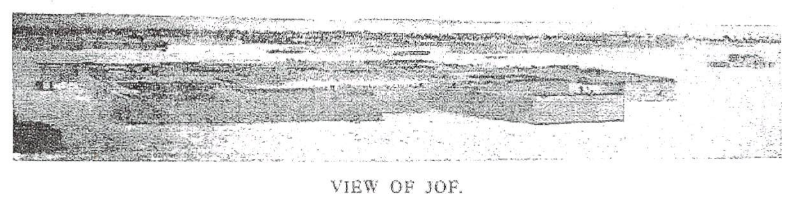
بعد أن ناقشنا مستلزمات الزيارة الأولى- التى تعد أمرًا بسيطًا فى نظر الأمريكيين- ودعنا مُضَيِّفنا وعدنا إلى منزلنا البَارد الموجود على قمة الصخرة العالية. وطالما قلت إن هذا يوم أكل، أسمحوا لى أن أضيف أنه عند الظهر جاء الوكيل بهى الطلعة يحمل وعاءً مملوءًا "بالكسكس" قطره حوالى قدمين. ومن فوقه كان يوجد القسم الأكبر من فك خروف مذبوح فى حين كان جسم الخروف كله محاطًا بخط مستمر من الصلصات المختلفة وصف متراص من البيض المسلوق. وأنا أقول هنا: إنه إذا كان هناك شىء أحبه على الأرض، فإن هذا الشىء هو "الكسكس"، لكنى لم أنظر إليه بلا مبالاة سوى مرة واحدة. اقترح حسانين بعضًا من العلاجات المتباينة التى لا طائل من ورائها، والتى كان من بينها السير على الفور حول الوادى، لكنى آثرت عدم الافتراق عن "كسكسى". كنت أنظر إلى الكسكس باشتياق، وبعد نقاش عنيف مع فراج حول مسألة تسخين بعضٍ من الماء لاستعماله فى الاستحمام، وجدت فىَّ طاقة كافية مكنتنى من إحداث ثقب صغير فى جانب من جوانب ذلك الطعام اللذيذ المصنوع من الدقيق.

بلغ يومنا ذروته عند غروب الشمس، عندما استُدْعينا مرة ثانية لحضور مأدبة ضخمة أقيمت فى منزل سيدى صالح بالغ الجود والكرم، الذى أصرَّ على تكريم ضيوف السيد بكل ما وسعته قوته. لقد بهت لتلك المأدبة، لكنى أعتقد أن الطبق الرئيسى فيها كان يحتوى على القسم الأكبر من خروف فوق كومة من الأرز، الذى على جوانبه سلاطين من حليب حار شديد الحلاوة. وبينما كنا ننتظر مضيفنا كى ينضم إلينا ليساعدنا بلطف وكياسة على تسريع وقع أعمالنا ومهمتنا،

رحت أهنئ حسانين على إتقانه وتمثله لشخصيه الشيخ العليم المحترم. كان حسانين ينظر إلىَّ نظرة بلهاء، ثم قال: المسألة ليست مسألة الكرامة. إنه الخُدار!"

من الطبيعى أن تكون هناك لحظات أخرى فى ذلك اليوم. فقد جاء إلينا شخص صغير بهى الطلعة يبلغ من العمر حوالى تسع سنوات، جاء للقائنا بعد عودتنا من زيارة القائمقام وحضورنا مأدبته الصباحية. هذا الشخص الصغير صاحب أكبر عينين بنيتين، تحيط بهما رموش سميكة مشوبة بظلال من الكحل يزيد من جمالهما. هذا الشخص الصغير أمير وابن أمير، هو سيدى عمر الصغير الذى يتمثل فيه كل الاحترام والتوقير لعرقه. كان سيدى عمر الصغير يرتدى جلابية من الحرير أرجوانية اللون من فوق جُبَّه مطرزة وردية اللون، فى حين كان وجهه الشاحب الصغير مطوقًا بكوفية بيضاء من تحت طربوش أرجوانى اللون. أصر سيدى عمر الصغير على مرافقتنا أثناء تجوالنا حول القرية المقدسة، مقدمًا لنا النصائح القيمة. كان يقول لى عندما كانت تظهر أطراف ملابس الإخوان البيضاء، عند أحد الأبواب بصورة مفاجئة "ست خديجة، غطِّى وجهك الآن"، أو يقول: "سيدى أحمد بو حسانين، يجب أن تُحيِّ فلان؛ لأنه ولد فلان الفُلانى".

من فوق حافة الصخرة العالية، حيث تطل المنازل الأخيرة على المنحدر الشديد، كان منظر الوادى شديد الروعة. كان بوسع المرء السير فى شرقى تاج ويلقى نظرة على الرمال الشاحبة، التى تتكسر حدتها بفعل خضرة الشعير والقمح، وصولاً إلى البحيرة الموجودة بين النخيل والطرف الضيق من الوادى الذى تطبق عليه التلال. بوسع المرء إطالة النظر مباشرة إلى الجنوب حيث توجد حدائق السيد التى تمتد إلى جدران الجوف الصلبة التى ترتفع على شكل أحزمة فوق رُبى صغيرة فيها زوايا شهيرة قديمة متفرقة عن بعضها البعض، ويرى الرائى عن بعد خط نخيل زرُوق، حيث يعطى انكسار الكثبان الرملية الحارسة ومضة توحى بأن الرمال مسطحة ومنبسطة. وفى الناحية الغربية كان المنظر مقصورًا على نظر الرائى نفسه.



VIEW OF JOF.

منظر لوادى الجوف



LAKE AT JOF.

البحيرة الموجودة فى الجوف

كانت هناك قلة قليلة من المنازل المنعزلة تقع إلى جوار كتلة كبيرة من النخيل، كانت تلتف حول الشريط الثانى من المياه الزرقاء الموجودة بجوار مستنقع جاف مالح، يأخذ فى التوسع فى اتجاه الأفق حيث تقع كل من طولاب Tolab وطولليب Tolelib فى عتمة داكنة لأن الوادى يمتد إلى ما وراء التلال المضيئة.

عندما بدأنا المسيرة نازلين منحدرًا من المنحدرات يؤدى من السهل الصخرى الواسع إلى الرمال الناعمة الموجودة أسفله، اختفت ابتسامة سيدى عمر الصغير. حثنى قائلاً: "لا تنزلى إلى الأسفل وحدك. الزاويون رجال أشرار. ربما يوجه إليك أحدهم بعض الأسئلة- لماذا جئت إلى بلدهم وماذا تبغين منها؟" وعليه بقينا فى ذلك اليوم على الهضبة والتقطت صورًا عديدة من بين ثنيات ملابسى. حدث ذات مرة أن عرفت فضل الحجاب الإسلامى، فقد كان حسانين يستغل احتياله فى جذب أنظار رفاقنا إلى النظر إلى منظر بعيد، فى الوقت الذى كنت أقوم أنا فيه ببطء وعلى استحياء، مستغله فى ذلك خطو الحريم المتردد، بالاتجاه صوب نقطة مفضلة، ثم أعجل بعد ذلك بإخراج آلة تصويرى طراز ٨ أ كوداك، من كُمى الواسع وألتقط خلسة صورة لجانب من جوانب الوادى المسحور قبل أن أعود إلى التلكؤ من جديد. خاطرت بأخذ لقطة ضوئية وأنا أمام المبنى الرئيسى للزاوية فى الوقت الذى كان حسانين يحيى فيه شيخًا من العلماء، لكننى أحسست بخطورة ما فعلت، نظرًا لوجود قلة قليلة من الطلبة كانوا يتسكعون حول الباب بجوار البرج الذى فى الجدار ولابد أن يكونوا قد رأوا وميض العدسات بين ثنيات جِردى المُحزَّم أبيض اللون.

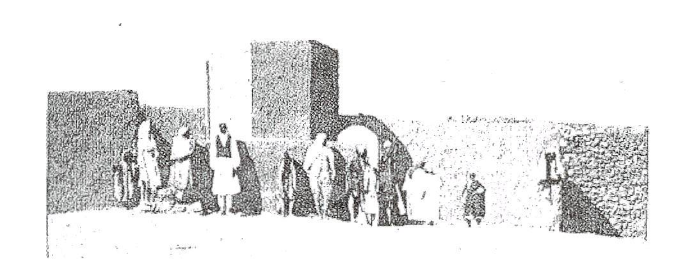
الفصل الحادى عشر

مدائن" الكفرة

بدأت معاركنا من جديد فى اليوم السادس عشر من شهر يناير. ومن سوء الطالع أن حسانين كان مريضا، لكنه تمالك نفسه وكان على رأسنا فترة قصيرة، وسبب ذلك أننا لعدم اقتناعنا بزيارة كل من تاج والجوف، اللذين يمثلان المركز الدينى ومقر الحكومة، قمنا مؤخرا بوضع خطة لاستكشاف الواحة إلى آخر جزء فيها. وبلا طائل، حاولت مجموعتنا التعيسة أن ذلك يمكن أن يكون حالة أخرى من أحوال هواويرى Hawawiri. قالت جماعتنا "الزّاويون موجودون فى 'مدينتين'. والقرى ليس فيها شىء. بوسعك إلقاء نظرة على بوما Buma من فوق هذه الجدران، فلماذا تتعبين نفسك بالذهاب إلى هناك؟" أحسسنا أن هذه الفكرة المفاجئة المتعلقة براحتنا تنطوى على دافع خفىّ، وعليه أصررنا على ما صممنا عليه. قلت ليوسف: "أود أن أرى هؤلاء الناس". ستَرينهم كلهم فى سوق الجوف. هم يأتون إلى السوق كل أسبوع كى يبيعوا ويشتروا. هم غير متحضرين، أقصد الزّاويين الذين يعيشون على حافة الواحة، وهم أناس فقراء لا أهمية لهم". "هذا كلام طيب، ولكنى أود رؤية الطرف الغربى من الوادى". بدت الحيرة على يوسف. قال بصدق: "لكن بوسعك رؤية كل شىء فى الكفارة، من هذا الجبل". وقصرت كلامى على أنى أود رؤية المنازل الحقيقية فى كل من طولاب وزرزُوق. كان رفيق حاشيتنا المتين يتمتع بروح الدعابة. ذكرنى "لن تستطيعى رؤية منازل هواويرى من مخيمنا!" "أنا أود أن ألتقى رؤساء الزّاويين، وأنا إذا ما ذهبت إلى القرى أستطيع التحدث معهم". ركز يوسف على هذه المسألة فى شىء من السعادة. "بوسعهم أن يأتوا إليك وتسأليهم عن أهلهم".

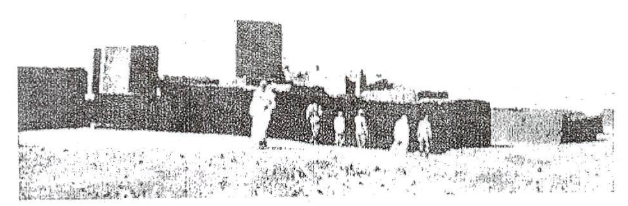
وتأسيسًا على ذلك، صدر أمر من القائمقام يقضى بحتمية مجيء الرؤساء القبليين إلى بلدة تاج للقاء الغرباء المهمين، وتحدد موعد ومكان ذلك اللقاء المهم "بأربع ساعات قبل غروب الشمس وفى منزل سيدى إدريس". كنا نتوقع حدوث عراك، لأن عبد الله كان غائبًا عنا طوال أربع وعشرين ساعة، وكان قد بلغنا مؤخرًا أن عبد الله كان قائمًا بجولة فى القرى الصغيرة، ينشر خلالها قصص الخيانة التى فشل فى ترويجها فى المراكز السنوسية، لكننا لم نكن ننتظر لقاءً كارثيًا بمعنى الكلمة. كان الشيوخ الأربعة عشر الذين جاءوا إلى مكان الاجتماع متأخرين ساعتين، ضعافًا، وعلى قناعة من أنهم ما نفذوا خططهم سيكونون يتصرفون على عكس ما يوده السادة الذين يحترمونهم ويُجلُّونهم. ومع ذلك، كانت كراهية هؤلاء الشيوخ للأغراب شديدة جدًّا، وقد أذكت عزلة هؤلاء الشيوخ تلك الكراهية وقوّتها، إلى أن أصبحت جزءًا من مذهبهم شأنها شأن الشهادة أو الزكاة، إلى حد أنهم كانوا مصممين على منع اختراقنا، بأى ثمن، لأى جزء من بلادهم. وهنا بدأت أستوعب بصورة متدرجة شيئًا من فكر هؤلاء الناس المتشككين الغريبين، أثناء جلوسى وسط هذه الدائرة من الوجده الكئيبة المريبة.

الزّويون معرفون، منذ أجيال، بأنهم قبيلة خارجة على القانون. هذه القبيلة جاءت أصلاً من فزّان على شكل مجموعات من العائلات، ولكل عائلة من هذه العائلات رئيس، لكن لم يحدث أن كان لهم رئيس أعلى. كان عبد الله الشيكارى هو وهلياج أشهر قدامى شيوخ تلك القبيلة، على الرغم من أن عجيل Agil كان هو الذى التقى سيدى بن على السنوسى فى مكة، وأخبره عن تلك الأرض الغريبة المطوقة فى وسط الصحراء الكبرى التى كان الزاويون قد استولوا عليها من التبو Tebu بعد أن دب فيهم الضعف والوهن. كان ذلك الزُّهد والتقشف الكبيران قد أوقدا شعلة الخيال الدينى فى شمال إفريقية بدءا من مُرّاكش (المغرب) وفى اتجاه الشرق، لكن سيدى بن على السنوسى لم يكن يعرف شيئًا عن جنوبى ليبيا. ومع ذلك، أبلغ سيدى بن



ZAWIA TOWER AT TAJ.

برج الزاوية فى تاج



SAYED AHMED SHERIF'S HOUSE AT TAJ.

منزل سيدى احمد الشريف فى تاج

على السنوسى، رجال القبائل شبه المتحضرين أنهم سيعثرون فى وادى قريب من تيسيربو على شجرة من أشجار الأراك، المأخوذ اسمها من الخشب الذى يصنع العرب منه فراش أسنانهم البدائية. وبناء عليه جرى اكتشاف الشجرة فى الوقت المناسب، وذاعت تلك المعجزة بين أفراد القبيلة، ثم ذهب عجيل بعد ذلك ناحية الشمال مرة ثانية إلى الجبل الأخضر فى برقة، ليقدم فروض طاعة وولاء أهله وناسه للسنوسى العظيم. وبذلك أصبحت الكفرة، السلطنة الأصلية للتيبيين Tebus، منذ أن غزاها الزاويون قبل مائتين وخمسين عامًا، مكانا خطيرًا على القوافل كلها، نظرًا لأنها تعد معقلاً دائمًا للعصابات التى تعيش على السلب والنهب.

جرى العرف على أن يقوم المسافرون – وبخاصة التجار منهم، الذين يمرون عبر الواحة – بدفع 'ضرب'(*)، هو نوع من المكوث يتباين طبقًا لقيمة البضاعة، وإلا جرى الهجوم على القافلة وسلبها ونهبها.

قبل مجىء السنوسى لم يكن فى الواحة سوى النخيل، وكان رجال القبائل راضين بملابسهم شديدة البدائية، التى لا تفرق كثيرًا عن ملابس التبو المصنوعة من جلود الحيوانات. ومعروف أن سيدى المهدى هو الذى أدخل الجيرد والجُبَّه.

جاء فجر الحضارة مع الإخوان الذين جاءوا من قبل سيدى بن على، لكن المهدى هو الذى جعل الكفرة بالشكل الرائع الذى هى عليه الآن، ومع التوسع فى الزراعة بدأت زراعة الحبوب، والفواكه، والأزهار. يحظى سيدى إدريس بشىء من النفوذ بين الزّاويين، نظرًا لأنه ولد من أبناء المهدى العظيم، على الرغم من أن شخصيته القوية تمثل الكثير فى أرض تندر فيها الفردية بشكل واضح. أضطر الزاويون فى ظل الحكم السنوسى إلى التخلى عن أعمال العصابات المنظمة، لكنهم خلّفوا وراءهم تاريخًا طويلاً من القتل والسلب والنهب– هذا يعنى أن نصف مآسى

(*) كلمة ليبية واظن أنها فصيحة فقد قرأت فى المعجم الوسيط: 'ضرب الشىء عليه': ألزمه إيّاه، ويقال ضرب عليه خراجا ونحوه: فرضه وقدّره. (المترجم)

الصحراء الكبرى يمكن أن تعزى إلى هذا الصنف من البشر – ولا غرابة عندما نقول: إنهم لا يزالون خارجين على القانون وهمجيين. الكل يخافونهم، وقوة المهدى الكبيرة هى وحدها التى ألجمتهم. كان الزاويون فى حقيقة الأمر، كفارًا قبل خضوعهم لسيدى بن على، وكانوا قد ارتدوا عن الإسلام قبل فترة وجيزة، وذلك على الرغم من مجيئهم من اليمن، وربما كانوا يشكلون جزءًا من الجيوش التى كانت تابعه لبنى سُليم Suleim فى القرن الحادى عشر، والتى جاءت من مدين عبر سوريا ومصر قاصدة برقة، التى استوطنتها بعض القبائل، وبخاصة العبيدات، وحسَّان، وفايد، والبراهسة، والهوشا، وعبيد أواغير ومُغاربه Mogharba. **أختلط ذلك التطرف الدينى الوحشى الذى تشرَّبه أولئك الزاويون حديثًا من أولئك المتقشفين الذين كانوا ينادون بإسلام نقى جديد، أختلط بكراهية واحتقار كل أولئك الذين لم يلتقوا أو يحصلوا على تعاليم هذه الحركة الجديدة. وجرى تطبيق مقوله "من ليس معنا، فهو ضدنا" تطبيقًا حرفيًا وأغلقت الأرض فى وجه الغرباء سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين.**

من هنا، كان من السهل فهم موقف الأشخاص مرتدى الثياب البيضاء، الذين تقوقعوا بلا حراك فى طرف من أطراف الغرفة الطويلة. أحسوا أنهم لا يدافعون فقط عن بلادهم المخبَّأة بسبب الغيرة والحقد وإنما أيضًا عن دينهم فى مواجهة الغرباء الذين يكرهونهم ويخافونهم أصلاً. كانوا فى دواخلهم لا يصدقون أن السادة الموقرين قد رخصوا لنا القيام برحلتنا. انعدام الثقة المستمر والشك المتواصل أيضًا رفيقان يوميان سيئان. كانا ظاهرين ومرسومين على الوجوه الواجمة المحيطة بنا، الأمر الذى ترتب عليه عدم وجود أحد من البدو الصُّرَحاء الذين لا يخافون. كان حامد بو كُريِّم، ولد الرجل الذى أنقذ رولفز الألمانى، يجلس فى جانب من الجوانب، ووجهه الضيق الداكن يحمل مسحة من العناد الصامت. وكان يجلس أمامنا الشيخ سليمان بو مطر، وهو البقعة الوحيدة الملونة فى المجموعة كلها، لأنه

كان يرتدى تحت جيرده لباسًا برتقاليا فاقع اللون؛ وكان يجلس معه أيضًا بو شناف الفضَاض، ذلك الرجل كبير السن صاحب اللحية الرمادية، الذى كان يصب الحين والآخر شيئًا من الزيت على المياه المتحركة. وكان كل من الشيخ بدر والشيخ مبروك بو حلايق Helayig من بين الحاضرين أيضًا.

صمم الحاضرون كلهم على معارضتنا وعدم الاستماع إلى أيه حجة مهما كانت. صاحوا قائلين: "خلاص! انتهى الأمر! انتهى الأمر! ما فائدة المزيد من الكلام؟" قال بو كُريِّم: "إذا كان معكم رسالة من سيدى إدريس، تنص على قيامكم بزيارة قرانا كلها بالاسم، فسوف تسمح لكم بذلك". "أنتم تعرفون أن لدينا تصريحًا من السيد بزيارة الكُفرة. ولا يستطيع أى مسافر أو رحَّال أن يصل إلى خارج إجدابيا بدون إذن أو تصريح من هذا القبيل. هل تظنون أنه كان يتحتم علينا المخاطرة بموت محقق؟ نحن نعرف أن أحدًا لا يمكن أن يتطلع إلى زيارة الحدود الخارجية لبلدكم دون موافقة من سيدى إدريس، لكننا ضيوف على سماحته!" غيروا أسباب شكواهم. قال سليمان بو مطر محتدًا: " لقد زرتم الكُفرة. أما الجوف هى وتاج 'مركاس'(*) الحكومة. القرى ليست مهمة. وهى خالية من الزوايا". لم يكن هناك طائل من وراء الجدل، لأن أحدًا لم يكن مستعدًا للتنازل أمام الآخرين. رأينا أن واحدًا أو اثنين كانا يضعفان من باب احترامهما للحقيقة التى مفادها أننا كنا ضيوفًا على حكامهم، لكن الغريزة القديمة الموروثة هى التى كانت تربطهما إلى بعضها البعض. جرت العادة أن مسألة بقاء خمسة عشر عربيًا فى مواجهة حجج قوية - حتى ولو لمدة ربع ساعة - تعد أمرًا مستحيلاً بين العرب، لكننا كنا نقاوم مبدأ متأصلاً فيهم ويشكل جزءًا من وجودهم شأنه شأن الطعام والشراب. دوى صوت يقول "خلاص! خلاص!" من كل الجوانب، دونما انتظار حتى لشرب

(*) مركاس: كلمة ليبيه عاميه تعنى "مقر".(المترجم)

الشاى، لينفض الاجتماع على الفور. قالوا: "لقد تكلمنا، ولا فائـــدة مـــن الجـــدال". وأضاف الشيخ قائلاً: " إذا ذهبتم فليكن ذلك من قبيل مخاطرتكم أنتم". وقبل انطلاق آخر دفعه من التهديد، كانوا جميعًا قد قرءوا "الفاتحة" ليثبتوا أنهم كرّموا السيد فـــى شخص ضيوفه!

وبذلك يكون المجلس الغريب قد انتهى،عندما بـــدأت آخـــر شخـــصية مـــن الشخصيات التى ترتدى ملابس بيضاء البحث عن حذائها حافة الحصير المفـــروش من فوقه سجاد، وهنا وجدت حسانين يتحول ناحيتى يائسًا. قال حسانين: "لقد فـــشلنا فشلا ذريعًا!" لن أوافق على ذلك. لقد جاء إلينا الضيوف وهم مصممون على أمـــر ما، متخذين تشكيل المعركة، وكل واحد منهم عازم ومصمم على مساندة الآخرين, وهم سيفترقون الآن، ويصبح كل واحد منهم وحده، وسوف يراود كل مـــنهم ذلـــك الإحساس البارد الذى يسائل المرء فيه نفسه عما فعل وعن النتيجة التى يمكـــن أن تترتب على ما فعل. قلت له: "انتظر! سيستشعرون على وجه السرعة أنهم اثبتـــوا لنا مدى الخطورة المترتبة على عبور حدودهم، لكنهم سيتذكرون أيضًا بيتًا من ذلك الذى التقونا فيه! "

فى ساعة متأخرة من فترة العصر جاءنا تاجر من المجابره، يـــدعى تـــواتى Tawati حيفان، ولدعَمَ صديقنا القديم شيب، وصديق واحد من الاخوان، يدعى ســـيد محمد سمّن، جاء لزيارتنا من قبيل الترحيب بنا من ناحية ومن قبيل تهـــدئتنا بـــسبب المسلك الذى سلكه الزاويون. قال: "هم أناس سيئون. وهم دومًا على هذه الشاكلة!"

تغرب الشمس وتنهال علينا الدعوات لتناول العـــشاء فـــى المنـــزل كثيـــر الأحواش. وادى الكفرة جميل بصفه دائمة، لكنه يصبح ساحرًا عند غروب الشمس، والسبب فى ذلك أن حزام التلال الغريبة يبدأ فى التلون بلون أرجوانى فاتح عجيب وأضواء بنفسجية، فى حين يكون نصف الواحة فى ظل هو خليط من لون الزمـــرد واللون الأزرق الياقوتى الصادر عن النخيل والبحيرة، أما النـــصف الثـــانى مـــن



KUFARA WADI, FROM TAJ.

منظر وادى الكفره من تاج



KUFARA VALLEY, FROM TAJ.

منظر وادى الكفره من تاج

الواحة فيبدو كما لو كان مشتعلاً حيث تعكس الرمال المحترقة روعة السماء. هــذا المنظر كان يُمسك على أنفاسي، بصورة مفاجئة في كل مرة أخرج فيها من البــاب الصغير المميز، في أعقاب العبد أبنوسي البشرة، الذى كان يهــتم اهتمامًــا كبيــرًا بمسألة شهيتي، ولم يفهم مطلقًا السبب الذى جعلني لا أستطيع مسايرة الإفطــارات الثلاثة التى أُرسلت لى من قبل كثير من المضيفين.

لم أدرك قط إدراكا كاملاً مسألة بعد الكُفرة، إلا بعد أن قام العبيــد المهــرة بإبعاد الصينية الضخمة المصنوعة من النحاس الأصفر، ومعها بقايا وجبتنــا، فقــد جلسنا بلا حراك بجوار مضيفنا في الغرفة الطويلة المظلّلة، في الوقت الــذى راح هو فيه يُصلّح لنا الشاى ببطء وعناية. أدت الاحواش الكثيرة عاليه الجــدران إلــى إحداث نوع من الصمت في تلك الغرفة المعتمة كثيفة السجاد والأبــسطة، ونــادرة الأضواء، كان ذلك الصمت عميقًا مثل سكون الصحراء. لم يكن للكلمات، أو حتى الابتسامات. مكان في ذلك الاحتفال الصغير، في حين كان ماء الــورد أو النعنــاع يُكال بواسطة أصابع مضيفنا الحساسة. كانت توجد خلف دائرة الضوء الناجم عــن سمعة واحدة موضوعه في شمعدان عالٍ مصنوع من الفضة أشكال غير واضــحة لمخدات أو صناديق كبيرة ظهرت لنا في الأركان البعيدة. داخل دائرة الضوء هذه، كان يوجد شيخ شاب، يرتدى ملابس كلها من اللون الأبيض، وذلك بــدءًا بكوفيتــه المصنوعة من الحرير وانتهاء بحيرده الفضفاض، وكان يجلس إلى جواره مضيفنا المتأمل جاد النظرات، وعلى كتفيه شال شديد الاخضرار له قيطان أرجواني اللون، وكان وجهه البرونزي المُطرق على جبته الطويلة الخضراء، التى كانت تكشف من تحتها عن صديرى فخم مطرز تطريزا رائعا. كانت هناك يد مزينة بــالمجوهرات تسكب ببطء قطرة بعد قطرة من العطر الخام في قوارير العنبر، في حــين كــان الدخان ذكى الرائحة منبعثًا عن مبخرة صغيرة في الصورة. كنت أتمنى للــزمن أن يتوقف برهة كى أمسك بظلال الأفكار التى كانت تتأرجح بين النور والظلام، كان

الصمت صوفيًا إلى حد بعيد جدًا. ثم ينطلق بعد ذلك فجأة ذلك الصوت الواضح الذى أكمل ذلك الانسجام- صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة العشاء!

هبطت فى اليوم التالى جماعة صغيرة بائسة إلى حد ما نازلة من واحد من الشعاب المنحدرة إلى الوادى. كانت تلك الجماعة مكونة من حسانين ومنى، ونحن راكبان على حمارين صغيرين جامحين، وكان معنا قومندان الشرطة، الذى كان يرتدى زيًا رماديًا زاهيًا، ومشروطًا وعليه كُلفة حمراء اللون، ويضع على كتفيه تلفيحة ضخمة لها شراشيب، ومعه أربعة جنود مسلحون تسليحًا تامًا، وكان معنا أيضًا شيخ مرموق من شيوخ الزاوية يدعى محمد تفيتاح Teifaitah، ذلك القَبَلى الوحيد الذى بلغ من الشجاعة حدًا جعله يرافقنا. كان ذلك الشيخ يركب على ظهر حصان عربى رائع أبيض اللون، منحنى العنق، طويل الرسغين، عليه سرج قرمزى اللون، منحنى المقدمة، ومن تحته خمسة مراشح(*) مختلفة الألوان، وركاب من الفضة شبيه بوعاء حمل الفحم.

واحة الكفرة تضيق عند طرفها الشرقى، وفيها شرخ أو كسر فى جدارها الصخرى الجنوبى، حيث يوجد فراغ واسع يمتد إلى أن يصل إلى ما وراء زرُّوق، ويأخذ ذلك الكسر فى الاتساع كلما اتجه ناحية الغرب. تبدأ كتلة النخيل الرئيسة بين الجوف وتاج وتمتد غربًا إلى طلاخ Talakh، لكن هناك تجمعات متعددة ومنعزلة من النخيل، وتعد تجمعات بويما وبوما أكبر هذه التجمعات. اتجهنا صوب الشرق فى البداية، بطول سفح القمم الصخرية المرتفعة، وأدركت عندما كنا نتبختر خلال الرمل الكثيف المكتسى لونًا مرجانيًا شاحبًا، أن الإنسان إذا ما أراد الاحتفاظ بانطباع عن واد ساحر فإنه يتعين عليه عدم مغادرة المرتفعات مطلقًا. هناك بقاع جميلة فى الوادى، تختلط فيها ظلال أشجار النخيل بظل أشجار الأثل، وظل عيدان

(*) واحده 'مرشحه'، وقد يقال له 'عرَاقه' وهى قطعة من الخيش أو اللباد الملون توضع تحت السرج على ظهر الحصان أو الحمار لامتصاص العرق. (المترجم)



VIEW OF TAJ, FROM THE NORTH.

منظر تاج من ناحيه الشمال



KUFARA OASIS, FROM TAJ.

منظر لواحة الكفره من تاج

السمار بعضها ببعض؛ كما توجد أيضًا بحيرة ساكنة إلى حد ما، لكن المرء لا يقف إلا من علٍ على كل هذه العجيبة من عجائب الماء والغابة والبلدان ذات الجدران داكنة اللون، الموضوعة داخل دائرة مغلقة من التلال الشبيهة بالمجوهرات.

عندما اقتربنا من بويما، بمنازلها القليلة، الكبيرة مربعة الشكل أو بيضاوية الشكل التى يميل لونها الأرجوانى إلى الاحمرار، والواقعة أسفل القمم الصخرية الشمالية المرتفعة، التى تبعد مسافة قليلة عن حدائق بويما، بدت العصبية الشديدة على الشيخ. وهنا خرجت أشكال بيضاء للنظر إلينا، وحثنا الشيخ على الابتعاد عن تلك الأشكال، لكنى أردت أن ألتقط صورة! أرجو أن يتخيل المرء أن مسألة تطويع الحمار البرى ليست بالأمر السهل، لأنها تتسبب فى الإبقاء على وجه المرء مخبأ تمامًا، ناهيك عن وجود آلتى تصوير بلا جرابين، وفيلم احتياطى من أفلام التصوير!

الواحة جميلة فى قرية بويما، وسبب ذلك هو التدخل الذى بين مجموعات النخيل وأنواع متباينة من النباتات الشوكية، وأشجار الزيتون القليلة داكنة الخضرة، وأشجار الأثل، وأشجار السنط وكذلك الأشجار الرمادية الريشية التى يصفها الناس "بالحطب". تقع بوما على بعد كيلو متر واحد من هذه المنطقة. توجد فى ناحية من الواحة بعض المنازل سيئة الحال التى تعد على أصابع اليد الواحدة، يقيم فيها العبيد الذين يقومون على أمر الحدائق، والتى بُنى البعض منها من النخيل، والبعض الآخر من الطوب الرملى غير المستوى، فى حين توجد هناك بحيرة جميلة لونها أزرق فاتح جميل، تحيط بها عيدان السمار العالية من جميع الجوانب، وهى موجودة فى وسط القرية. شاهدنا على الشاطئ الجنوبى، حيث توجد رقعة من الأرض البور الجافة المالحة، أنقاض قلعة كبيرة من قلاع التبو Tebu. هؤلاء الناس القدماء اختاروا مواقعهم بعناية، نظرًا لأن المكان الشبيه بقرص العسل الواقع على حافة الماء، هو وجدرانه الرمادية المكسرة، والتى تكسر جدار منها بفعل الحجر الملحى الذى يحيط به، يجعل الوصول إلى ذلك التجويف بالغ الصعوبة عن طريق البر. كان

هناك منزل أو اثنان من المنازل الصغيرة المستديرة مثل الفرن، مبعثران على مقربة من البحيرة، مما جعلنا نتساءل عما إذا كانت بويما هـــى عاصـــمة الكفـــرة التيبيـــة القديمة- التى كانت تسمى تازر Tazerr وقتئذ- نظرًا لأن هذه القلعة كانت أكبر من أية قلعة أخرى فى بُسيمة، لكنها كانت بلا سقف أو نوافذ كالعادة.

انتقلنا من مزارع القرع العسلى الأصفر، ومزارع الفجل، والجزر الأبيض، والبصل والتى فيها مناطق مروية مزروع فيها القمح والشعير، صـــوب الجنـــوب بطول تلك المساحة الطويلة المستوية من الرمل المخلوط بالحصى إلى أن وصـــلنا إلى زرُّوق تلك المنطقة الطويلة من النخيل المملوك لسيدى إدريس وبعض الـــسادة الآخرين. هذا الجزء القصى من الواحة فى الناحية الجنوبية ليس فيها أية قرية من القرى. لا يسكن هذا المكان سوى العبيد السودانيين الذين يباشرون أحوال التمـــور ويتولون شىءون النخيل. توقفنا عند سور مصنوع من ســـعف النخيـــل، لنـــسأل شخصا أسود سواد الأبنوس، يرتدى ثيابًا مهلهلة، كى يعطينا شـــيئًا مـــن التمـــر. ويغوص العبد فى كوخه المصنوع من سعف النخيل المضفور، ليعود إلينا بقرعـــة مجوفة مملوءة بالتمر الجاف كبير الحجم، الذى يميل لونه إلى اللون الأرجـــوانى، المخلوط مع حبات التمر غير الناضجة التى لونها مثل لون الليمون والتى يأكلهـــا العرب لكى يرووا ظمأهم. ركبنا المسافة كلها بطول شريط نخيـــل زرُّوق، نظـــرًا لأن الزَّواوى Zouia كان قد تخلى عن شكوكه وبدأ يصبح أهلاً لثقتنا. سألناه عـــن موعد مجىء أهله، فى الزمن القديم، إلى الكفرة، وأجابنا "والدى، وجده، وجد جـــدِّه عاشوا فى هذا المكان، لكن القبيلة كانت قد جاءت إلى هنا قبل ذلك الزمان." كـــان عمر الشيخ محمد ستة وخمسين عامًا، وعليه استنتجنا أن الغزو حدث قبل حـــوالى مائة وخمسين عامًا. وأنه لشىء محزن أن يختفى التّبو من الوادى على نحو أسرع من اختفاء أنقاض منازلهم المستديرة العجيبة. لم يكن فى هذا الوادى قبـــل خمـــس سنوات فقط سوى حوالى خمسمائة نسمة من أصحاب البشرة الـــسمراء، والوجـــوه

المدوَّرة، والشعر الناعم، وفتحات الأنف الواسعة، والأفواه الواسعة أيضًا، التي ليست لها شفاه زنجية. لا يوجد الآن سوى ما يتراوح بين خمسين ومائة نسمة. يعيشون كلهم تقريبًا فى قرية من سعف النخيل، وأكواخ قليلة مصنوعة من الطين وموجودة على الحدود الخارجية للجوف. هؤلاء السكان يغلب عليهم الطابع الرعوى أكثر من العرب، وعليه وعلى الرغم من قلة استخدامهم للزاويين، فإنهم يمتلكون عددًا كبيرًا من الماعز والغنم مع عدد قليل من الإبل.

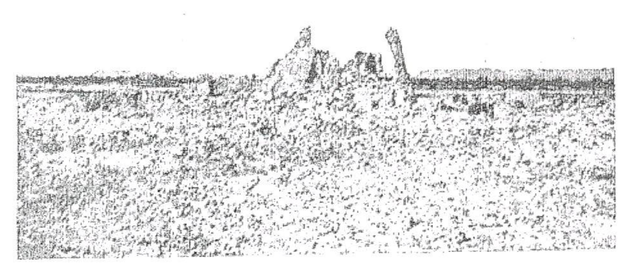
لا توجد من الناحية الفعلية مراع فى الوادى، اللهم باستثناء قليل من الأعشاب أو أعواد السمار الخشنة التى توجد بالقرب من البحيرات، كما توجد بعض الحزم المتفرقة بنية اللون، التى هى فى معظمها حطب مغطى بالطحلب، ومن النوع نفسه الذى رأيناه فى بُسيمة. وعليه لا يوجد سوى عدد قليل جدًّا من القطعان، ولذلك يعد الحليب واللحم من الكماليات عند معظم الناس، باستثناء الأخوان الأغنياء الذين يعيشون فى تاج. يزاد على ذلك أن الماء ليس وفيرًا، لعدم وجود عيون مائية. المطر لا يسقط مطلقًا فى هذه المنطقة. وقد لا يسقط المطر طوال ثمانى سنوات متتالية. والحدائق كلها تروى بمياه الآبار، لكن عمالة العبيد متوفرة وكثيرة. ومع ذلك تصبح الكفرة فى فصل الصيف جنات عدن بحق. وهى تصنع من كرومها الخل الذى نشربه على موائد الطعام، ومن ورودها يَصنَع العطر الخام الذى نضعه فى الشاى، كما تصنع منها أيضًا العطور الأثقل من ذلك والتى توضع فى مناقدنا(*). الكفرة أيضًا فيها الزيتون الذى يصنع منه الزيت، وفيها اللوز، والليمون، والتين، والشمام، والخوخ. والجلود تأتى إلى الكفرة من السودان، وصناع الأحذية فى الجوف يصممون ويصنعون أحذية حمراء بهيجة بلا كعب، من الجلد الطرى دون استعمال المسامير فى ذلك؛ لكن هذه الأحذية تكون لها أربطة

(*) واحده 'منقد' وهو 'المدفأة'. (المترجم)



TEBU VILLAGE IN KUFARA.

قريه تيبة فى الكفره



RUINS OF TEBU CASTLE IN KUFARA.

انقاض قلعة تيبية فى الكفره

تلف حول الساقين. التبو يصنعون السلاسل والحبال من سعف النخيل، لكن الكفرة ليس فيها نسيج. وملابس الإخوان الفاخرة، التى كانت دومًا محل إعجابنا، تأتى من مصر. "قبل الحرب العالمية الأولى، كانت هناك قوافل كثيرة. كانت تلك القوافل تجىء بمعدل قافلة كل يوم". (وهذا يعنى أن قافلة من هذه القوافل تكون دومًا داخل حدود الواحة، وربما كانت تصل الكفرة قافلةٌ كل أسبوع). قال الشيخ محمد: "القوافل أصبحت قليلة هذه الأيام."

عرفنا أن القافلة التى تأتى من السودان تكون مكونة من مائة وخمسين جملاً، قد تكون مملوكة لأثنى عشر تاجرًا مختلفًا، وأن تلك الإبل كانت تحمل عاجًا، وريشًا، وصنادل من الجلد؛ لكن مسألة تهريب العبيد أصبحت أمرًا صعبًا نظرًا لأن القانون الفرنسى الصارم ينص على مصادرة القافلة كلها إذا ما عثر فيها على مجرد عبد واحد. واقع الأمر أننا كنا قد أمضينا سبعة وثلاثين عامًا على الطريق من إجدابيا، ولم نلتق أية قافلة من واداى Wadai، ولم تصل أيضًا أية قافلة طوال مقامنا فى الكُفرة؛ لكن ذلك ربما يكون راجعًا إلى حدٍّ ما، إلى الحقيقة التى مفادها أن البدو يفضلون السفر فى فصل الصيف، حيث يمشون فيه معظم الليل وينامون القسم الأكبر من النهار. وبذلك يقطعون مسافة أكبر، دون معاناة شديدة من البرد القارس فى فترة الفجر فى فصل الشتاء. علاوة على ذلك أن فصل الشتاء هو موسم ولادة الإبل فى ليبيا، الأمر الذى يؤثر تأثيرًا كبيرًا على عملية السفر والترحال.

تقام فى الجوف سوق كبيرة بواقع مرتين كل أسبوع، والناس يأتون إلى هذه الأسواق من أماكن بعيدة مثل هوارى وطولاب Tolab لمقايضة الحمام والبيض، والدواجن، والقرب والمواد الغذائية. العبيد لم يعودوا يباعون الآن فى الميادين العامة فى أيام الاثنين وأيام الخميس، لكن صفقات بشرية كثيرة تعقد فى المنازل المغلقة نوافذها. الرجل يُشترى بمائة مجيدى والمرأة تُشترى بمائتى

مجيدى، أما الفتيات الصغيرات اللاتى يتراوح عمر الواحدة منهن بين أربعة وخمسة عشر عاما فيمكن شراء الواحدة منهن نظير مائتين وخمسين مجيديًا (حوالى ٥٠ جنيهًا إنجليزيًا). قال الزواوى Zouia: "هذه أسعار مرتفعة". لكن الناس فى برقة أشتروا كثيرًا من العبيد فى الفترة الأخيرة، كما تجيء إليها قلة قليلة من القوافل." عرفنا أن الطوارق الذين يعيشون فى الجهة الغربية لديهم مزارع دورية للعبيد، وأنهم يربون فيها المخلوقات البشرية ويبيعونها مثلما نبيع نحن الماشية. قال الشيخ الوصى علينا "يمكن رؤية ستين عبدًا فى مزرعة واحدة." ضرب لنا ذلك الشيخ الوصى علينا مثالاً على عدم تحضر الزواويين قبل مجيء السنوسى، بأن قال لنا: إن شيخًا يدعى محمد الشريف ذهب إلى بنغازى، نهاية العالم، وعاد معه مصباح يعمل بالزيت، أعتبره القبليون فى الكفرة معجزة من المعجزات. وبذلك أستطاع بقوة شيء قليل من الكيروسين حكم هؤلاء الناس سنوات عدة، وإصدار أحكام والكشف عن الآثمين من خلال تفسير ضوء هذا المصباح.

استغرقنا الحديث، ورحنا ندور حول الأرض الصخرية الوعرة الموجودة فى الناحية الجنوبية من حزام نخيل الجوف العريض، إلى أن وصلنا إلى طلاخ Talakh، عند نهاية الطريق توجد منطقة يمتلك السيد أحمد فيها كثيرًا من الحدائق. كانت هناك مستعمرة كاملة من العبيد الذين يقيمون فى مجموعات من التواكل(*)، الموجودة داخل أسوار أنيقة مصنوعة من سعف النخيل، كما كانت هناك أيضًا بعض المنازل الأكبر من تلك التوكلات، مبنية من الطوب الرملى، التى كان يجرى فوق أسطحها تجفيف كميات كبيرة من التمر فى ضوء الشمس. كانت فترة العصر متقدمة فى ذلك الوقت، لكن الزواوى كان يود أن يُرينا بقعة الجمال فى الواحة،

(*) واحدة "توكل" وهو "كوخ مستدير"، والكلمة ليبية عامية. (المترجم)

وعليه سرنا ونحن نركب مطايانا عبر بيارات النخيل الكثيف بين رواب من الأدغال رمادية اللون إلى أن وصلنا فجأة إلى بحيرة صغيرة مستديرة، والتى كان ماؤها الساكن يعكس كل جريدة متدلية من جريد النخيل الذى يحيط بها، تحت ظل ضفاف كهرمانية عالية تطوق البحيرة من جميع الجوانب، الأمر الذى جعل البط يلعب فيها فى أماكن دون أن يخاف الناظرين إليه. كانت صورة جميلة، ظهرت فيها عن بعد تلال لها حمرة الورد، لكننا أحسسنا بالسعادة عندما أدرنا رءوس حميرنا نحو المنزل، بل وزادت سعادتنا أكثر عندما بدأت تظهر لنا منازل تاج الضخمة عن بعد، فوق أكثر الصخور انحدارًا.

أسماء قرى الكفرة شىء مهم ومسلٍ أيضًا، وإذا كان الاسم الإنجليزى Taj يعنى "تاج" فى اللغة العربية، وهو ما نسميه فى الإنجليزية A crown، وإذا كان الاسم الإنجليزى Jof يعنى "جوف" فى اللغة العربية، فإن الاسمين "زرُوق" و "طولاب" هما اسمان لقبيلتين لا تزالان موجودتين فى مصر. أبلَغنا الشيخ محمد أن هاتين القبيلتين ساعدتا الزواويين على غزو التبو التعساء وأنهما حصلتا على المكانين اللذين يحملان اسميهما على اعتبار أنهما نصيبيهما من الغنائم. وأبلغنا أيضًا أن هاتين القبيلتين بدأتا تعربان عن لقبهما من بعد الوادى ومن المنازعات التى بين الزواويين والتبو، والتى استمرت إلى أن جاء السنوسى، وبذلك عادت القبيلتان إلى بلادهما.

شهد اليوم الثامن عشر من شهر يناير النهاية الحقيقة لهذه الرحلة الشاقة. وعندما كنا نستأذن سيدى صالح فى الانصراف، بعد أن تناولنا كوبنا الثالث من الشاى المنعنع، سألنا الشيخ ما إذا كنا نود زيارة زاوية الأسياد(*) Assayad. كنَّا كل يوم نمر على المجمع السكنى الكبير الذى كان ينطلق منه صوت يرتل القرآن.

(*) المقصود هنا "السادة". (المترجم)

كنا نعرف أن قبة المهدى موجودة داخل هذه الجدران القوية، باعتبارها رمزًا ليس إلا، لأن السنوسيين يعتقدون أن وليّهم لا يزال حيًا، ومع ذلك يحظى مقصد الحجاج السنوسيين وضريح وليهم بالتقدير والاحترام مثل قبر النبى ﷺ. ومن خلال الحوار الهادى المحترم، الذى تخلله قدر كبير من وقفات الصمت المناسبة، استطعنا الاقتراب من موضوع زيارتنا للضريح المقدس، ولم يرد الرجل علينا بشىء سوى "إن شاء الله". الزمن والتاريخ أمران غير معروفين فى الشرق. وعليه كان علينا الانتظار إلى أن يقنع القائمقام باللحظة المناسبة لتلك الزيارة.

مررنا من خلال المسجد الكبير المنخفض الملحق بالزاوية. كانت هناك صفوف من الأعمدة مربعة الشكل مغطاة بالجبس تحمل جذوع النخيل الثقيلة التى تشكل الدعامات الحاملة للسقف المسطح. لم يكن المسجد مزينًا بأى حال من الأحوال، وكان المنبر شيئًا بسيطًا للغاية، وغير مدهون وبدون نحت أيضًا على الخشب؛ ومع ذلك، نسيت لمدة لحظة، وأنا أقف على عتبة قدس الأقداس فى واحدة من تلك الhdh.. متاعب وأخطار الرحلة الطويلة التى قمت بها. فهمت شيئًا من خوف وتوقير، كل حاج من الحجاج الذين يخلعون أحذيتهم، بعد السفر الطويل، ليمشى فى النهاية فوق الحصير الأبيض المفروش فى المسجد، ليدخل بعد ذلك إلى الغرفة المعتمة التى يقبل فيها القبة المقدسة. وهنا أدركت ولأول مرة، معنى الارتياح الكبير الذى يعقب الرحلة، ومع ذلك، جاءت تلك الغرفة الطويلة الضيقة على العكس من فكرتنا الغربية عن الضريح. كان القسم الأكبر من مساحة الغرفة عبارة عن قبور لأفراد من أسرة السنوسى، وهذه القبور بيضاوية الشكل ومبنية من رمل الصحراء، ولها حواف من الحجر وشاهد من الحجر عند كل طرف من طرفى القبر. وكان هناك ممر ضيق مفروش بالسجاد يدور حول هذه القبور ويؤدى إلى الطرف البعيد من الغرفة حيث توجد قبة المهدى- التى هى عبارة عن إطار من الخشب على شكل عقد ومغطى بقماش أحمر اللون.

كانت بساطة الغرفة شيئًا واضحا، كي تناسب عقيدة تقوم على نبـذ التـرف بكل أشكاله. لم يكن في الغرفة ما يحدث انطباعًا في نفس أي حاج مـن الحجـاج سوى توقيره للمكان. هذا يعني أن عبادة الحاج ينبغي أن تكـون شـيئًا روحانيـا وليست متعلقة بالحواس. ومع ذلك فإن هذه الغرفة المنخفضة المعتمة، التي تقع في وسط الصحراء الكبرى، لها تأثيرها تمامًا مثل الغرفة التي للقـديس بطـرس فـي روما، أو معبد السماء في بكين! قد يُدخل الكرادلة هم والموظفون الذين يتـشبثون بالرسميات دوافع مختلطة إلى عبادتهم، لكن البدوي متوحش العينين الذي يرتـدي برنسًا أبيضَ خشنًا، ويمسك بمسبحة خشبية تتدلى من بين أصـابعه التـي جففتهـا الشمس، يؤدي صلاته ببساطة وشغف قويين، لابد أن يكون لهما تأثير على الجـو العام من خلال إخلاص عبادته لله ﷻ. وعليه أحسست عندما ارتفعت الأيدي إلـى السماء بشيء غريب وقلت: "بسم الله الرحمن الرحيم" فـي حـين كانـت الأعـين تراقبني؛ لكن عندما خرجنا إلى ضوء الشمس اختفى ذلك الانطبـاع وعـاد إلـيّ موضوع الحرس المرافق لي من جديد!

في البداية حدثت مشاجرة مع السود الذين أصبحوا بلا ضابط أو رابط تمامًـا. بعد أن أصبح تغيب السود أمرا ملحوظًا في حال وجود خطر حقيقي، أمـا الآن فقـد راحوا يكرسون أوقاتهم للطعام والنوم والحديث عن شجاعتهم. وهنا، قررنـا أعـادة السود إلى جالو من طريق القافلة الرئيسية ونذهب وحدنا إلى واحة جغبوب. في هذه المرة احتجت الحاشية المرافقة لنا لكن احتجاجهم كان بلا جدوى. كنا قد عانينا الكثير من مخاوفهم الناجمة عن التفكير في محاولة العودة عن طريـق بـلاد الـزواويين. طريق واحة جغبوب، أقصر بكثير من الطريق الآخر، لأنه يختصر زاويـة جـالو، والأهم من ذلك كله أن هذا الطريق غير معروف للأوربيين. ولما كان ذلك الطريـق يحتم الاستغناء عن الماء طوال اثنى عشر يومًا، إذ يصل طوله إلـى حـوالي ٦٠٠ كيلو متر، فإن أحدا لا يفكر في استخدامه في السفر، اللهم باستثناء القوافـل الكبيـرة



A TRAVELLER WITH ROSARY.

رجّال يحمل مسيحه

جدًا المزودة تزويدا جيدا بالمؤن والمعدات، والتى تتحمل فقدان قليل من الإبل علــى الطريق، أو بواسطة عائلة السنوسى، الذين لديهم القدرة على إرســال إبــل محملــة بالماء لملء بعض الخزانات الموضوعة خصيصا لهذا الغرض.

كنا قد خبرنا أخطار السفر مع قافلة كبيرة نسبيًا تنقــصها الكفايــة، وعليــه قررنا أن نأخذ الخيار الآخر. عزمنا على أن نــصطحب معنــا محمــدًا ويوســف وحدهما، ليكون أحدهما مرشدًا والثانى جمَّالاً. كان محتمًا علينا أخذ أربعــة إبــل لحمل الماء فقط، وجملين آخرين فى أضعف الأحوال لحمل العلف، قبل أن تعمــل حساب الأمتعة والمؤن. مسألة الأمتعة والمؤن مسألة سهلة. إذ إن الأمر لا يقتضى مؤنًا لأكثر من سبعة عشر يومًا بعد مغادرتنا قرية هــواويرى. وهــذا يعنــى أن المسافر إذا لم يتمكن من الوصول إلى جغبوب فى غضون هذه المدة فذلك يعنى أنه قد هلك، نظرًا لأن الطريق خلو من الآبار بعد أن يغادر المــسافر قريــة ذاكــار Zakar، التى تبعد عن هواويرى مسيرة ثلاثة أيام. فى كل الأحوال ستكون رحلــة مثيرة، وإذا ما نظرنا إلى الفراغ الأبيض الذى على الخريطة المساحية التى معنــا، وليست ذا ذاكار موقعة عليها، نجد أننا كنا مشتاقين إلى وضع خط أحمــر طويــل على ذلك الفراغ. القوافل القادمة من مصر يتعين عليها استعمال طريــق جغبــوب اللهم إلا إذا كانت قادمة من سيوة، الأمر الذى يعنى مسيرة نصف يوم إضافى بــلا ماء أيضًا. البديل عن ذلك هو السير سبعة أيام إلــى جــالو، ويــوم إلــى بُطَّفــال Buttafal، ثم سبعة أيام إلى زايغن Zieghen، ثم بعد ذلــك خمــسة أيــام إلــى هواويرى. أبشع ما فى هذا الطريق المباشر، أن أربعة أيام منه تكون خلال الكثبان الرملية السيئة قبل الوصول إلى واحة جغبوب. على كل حال، كان أى شىء يعــد أفضل من محاولة التوفيق بين البدو والسودانيين طيلة ثلاثة أســابيع، وموضــوع الأقدام الملتهبة، والإبل المحملة بأحمال أكبر من طاقتها، والمــاء الــذى تجــرى بعثرته، والوقود الذى جرى استهلاكه كله خلال الأيام القلائل الأولى، فضلاً عــن التأخير الذى لاشك فيه عند كل بئر من الآبار.

أمضينا القسم الأكبر من فترة الصباح فى نقاش مع الجنود، الذين كانوا يريدون الزواج فى جغبوب، وربما كان ذلك تأسيسا على المكافأة التى كانوا يأملون الحصول عليها مقابل مرافقتنا إلى هناك. بدأ الزوار يتوافدون بعد ذلك، مما يعنى أن التفكير بدأ يتغير. بدأ ذلك الإحساس التشككى البارد الذى سبق أن توقعته، يسبب القلق والمتاعب عند الزواويين الذين سبق أن خرجوا غاضبين من مجلسنا قبل يومين. كان حامد بو كريم أسمر اللون أول من جاء. كان حامد بو كُريِّم واحدًا من أعلى الناس صوتًا فى عدم الرضا عن وجود الأجانب. قال حامد بوكُريِّم: "وددت لو أن الناس جميعًا خرجوا للقائكم بالطبول، لكنهم كانوا غير راضين عن ذلك. ما قلتوه فى الاجتماع كان صادقًا، لكن لو وافقتم على ما قلتم لكان ذلك فى غير مصلحتى. كنت مضطرًا إلى تأييد الآخرين، نظرًا لأننا كنا متفقين على ما سنقوله قبل مجيئنا." كانت تلك عينة ضعيفة من عينات العقلية العربية، لكنه أُتْبِع بنوعية أخرى مختلفة تمامًا، سليمان بو مطر، ذلك الرجل كبير السن كثير الأسفار، ومن المخلصين والموالين تمامًا لأسرة السنوسى. كان سليمان بو مطر هادئًا فى الاجتماع الاساسى، ولم يقل سوى أننا سنضيع الوقت فى الذهاب إلى القرى. لكنه قال الآن باعتداد شديد بالنفس: "كان كلامك حكيمًا، لكن يجب ألا تحكمى على الناس هنا بنفس الطريقة التى تحكمين بها على الناس فى بلدك. مصر أم الدنيا. القرويون هنا جاهلون جدًا." ثم عرض علينا بعد ذلك مرافقتنا إلى الجانب الآخر من الواحة.

ترتب على ذلك أن أصبحت المجموعة المرافقة لنا أقل تخوفًا، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى الجوف بلا متاعب. سرنا على الطريق المرتفع الذى يعبر البحيرة الكبيرة المتموجة الموجودة وسط حدائق نخيل الجوف، وعندما وصلنا إلى المستنقع المالح وعر المسالك الموجود على الجانب البعيد، عثرنا على أنقاض قرية كاملة من قرى التبو. كانت بعض المنازل صغيرة على نحو يدعو إلى الدهشة، لكنها بحالة جيدة

جدا- كان الملاط الصلب ناعما ولامعا من الخارج- وتبدو كما لو كانــت أفرانــا مستديرة من الصلصال. ومثلما رأينا فى بوما Buma، كانت هناك أيضًا قلعة على حافة الماء. ويبدو أن التبو كانوا يحاربون باستعمال الرماح فقط، ومن هنا يــصبح شريط الماء حماية جيدة من الهجوم. ومن ثم، حيثما. وجدت بحيــرة فــى واحــة الكفرة أو بُسيمة، يتأكد الإنسان تمامًا من العثور علـــى أنقــاض القــرى والقــلاع البدائية. حقق الزواويون انتصارًا سهلاً لأنهم كانــت لــديهم البنــادق والبــارود. والجوف مدينة محلية كبيرة تمتد مسافة كيلو متر على شكل خــط مــن الجــدران الطويلة الصلبة الخالية من الأبواب والنوافذ. فى طرف من طرفى هذا الخط توجد زاوية قديمة أسسها إخوان سيدى بن على. هذه الزاوية عبارة عن مبنى غير مهم، منخفض جدًا، وفيها مسجد معتم غير مفروش، هذا المسجد كبير ومرتــب، وفــى الغرفة البعيدة ضريح لبنات سيدى المهدى. هذا القبر محاط بإطار خشبى أخــضر اللون ومعلق عليه كميات من بيوض النعام. هذا القبر يحظى بتوقير كبير وشاهدنا فى حوش من الأحواش بعض الحجاج الذين جاءوا من واداى، وهم عبــارة عــن أناس سود شرسى الملامح، يحملون مسابح أضلاعًا طويلة يصنعونها من النخيل.

تمضى حياة أية بلدة من البلدان العربية داخــل جــدران عاليــة لا يمكــن اختراقها. والمدن والبلدان التى ليست على هذه الشاكلة هى مدن الموتى. وأنا أشك أننا رأينا اثنتى عشرة شخصية بعد وصولنا إلى مستوطنة التيب، ومع ذلك فإن عدد سكان هذه المستوطنة يقدر بحوالى سبعمائة نسمة. النساء فى هــذه المــستوطنة لا يخرجن من بيوتهن مطلقًا. طوال فترة وجودى فى تاج لم أر قط أية امــرأة اللهــم باستثناء عبدة أو اثنتين سوداوين كبيرتى السن. هذا يعنى أن الحياة لابد أن تكــون غير عادية داخل بضعة أقدام قليلة مربعة مسورة بجدران خاليــة مــن الأبــواب والنوافذ. تستطيع سيدات أسر السادة من زيارة بعضهن البعض نظــر لأن منــازل الأسرة السنوسية تجاور بعضها البعض الآخر. لكن لم يحدث مطلقًا أن دخلت بلــدة

شرقية فيها الحياه متحفظة وبمعزل عن الآخرين كما فى الجوف. من الطبيعى أن يسمرْ الرجال ويتبادلوا أطراف الحديث، لكن ذلك لا يحدث إلا عندما يكونون فى منازل بعضهم البعض، إذ يستحيل أن يرى المرء تجمعات فى الشوارع. المرء يلاحظ بين الحين والآخر شخصية مهمة ومعها إبريق من النحاس الأصفر، أو براد شاى عادى، يتوضأ منه عند غروب الشمس قبل أداء الصلاة، أو قد يرى المرء شخصا متأملاً رمادى اللحية واقفا أمام باب مفتوح. الفارق الكبير بين البلدات السنوسية وأية مدينة صحراوية أخرى يتمثل فى عدم وجود المقاهى فى المدن السنوسية، والمعروف أن المقاهى تمثل مركز الحياة والحركة. المدن العربية تتباين من حيث الحجم والعظمة، لكن بدءًا من أم درمان فى السودان إلى توغورت Tuggourt، يجد المرء فى كل قرية من القرى - فى أضعف الأحوال - غرفة مبنية جدرانها من الطين، فيها مقاعد غير مريحة وطاولات صغيرة، أو قد يجد فى الأماكن الأكثر بدائية، مجرد مصطبة مرتفعة تمتد بطول الجدران، يجلس الناس عليها يتسامرون ومن أمامهم نرجيلات طويلة السيقان، فى وجود راقصة تقوم باستعراض بعض التنويعات من رقص هز البطن. فى ليبيا تحرم الشريعة السنوسية التدخين، والشرب، والراقصات. ومن هنا لا يكون هناك مبرر لوجود المقاهى، وبذلك تتسم المدن والبلدان بالهدوء، إذ تبدو كما لو كانت مهجورة، ومتحفظة تمامًا!

مررنا على كتل منازل الجوف المبعثرة، والتقينا شقيق شيب She-ib، المدعو أحمد الخضرى، وهو كاتب سنوسى شهير، حيانا تحية حارة وانشرح صدره للأخبار التى وصلته عن عائلته. ثم تسلقنا بعد ذلك مجموعة الغرود الصغيرة الموجودة بعد البلدة ونظرنا من علٍ على قرية التبو التى يرأسها سعد التيبى. كانت المساكن التى شاهدناها بعد المبانى الزواوية الصلبة، بدائية إلى حد بعيد جدًا، لأن القسم الأكبر من هذه المساكن كان عبارة عن أكواخ مصنوعة من

سعف النخيل. كان الرجال طوالاً بشكل عام، ويرتدون جلود الأغنام بحيث يكـــون الصوف فى اتجاه الجسم. طعام هؤلاء الناس أثناء الـــسفر، يتكـــون مـــن الجـــراد المطحون والتمر المطحون الذى يجرى خلطه بالجراد المطحون أيضًا. النـــساء لا يلبسن سوى قطعة واحدة من القماش أسود اللون، تلففنها من حول أجسامهن مثـــل البرَّكان (الشال) لكنها عادة ما تكون رثَّه ومهلهلة، ولا تفى بالتغطية الكاملة. أمـــا النساء الصغيرات فهن جميلات بشكل واضـــح، ووجـــوههن مـــستديرة وجميلـــة، وعيونهن واسعة، ورموشهن طويلة، وبشرتهن شبه سمراء، لكنهن خاليـــات مـــن السمات الزنجية.

اكتشفت أثناء عودتنا عبر الوادى الصفة الصحيحة التى يمكن استعمالها فى وصف القمم الشاهقة فى الكُفاره. صحيح أن هذه القمم كانت كهرمانية اللون، بلون الشمام، الذى كان ينتقص من لون النخيل الأخضر، الأمر الـــذى يجعـــل حـــدائق الجوف تكتسى شكلاً رماديًا فضيًا رائعًا على خلفية لون التلال الذهبى المحروق.

فى تلك الليلة، وبينما كنا نحصى مقدار الشاى، والسكر، والتوابل، عـــرض القائمقام أن يُطلعنا على الرسالة الأصلية التى أرسلها سيدى بن على الـــسنوسى إلى الناس فى واجانجا Wajanga على الطريق إلى واداى. وأعتقد أن تحمـــسنا لرؤية تلك الرسالة أعجب القائمقام، لأنه قام على الفور بإخراج مفتاح ضخم مـــن حزامه وناوله لأحد العبيد الذى أحضر صندوقًا ليس أكبر من المفتـــاح. ووضـــع ذلك الصندوق فى دائرة الضوء فى هدوء، على السجاجيد الداكنة المكوَّمـــة، فـــى صمت مثل الصمت الذى يخيم على المنزل كله، وأخرج سيدى صالح فـــى شـــىء من الوقار ورقة واحدة كان ثلاثة أرباعها مغطاة بلغة عربية قديمة. وقـــد أوردت الترجمة الحرفية لهذه الورقة فى ملحق الكتاب لأن هـــذه الرســـالة لهـــا أهميـــة تاريخية لأنها تفصح عن نية السنوسى فى الموافقة على ولاء الزواويين، وعلـــى مجيئهم إلى الكفرة فى ظل فهم واضح من جانبهم على قبول حكم السنوسى فـــى

الجزء الجنوبى من واجانجا Wajanga. كانت تلك الوثيقة بالغة الأهمية، وقد ثمنت قيمتها عاليا فى منزل سيدى العابد الغريب الموجود فى وسط هذه الواحة الأسطورية.

الفصل الثانى عشر

الهروب من تاج

عشنا بعد ذلك يومًا أو يومين فى حياة تاج الهادئة المتحفظة. استيقظنا بعد طلوع الفجر بفترة قصيرة، فى الوقت الذى لم تبدأ فيه الحركة بين الجدران المعتمة الداكنة الخالية من الأبواب والنوافذ، رحنا نتجول بين القمم العالية محاولين الوقوف على المواقع الدقيقة للواحات والقرى المختلفة. هذه القرى تكاد تكون غير مرئية، فى ظل وجود بعض الأضواء، والسبب فى ذلك أن هذه القرى مبنية من الرمل والأحجار. اكتشفنا أن الوادى يضيق متحولاً إلى شريط من الأرض فى اتجاه الشمال الشرقى فى المنطقة الواقعة وراء بويما Boema، فى حين وجدناه يتسع ناحية الغرب متحولاً إلى منطقة واسعة مغطاة بالحطب، وإلى رواب عالية تغطيها الأدغال غير الورقية والقش. وترتفع تلك الروابى من اثنى عشر قدمًا إلى عشرين قدمًا. وفى المنطقة الواقعة بعد طُلاب Tolab، التى توجد على بعد يصعب معه رؤيتها من فوق هذه القمة الصخرية الشاهقة التى نقف عليها، نجد الحطب يختلط بصورة متدرجة مع الأرض المستوية.

استكشفنا ذات صباح المستنقع المالح بكامله، الذى بنى التبو بيوتهم من مادته الحجرية الصلبة الرمادية اللون. عثرنا أيضا على أنقاض قرية كاملة، على الرغم من بعض المنازل كانت دوائر محطمة على الأرض. كانت فى القلعة الرئيسية غرفة واحدة قطرها عشرة أقدام وأعلى نقطة بارزة فى الجدار يصل ارتفاعها إلى حوالى أحد عشر قدمًا، لكن كانت حول هذه النقطة كتلة من الجدران المهدمة والغرف الأصغر من الغرفة الرئيسية، أو ربما كانت مبانى مستقلة، نظرًا لأن كلاً منها كان مشطبًا تشطيبًا أنيقًا وكانت لها أسطح مستديرة استدارة كاملة، شأنها فى ذلك شأن الأوعية الصلصالية الرطبة التى يراها الناظر مرسومة على العجلة الدوَّارة. وأنا

أرى أن التبو لابد أن يكونو قد اكتشفوا أن الرمل الجامد المالح يصلح بصفة خاصة في صنع المُلاط شديد التحمل، نظرًا لأن حطام قراهم يجرى العثور عليه في المستنقعات، كما هو الحال في بُسيمة، وبوما والجوف. وعندما علمنا أن هناك أطلالاً تيبية في تيسيربو Taiserbo وعن وجود تيبيين فعلاً في ربيانة، استنتجنا على الفور أن هناك مستنقعات في هاتين الواحتين وثبتت صحة ذلك الاستنتاج.

بعد عودتنا من جولاتنا الصباحية كانت شهيتنا مفتوحة مكنتنا من التعامل مع ضيافة سيدى صالح الحاتمية. في كل صباح وعند الساعة التاسعة تمامًا كنت أسمع نقرة خفيفة على بابى المصبوغ باللونين الأخضر والأصفر، ثم أرى دورور Durur بوجهه الأبنوسى اللون والمبتسم، جاهزًا لإرشادنا عن طريق الممر الرملى والحوش المركب والممر المركّب أيضًا، إلى الرواق المكشوف الواسع المفروش بالسجاد، الذى ينتظر فيه مضيفنا الكريم ليصحبنا إلى داخل الغرفة الطويلة التي تفوح منها رائحة الورود والقرفة. وبعد غسل أيدينا في الوعاء الدمشقى جلسنا مربعين بجانب تلك الصينية الضخمة المصنوعة من النحاس الأصفر، وتلت ذلك لحظة من الانتظار المثير إذ قام عبد آخر برفع أغطية اثنى عشر طبقًا. كانت توجد، أحيانًا، صينية صغيرة منقوشة ومطعمة بالفضة، وموضوع عليها حوالى عشر سلطانيات مملوءة بالمكسرات، وأنواع من المهلبية مختلفة الألوان والمزينة باللوز، ومعجنات شديدة الحلاوة شبيهة ببودنج يوركشير، والجنكت(*) الذى يصنع من حليب نعجه وضعت حملاً منذ فترة قصيرة، إضافة إلى كل أنواع التمر والكسكسى المطبوخ مع الزبيب والسكر، والقشدة اللزجة بيضاء اللون التي لها طعم النعناع. كانت سلطانيات الحليب الحار حلو المذاق، وأكوام من الخبز الرقيق، والخبز المحمص، فضلاً عن الخبز الثقيل المُحَمّر مع الزبد والذى يؤكل حارًا مع

(*) جنكت: نوع من الحلوى يعد من اللبن المُخثر المضاف إليه المنفحه. (المترجم)

السكر ويسمونه فى مصر "لقمة القاضى"، أشياء دائمة الوجود على المائدة. العادات والتقاليد العربية تقضى باستضافة الضيف مدة ثلاثة أيام، لكن القائمقام لم يكن يسمح لنا بشراء أى شيء لأنفسنا. تكررت قصة إجدابيا هنا مرة ثانية. وفور احتجاجنا على الوجبات الهائلة التى قدمت لنا فى منزل سيدى العابد، وصلنا فى اليوم التالى تذكير مفاده أن ضيافة الشرق ليس لها حدود ولابد من قبولها بنفس البساطة التى تقدم بها، وبذلك تضاعف عدد الأطباق ولم يكن هناك أقل من عشرين رغيفًا موضوعًا حول الصينية، فى حين لم يكن الطبق الرئيسى مجرد سلطانية وإنما كان كومة من الأرز الناضج ذهبى اللون موضوع فيه الأجزاء الخلفية من خروف كامل. كنا نمضى صباح كل يوم ساعتين فى تلك الغرفة الهادئة نتجول خلالهما بين هذه الحفاوة مختلفة الأنواع المخصصة "للإفطار". وبعد الانتهاء من شرب القهوة المضاف إليها الفلفل، يجيء الدور على أكواب الشاى الحار الأخضر الثقيل الثلاثة، التى يجرى احتساؤها خلال حوار بطيء محترم، تتخلله وقفات عدة، فى حين كان الدخان الصادر عن المبخرة يرتفع على شكل حلزونيات، ومن خلال الباب كان ضوء الشمس يزحف على الجدار ذى الشُرفات المفرَّزة، ليسقط على لون السجاد الأرجوانى والوردى بين عقود الرواق الذى يطل على الحديقة مباشرة.

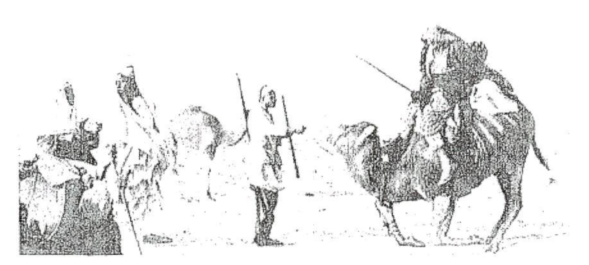
فى حوالى الساعة الحادية عشرة، وبعد الطِّيب، والأحساس بالتخمة والامتلاء استأذنا من مُضَيفنا وانصرفنا بهدوء، لكن فى اللحظة التى أُغلقت بعدها أبواب منزل سيدى إدريس بعد قول "عليكم السلام" الصادرة عن العبد المنصرف، أسقطنا المشية المتأملة المصاحبة لمنزلتنا المرتفعة ورحنا نجرى عبر الفناء لنحبس أنفسنا فى "الحرملك"، ذلك المكان الوحيد الخاص بحق فى هذا المنزل، ومعنا الورق وأقلام الرصاص. أحسسنا بالأسف ونحن نقاوم انعدام الثقة المقصود من جانب الزواويين، الذى تمثل أيضًا فى نظرتهم إلى البوصلة. دار نقاش حاد حول خرائطنا البدائية، لكن حسانين كان دائمًا على صواب فيما يتعلق بالاتجاه، فى حين

كنت أنا على صواب دومًا فيما يتعلق بالمسافة، وذلك راجع إلى الرحلات الكثيرة الطويلة التى قمت بها فى الصحراء، التى تظهر العلامات الأرضية فيها أقرب بمعدل ثلاثة أضعاف المسافة التى هى عليها فى حقيقة الأمر. كنا نعمل بجد حتى الساعة الرابعة أو الخامسة، على الرغم من وجود وقفات بين الحين والآخر- كان من رأى محمد أننا يتعين علينا شراء جمَّال نظير عشرين جنيهًا ثم نبيعه ثانية فى جغبوب، وهذا يوسف يقول: إن القرب لا يزال يتسرب منها الماء على الرغم من تعامله ومعالجته الدقيقة لها؛ وهذا هو سيدى عمر الصغير، متألق فى جبته الصفراء الرائعة، يلمح إلى ندره المطاوى فى الكُفرة؛ وهذا هو الشيخ موسى، الهوارى، يقول لنا إن رجال قريته بلغوا من الخوف حدًا منعهم من زيارتنا فى منزل السادة، لكنهم ندموا أشد الندم على استقبالهم لنا.

وتنقضى الساعات الحارة، وعند الساعة الخامسة تقريبًا خرجنا نتجول لمشاهدة غروب الشمس العجيب على الوادى، فى وقت كانت فيه الواحة كلها مصطبغة لبضع دقائق قليلة بتوهجات قوس قزح. جرت العادة، أن يقوم العبد سرور - قبل غروب قرص الشمس القرمزى خلف الرمال الغربية - بمسح الأرض للإعلان عن موعد العشاء. كنا قد نسينا منذ وقت طويل حساب الزمن الأوروبى. تعودنا أن الشمس تشرق عند الساعة السادسة صباحًا وتغرب عند الساعة السادسة مساء، لكن فيما يتعلق بالمسائل العلمية كلها كنا نتبع التقويم العربى الذى يبدأ بعد ساعة من غروب الشمس. كنا نضبط ساعاتنا مساء كل يوم على التوقيت الشمسى ونجد أنفسنا نحصى الشهور المتغيرة بحساب السنة القمرية الإسلامية. لم أكن أعرف أى يوم من أيام الأسبوع إلا عندما يجىء يوم الجمعة، الذى كنا ننضم فيه إلى جمهور المصلين الذين يرتدون أفضل ملابسهم، ويروحون يقصدون المسجد. فى الصحراء، نجد أن الأكثر علمًا هو الذى يقرأ القرآن ويدعو ببعض الدعوات البسيطة. وفى الوقت الذى كان المؤذن يؤذن للصلاة قائلاً: "لا إله إلا الله! حى على

الصلاة! حى على الفلاح!" من فوق البرج المدور الموجود عند نهاية جدار الزاوية، مررنا بين المنازل مغلقة النوافذ، ونحن نحيي بحق الأشكال التي كانت ترتدى ملابس بيضاء وتعترض طريقنا. وعندما دوى النداء الأخير "الله أكبر!" دخلنا أول باب منخفض وطوقتنا سرّية المنزل، ما عدا الحيوات الكثيرة التى جرت خلف شيش النوافذ الخشبية، التى لم تفتح مطلقًا أمام العيون الكحيلة حتى تتمكن من النظر ولو خلسة إلى الغرباء المتجمعين! فى بعض الأحيان كان سيدى عمر الصغير يجرى لكى يقبل يدى ويقول: "على رأسى وعلى عينى، فأنا أحبك!" رأينا فى بعض الأحيان صفًا طويلاً من الشباشب الجلدية حمراء اللون أمام مدخل من المداخل المسقوفة الصغيرة ونظرنا نظرة خاطفة أشكالاً بيضاء منحنية على طبق كانوا يأكلون منه على نحو سريع باستخدام الإبهام وأصبعين آخرين- إذ ليس من الأدب أن يوسخ المرء من يده جزءًا أكبر من هذا الجزء. وفيما عدا ذلك كان المنزل يحتفظ بكل أسراره، ولم نعرف قط أولئك الذين يعيشون فيه أو حتى كيف يعيشون!

تحسن الجو بعد تناول وجبة العشاء وشرب الشاى المنعنع على ضوء الشموع. تحدث مضيفنا إلينا عن السادة الذين خدمهم، وعن تاريخهم العظيم ونفوذهم الكبير. عرفنا أن سيدى أحمد الشريف كان يحظى بالاحترام والتقدير بصفته مؤيدًا للنظام القديم. معنى ذلك أن سيدى أحمد الشريف كان يمثل القوانين السنوسية الصارمة التى لا تلين. كانت أحكام الرجل قاسية لا تعرف الرحمة، وسريعة التنفيذ، مثلما حدث لمختار التعيس. لم ير الجانى سوى شكل مهيب أبيض، مُقنَّعٌ تمامًا، ومن خلف ذلك القماش الأبيض بياض الثلج جاءت كلمات الحكم الذى لا يقبل النقض. كان السيد أحمد يكسر الرجال، ولا يطويهم. ومع ذلك كان الإخوان الذين يكبرونه سنًا، جادين وبسطاء يوقرونه لأنه كان يمثل لهم قوة الموروث، والإسلام الصحيح، وكان معارضًا تمامًا للتقدم الأوروبى. على الجانب الآخر، كان سيدى إدريس محبوبًا. ولما كان القديس السنوسى واحدًا من أبناء المهدى، وقد



BARRAKING: A TOO SUDDEN DESCENT!

تبريك الأبل: منزل مفاجئ شديد الانحدار



A LUNCH IN KUFARA VALLEY.

تناول الغداء فى وادى الكفره

بدأت أعماله وكلماته تتخذ الطابع الأسطورى، فقد أصبحت له سلطة وقوة كبيـــرة. البدو بطبيعتهم يودون أن يعبدوا شيئا محسوسًا بعد الله ﷻ. البدوى لابد أن يحـــس عن قناعة أن هناك مخلوقًا على الأرض يمزج بين القوة الروحية والقوة الدنيويـــة حتى يتمكن هو نفسه من البقاء فى شكل من أشكال الأمن الصوفى. "إن شـــاء الله، وإذا ما أراد سيدنا إدريس!" عبارتان تتكرران على ألسنة النـــاس بـــصفة دائمـــة. والأمير ذائع الصيت بسبب عدله وصبره. متشدد وقاسٍ مثل أسلافه الذين ســـبقوه، لكن هذه القسوة تخف بسبب صبره الذى لا ينفذ، الذى يتجلى فى دراســـة وفحـــص كل أركان القضية قبل إصدار الحكم. وهذا يعد أمرًا ضروريًا فى ســـاحة العدالـــة القرآنية وهى الدستور الوحيد. 'العين بالعين. والسن بالسن.' السُكْر عقوبته الجلـــد. واللص تقطع يده اليمنى. والخيانة جزاؤها الموت. لو لم يكن سيدى إدريس مـــسلمًا حقًا، ومتصوفًا عظيمًا بحق، لما حصل على ولاء أتباع والده، هذا فى الوقت الذى أكسبته سياسته الخارجية الذكية واسعة الأفق احترام العنصر الحديث. اتفاق رجيما Regima كان واحدا من أنتصارات سيدى إدريس الكبيرة. هذا الاتفاق برهن على قوة سيدى إدريس الكبيرة. هذا الاتفاق برهن على قوة سيدى إدريس فى برقة. وقد أعلن شيوخ قبائل الساحل وبلا أستثناء أن "كلمة إدريس هى كلمتنا!"

سيكون آخر مشاهد اليوم مرتبطًا دومًا فى ذهنى بقراءة القرآن فى الزاويـــة وضوء النجوم الساطع، أثناء عودتنا إلى منزلنا فى صمت، لا يقطعه سوى الحفيف الناجم عن شباشبنا التى بلا كعوب ونحن نسير بها على الرمـــل. وبينمـــا الـــضوء الأبيض البارد يعاكس شموعنا، وبينما كانت كلمات 'الكتاب الحكـــيم' (القـــرآن) لا تزال تطن فى آذاننا، بدأ الزوار فى الظهور بصورة متدرجة: القاضى، ثم عثمـــان القاضى، محمود الجدّاوى، الوكيل، وقلة قليلة من الإخوان المتقدمين الذين كان من بينهم محمد التواتى "أحد أصدقاء المهدى المقربين". محمد التواتى هذا مصاب بشلل جزئى، وهنا انبرت الذهنية السنوسية، اليقظة دومًا للعلامات والمعجزات، تفسر أن

ذلك الرجل التعيس (المشلول) تحدى أوامر سيدى الريفى المباشرة وقام برحلة في اتجاه الشمال. ونفق جمله وأصيب هو نفسه بالشلل قبل أن يصل إلى هوارى.

كان الحديث في تلك الأمسيات المعتمة، وأنا أقوم بإعداد الشاى المعطر، خلوًا إلى حد ما من الرسميات. عرفنا ما فعله المهدى من أجل الكُفرة، وكيف أنه أدخل اليها - بعد الزهور والفواكه والخضروات - الحمام والبط وزراعة الحبوب. وعلافنا أيضا أنه هو الذى بنى القلعة المخطورة فى تاج، التى يصل عمق الآبار فيها إلى ستين قدمًا الأمر الذى يجعل الماء نادرًا بصفة دائمة، وتصبح القرية المملوءة بالماء شيئًا ثمينا، نظرًا لأن عبدين قويين يتعين عليهما رفع الدلو الثقيل قدمًا بعد آخر. كان موقع القلعة من المواقع التى جرى انتقاؤها برقة، لكن بلدة تاج تعتمد حياتها على جيش من العبيد، نظرًا لأن كل الحاصلات البستانيه وكل زهرة من الزهور، وكل ثمرة من التمور، وكل حطبة من الحطب يتعين نقلها من الوادى المنخفض. الوقود فى هذه البلدة هو الحطب الجاف وسعف النخيل كبير الحجم. يجرى أيضا فى الوادى عمل الفحم النباتى. والمهدى هو الذى أنشأ طريق القوافل المنتظمة إلى واداى، وهو أيضا الذى شجع على توسيع نطاق التجارة بين السودان وبرقة. وهو الذى اكتشف "بطريقة عجيبة جدًا" الآبار التى على الطريق الجنوبى، وحكى لنا الشيخ سليمان بو مطر كيف كان والده بصحبة الولىّ، عندما خذل الماء القافلة فى سارَة Sarra، فى الطريق إلى واداى. وأشار الزعيم السنوسى إلى بقعة كانت تبدو صخرة صلبة وطلب من الرجال الحفر فيها. وساعة بعد أخرى، راح الرجال يواصلون الحفر إلى أن وصل العمق إلى مرحلة أصبح من الصعب معها رؤية المراقفين الواقفين فى الأعلى. ثقة هؤلاء الرجال بالمهدى هى التى جعلتهم يقومون بهذه المهمة الجبّارة، نظرًا لأن الماء يظهر على عمق ١٢٠ قامة" (القامة هى طول الساعد واليد من الكوع إلى السبّابه). قال الشيخ سليمان: " الرجل حاد البصر هو الذى يستطيع رؤية الماء والحبل الذى لا ينتهى طوله ".

عرفنا أيضا قائمة الأسعار في الكفرة، من خلال تاجر متأمل، ذكَّرني جيرده المخطط باللونين البني والأصفر بصورة من صور الكتاب المقدس. يتراوح ثمن الهجين (الجمل العدَّاء). التي لا توجد إلا عند التبو، بين سبعة عشر وثمانية عشر جنيها ذهبيًا. كان سعر الخروف خمسة مجيديات، وسعر العنزة نصف مجيدي، والداجنة تباع بنصف مجيدي، وتباع الحمامة الواحدة بأربعة قروش ونصف القرش. كان البيض رخيصًا جدًا- المائة بيضة تباع بمجيدي واحد (أي أن البيضتين تباعان ببني واحد)، لكن السكر كان يباع بواقع مجيدين للأقة الواحدة من السكر (أي أن الرطلين الإنجليزيين كانا يباعان بثمانية شلنات)، وكانت أقة الشاي تباع بثلاثة مجيديات. كان الزبد يباع بواقع ثلاثة أرطال عربية (حوالي رطل واحد إنجليزي) لكل مجيدين. وليس هناك، في واقع الأمر، منتجات أخرى معروضة للبيع. أصحاب الحدائق هم الذين يفلحونها بأنفسهم. تطوع محمود الجدَّاوي بإعطائنا مزيدًا من المعلومات عن التمور. "الرعي طيب في بارسا Barca هذا العام، ولذلك يمكن شراء أحمال عدة نظير مجيدي واحد، لكن عندما يقل العشب في الشمال يأتي الزواويون إلى هنا على شكل قوافل كبيرة ويشترون تمورنا كلها، الأمر الذي يجعل الناس يبيعون بضعة أرطال من التمر بمجيدي واحد!"(*) أردف محمود الجدَّاوي قائلاً: إن أطنانًا كثيرة من تمور السادة كانت قد أصيبت بالعفن في ذلك الوقت، نظرًا لعدم وجود الإبل الكافية لنقلها.

قلت: "لقد لاحظت قلة عدد الإبل في الكُفرة". ردَّ عليَّ "الرجال قليلون جدًّا أيضا في الكُفرة". لقد أخذ الزواويون إبلهم إلى بارسا Barca هذا العام لكي تتغذى على العشب والكلأ الطيب هناك. هم يفعلون ذلك كل عام في فصل الشتاء عندما

(*) سعر الصرف المعتاد هنا هو ستة مجيديات للجنيه الإنجليزي، أما الجنيه الذهب فيباع بسبعة مجيديات. العملة الورقية لا يجري التعامل بها فيما عدا إجدابيا. والمجيدي الواحد يساوي عشرة قروش.

تبدأ النوق فى وضع حملها، وبخاصة عندما يقل العلف هنا. والزواويون يتركــون عائلاتهم فى الكفرة ويعودون إليها فى فصل الصيف.

كان النوم يغالبنى قبل رحيل الزائر الأخير، الذى حثنا بشدة على عدم السفر عبر طريق جغبوب. الزائرون هنا محبطون فيما يتعلق بالقيام بــالرحلات، نظــرًا لأنهم يتذكرون دومًا قصص الموت المرعبة الذى ينتج عن العطش أو عندما يضل المسافر الطريق والاتجاه، وبخاصة عنــدما يروحــون يــروون هــذه القــصص بالتفصيل. وعليه عرفنا أن جبل فاضل، الذى يقع فى ناحية الــشرق مــن طريــق زايفن، سُمِّى بهذا الاسم لأنه قبل عشرين عامًا ضل شخص يدعى جبيــل فاضــل طريقه إلى بئر زايغن zieghen وهو فى طريقه قادمًا من جالو، ووافت المنية هذا الرجل هو وأسرته فى الجبل. وفيما يتعلق بطريق جغبوب كانــت أكثــر الجمــل المشجعة، "إذا ضللتم هذا الطريق، فإنكم ستصلون إلــى ســيوة أو جهــنم!" قالهــا صاحبها بنغمة لم تترك أي شك فى أى من هذين الاحتمالين!

كنا قد حصلنا على خدمات سليمان الحارس الوحيد فى المكان، وتأكدنا مــن أنه قام بهذه الرحلة قبل أربعة أعوام، وأنه سبق له القيام أيضًا بهذه الرحلة بصحبة يوسف. كان يوسف رجلاً صغير الجسم كبير السن هادئ الطبع، منحنــى الظهــر قليلاً وأشيبَ، وقليل الكلام. وعندما سألنا عن طول الرحلــة قــال: "والله، أنــا لا استطيع القطع بذلك. أنا أقطع هذه الرحلة فى اثنى عشر يومًا بدءًا من ذاكار، لكني لا أعرف كيف تسيرون". أكدنا له بكل السبل والحماس أن سيرنا فى معظم الأحيان سيكون شبيهًا لسيره هو، لكني شخصيًا ظننت أن القافلة كلها يمكن أن تجلس أرضًا وتموت بسبب الجوع الشديد. لم أكن أنا ولا حسانين قد تعودنا على الــسير طــوال اثنتى عشرة ساعة. كان محمد قد أوشك على الموت عندما حــاول الإقــدام علــى محاولة من هذا القبيل. وهذا هو يوسف تعافى من جديد بسبب التغذية الجيــدة فــى تاج، فى حين كان سليمان يبدو عجوزًا وهشا لا يقوى على القيام بهــذه المــسيرة

الطويلة. ونحن بدورنا كان ضعفنا مساويًا أيضًا لـضعف الحيوانـات، نظـرًا لأن أفضل هذه النوق كانت قد وضعت حملها، وكان المتبقى لنا، نوقا صغيرة لا يمكـن الاعتماد عليها، وعمر الواحدة منها ثلاث سنوات، هذا فضلاً عن زوج من الإبـل الكبيرة، بالإضافة إلى بعض الإبل الشبيهة بالصور الكاريكاتورية والتـي أصـابها العرج، بسبب أقدامها المجروحة! يزاد على ذلك، أننا أصـبحنا متـواكلين تمامًـا. واقترحنا أن نأخذ معنا مخزونات كبيرة من الماء، وتركنا الباقى على الله ﷻ.

اقترحنا أيضًا مغادرة الكُفرة بأسرع ما يمكن. وذلك لأن مُضيِّفينا كانوا أولاً وقبل كل شيء أسخياء فى كرمهم إلى حد أننا لم نطق تحمل ذلك الكرم أكثر مـن ذلك، وإحساسنا بأن ذلك يجب ألا يتجاوز ما هو ضرورى. ثانيًا، إنه على الـرغم مما يمكن تسميته بالجماعة المسئولة مسئولية مباشرة أمام الحكومة، كانوا متعاطفين تمامًا مع ضيوف حكامهم، فى حين كان الإخوان القدامى بمعزل عن هذا التعاطف. لم يستوعب هؤلاء الإخوان القدامى فكرة حصول الغرباء علـى تـصريح أو إذن يسمح لهم باختراق خصوصية هؤلاء الإخوان. كان أولئك الإخوان مـشتتين بـين رغبتهم فى تكريم وتشريف سادتهم وبين الرعب الذى أصابهم نتيجة حيـدهم قيـد أُنملة عن العادات والأعراف الراسخة من قديم الأزل. كان الزواويـون منقـسمين فيما بينهم إلى حزبين. كان الكثيرون منهم قد أصابتهم عدوى القصص التى ترويها عائلة البزاما وعبدالله، لكن جماعة صغيرة كانت قد تشكلت وراحت تعمل لصالحنا بقيادة سليمان بومطر.

كانت هناك دومًا تيارات وتيارات أخرى متعاطفة تسرى تحت الـسطح فـى بعض الأحيان، وتتموج متحولة إلى شكوك. يزاد على ذلك، أنه كانت هنـاك أيـضًا أسئلة واستفسارات ملحة من جانب العناصر الخارجة على القـانون حـول التـاريخ المحدد لرحيلنا والطريق الذى سنسلكه. كان معلومًا للجميع أن الجنـود لـن يكونـوا بصحبتنا أثناء السفر، وعليه يمكن أن نكون فريسة سهلة إذا ما أراد رجال القبائل أن

يلعبوا ورقتهم الأخيرة. وعليه روجنا شائعة مفادها أننا يتعين بقاؤنا فى تاج أربعة عشر يومًا، نروح خلالها نرتب فيما بيننا وبين أنفسنا هروبًا جديدًا، وأن يكون ذلك الهرب بمساعدة وعون من القائمقام، الذى وضع خطة صغيرة تقضي أن تسبقنا قافلتنا الصغيرة بمسيرة يوم واحد، فى الوقت كنا لا نزال فى تاج. وأننا يمكن لنا اللحاق بالقافلة، تحت إرشاد شيخ موثوق به، عن طريق الإبل سريعة الخطو.

كان من الضروري علينا أيضًا، تحري الطرف الغربى من الواحة. وتحقيقًا لهذا الهدف عرض الشيخ سليمان أن يقوم بدور المرشد والمضيف فى آن واحد. قال الرجل فى هدوء "سأرتب كل شيء. لا تتعبوا أنفسكم. ستسافرون فى راحة وأمان". تعجبنا من فكرة هذا الرجل عن الراحة عندما أعلن أننا سنبدأ التحرك قبل طلوع الفجر بساعتين، نظرًا لأن الطريق كان طويلاً جدًا. وعليه استيقظنا عند الساعة التاسعة بالتوقيت الليلى العربى (المصادفة للثالثة صباحًا)، وبعد فترة قصيرة أنذرنا طرق خفيف على الباب بأن الحرس قد وصل. أسرعنا إلى خارج المنزل، ونحن نمسك بكل ما لدينا من بطاطين، لأن الجو كان شديد البرودة. كان القمر قد غاب، ولذلك ظننت فى البداية أن برجين هائلين قد قفزا واقفين خارج المنزل أثناء الليل. كشفت النظرة الثانية أن هذين الرجلين كانا عبارة عن هجينين عاليين جدًا. جري تبريكهما بصعوبة، وركبت أنا فوق سرج هو أشد السُرج التى لقيتها فى حياتي إقلاقًا وإتعابًا. لابد أن الراحة المقصودة كانت تتعلق بالإبل، من منطلق أنها إبل خفيفة الحركة للغاية، لأن السرج كان عبارة عن عمودين يبعدان عن بعضهما عشر بوصات تقريبًا، وفيما بينهما سجادة مزدوجة لها شُعاع ، من الأمام وشعاع من الخلف، لكن هذا السرج كانت فيه كل الصفات التى تسبب آلام العظام لراكب الجمل. وهنا خطر على بالي كيف أنى سوف أُمضى ما لا يقل عن سبع عشرة ساعة على هذا المقعد المتعب. كان القومندان صالح أفندى، بعباءته الذهبية الخضراء مفرودة على جيرده بالغ السماكه، هو وحسانين يركبان حمارين،

كان يبدوان لى صغيرين جدًا من الارتفاع الكبير الذى أنا عليه فوق الجمل. وكـان هناك جنديان راكبان الواحد خلف الآخر على الهجين الثانى، ومشينا عبر الـوادى نشق طريقنا ببطء إلى أن وصلنا إلى مجموعة النخيل،التي وقفت الجماعة عنـدها استعدادًا للركوب.

كان حجر المستنقع فضي اللون يبدو فى ضوء النجوم كما لو كان متجمـدًا ورمادي اللون، فى حين بدت منازل الجوف كما لو كانت غـشاوة علـى سلـسلة منخفضة من الجبال. أما الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل فكانت تخشخش كما لو كانت أصابع امتدت لتسد علينا طريقنا، فى حين بدت لنا، فى ظـلال النخيـل، الدعامات الكبيرة فى "الشّدوك" (الآبار) كما لو كانت مشانق.

برّكنا إبلنا خارج جدار من جدران الجوف الخالية من النوافـذ والأبـواب، وبعد أن طرقنا الباب طويلاً جاءنا عبد شبه نائم ليقول لنا: إن الشيخ سليمان لـيس جاهزًا بعد. الحياة العربية تقبل التكيف والتغيير والتبديل. وخلال دقائق معـدودات من تلقى هذا الخبر، كانت سجاجيد السُرج قد جرى فردها بجوار الجدار، وأشعلت نار فى سعف النخيل (جاءتنا من قبل مضيفنا، وجرى إحضار التمر مـن المنـزل المضياف نفسه، وجلسنا كلنا أرضًا فى انتظار طويل فى ضوء النجـوم الـساطع. وأنا اعتقد أني نمت لحظات قليلة، بعد أن وضعت رأسى على حجر، لأني عنـدما استيقظت على "السلام عليكم!". الرقيقة كانت النجوم أقل بريقًا، وكان هناك هجـين ثالث يقف على خلفية السماء الرمادية. توجهنا فـى مـسيرنا صـوب الجنـوب، وسرعان ما أصبح المربع السكنى الطويل لمنازل الجوف، هـو وحـدائق الـسادة المسوّره تسويرًا جيدًا، وراءنا فى الخلف. ترفقت الحمير فى سيرها بخطي بطيئة، فى حين راحت الإبل تسير بلا كلل، شبه مسرعة، وشبه مهرولة، وهذا هو خطـو الإبل المريح فى العالم كله ــ ومع اكتمال طلوع النهار وجـدت أن هجينـى مـن النوع التبستى Tebesti كبير الحجم، ولونه رمادى شاحب، وشعره طويل وشـكله

مهيب، لكنه لم يكن طيب السلالة مثل الهجينين الآخرين. كان الهجينان الآخران من سلالة إبل الطوارق التي لونها خليط من الرمادى والأبيض، ولها أعين زرقاء، ونحيفة جدًا مثل كلاب الصيد فى رشاقتها. هذا النوع من الإبل قادر على الدخول فى سباقات الإبل إذ يستطيع قطع عشرة كيلو مترات فى الساعة الواحدة.

واصلنا مسيرتنا راكبين طوال فترة الفجر، وإلى أن بدأت ترتفع حرارة الشمس، كل ذلك كان فى اتجاه الغرب مع انحراف قليل ناحية الجنوب. وهنا بدأ نخيل الجوف يختفى من على يميننا. وتركنا زرَّوق على الجانب الآخر. وبعد أن وصلنا إلى الأرض المفتوحة،التى تبدأ عندها تلال الحطب، تبيَّنا أننا كنا نترك الوادي المسحور خلفنا. دُرنا حول حزام النخيل الطويل الذى كون طُلَيليب Tolelib. لا توجد قرية حقيقية فى الواحة، لكن المنازل مبعثرة خلال المنطقة الخضراء، التى يلمح الإنسان فيها بعض المنازل القليلة التى يعيش فيها العبيد الذين يقومون على رعاية النخيل. وعندما توغلنا إلى مسافة اكبر فى اتجاه الغرب بدأت الروابى فى التحول إلى تلال صغيرة، وبدأت خصلات الحشائش الخضراء تتخلل الرمل الأحمر هنا وهناك، فى حين بدأت كتل الأدغال رمادية اللون تتسلق الغرود (كثبان) الرملية الصغيرة. وبعد أربع ساعات من شروق الشمس، وبينما كانت طِلاَب Tolab تبدو أمامنا عن بعد، نادي الشيخ سليمان بالتوقف. كانت ريح شمالية باردة قد هبت علينا وطالت الجزء الضعيف من كتفى، ولذلك سعدت جدًا عندما اختار الشيخ سليمان أكبر التلال الرملية كى نتناول عليه طعام الإفطار. جرى فرد الأكلمة ذات اللون القرمزى الفاقع على الجانب البعيد عن مهب الريح، لكى يجلس عليها الرجال، وجرى فرد سجادة وردية اللون لى خلف ربوة صغيرة، من منطلق أن المرأة لا تستطيع تناول الطعام مع الجنود. تخيلت أن ذلك يمكن أن يؤذى مشاعر الزواويين، إذا ما وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مصادفة أنامل أنثوية فى إناء مشترك.

بعد تناول هذه الوجبة كنا قد فهمنا ذلك الذى يعنيه البدوى بالسفر المـــريح. لابد أنه كانت هناك أدوات مطبخ كاملة مخبأة فى الخروج المخططه زاهية اللـــون المعلقة على جانبى الجمل أزرق العينين. وسرعان ما فاحت أجمل الروائح من إناء يُسوّى فيه الطعام على نار الحطب. جاء إلى جندى يحمل إبريقا طويل العنق مـــن النحاس الأصفر ومنشفة قبل أن يجرى تقديم إفطارى إلى فى تواضع بواسطة خادم كبير محترم من خدم الشيخ، ويدعي محمد، والذى جرى المسافة كلها بـــدءًا مـــن الجوف، وبلا تبرم، بجوار سيده، على الرغم من أنه كان يحمـــل بندقيـــة ثقيلـــة. أعطوني صينية صفراء مملوءة بالتمر كى أكلها وأنا مشغولة بكتابـــة فقـــرة عـــن الفوائد المختلفة لأكل التمر واستعمالاته فى الكفرة. التمر يجري تناوله فى الكفـــرة للتحليه الداخلة فى عملية الطهى. والتمر عندما يجرى خلطـــه بـــبعض العناصـــر المحلية الأخرى يتحول إلى مادة لزجه شبيهة بالغراء. التمر الطرى إذا ما دُهـــن بعض الشيء، يمكن استعماله مكان الفللين وكل زجاجات وقوارير الزيوت يجـــرى غلقها باستعمال هذا المعجون. نوى التمر تصنع منه أزرار تضعها بنات التبو فـــى فتحات أنوفهن. وأنا على يقين من أن هناك استعمالات أخرى للتمر، لكـــن منظـــر الطعام هو الذى أوقفنى عن التفكير فى الاستعمالات الأخرى للتمـــر، فـــى ذلـــك الصباح، وأنا بين الروابي التى تعج بالحطب.

رفعت غطاء مـــضفورًا مـــن ســـعف النخيـــل مطـــرزًا بـــاللون الأحمـــر لأرى ما يقرب من أثنى عشرة بيضة مـــسلوقة مـــن حـــول كومـــة مـــن الخبـــز الرقيق المقرمش. وكشفت كمية أخرى من ســـعف النخيـــل عـــن كميـــة كبيـــرة من لحم بارد من الضأن، جرى طهيه مـــع الفلفـــل الأحمـــر والبـــصل، تكفـــى لا طعام المجموعة كلها، وكان ذلـــك كلـــه متوازنـــا مـــع ســـلطانية مـــن الحـــساء الكثيف اللذيذ العامر بالشعرية والجـــزر وخـــضروات أخـــرى غيـــر معروفـــة.



SULEIMAN BU MATAR'S PICNIC IN KUFARA WADI.

رحلة سليمان بومطر فى وادى الكفرة

كان ذلك كله حارًا وعليه شرائح مــن الفلفــل(*) قرمــزى اللــون. كــان الــنهم والخوف يتصارعان فى ذهنى، لكن النهم هو الــذى فــاز فــى ذلــك الــصراع، ولم تستطع ريح الشمال الباردة كلهــا ترطيــب لــسانى الــذى أصــابته الحمــى بعد أن شاركت فى التهام ذلك الطبق المتبل تتبيلاً شديدًا.

انضممت - عندما كان صف من برادات الشاي الصغيرة يجرى تــسخينها على أكوام منفصلة من النار - إلى المجموعة الجالسة تحت الربوة الكبرى وشربت معهم شايًا حارًا حلوًا، كان له مذاق القربة التى كان الماء مخبأ فيها تحــت خــرج السَّرج. تلا ذلك صمت دام حوالى نصف ساعة، تخللته ملاحظــات بــين الحــين والآخر حول الحياة النباتية والحيوانية فى الوادى، كان ذلك أقل الموضوعات إثارة للشك، يزاد على ذلك أن محمدًا كان ميالاً إلى الشك بــشكل واضــح. ولــم يكــن بإمكاننا إطالة الحوار حول هذا الأمر نظرًا لعدم وجود حيوانات برية فى الكفرة، إذ لم أشاهد فيها مطلقًا أى نوع من الطيور، على الرغم من قولهم: إن أنواعها عــدة، من بينها "أبو فصاده"، تظهر فى شهر مارس، فى فــصل الحــصاد ــ نظــرًا لأن الحبوب من المحاصيل الشتوية فى الكفرة. هناك تشكيلة كبيرة من الحــشرات فــى الكفرة، وتتميز تلك الحشرات بالنهم الشديد! صِــلّ(**) كليوبــاترا، ذلــك الثعبــان الصغير طحيني اللون، يكمن مترصدًا بين الرمال، كما يوجد فى الواحــة أنــواع متعددة من الثعابين الكبيرة والصغيرة، والقسم الأكبر منها سام. وأكدوا لنا وجــود ثعبان داكن كبير يصل طوله إلى حوالى٦ أقدام، يخشاه المواطنون ويخافونه بصفة خاصة. وربما كان ذلك هو وحش الهواويش الأسطورى!

بدت لنا طولاب Tolab بعد تناول الوجبة الممتازة أكثر قربــا كمــا بــدت الريح أيضا أقل عنفًا. سرنا مدة ساعتين أخريين وتحققنا من شكوكنا التى مفادهــا

(*) استعملت المؤلفة كلمة "فلفل" بلفظها العربى . (المترجم).

(**) الأفعى الصغيرة السامة. (المترجم)

أن الوادى ليست له نهاية محددة؛ ودار بيننا نقاش حاد حـول مـسألة الـدرجات المستخدمة فى القياس، لأننا لم نجرؤ على إحضار حتى ولو مجرد بوصلة معنـا، وقد حُسم هذا النقاش لصالحي عند غروب الشمس، واتجهنا بعد ذلك إلـى حـدائق طولاب المبعثرة، التى شاهدت فيها زهورًا، ورعي الحمـام(*)، وأشـجار ليمـون صغيرة الحجم، كلها مربوطة ربطًا أنيقًا بحصير ليفى بالطريقـة التـى يـستعملها البستانيون الإنجليز. لا يوجد أى شيء يمكن رؤيته فى هذه الواحة الأخيـرة مـن واحات الكفرة والتى تتبعثر بيوتها المصنوعة من الطوب الرملى بلا انتظام ، حول المناطق المزروعة. لاحظنا أيضا بعض "الشواريك" (الآبار)، التى يجـرى جلـب الماء منها باستعمال حمير صغيرة رمادية اللون، واستعجلنا مضيفنا لإلقاء نظـرة سريعة على جبل نيرى الذى يقع على بعد مسافة كبيرة، نظرًا لأن المضيف أصبح هو الآخر مهتمًّا بمسألة الاستكشافا لتى نقوم بها. تعد هذه الجبال معـالم أرضـية رائعة تمتد مسافة مسيرة يومين على الأقل، فى اتجاه الجنوب والشمال، لكن عندما مررنا بهذه الجبال أثناء خروجنا من بُسيمة لم تكن لدينا الوسائل التى تمكننـا مـن معرفة ارتفاع هذه الجبال. ظننا أنها ربما يتراوح ارتفاعها بين ١٥٠ ــ ٢٠٠متر، فوق أرض المنطقة المحيطة بها، الأمر الذى يجعل ارتفاعها عن مـستوى سـطح البحر يتراوح بين ٧٥٠-٨٠٠ متر، لكن هذا مجرد تخمين.

تقع ربيانة على بعد مسيرة يومين ونصف اليوم فى اتجـاه شـمال غـرب طولاب، خلف قارة يصل حجمها إلى ضعف حجم قارة بُسيمة. قيل لنـا إن عـدد سكانها يقدر بحوالى مائة نسمة من الزواوين والتبو. توجد فى ربيانه زاوية قديمـة أسسها الإخوان الأربعة الذين أوفدهم إلى ربيانة سيدى بن على. شيخ هذه الزاويـة إسمه أبو بكر. وهناك مستنقع مالح بين الجبل وشريط النخيل الـذى يقـدر طولـه

(*) نبات زهرة مختلف الألوان. (المترجم)



A TEBU AT AWARDEL IN KUFARA.

تيبى من أواردل فى واحة الكفرة

بحوالى ثمانية عشر كيلومترًا، والزاوية موجودة عند نهاية الطرف الجنوبى من هذا الشريط، فى حين توجد عشرة منازل فى الطرف الشمالي منه. حصلنا على هذه المعلومات من الشيخ سليمان عندما كنا ندور حول الطرف الغربي من طولاب، ثم عدنا إلى منزلنا عن طريق أرض الحطب المنخفضة الجرداء فى اتجاه طُلّيب Tolelib. أصبحت الساعات بعد ذلك أمرًا لا قيمه له. لم يكن هناك شيء يقترب منا، فى حين كان عمودا السرج يبدوان مثل حدى سكينين. جاءت الفسحة الوحيدة عندما توقفنا لأداء صلاة العصر. وبدأنا ندخل بصورة متدرجة، الطرف الشمالى من شريط نخيل طُلّيب، وزاد شكرنا وامتناننا، قبل غروب الشمس مباشرة، عندما نادى الزوّاوي الذى لا يعرف التعب بالتوقف بجوار سد رملى ضخم، ورحنا نكرر الوجبة التى تناولناها فى الصباح. "سوف نتناول كوبًا من الشاي" قالها مضيفنا بتواضع، فى الوقت الذى كان يجرى فيه تسوية طبق شهى فى الإناء الكبير، بعد أن قام صالح أفندى بإحضار بعض من النعناع الطازج الذى أُعطى لمضيفنا عندما كان فى طولاب Tolab. كان الجميع يأكلون بطريقة سريعة فى هذه المرة، إذ كانوا يغمسون قطعًا كبيرة من الخبز فى وعاء الخضار المطبوخ مع اللحم، لكنهم فى هذه المرة قدموا إلى وجبه مُعَدة بطريقة فاتحة للشهية على أطباق مصنوعة من أغصان شجر الصفصاف. ركبنا من جديد راحلاتنا خلال نصف ساعة، لكن الحيوانات كانت مُتْعبَه وكان غروب الشمس يبدو خافتًا من خلفنا قبل اقترابنا من خلال زرُوق المعتمة. وهذا هو القمر فى تربيعه الثالث يختلط لونه الفضى مع حُمرة الغروب المتّقد والرمال الكهرمانية اللون تعكس هذه الألوان الأكثر غرابة، التى تَغيرت فى الضوء الوهمى شأنها شأن المشهد التحويلى فى التمثيل الإيمائى. بلغت سرعة سيرنا فى الرمل الناعم العميق، مبلغًا جعلنى أتعلق باهداب راحتى طيلة ثلاث ساعات أخرى. كنا قد غادرنا الجوف على ضوء النجوم. وعدنا إليها على ضوء النجوم، وعلى هدى من نار جرى إشعالها لنهتدى بها إلى الطريق

المؤدية إلى حدائق السيد رضا،التى طلب محمود الجداوي أن يحضر لنا منها بضعة جوالات من التمر، لكى نستفيد بها فى رحلتنا. تكرر منظر الصباح الباكر، نظرًا لأن عبيد السيد رضا، تلك الشخصيات الخرافية التى ترتدي خيشًا مهلهلاً أو أسمالاً من القطن، قاموا بإحضار حزم من سعف النخيل لكى يشعلوا فيها النار، وسكبوا كمية كبيرة من التمر الناشف ذهبي اللون، على شكل كومة، فوق طبق كبير صنعوه من سعف النخيل المضفور. ورحنا نقرقش ذلك التمر، ونحن نريح أقدامنا المُتْعبة على السجاد الذى جرى فرشه على عجل، فى الوقت الذى ينضم فيه المزيد والمزيد من الأشخاص الذين لهم لون الأبنوس، إلى الجماعة، ولم نكن نرى من خلال دائرة ضوء النار المتمايل سوى رءوس الإبل، وهى تجتر طعامنا فى هدوء فى ضوء النجوم.

جاء ركوبنا خلال الساعة الأخيرة شديد البطء، نظرًا لأن الهجن لم تكن معتادة على حمل الأثقال، لكن مسيرة تلك الساعة مضى مصاحبًا لصوتٍ موسيقيّ كان يتناهي إلى مسامعنا وهو زغاريد النساء، قادما إلينا من البلدة، ومختلطًا بإطلاق نيران البنادق ودق الطبول. قال صالح أفندى عن العريس: "إنه يتزوج من بنت صغيرة جدًا. عمرها ثلاثة عشر عامًا فقط". انصرف ذهنى إلى المرأة الطفلة وهى ترتدى ملابسها الخشنة الثقيلة، وهي تمسك فى خجل ويأس النقاب الذى سوف يتعين عليها رفعه أمام رجل غريب، ذلك الرجل الذى أعطاه أبواها إياها!

كان يوسف ومحمد ينتظرانا عند قمة الصخرة ــ شخصان لا يمكن التعرف عليهما تمامًا ملفوفان فى جيردين صوفيين كبيرىْ الحجم. وبنفس البشاشة العربية المعتادة توصلا إلى استنتاج مفاده أننا كنا قد قُتِلْنا بالفعل بواسطة الزواويين!

كان طول قامتى هذين الرجلين مميزًا جدًا طوال فترة إقامتنا فى تاج. كان كل منهما قد عرف عند هذه المرحلة إن الهدف من هذه الرحلة هو كتابة كتاب عن واحة الكفرة. ظنًا أن هذا الكتاب لابد أن يكون لمصلحة السنوسى، نظرًا لأننا كنا

ننتقل تحت رعاية السيد وحمايته، لكنهما اختلفا في هذا الأمر بعد ذلك. أحس يوسف أنه أنجز مهمته عندما وصلنا الكفرة بسلام. انشرح صدره لأنه جرى استقبالنا وإكرامنا من قبل الحكومة، لأنه كان يعرف أننا لابد أن نُعجَب بالكرم الذى أولانا السادة إياه. أما محمد، فقد أحس بفطرته أننا لسنا بحاجة إلى ذلك الإعجاب، وأن كل ما يريده هو إنجاز عمل سيدى إدريس بطريقة ناجحة. كان الرجلان يعيان الاضطراب والقلاقل التى تدور تحت السطح. أما يوسف - الذى كان يتعامل معنا على أننا غرباء، وأنه واحد من أهل الكفرة - فقد أوضح لنا بحياد كامل أن الموقف يرجع إلى أخطائنا الخاصة إلى حد بعيد. كنا نثق فى كثير من الأحيان بمن لا يستحقون هذه الثقة. والمؤسف أنى أنا، نسيت فى كثير من الأحيان الظلال اللطيفة للخلق الأنثوى الإسلامى، فى غمرة تعطشى إلى المعرفة. نحّى محمد جانبا هذه الأمور كلها. كان محمد يعوّل على أنه هو وسيدى إدريس كانا يستجمعان كل قواهما للحظة التى سيكونا فيها فى مواجهة ضد أولئك الذى يعوقون عن وعى أو غير وعى عمل السيد. من هنا راح محمد يشجعنا بطريقة ودية، ويجمع لنا الأخبار، ويشرح لنا أسلوب التعامل مع الشائعات، ويحثنا على الصبر والمثابرة. كان يوسف يعمل جاهدا على تقوية شرف السادة. ولما كان محمد يعرف أن هذا التبرير لا مبرر له، فقد راح يعمل جاهدا، على أن يحقق من خلالنا، المهمة التى كُلِّف بها قبل أسابيع فى إجدابيا. كان محمد مشغولاً بمسألة الكسكسى وسرج الإبل المبُطَّنة بالعراقات، أما الفكرة الثانية - التى كان يطلق عليها بطريقة غامضة اسم العمل - فقد كان منطقيا أن تتمثل فى أقلام الرصاص وكراسات الملاحظات التى كانت مثار شكوك الرجل!

كان اليوم التالي للرحلة التى قمنا بها إلى طولاب مصادفا ليوم الجمعة، وعليه ومن يمن الطالع أن أُرسل الإفطار ــ تلك السلطانية الكبيرة من الحمام، والبيض والجزر ــ إلى منزلنا، وبقينا فى المنزل لحين دخول وقت الظهر، حتى

أذن المؤذن للصلاة، وراح مطّوع يدق على باب كل منزل من المنازل داعيًا الناس إلى الصلاة. ارتدى حسانين أفضل جيرد (شال) لديه واتجه إلى الزاوية بصحبة محمد المتدين. ودخلت أنا إلى غرفة من الغرب الموجودة خلف المسجد، نظرًا لعدم وجود مكان للنساء داخل المسجد، ورحت أراقب المشهد المهيب، وأنا مختبئة خلف عمود من الأعمدة. كان الإخوان جميعهم حاضرى الصلاة مرتدين أبهى جُبَّاتهم الحريرية الرائعة، ومن فوقها خمُر بيضاء بياض الثلج، من فوق كوفياتهم متعددة الألوان. كانت جُرُد (شيلان) البدو الخشنة تحتوى على طرطشات من اللون الأحمر القاني، واللون البرتقالي واللون الأخضر. بعد الأذان(*) الأخير، وعلى دق الدفوف والطبول، وبصحبة حرس من الجنود والعبيد الذين يرتدون ملابس الاحتفال، الكاكي المطرز بأشكال مختلفة، يصل القائمقام في موكب رسمي مع سيدى محيي الدين، وسيدي إبراهيم، ابنىْ سيد أحمد الشريف، وسيدي السنوسي ولد سيدى العابد. وتتبدى شخصية القائمقام واحترامه ووقاره عندما اعتلى "المنبر"،(**) شخصية ضخمة ترتدى ثوبا مخططًا خليطًا من اللونين الوردي والأرجواني، ومن فوقه سترة زرقاء اللون ومن تحتها كوفية كثيرة الشراشيب، فيها خيوط ذهبية، من فوق عمامته شديدة البياض يتدلى منها خمار من أفخم أنواع الحرير والصوف. يبارك القائمقام في خطبة صلاة الجمعة على الخلفاء الأربعة أبي بكر، وعمر، وعثمان وعلى، وعلى الأولياء الاثنى عشر الآخرين أتباع وأصحاب النبي ﷺ. بعد أداء صلاة الجمعة، يتحرك موكب مهيب، برئاسة أبناء السادة السنوسيين، وفي صمت مطبق لا يسمع خلاله سوى الأصوات الناجمة عن سير الأقدام الحافية على الحصير المصنوع من سعف النخيل، إلى الغرفة الداخلية المعتمة لتحية قبة سيدى المهدى.

(*) استعملت المؤلفة هذه الكلمة بلفظها العربي : Azzan (المترجم)

(**) استعملت المؤلفة هذه الكلمة بلفظها العربي (المترجم)

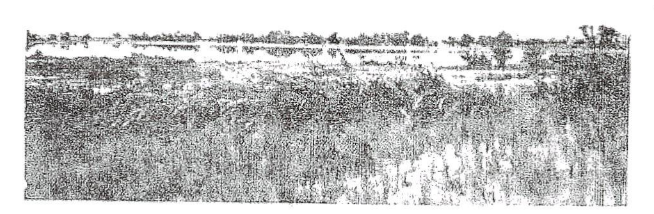
وإذا ما تمكنت تاج من الحظوة بالمزيد من التقدير والاحترام على غير العادة، فإن ذلك يتحقق لها يوم الجمعة، نظرًا لأن المرء يقع بصره طول اليوم على الإخوان الذين يرتدون ملابس فاخرة ويتحركون ببطء بين الجدران وجردهم الحريرية مرفوعة لإبعادها عن الرمل. بعد صلاة العصر جاء الوفد المكون من الأربعة الذين استقبلونا: القاضى، سيدى صالح، سيدى أحمد السنوسيى وسيدى عمر، لتوديعنا نيابة عن المدينة، على الرغم من أننا لم نكن نتوقع مغادرة المدينة قبل أيام عدة. جاءت هذه الزيارة إيذانًا لنا بأننا أصبحنا الآن فى حل من الاستقبالات والمآدب الرسمية، على الرغم من أن الكرم العربى يمكن التعبير عنه عن طريق إرسال وجبات كبيرة إلى منزلنا طوال فترة بقائنا فى تاج. ومعنا القاضى وكبار الأعيان دخلنا إلى حوشنا الذى تضيئه أشعة الشمس، لكنهم أصابهم الرعب عندما قمت بالتقاط صورة لهم. كان علينا معاملتهم كما لو كانوا أطفالاً فى عيادة طبيب الأسنان، والمحافظة على استمرار الحوار الضاحك عن هذه العملية التى لا تنطوى على أى ألم، فى الوقت الذى راحوا فيه يتداخلون مع بعضهم البعض طلبًا للراحة والمساندة!

زارنا، فى ساعة متأخرة من النهار، كل من حسن وحسين بازاما من ربيانة. وهما أقارب لأولئك الناس الذين نشروا عنا الكثير من التقارير الزائفة، والذي لا شك فيه أن هذين الرجلين جاءا إلى تاج، فى المقام الأول، للوقوف على مدى صدق الحكاية التى أطلقها أقاربهم عنا. وعندما وجدانا ضيوفًا على سيدى إدريس، قررا أن القسم الأكبر من تلك الحكاية غير صحيح. كان حسن أسمر اللون وضعيفًا، وشبيها بعبد الله إلى حد بعيد، الأمر الذى لم ينشرح له صدرى، لكن أخاه كان شخصًا لطيفًا ممتلئًا بعض الشيء، ميالاً إلى الدنيا بشكل يدعو إلى الإشفاق، لأنه قال لنا بصوت ينم عن الشكوى والأنين عندما حاول أخوه الأكبر أن يبيع لنا جملاً: "إنه جمل عجوز جدًا".



LAKE AT BUMA.

بحيرة فى بوما



LAKE AND RUSHES IN KUFARA.

بحيرة ونبات السمار فى الكفره

كنا عند هذه المرحلة قد تعلمنا طريقة عمل الشاي العربي. لابد أن الشاي كان مخدرًا في ذلك اليوم، لأن الأخوين: حسن وحسين أكدا لنا كل المعلومات التي أعطانا إياها الشيخ سليمان عن ربيانة، وحثانا على زيارتها. رفضنا ذلك العرض في أدب جم، لأننا كنا قد شاهدنا الكثير من شرائط النخيل المنعزلة، التي فيها القليل من المنازل الحمراء المعتمة المهجورة. وجدنا أن شعورهما جُرح بعض الشيء، فأوضحنا لهما أن إبلنا لا يمكن لها في واقع الأمر السير لمدة أسبوع آخر قبل رحلة جغبوب الطويلة. واقع الأمر أننا كنا مهمومين كثيرًا بقافلتنا. وكانت خمس من النوق قد وضعت أحمالها وبذلك يصعب إبعادها عن أبنائها. وكنا قد أعطينا الجنود ستًا من الإبل في رحلة عودتهم عن طريق زايعن وجالو، وكانوا قد اشتكوا مر الشكوى من عدم كفاية هذا العدد من الإبل. وكان موراجا قد تزوج تلك المرأة الشاحبة سوداء العينين التي سافرت معنا من بسيمة، وكان يريد اصطحاب زوجته معه إلى إجدابيا. ومن الطبيعي أن يرفض عبد الرحيم إعطاءهم المزيد من الإبل لعدم وجود عدد كاف من الدواب. غضب الرقيب وهدد بالتخلف، لكننا لم نعد نهتم بمتاعبهم، لأننا كان لدينا ما يكفينا من المتاعب.

يزاد على ذلك أن القرب التي اشتريناها من السوق كانت جديدة على نحو جعلها غير آمنة، وكنا بدورنا خائفين من ضياع مائنا بسبب هذه القرب الجديدة، أعلن سليمان، المرشد، فجأة أن السيد وحده فقط هو الذي ذهب إلى واحة جغبوب، وقال أيضًا إنه نظرًا لأن أي أحد لم يسافر من هذا الطريق منذ أكثر من ثلاثة أعوام، فإن البئر الوحيدة في ذاكار zakar لن تكون قد رُدمت فقط، وإنما ربما يكون كثيب رملي قد غطاها تمامًا! ونظرًا لوجود الماء على عمق كبير في تلك البئر فإن الوصول إليه قد يستغرق ثلاثة أيام من الحفر. والأسوأ من هذا كله أننا ليس لدينا سوى سبع من الإبل. ويتعين أن يحمل الماء أربع من هذه الإبل، ويحمل اثنان العلف المطلوب. وبذلك لا يتبقى لنا سوى جمل واحد للطعام الخاص بستة أفراد، إضافة إلى أمتعتهم وخيامهم!

حاولنا استئجار إبل من التبو بأثمان باهظة، لكننا لم نعثر على أحد منهم على استعداد لجعل حيواناتهم تذهب إلى الشمال فى منتصف فصل الشتاء، نظرًا لأن أغطية الإبل خفيفة جدًا فى الكفرة، وعادة ما تَنفُق عندما تذهب إلى مناخات أبرد من المناخاتالتى تعيش فيها. شرحت لهم أنه ليس هناك فرق فى درجة الحرارة بين كل من العجيلة وتاج، لكنهم قالوا لى: إن طريق جغبوب سيكون قارس البرودة وإن الريح فيه لا تطاق. وفى ظل هذه الفكرة السارة اقترحنا شراء جملين، لكن لم نعثر علي إبل للبيع غير الجمل البازامى القديم الذى كان يرتعد بالفعل. قال يوسف وهو يساوم على شراء الجمل. "سيموت على الطريق" قلت "أنا ليس عندى مانع فى نفوقه، شريطة أن يبقى على قيد الحياة أربعة أو خمسة أيام بعد تجاوزنا بئر ذاكار. سنكون قد شربنا حمولته من الماء عند هذا الحد، ولن نكون بحاجة إليه بعد ذلك". قال يوسف محاولاً فك نفسه من أى ارتباط: "هل تعتقدين أنه سيموت قبل قطع هذه المسافة؟" قال يوسف متنازلاً عن كلامه: "أنا أرى النفوق فى عينه، لأنه ينتوى الموت خلال يومين".

تحرك صديقنا محمد الجدَّاوى تحركًا نشطًا لمصلحتنا، وبعد أن بحث فى الجوف كلها، عاد إلينا منتصرًا، إذ أحضر معه أعظم جمل مدهش رأيته فى حياتى. بدا الجمل وكان قسمًا منه تُرك فى عملية الخلق. تحلقنا كلنا حول الجمل فى صمت مطبق فى محاولة منا لاكتشاف ذلك الذى ينقص هذا الجمل. هذا الجمل يوحى شكله بالرضا عن النفس الذى يتمتع به العقيد الهندى القصير، المتين المحب للكارى، والمؤكد تمامًا أن شكل هذا الجمل كان فيه شيء غريب. نظرت إلى يوسف مناشدة إياه "أنه كثيف الوبر". رد يوسف قائلاً فى يأس متأدب "نعم، هو كثيف الوبر". قررنا عدم شراء الجمل وكوفئنا فى آخر لحظة بإحضار رجل من التبو جملاً رائعًا بحق وحقيقة، نصفه هجين والنصف الثاني من إبل النقل. كان سعر الجمل مرتفعًا جدًا،

حوالي مائة مجيدى، لكننا لم ننتظر المساومة علــى الــثمن. كــان الجمــل لازمًــا وضروريًا لنا بشكل لا يمكن الاستغناء عنه.كرهت فكرة إبعاد الجمل عن عيوننا ولو للحظات، لكن صاحب الجمل أصر على أننا لا يمكن لنا الحصول غلى الجمل إلا فى اليوم التالى، واضطررنا إلى ترك القافلة تتحرك بدون الجمل.

جاء الهرب فى هذه المرة منظمًا تنظيمًا جيدًا، على الرغم من استباقه بطعنة أخرى من طعنات عبدالله. علمنا أن عبدالله، كان ينشر على نطاق واســع، حكايــة مفادها أن سيد أحمد الريفى، معلم المهدى ومستشاره، تنبــأ بهزيمــة أى غريــب يحاول السفر من طريق جغبوب. كان عبد الله قد قال: "إنه طريــق مقــدس بــين مكانين مقدسين. هذا الطريق مخصص للسادة ولمريديهم فقط لا يمكــن لأى أحــد السير فيه بسلام!" ونحن لا نعلم إن كان هناك مصدرٌ آخرٌ لهذا الكلام غيــر ذهــن عبدالله المشتت، لكن هذا الكلام قد يكون له تأثير مزعج على التشدد الــذى يــسهل استثارته بين المرافقين لنا. من هنا، عجلنا بتحرك القافلة الصغيرة فى ساعة مبكرة من الصباح وحددنا لها هوارى هدفًا ينبغى الوصول إليه، نظــرًا لوجــود منطقــة رعوية صغيرة على مقربة منها، ولذلك قد يكون من الطبيعى أن تأخذ الإبل قسطًا من الراحة فى هذا المكان، لمدة أسبوع أو عشرة أيام قبــل أن نبــدأ الــسفر إلــى جغبوب. حدث، أن القافلة الصغيرة دارت حول القرية والواحة الرئيسة ثم خيمــت فى بيارة منعزلة من بيارات النخيل على بعد بضعة أميال، بحيث لا يتطرق إليهــا المزيد من الشكوك.

اتخذنا فى اليوم التالى بعض الاستعدادات الواضحة للقيام بجولة فى الوادى، ثم قمنا بعد ذلك وعقب غروب الشمس مباشرة، وبينما كان أهــل تــاج المتــدينون مشغولين بصلاة المغرب، بالخروج من باب دارنا الصغير المميز، ورحنا نتجــول بلا هدف حول جدار بارز وعثرنا على جملين مُسْرَجين بالفعل وفى حوزة يوسف الشَكَّاء الذى يكره فكرة الترحال أثناء هبوب ريح الشمال القوية، قارسة البــرودة.

بعد أن لففنا أنفسنا فى جُرد (شيلان) خشنة، لم يظهر منها سوى الحذاء الجلدى وردى اللون، وقرمزى اللون فى الجزء العلوي منه، ومربوط بشرائط جلدية قرمزية اللون واضحة للناظرين، خرجنا متلكئين من البلدة الصغيرة ومن خلفنا يوسف وسليمان وبعير (جمل حديث الولادة) عمره أسبوعان! كانت الريح عاتيه على نحو لم نتمكن معه إلا بصعوبة بالغة، من إلقاء نظرة خاطفة على الواحة الموجودة خلفنا والتى أرتنا الكثير منها خلال فترة قصيرة.

لقد خلفنا وراءنا فصلاً كاملاً من حياة أحسسنا بأننا درسناها فى صفحات هذه الحياة دراسة كاملة، لكننا كنا نعرف أننا لم نقرأ كل ما بين السطور! لقد سمح لنا بالنظر إلى مرآة معتمة لنلقى نظرة خاطفة على حضارة مؤكدة منعزلة ومختلفة اختلافًا تامًا عن حضارتنا. بقينا نتحرك على امتداد أيام قلائل بين صداقة وعداء جماعة دينية منعزلة ومتشددة، وكنا نستشعر شيئًا من تطرفهم الشديد، وكرمهم الحاتمي. كما استشعرنا أيضًا قليلاً من بساطتهم المثيرة للإشفاق التى تقف وراء مؤامرات ومؤامرات أخرى مضادة. ومع ذلك كله، كنا غرباء فى أرض غريبة، نحظى بكرم أهلها الكبير، لكننا لم نتمكن مطلقًا حتى ولو لدقيقة واحدة من معرفة ذلك الذى يدور فى أذهانهم. استطعنا إلقاء بعض النظرات الخاطفة على ما يدور خلف الكواليس. وُضعت مؤخرًا بين أيدينا بواسطة يوسف الثرثار بعض الخيوط لكشف الأشياء الغامضةالتى لا يجرى الحديث عنها، لكن أسرار تاج لا تزال معنا فى مأمن!.

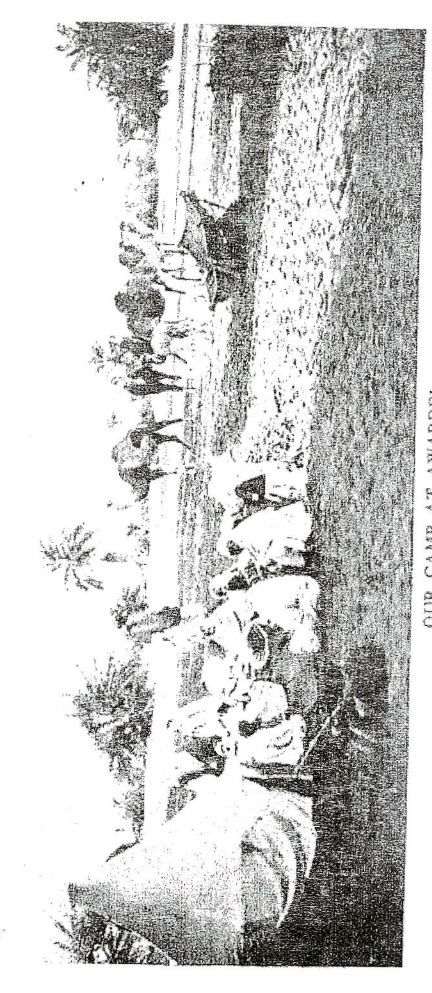
يتعين على كل واحد منا كشف هذه الأسرار بطريقته الخاصة، لأن أى رجل لا يستطيع فور دخوله من أعتاب هذه البلدة، تبين أى شيء عن ذلك المنزل الكبير الذى فوق قمة الصخرة العالية، ولا عن حياة هؤلاء الناس الذين يعد ذهن الواحد منهم جزيرة مستقلة بحد ذاته، وأسراره مُؤَمَّنة مثلما تؤمن الطبيعة الواحة نفسها.

لقد سددت الصحراء ديونها. لقد هزمنا قحولتها الخالية من الماء، وقهرنا أيضا كثبانها الرملية الخطيرة. لقد كسبنا حق الوصول إلى سرها، وكانت سخية في إطلاعنا على هذا السر، ومع ذلك كنا نعرف أنها كانت كارهة لانتصارنا. بعد اختفاء المنازل المعتمة المبنية من الحجر سريعًا بين الرمل الأحمر والصخور السوداء، إلى حد أنى عندما نظرت إلى الخلف بعد دقائق قليلة، ظننت أنى كنت أحلم بالوادى وبأهله، وجدتني أتساءل فيما بينى وبين نفسى عن الثمن الذى يتعين دفعه نظير المعرفة التى حصلنا عليها.

وقف فجأة خلف السلسلة الأولي من الصخور شخص شبيه بالأقزام كان يرتدى على رأسه طرطورًا أخضر، ويلبس عباءة، وبجانبه حمار ضئيل الحجم رمادى اللون، فى الوقت الذى كان هناك شخص آخر متنكرًا فى عباءة قرمزية اللون لم يظهر منه سوى عين واحدة من عينيه ومع خروف عاص. هذان الشخصان هما: القومندان صالح أفندى، الموفد لمرافقتنا إلى مخيمنا الأول، ومعه جندى ليقوم بذبح الخروف على شرفنا وتكريما لنا. وما إن انتهينا من التحيات والسلامات حتى ظهر لنا شخص متين كان يلهث، مرتديًا جيردًا أبيض كان يهفهف من فوق جبة زرقاء داكنة، وعلى رأسه عمامة، ونظارة معوجة أعوجاجًا خفيفًا، ويسعى جاهدًا فى ارتقاء الصخور. هذا الشخص هو أحمد السنوسى الذى جاء ليباركنا للمرة الأخيرة بكثير من التوصيات التى عهد بها إلى المرشد وطلب منه أن يدير باله علينا تمامًا. بعد قراءة "الفاتحة"، أمسك أحمد السنوسى بكم رداء يوسف وغمغم بطريقة غامضة "ألن تتوقف بقافلتك بعض الشيء عند الغرد (كثيب رملى) التالى، أود أن أرسل إليك طعاما لرحلتك ـــ لحمًا، وخبزًا، وأرزًا!" وشرح له بصوت أكثر انخفاضًا أن كثيرًا من الإخوان الودودين تمنوا أن يعزمونا على الطعام، لكنهم خافوا من إيذاء مشاعر القائمقام بالقيام بمثل هذا العمل، وبخاصة أن الرجل كان يعتبرنا ضيوفا عليه. العرف العربى يقضى أنه فى حال مجيء غريب

إلى البلدة، فإن كل من يزوره يتحتم عليه إرسال الطعام إليه أو دعوته للطعام في بيته! وهنا جاء على بالنا أن أبناء سيد أحمد الشريف وسيد العابد، وهم صبية تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة كانوا ينتظرون في معظم الأحيان ليحيونا ونحن نغادر منزل سيدى صالح. قال أحدهم فى خجل "كنا نود أن نرى ما إذا كانت الست خديجة ترتدى الملابس نفسهاالتى ترتديها نساؤنا". لكنهم كانوا يتخوفون من التصوير، لأنهم لديهم فكرة مفادها أن الإنسان إذا ما امتلك صورة لشخص آخر، فإنه يمتلك روحه أيضًا، أو أن تكون له - في أضعف الأحوال - سيطرة تنويمية مغناطيسية عليه.

اضطررنا آسفين لرفض العرض الجميل الذى قدمه سيدى أحمد، نظرًا لأن السرعة كانت أمرًا ضروريًا. وعليه، عجلنا بالسير فى اتجاه الشمال بأقصى ما تستطيع سرعة موكبنا الصغير — المكون من الإبل، والحمار، والخروف، والبعير الصغير. هدأت الريح بعد الساعات الثلاثة الأولى، وطلع القمر فى سماء صافية نصف شفافة. كانت ليلة بهيجة ورائعة إلى حد بدت معه غير حقيقية. كنت أعرف الألاعيب الغريبةالتى يمكن أن يلعبها ضوء القمر فى الصحراء، لكنى لم أر هذه الألاعيب وأثارها المدهشة سوى مرة واحدة فى مدينة (شون شن شو). سقوط ضوء القمر الأبيض على الرمل الأبيض يجعله يبدو كما لو كان بحرًا فضيًا متقزح الألوان، وباردًا ويكاد يكون قاسيًا تمامًا فى عدم القدرة على إدراك ذلك الشحوب. لكن ضوء القمر الذى أمامى هنا ضوء ذهبي على عالم أحمر حُمْرة الكهرمان، اللهم باستثناء أن المرء لا يمكنه الرؤية إلى مسافة بعيدة، وكان ضوء القمر صافيًا صفاء النهار. كانت أشجار النخيل قد أحدثت ظلالا مختلفة من اللون الأزرق، الذى اكتسى لونًا فضيًا عند حوافه، فى حين كانت ظلال النخيل ساخنة، وأرجوانية اللون بشكل واضح تمامًا. مضينا راكبين خلال عالم بلغ من الروعة والعجب حدًا جعلنا بعد أن درنا حول قرية هوارى الحالمة وبعد أن ضللنا طريقنا تماما فى الواحة



OUR CAMP AT AWARDEL.

مخيمنا فى أواردل

التالية ــ ذلك لأن عدم خطأ المرشدين يعد خرافة واهية تمامًا فى ليبيا ــ لم نعبأ بالأمر، لكننا طرحنا عنا جُرْدنا ورحنا نتمتع بذلك الصمت المطبق والألوان التى لا يصدقها عقل. ومع أننا دُرنا دورتين كاملتين، فى ضوء القمر الذى كان يخبو ويضعف، اكتشفنا فجأة مخيمنا المخبأ تمامًا فى تجويف بين مجموعة كبيرة من النخيل وشيء شبيه بأشجار الست المستحية، لم نتمكن من دخول الخيمة وسط اللونين البنفسجى والكهرمانى، وعلى الرغم من التمر والخبز المضاف إليه القرفة، رحنا نتفكر فى مسألة حتمية استيقاظنا فى ساعة مبكرة.

أدى عدم وصول جملنا الجديد إلى ما بعد عصر اليوم التالى، إلى إحباط أو فشل رغبتنا فى الرحيل سرًا وعلى وجه السرعة عن بيارة النخيل القريبة من هوارى. فى ذلك الوقت، وهذا شيء طبيعى، كان السواد الأعظم من سكان قرية أورادل المجاورة موجودين فى مخيمنا. كان الزواويون ودودين للغاية وفضوليين بشكل مخيف. كانت عيونهم المتشككة، ووجوههم الشاحبة الوضيعة تطوق بنظرها خيمتى طوال النهار، أملاً فى حظوة بنظرة خاطفة تشبع فضولهم، لكن من باب العناد ليس إلا، أخفيت وجهى فى البرّكان (الشال) وصورتهم خلسة عندما كانوا لا ينظرون إلىّ!

من سوء الطالع أنى خلفت ورائى شيئًا شبيهًا بسمعة الطبيب، بقيت لدى مرضاى بعد رحيلى، كنت على امتداد اليوم بكامله أجد خيمتى تغص بعدد كبير من النساء اللاتي كن يشتكين من أمراض وأوجاع غريبة تمامًا. كانت النساء الفقيرات تجلسن خارج الخيمة، وبرّكاناتهن (شيلانهن) الصوفية قرمزية اللون على النقيض تمامًا من ثيابهن السوداء، مُشَكِلات بذلك أروع منظر رأته عيناى إلى الآن. كانت زوجات كبار الشيوخ يشار إليهن بالدخول إلى خيمتى على أن يغلق باب الخيمة بعدهن بواسطة الأقارب الذكور الغيورين. هؤلاء الزوجات – إذا ما كن شابات صغيرات – لا يكشفن مطلقًا عن وجوههن حتى عندما يكن أمامى، ولكن يجلسن



LOADING AT AWARDEL.

التحميل فى أواردل

صامتات ويتدلى من فوق وجوههن حزم متهدلة من ثنيات الأقمشة، هي عبارة عـن ثلاثة بركانات من النسيج الداكن الثقيل، الواحد فوق الآخـر، وكـن يجلـسن علـى سريري في الخيمة في حين كانت تقوم صديقة حميمة بعملية الترجمة كي أفهـم مـا تحتاجه هذه الزوجات. كن يردن منى أن أتحسس الأمـراض الجلديـة مـن تحـت ملابسهن، وأن أصف دواء لأعين غير مرئية وأخمن أوجاعهن من خـلال وصـف أقاربهن الكبار لتلك الأوجاع، والذين كانوا يحثونهم فى كـل الأوقـات، دون فائـدة بطبيعة الحال، على عدم الخوف من تلك الأوجاع. سرتنى مجوهراتهن، لأنهن كـن يلبسن فى أيديهن أساور من فضة شبيهة بالقفازات القديمة التى كانـت تـصنع مـن الحديد، وكانت تلك الأساور تمتد من رسغ القدم إلى منتصف الساعد وفيهـا حلقـات مسطحة غريبة، كبيرة ورقيقة وشبيهة بالقطعة المعدنية من فئة الشلنات الخمس.

انتهى اليوم بمشاجرة عنيفة بين محمد وعبدالله، الذى تقرر له العـودة إلـى إجدابيا مع الجنود، لأن القائمقام كان يرى أن سيدى إدريس سيعاقبه بأقسى مما فى سلطته. كان المرشد قد قال لمحمد إنه سيقطع أنفـه، وتلـك سُـبَّة مهينـة؛ ولأن الضوضاء والغوغاء كانت كبيرة، أثناء تلك المشاجرة، وكان كل واحد يصيح فيهـا بأعلى صوته، فقد راح خادمنا الأمين يبكى مثل طفل صغير! ولـم يهـدأ إلا بعـد السماح له بشراء العبدة التى كان يريدها. قال محمد: "لقد مشيت الطريق كله قادمة من دارفور. وبذلك تكون قادرة على السير معنا إلى جغبوب". واستطعنا بعد ذلـك إقناعه بأن يعيدها إلى جالو فى مرحلة لاحقة. كانت حمولة القافلة أكثر من الـلازم قبل أن يضاف إليها طعام وماء العبده الأبنوسية البشرة، على الرغم مـن اقتناعنـا تمامًا بعد علمنا أنها طبَّاخة ماهرة ونظرًا لندرة الجمالة فى ذلك الوقت فى الكفـرة، ونظرًا أيضًا لغلو أسعارهم، فقد وافقنا على أن نأخذ عمار Amar تـابع محمـد، ليقوم بعمل الجمال. كان عمار صبيًا شجاعًا ومطيعًا، وهو أيضًا واحد من تلاميـذ زاوية جغبوب، لكنه للأسف لم يكن طباخًا! وكادت الطريقة التى أتلف بها أرزنا أن أتصل إلى حد المأساة.

أمضينا مساء اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير في عملية اكتسبت سمة العادة وتمثلت في تصنيف أمتعتنا الآخذة في التناقص حتى يمكننا الوقوف على ذلك الذى يمكن التخلى عنه. تحتم علينا في هذه المرة التخلى عن الخيمة وأسرة المخيم. لن يكون أمامنا متسع من الوقت على طريق جغبوب لنصب الخيام. في ظل وجود جماعتنا الصغيرة والضعيفة إلى حد ما، يصبح المرء بلا حول ولا قوة، في الصراع مع أوتاد الخيمة، وبعد مسيرة دامت اثنتى عشرة ساعة في اليوم الواحد، وضد اتجاه الريح القوية، وبعد حراسة الإبل، وطبخ الأرز أو الدقيق. أقصى ما يتمناه المرء في مثل هذه الظروف هو كيس النوم، من فوق فرشة الأرض، في الملجأ غير الكافى الذى يتمثل في الزريبة التى نصنعها من جوالات طعامنا وعلف الحيوانات الذى معنا. لم يعد معنا الآن سوى حقيبة ملابس واحدة، وجوال واحد من المؤن، ولفافتين من الفراش. قلت بطريقة عابرة - وأنا أنظر حولى إلى كومة مقتنياتنا الصغيرة على أمل الاستغناء عن أى شيء آخر: "بوسعنا وضع فرشة الأرض ضمن فراش النوم". كيس نومك هو أرق الأشياء ويمكن وضعه فيما بين بابي الخيمة". أحسست بشيء من العصبية في عينى حسانين عندما بدأنا فك الربطة الكبيرة، لكني لم أفهم تلك العصبية، حتى بعد سقوط زجاجة من زجاجات العطر، وسقوط حقيبة أخرى كبيرة، تبعثر على أثرها طاقم كامل من أطقم طلاء الأظافر واختلط بالرمال. كنت قد تعودت على مثل هذه الأمور في ذلك الوقت، لكننى اندهشت إلى حد ما عندما صدر احتجاج عنيف عندما حاولت إدخال الملاءة المانعة لتسرب الماء. "احترسى! انتبهي! ستأذين نفسك!" "ماذا تقصدين بحق السماء؟ أكياس النوم الصوفية لا تَعُض!". خطرت الفكرة على بالينا في آن واحد أن ما نفعله ليس صحيحًا في مثل هذه الظروف ورحنا نضحك نحن الاثنان لأننا تحاشينا ألمًا كبيرًا كان يمكن أن ينزل في يدى بفعل قرص بقة من أكبر البق الليبي. تساءلت بعد أن شهقت "ما هذا؟" ثم أخرجت بعد ذلك منشارًا حاميًا! ظننت أنى في

غضون لحظة أن رفيقي تكونت لديه ميول جنون قتل الغيرة، وأنا أقف فاغرة فمي وأمسك بالآلة الحادة في يدي، قال رفيقي الآثم: "لقد خبأت هذا الشيء اللعين في فراشي طوال ثلاثة أشهر، وكنت كلما تقلبت عليه ينغرس في كتفي، وقد جرحت نفسي ثلاث مرات بفعل هذا المنشار!" جاء الرد "ظننت أنه قد يكون مفيدًا". لابد أن رؤى الصحراء الخالية من الأشجار، والتي ليس فيها أية حزمة من الطحلب، أو أية قبضه أو حتى نَصلُ من أنصال الحشائش، خطرت على باليهما في آن واحد، لأني قبل أن أسأل بصوت خفيض "ما الذي كنت تنوي قطعه؟"، أجابني "لا أعرف" وأردف قائلاً بسرعة كل ما في الأمر أني ظننت أنه قد يكون مفيدًا ــ في عمل بعض الأشياء ــ لم أكن أود لك أن تريه. كنت أعلم أنك ستضحكين". تعجبت احتقارًا وأنا أمصمص أطراف أصابعي "أضحك!" أولا وقبل كل شيء، أنت لست بحاجة إلى عمل كل هذه الجلبة! المنشار ليس أقل سوءًا من خبزك!". وهنا خطرت على بالي تلك الأيام ونحن في الطريق إلى تيسيربو Taiserbo، عندما أصررت على الاحتفاظ بكسرة خبز عمرها عشرة أيام في الحقيبة التي أحملها على ظهري عندما كان يراودني الإحساس نفسه "أنها ربما تكون مفيدة في ظرف ما". تسبب رفيقي، أثناء بحثه عن الكبريت ــ كان الكبريت والصابون على الرغم من عدم استعمالنا الصابون مطلقًا هما الشيءين الوحيدين اللذين رفضنا تقاسمهما ــ في جرح نفسه جرحًا بالغًا بسبب حافة رغيفي الثمين الحادة الجافة، ومن ثم راح يتكلم بعد ذلك عن الطعام باعتباره أخطر العناصر في الصحراء.

الفصل الثالث عشر

خلال الجبال

إنطوى تحميل الإبل فى اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير على شيء من الصعوبة. كان كل سكان هوارى الذكور قد خرجوا لمساعدتنا أو تعطيلنا، في حين كانت مختلف النساء المُغطيات قد اختفين بين ظلال كتل النخيل آملات أن يقايضن بعضًا من البيض بالشاى الأخضر، لكننا كنا قد خلَّفنا وراءنا آخر مؤننا في الكُفرة، ولذلك لم نتمكن من تلك المقايضة. قدم لنا تاجر شاب من وادى جلد شاة كاملاً مصبوغًا باللون القرمزى نظير ثلاثة مجيديات ونصف المجيدى. وسوف يجرب هذا الشاب حظه بسهولة بين محلات الأحذية فى لندن! جاء ذلك اليوم أيضًا بمثابة دليل جديد علي الشخصية الزاوية، نظرًا لأننا كلما تركنا أى شيء بعيدًا عن أنظارنا كان يختفى علي الفور. لقد ضاع منى إيشاربى الصوفى الذى اعتدت لفه حولى من تحت ملابسى القطنية الخفيفة، والذى كان يمثل حمايتى الوحيدة من رياح الشمال. فرش محمد فى أدب سجادته كي يجلس عليها اثنان من الإخوان المحترمين. وفى غضون لحظات قليلة اختفى الرجلان هما والسجادة. ضاعت بطانية يوسف زاهية الألوان بالطريقة نفسها، ومعها الطاقية التى يلبسها حسانين عند النوم. ومن ثم لا يكون مستغربًا أن تكون ودائعنا منطوية على شيء من البرود. وهذا عمار Amar غاضب هو الآخر لأن ربة من ربات البيوت سرقت المُصبَّع الذى يُسَوِّى عليه خبزه الذى لا يؤكل. وكانت فرائصنا ترتعد لفقدان ذلك المُصبَّع!(*)

انتهى عند الساعة الثامنة صباحًا تلقينا لآخر الدعوات، وآخر التحذيرات، وجوقة "الترحيبات والسلامات!" التى خبت وتضاءلت بين مجموعات النخيل، وهبط علينا بعد ذلك إحساس بالأمن والسلام. وهذه هى المرة الأولى على امتداد ثلاثة

(*) المُصبَّع: شبكة من أعواد الحديد تستخدم فى تسوية وانضاج الخبز. (المترجم)

أشهر التى أصبحنا فيها مجموعة متوادة تماما ومتحدة من أجل هدف مشترك عن طريق العمل الجاد والقدرة على التحمل. كان ذلك إحساسًا طيبًا! كان الجميع سعداء ولم يتنصل أحد. يزاد على ذلك أن يوسف المتين نفسه تناسى شكواه، وراح وهو يبتسم ابتسامة عريضة بجمع الحطب ويستحث الإبل على السير. ومن سوء الطالع أن جملنا التيبي الرمادي الكبير راح يعانى معاناة شديدة من وجبته الثقيلة الأولى من التمر مثلما حدث للقافلة كلها عندما كنا فى بطُفال قبل شهر. وفى اللحظة الأخيرة، وبعد أن وجد سيدى محمد الجداوى أن التمر المخصص لعلف الماشية يصل إلى ثلاثة أحمال كاملة، أعارنا واحدة من نوق السيد رضا. لم يكن معنا لتلك الناقة سرج من سُرَج نقل الأمتعة ("حاوية")، وعليه قمنا بثنى خيمة الذباب الفردية، على ظهر هذه الناقة، بعد أن كنا قررنا التخلى عنها. أخيرًا قام يوسف المقتصد دائمًا بحشر الأعمدة الثلاثة الخفيفة فى مكان ما.

بدأنا بقافلة مكونة من تسع من الإبل، لكنها جميعًا كانت مُحَمَّلة بأحمال أكبر من طاقتها، نظرًا لأنه تحتم علينا حمل ما يكفينا مدة ستة أو سبعة أيام، نظرًا لأن مرشدنا لم يكن متأكدًا من المدة التى سيستغرقها حفر البئر فى ذاكار. مشينا فى ذلك اليوم عشر ساعات فى شمس حارة وريح شمالية غربية قارسة البرودة. غادرنا قارة هوارى، تلك الكتلة المعتمة فى الناحية الغربية، هى والقمم نيليه اللون العالية فى جبل نيرى، والتى تقع خلف هذه القارة. ورحنا نبتعد بصورة متدرجة عن رمال الكفرة الساخنة الحمراء بأماكنها المكونة من الأحجار السوداء الغريبة. وبدأنا فى فترة العصر الدخول إلى منطقة شاحبة يغلب عليها الاستواء وموصِّله إلى سفح جبال هوايش. يضاف إلى ذلك، أن هذه الجبال بقيت مختفية عنا إلى أن خيَّمنا عند غروب الشمس، نظرًا لرفض الجملين الصغيرين التحرك إلى أبعد من ذلك. أحسسنا بافتقادنا للسود عندما كنا نناضل لإنزال الأحمال من فوق الإبل العاصية، التى كان اثنان منها يبلغان من العمر ثلاثة أعوام وكان من المستحيل

تبريكهما بدون كفاح ونضال كبيرين. شيدنا زريبتنا بحيث تكـون ظهـور الإبـل مواجهة لريح الشمال العاتيه، لكن الطبيعة خدعتنا، فقد انخفضت درجـة الحـرارة انخفاضًا كبيرًا لايسر الخاطر. جلسنا مرتاحين فى أكياس النوم ونحن نطـبخ أرزًا ونعد قهوة، ونراقب القمر الذى يختفى ويقلل من ضوء شمعتنا الوحيدة.

أيقظنا محمد قبل فجر اليوم التالى بوقت طويل وبدأنا الرحيل عنـد السـاعة السابعة صباحًا، لكننا كنا قليلي العدد، نظرًا لأن عمارًا هو وسليمان كبير السن بلغا من الضعف حدًّا عجزا معه عن رفع أعمال العلف الضخمة، يزاد علي ذلك أنـي وحسانين لم نكن أكفاء بالمرة فى هذه المسألة! وعلى الرغم من هذا كله كان البشر يعد الجميع. وراح البدو يؤلفون ويغنون قوافى شهوانية تعكس ميولهم الشخصية،

" إذا لم يمش سيدى يوسف اليوم،

فلن يصادف فى طريقه زوجة جديدة صغيرة".

شاهدنا عند الساعة الثامنة صباحًا جبال الهوايش، التى هى عبارة عن خـط طويل من القمم المدورة عند الأفق، واكتشفنا فى ذات الوقت أن مرشدنا يعانى من نقص فى البصر. كان المرشد بدويًا كبير السن صغير الحجم فقير الحال، لكنه كان ثاقب الرأي تمامًا على الرغم من بساطته الظاهرية. لم يكن ذلك المرشد يرتدي فى قدميه سوى صندل بالٍ، وطاقية من الجلد، وجيرد مهلهل رمادي اللون. كان أميًّـا تمـ[illegible] وكان يتحدث بلهجة نادرة وجد محمد شيئًا من الصعوبة فـى تتبعهـا. كـان يجر [illegible] خطاه طول اليوم، متكئًا على عصاه المصنوعة من جريد النخل، بلا كلـل دون أن يرد علي أحد، على الرغم من ظهور صوته بين الحين والآخـر ضـمن أصوات المجموعة عند الغناء. لم يخبرنا هذا المرشد أنه تدخل مندفعًا ذات مرة فى شجار بين رجلـ[illegible] أسودين، لقى خلاله ضربة على رأسه أضعفت بصره، لم يخبرنا بذلك إلا بعد أن [illegible] الوصول إلى تل متصدّع القمة. توقعنا كلنا بعـد ذلـك أن

نضل طريقنا، لكن المرء يصبح قدريًا بصورة مخيفة عندما يكون في الـصحراء. المترحلون والمسافرون كلهم في تلك الصحراء القاحلة يرددون العبارة "الله وحـده الذي يعلم".

كنت عند هذه المرحلة قد فهمت جيدًا مسألة إهمال البدو، وافتقـارهم إلـى الفكر الاستباقي وثقتهم الطفولية بالعناية الإلهية. أولاً وقبل كل شيء، ما الذي يمكن أن يحدث في طريق يقدر طوله بمسيرة اثني عشر يومًا بلا ماء، إذا ما قام الإنسان بتحميل جمله بقربتين إضافيتين من قرب الماء، علاوة على "جعته"(*) jaata كبيرة من العلف من أجل ضمان يـومين إضـافيين مـن الحيـاة؟ هبـات قليلـة مـن القبليات(**) Giblis كفيلة بتجفيف كل المياه التي معنا. قد يفسد الماء، وقد يتسرب من القرب، وقد يقع حمل من الماء على أحجار حادة تؤدي إلى انفجـار القـرب. على الجانب الآخر قد يفقد المرشد ذاكرته أو "غريزته". عن السير يومًا بعد يـوم في ظل عدم وجود علامات أرضية، وفي ظل إصرارنا المعرفي على أن أي خطأ بسيط يمكن أن يعني الدمار والهلاك، وهذا كفيل بإرباك أكثر الناس خبرة وتجربة. المسير السيئ الذي يمكن أن ينتج في يوم من الأيام، عن خلل في توازن الأحمال، أو التهاب ظهور الدواب، أو حتى عن التغذية غير المعتادة بالتمر، يمكن أن تنـزل الخطر بالوضع كله، وسبب ذلك هو أن طريق ذاكار ــ جغبوب أو طريق ذاكـار ــ سيوة هما أكثر الطرق المعروفة الخالية من الماء. يزاد علي ذلـك أن طريـق بويما ــ الفرافرة الذي يقدر طوله بمسيرة اثنى عشر يومًا، هو الآخر خـال مـن الماء. تصل الإبل من هذه الطرق منهكة تمامًا وإذا ما زادت المسيرة يومًا واحـدًا عن المدة المحددة لها فربما أدى ذلك إلى عدم وصول الإبل مطلقًا. قد تتورم أقـدام

(*) "جُعته "كلمة عامية ليبية تعني: "جوال كبير مصنوع من الجلد". أوردت المؤلفة هذه الكلمة في المتن بالهجاء jarfa، لكن صحيح هذه الكلمة هو Jaata (المترجم).

(**) القبلي: كلمة عامه ليبية تعنى "الريح الجنوبية المحملة بالرمال". (المترجم)

الرجال، أو قد يصابون بالحمي، لكنهم لا يمكن أن يركبوا الإبل المحملة بأحمال أكثر من طاقتها. يضاف إلى ذلك أن ريح الشمال المرعبة قد تهب ليلاً أو نهارًا، مما يجعل السير شاقًا ومتعبًا، ومع ذلك يتحتم الحفاظ علي معدل السير اليومى. من هنا نجد البدو، يبتسمون إذا ما قام أحد من البشر بتحصين نفسه ضد الطبيعة، محاولاً بذلك وقف أو استباق قسوتها. البدو يقولون : "سنصل بمشيءة الله"، ثم يوجهون مسار الحوار إلى موضوع آخر.

راح يوسف، يتأسي بكل من محمد وموراجا، حول ما إذا كانت زوجة أو زوجتان يمكن أن تسرا قلبه الحنون أكثر من الجمل. تنهد يوسف وقال: "المرأة أرخص بكثير من الجمل"، وقال لنا إن الإخوان فيما بينهم لا يدفعون مهرًا لوالد العروسة. يكفى إعطاء هدية صغيرة من الحديد أو الذهب لأم العروسة وأخواتها، وربما عقد أو سوار للبنت نفسها، وبذلك ينتهى كل شيء. قال يوسف: "خمسة وعشرون مجيديًا تكفى لتحقيق ذلك كله؛ لكن إذا ما أراد إنسان أن يتزوج ابنة شيخ من شيوخ البدو، فإن ذلك يحتم عليه تقديم عدد كبير من الإبل". سألته : "كم يقدم من الإبل؟" "آه، عشرًا من الإبل، أو عشرين، أو خمسين، ويتعين عليه أيضًا تقديم حرير للبنت، فضلاً عن قماش لتصنع منه ملابسها!" ويصمت يوسف بعد ذلك داخلاً فى حالة من التأمل.

بدأنا الواحد بعد الآخر نرى العلامات الأرضية لمدق زايغن فى الناحية الغربية وعرفنا أن الطريق الشمالى الغربي الذى نسير فيه كان هو طريق زايغن الرئيسي إلى أن قام شخص يدعى محمد شريف بإنشاء الطريق المباشر الحالي. رأينا جارديا Gardia فى البداية، وهى عبارة عن كتلة مربعة من قمة صخرية داكنة؛ ومن بعدها رأينا أيضا قارة Garet الشريف، التى سُميت باسمه، الذى قصّر طريق الكفرة — جالو بمعدل مسيرة يوم عن المسافة المعتادة، ورأينا فى ساعة

متأخرة من فترة العصر تلاً شبيهًا بالقمْع يطلق عليه المجـابره Mojabras أســم الخيمة، في حين يسميه الزواويون "الموغن".(*) هذه الرحلة تمتاز بميزة كبيرة عن الرحلة السابقة. كانت الشمس وراء ظهورنا طول الوقت في هــذه الرحلــة. كــان الفارق كبيرًا جدًا. كان الركوب أو المشي مدة اثنتي عشرة ساعة يوميًا، ويومًا بعد يوم في ضوء الشمس الحارق، بلا حافة للقبعة أو مظلة، عملية مُجهدة تمامًا لعينيَّ ورأسي. كل ما في الأمر أن غياب الوهج، والإحساس بأننا قطعنا القسم الأكبر من رحلتنا، وأن الأمر لا يتطلب تطييب خاطر الجماعة المستاءه بـصورة دائمــة، أو ربط أكثر العناصر البشرية فقدانا للألفة والوئام بعضهم ببعض، كل ذلــك جعلنــا ننظر إلى الكيلو مترات المتوحشة المتبقية لنا على أنها أكثر أجزاء الرحلة أمنا.

قلت وأنا استحث جماعتي على المضي قدمًا في التلال التي لها لون خلــيط من اللونين الوردي والأرجواني: "أود رؤية الرمال البيضاء مرة أخرى. الهــوايش ليست جبالاً في حقيقة الأمر. لكنها في واقع الأمر كتلــة مــن الــتلال الــصخرية المستديرة غير المنتظمة؛ هي مجموعة من القمم الصخرية المرتفعــة، والأقمــاع الصخرية؛ واتجاه الهوايش يمكن أن يضلل الجغرافي الخبير. أمضينا لحظات وقت الفراغ عند طلوع الفجر وعند غروب الشمس جالسين فوق ربوة منحــدرة ومعنــا نظارة الميدان، والبوصلة وكراسة الملاحظات، ورحنا ندرس المواقــع المتــشابكة للجبال المحلية، لكن شَعْرَنا شاب وقَصُرَت سوالفنا في هذا العمل. كنا نرى في كل مرة حائطًا جديدًا من التلال عن بعد، ممتدًا كالعادة بزاوية غير متوقعة، وكنا كلما سألنا أفراد المجموعة عن تفسير ذلك، كانوا جميعًا يقولون: "الله وحده الذي يعلم".

وددت لو أننا خيَّمنا في الصف الأول من هوايش، لأني عند هــذه المرحلــة كنت حريصة علي مغادرة تلك الأرض المسحورة الغامضة مثلما دخلتها من قبــل.

(*) الموغن : كلمة عامية ليبية بمعني "القمع". (المترجم)..

بدا لنا أفق هذه التلال الغريب المستدير وكأنه يعزلنا فى إطار الرمال الحارة الملونة، لكن الكثبان الرملية البيضاء التى كانت فيما بعد ذلك، تناديننا لافتتاح صحراء الشمال.

وعندما تردد سليمان فى الإشارة إلينا بالتحول إلى يمين أو يسار صخرة من الصخور الكبيرة، جاء يوسف وعمار إلينا، بعد أن تسلقا غردًا (كثيبًا رمليًا) كنا قد تجاوزناه بأخبار أقلقت راحة بالنا على الفور. واقع الأمر أن يوسف المتين كان يهرول هرولة سريعة غير متساوية الخطى، الأمر الذى جعله يلهث وهو يصيح قائلاً: "هناك قافلة وراءنا فى الخلف!" كانت مسألة الحديث فى هذا الأمر محيرة نظرًا لأن أحدًا لم يسافر من هذا الطريق منذ حوالى أربع سنوات، وكنا نعلم أيضًا عندما غادرنا الكفرة، أن أحدًا لم يكن مستعدًا أو جاهزًا للقيام بهذه الرحلة. قلنا فى البداية أن يوسف كان يحلم بقافلته. كنا على بعد مسيرة يومين من هوارى، ذلك المكان الذى يبدأ منه كل المترحلين، وعندما تركنا الواحة لم يكن هناك ذكر لأى إنسان آخر ينتوى السفر إلى الشمال مستخدمًا الطرق المؤدية إلى هناك. كان عمار هو الآخر، إيجابيًا. قال عمار: "لقد نظرنا فى المرايا؛ ووجدنا هناك حوالى أربع أو ستٍ من الإبل ومعها ما يقرب من إثنى عشر رجلاً. وهم يتحركون حركة سريعة، ويبعدون عنا حوالى ثلاث ساعات إلى الخلف!" كان الكلام دقيقًا على نحو اضطرنا إلى تصديقه إضافة إلى قيام محمد هو الآخر بوضع النقاط فوق الحروف. "سيجرى الهجوم علينا فى هذه الليلة. هذه عادة من عادات الزواويين. فقد درجوا على الانتظار إلى أن تصبح القافلة خارج منطقتهم حتى لا يلومهم أحد، ثم يفترسون القافلة بعد ذلك!" قال المرشد مُكذّبًا "هم ليسوا زواويين! الزواويون يكنون احترامًا كبيرًا للسادة. إنهم تيبيُون. التيبيون لديهم إبل سريعة. وهم يهاجمون فى الجبال، فى المناطق التى لا يرتادها المترحلون مطلقًا ثم يهربون بعد ذلك فى اتجاه الجنوب إلى البلاد الفرنسية قبل انكشاف أمرهم".

خيّم الاكتئاب الشديد على الجماعة الصغيرة. كان ضوء غروب الشمس آخذًا فى الاضمحلال، كما كشف الانكسار الوحيد الذى حدث فى الصخور الأرجوانية التى أمامنا عن رقعة من الرمل شديدة الوضوح يتخللها خمسة هياكل عظمية جميلة لم يكن لدينا سوى ثلاث بنادق بالإضافة إلى مسدساتنا!

تعد الفطنة فى مثل هذه الظروف أفضل أركان الشجاعة، وعليه قررنا القيام بهروب كبير. تركنا المنطقة المجاورة للممر الواسع المؤدى إلى ذاكار، ورحنا نتحسس طريقنا فى الظلام، متجهين غربًا، عبر الشعاب الملتوية وفوق السلاسل الجبلية المنحدرة، وكنا نسوق الإبل بصورة مستمرة عبر الأماكن الحجرية تحسبًا لترك آثار لأقدامها على الرمل. وعندما رأى سليمان أننا ابتعدنا كثيرًا عن المسار وبما يسمح لنا بتجنب المطاردين لنا، قمنا بتبريك إبلنا فى تجويف مناسب بعيدًا عن أنظار أولئك الذين ليسوا واقفين فوق التلال المحيطة بنا مباشرة. قال محمد مشددًا: "ممنوع فتح النيران. ممنوع الإضاءة مطلقًا! وسوف نترك الإبل أمامنا على بعد مسافة قصيرة. وسوف تتحرك الإبل إذا ما جاء أى إنسان". تأوه يوسف شاكيًا "ما الذى سنأكله"؟ "لابد من وجود نار حتى نطهى الطعام"، قلت وأنا أتفق مع ما قاله يوسف، وفى ظل إحساسى بأني ينبغى أن أكون أشجع مما أنا عليه، وبخاصة بعد احتساء شيء من القهوة الساخنة، نظرًا لأن الجو كان قارس البرودة فى تلك الليلة، لكن محمد كان مصرًا على التزامنا بما قاله. لف محمد مسدسه حول عنق سليمان، وهو يصدر تعليمات صارمة للمرشد "بفتح النار مباشرة وأن الله ﷺ هو الذى سيوجه المقذوف!" واقترح محمد بعد ذلك إقامة زريبه محصنة على جانب التل. بعد أن ألقيت أنا ويوسف نظرات محبطة على الأحمال الضخمة، فى الوقت الذى ارتسمت فيه فى أذهاننا صورة المسيرة الطويلة التى تنتظرنا، تبين لنا أن الموت المريح سيكون أفضل فى هذا التجويف. قلت له "وجودنا فى هذا التجويف سيطيل

أمد القتال إذا ما رحنا ندافع عن التل. أنا أود النوم علي تلك الرقعة اللطيفة من الرمل الناعم". لكن من سوء الطالع أيضا أن كلا من حسانين وعمار كانا يعارضاني. وعليه اضطررنا إلى جر أكياس العلف بجهد شديد إلى أعلى سلسلة من سلاسل تلك التلال، وشكلنا من تلك الأكياس صفًا متراصًا على حافة تلك السلسلة. لم أتعود الجدل في حياتي كلها، لكن تلك الزريبة تحولت بعد اكتمالها إلى قلعة صغيرة محصنة. أحسست أن الطلقة المصوبة تصويبًا جيدًا هي التي يمكن أن تخترق جوالات التمر الضخمة هذه، وكنت موقنة أيضًا أن الموقع سيصعب اختراقه ما دام المدافعون عنه باقين على قيد الحياة. وضعنا قرب الماء أمامنا، وحميناها بالأحجار، وفي ظل ضمان الماء والطعام، يصبح بوسعنا تحمل الحصار. كانت الإبل في التجويف الموجود خلفنا في الأسفل. اقترحت أنا ويوسف إشعال نار صغيرة جدًا، لكن محمد رفض ذلك، ورضينا لأنفسنا بخبز مضي عليه أربعة أيام وعلبه من اللحم المحفوظ. فردت بعد ذلك في صمت كيس نومي استعدادًا لوضع مسدساتي هي وجهاز قياس الارتفاعات، والترمومتر بجوار الوسادة. قال حسانين بصورة قاطعة "أنا لن أنام. لابد أن نتقاسم المراقبة". رد محمد قائلاً: "أنت علي حق فيما قلت. هل بندقيتك مُعَمَّره يا ولدي عَمَار؟ سنقوم جميعًا بالمراقبة". كان ذلك أمرًا مبالغًا فيه بطبيعة الحال. تجاهلت أنا ويوسف تلك الملاحظة، لكنني عندما مددت رجلي كي أتحسس بأصابع قدميَّ الطرف الصوفي السميك من كيس نومي، سمعت صوت حسانين في مكان ما فوقي، وهو متأهب ومتوتر "إذا ما ظهر أحد وأصبح علي مرأى مني فهل أتحدث إليه أم أفتح النار على الفور؟ ما العرف الذي تتبعونه هنا؟" اختلطت الإجابتان بنعاسي. جاءت إحداها من يوسف شبه النائم "تكلم أولاً!" في حين قال محمد: "افتح النار على الفور، واضرب مباشرة! وإلا فإنك لن تتكلم مرة ثانية!".

كان الشيء الوحيد الذى أقلق نومى فى تلك الليلة هو ذلك الفأر الرملى الأصفر الصغير. استيقظت من نومى على إحساسي بشيء يتحرك على خدى والمضحك أن ذلك الحيوان الصغير كان جالسًا على أنفى. قفز الفأر متنقلاً إلى الجانب الآخر من الزريبة بعد أن تحركت، وكان عمار المتعطش لشرب الدماء، قد أفلح بعد جهد لا طائل من ورائه، فى الإمساك بذلك الفأر ثم أكله! لم يعكر أحد من التبو علينا أمننا، لكن المؤسف أن الخوف من هؤلاء التبو هو الذى جعل محمد يوقظنى عندما كان القمر لا يزال عاليا وبرُاقا. جرت العادة ألا أتحرك بدون إفطار، وعليه عجلنا بطهى شيء من الأرز مع شيء من الشاي الحلو فى الضوء غير الصافى صفاء فترة الظهيرة ورحنا بعد ذلك نعمل جاهدين فى تفكيك الزريبة التى نصبناها فى الليلة السابقة. دحرجنا جوالات التمر الثقيلة إلى أسفل التل لأن الرجال كانوا بعد أربع وعشرين ساعة، قد بلغوا من التعب، مبلغًا جعلهم غير قادرين علي نقل جوالات التمر. انفجر جوال من تلك الجوالات وتبعثر التمر يمينًا ويسارًا! اختلط التبذير بالخوف فى أذهان أفراد الجماعة، لكن التَّحَسُّب للطرق الطويل الذى ينتظرنا كان هو كل ما يشغل ذهنى! رحنا نلتقط ذلك التمر فى صمت ووضعنا الحمل على الإبل المحتجة، والاستياء شبه الكامل مرتسم علي وجوهنا. ولحقنا بالركب من جديد، وكان نور القمر لا يزال طالعًا، ورحنا نتخير طريق روغاننا بحيث يمر حول التلال غير المنتظمة. وعندما اقتادنا سليمان فى النهاية إلى الممر الرئيسي، خطر ببالنا أن أية قافلة كانت تحاول اللحاق بنا لابد أن تكون سبقتنا بمسافة كبيرة، لأن الشمس كانت قد طلعت علينا قبل ساعتين.

عند هذه المرحلة غلب على تفكيرنا جميعًا أن الإبل الأربع أو الست والاثنى عشر رجلاً كانوا موجودين فقط فى خيال كل من يوسف وعَمَار، لكننا ما إن دخلنا إلى المنحدر الرملى الواسع المؤدي شمالاً إلى الأماكن المفتوحة التالية لأول سلسلة من سلاسل مرتفعات هوايش حتى عثرنا أمامنا علي آثار حديثة لأقدام الإبل انشرح

صدر المتين (يوسف). قال يوسف متعجبا: "لقد كنت علي حق! لقد كنت علي حق! ونحن الآن آمنون، لأنهم إذا لم يفلحوا فى الإمساك بنا، سيظنون أننا حَذَّرنا وأننا قصدنا زايغن من باب تحاشينا لهم". ربما كان كلامه صحيحًا. لكننا لم نتيقن من ذلك. لم نعثر بعد ذلك علي أى أثر لتلك القافلة العجيبة. وقد بقى أصل هذه القافلة ومقصدها فى طى الأسرار. لقد قطعت تلك القافلة مسير يومين ونصف اليوم على طريق ذاكار، فى منطقة ما وراء النقطة التى كان الرحالة والمسافرون يتحولون عندها إلى الناحية الغربية قاصدين واحة زايغن!.

وعلي الرغم من تلك الليلة التى لم ينم فيها البدو فقد أمضوها فى السير فى ذلك اليوم. كان سليمان قد قال عند الساعة الحادية عشرة صباحًا، عندما رأينا السلسلة الجبلية الثانية من تلال هوايش، والتى يجمع لونها بين اللونين الأزرق والبنفسجى، وتقع فيما وراء رقعة واسعة من الموجات والكثبان الرملية شاحبة اللون: "إذا ما وصلنا إلى تلك الجبال هذه الليلة، فذلك يعني أننا سوف نصلي العصر غدًا فى ذاكار". وعليه تشجعنا ومضينا فى مسيرنا بهمة ونشاط. كان الجور باردًا وغائمًا، وكانت تهب علينا ريح الشمال المعتادة وكذلك السراب الذى لم ينقطع عن صنع برك وبحيرات فى كل تجويف من التجاويف؛ اتضح أن الجمل العجوز الذى ركبته عندما غادرنا إجدابيا كان يعرف الطريق. فقد شق الجمل طريقه صوب فالق محدد فى التلال. لاحظ يوسف الشيء نفسه وسألني إن كنت أعرف قصة الرمال والجمل. قال المتين (يوسف) وهو يبتسم : "كانا يتجادلان حول من هو الأمهر منهما". قال طهيوج الرمل: "أنا أضع البيض بطريقة عشوائية فى الصحراء الخالية من الطرق والمدقات؛ ثم أطير بعد ذلك إلى أماكن بعيدة بحثًا عن الطعام، لكنني استطيع العودة مباشرة لاحتضان البيض إلى أن يتفرَّخ". عطس الجمل احتقارًا واستهزاءً لهذا الكلام "إذا ما شربت من بئر وأنا بعير صغير أجري بجانب أمى، وعلي الرغم من عدم رؤيتى لتلك البئر مرة ثانية، فأنا أستطيع شق

طريقى إلى تلك البئر عندما أبلغ من الكبر عتيًا وأنا أعمى!" قاطع محمد الكلام قائلاً: "لا، لا، الجمل أمهر من ذلك! الناقة، إذا ما ذاقت طعم ماء بئر من الآبار عندما تكون عشارًا، فإن البعير الذى تلده يمكنه العودة إلى تلك البئر بكل تأكيد." قلت: "دعونا نتمنى أن يكون ذلك الجمل قد شرب من تلك البئر التى فى جغبوب". رد يوسف بإيمان قوى "إن شاء الله!".

عثرنا فى تلك الليلة علي مكان محمى حماية جيدة فيما بين تلَّين، وعليه لم نشغل أنفسنا بإنشاء زريبة. سجل جهاز قياس درجة الحرارة (الترمومتر) وجود صقيع، لكنى أرى أن الترمومتر كان متأثرًا بالحالة الجوية الذهنية لليلة السابقة التى لم نحس فيها بالبروة الشديدة أذكر أنى شربت قدرًا كبيرًا من القهوة الأمر الذى منعني من النوم، وعليه لم أمانع عندما أصر البدو على إشعال نار قبل طلوع الفجر بثلاث ساعات ليطهوا "عصيدتهم"،(*) تلك الكتلة الرطبة من الدقيق المضاف إليه البصل والزيت. لم نكن حاذقين تمامًا على مسألة التحميل، لأنه على الرغم من ذلك الإفطار المبكر، فإننا لم نتحرك إلا قبل هنيهات قصيرة من شروق الشمس. وهذا هو الجمل الرمادى الجديد يبرك علي الفور، لأنه لم يشف بعد من جشعه وطمعه. تعين علينا توزيع القرب التى يحملها هذا الجمل على الإبل الأخرى، نظرًا لحتمية وجود الماء لاستعماله فى تثبيت الرمل عند حفر بئر ذاكار. رحنا نراقب القافلة باهتمام كبير، لأنها بعد أن غادرت الكتلة الثانية من تلال هوايش، عبرت منطقة متدحرجة من القراميد الحجرية المسطحة والتى منها المُكسَّر والزلق. ومع ذلك، شقت القافلة طريقها عبر هذه القراميد بأمن وسلام؛ وعند الساعة العاشرة صباحًا بدأنا التحرك فوق رمل أبيض ناعم، براق ومبهر فى الشمس المحرقة. لم تكن هناك ريح فى ذلك اليوم، وكان طبيعيًا أن يخلع يوسف معطفه الخارجى بعد أن تسلق ربوة كى يشير

(*) استعملت المؤلفة كلمة "عصيده" asida بلفظها العربي، كما استعملت أيضًا كلمة "زيت" zeit. (المترجم)

إلى قارة صلبه، سوداء مربعة الشكل وسط مجموعة من الغـرود الحجريـة. قـال يوسف: "البئر على مقربة من هذه القارة. وسوف نصل إليها خلال ساعة واحـدة أو أربع ساعات". واقع الأمر أننا رأينا عند الظهر مجموعتى النخيـل القـصير اللتـين تدلان على بئر ذاكار، وبدتا لنا بيضاوين مثل الثلج وبين الرمال وكأنهما علـى قيـد باع منا، لكننا لم نصل إلى هاتين المجموعتين إلا بعد ذلك بساعتين.

يبدو أن القافلة التى مرت قبلنا من هذا المكان عانـت الكثيـر علـى هـذا الطريق، فقد وجدنا أجزاء من أمتعة مُكسَّرة بين هياكل الإبل العظمية. تمني يوسف لو أنه يتجاهل العديد من الأرجل الملفوفة بالدروع الواقية، فى إنشاء الزريبة، لكني رحت أبحث عن مكان غير هذا المكان المخيف، وعليه وصلنا إلى حل وسط بـأن أعطينا ظهورنا للبئر هى والأشياء القريبة التى تحيط بها. قال سليمان فى هـدوء:" "الحيوانات تنفق دوما فى نهاية رحلتها، اللهم إلا إذا كانت قوية. لأنها فى مثل هـذا الحال تشرب قدرًا كبيرًا من الماء مما يحتم على المرء التحرك بـبطء، مـستغرقًا بذلك خمسة أيام وربما أكثر فى الانتقال من هذا المكان إلى هوارى". كانت البئـر عندما وصلنا إليها. عبارة عن تل من الرمل، لكن المرشد أبلغنـا أن البئـر لهـا جدران من الحجر، وأن الأمر لا يتطلب سوى الحفر فقط. وقال أيـضًا: إن مـن الضرورى الوصول إلى هذه البئر ومعنا رصيد من الماء، وقبل أن نبـدأ عمليـة الحفر، يتعين علينا ترطيب الرمل كى يتماسك مع الأحجار مثل الملاط. وبغير ذلك تنهال الأحجار علي كل من يحفرون وهذا عمل جد خطير.

عمل البدو فى حفر البئر طوال فترة العصر. كانت فتحة البئر ضيقة، تقـدر بحوالى قدمين ونصف القدم، الأمر الذى حتم نزول سليمان العجوز الضعيف للحفر فى البئر. يبدو أن هذه المهمة لم تكن مريحة، لأن الماء كان على عمق حوالى ١٥ قدمًا، لكن سليمان قبل النوم فى تلك الليلة أحس بالرمل الرطب بين أصابعه. اكتمل العمل فى صبيحة اليوم التالى المصادف لليوم التاسع والعشرين من شهر ينـاير،

وملأنا قرابنا الأربع عشرة ووضعناها على شكل صفين لطيفين كانا جاهزين للتحميل، لكننا لم نستطع التحرك فى ذلك اليوم لأن عاصفة رملية شديدة هبت علينا واستمرت إلى الساعة الرابعة عصرًا، لم نستطع إشعال النار أو حتى الخروج لجمع الحطب المطلوب لرحلتنا. كانت الإبل تتأوه وهى تتكوم علي شكل دائرة بائسة، وقبعنا تحت البطاطين وأكلنا رملاً مختلطًا بالتمر مع خبز يابس. بذل حسانين جهدًا كبيرًا فى إصلاح حذائه الذى يجمع بين اللونين الوردى والقرمزى، مستخدمًا فى ذلك سلكًا من النحاس الأصفر، لكنه أصابه الإحباط الشديد عندما لم يتمكن من قطع سلك النحاس بمنشاره!

هدأت الريح قليلاً فى فترة المساء، لكن غروب الشمس ينطوي على شيء من الكآبة. كانت الشمس عبارة عن قرص يميل لونه إلى الزرقة علي خلفية سماء خضراء شاحبة، وسط عتمة رتيبه من الرمل فوق صحراء رمادية اللون. أغلقنا فناطيسنا الثلاثة إغلاقًا محكمًا بوضع السيكوتين حول طباب الفناطيس حتى لا يجرؤ أحد علي استعمالها إلا فى اللحظات الحاسمة. ثم أعدنا تغطية البئر بالغطاء القديم نفسه والجلود التى عثرنا عليها تحت القبة التى كانت تغطى تلك البئر. لقد تسلل الرمل من خلال هذه الجلود، طوال أربع سنوات، وكأنها لم تكن موجودة، لكن إذا ما أراد أى رحَّال أن يأتى بعدنا على وجه السرعة، فإن ما فعلناه سيوفر على ذلك الرحَّال، تكرار العمل المضنى الذى قام به مرشدنا سليمان العجوز.

بدأنا رحلتنا الطويلة فى اليوم الثلاثين من شهر يناير، بأن غادرنا منطقة البئر عند الساعة السابعة صباحًا بعد إجراء تعديل كبير فى الأحمال. كان الجو باردًا مع ريح شمالية خفيفة اشتدت ونحن نصعد الغرد (الكثيب) الحجري الموجود فى الناحية الشمالية الشرقية من البئر. وعندما نظرنا إلى الخلف لإلقاء نظرة أخيرة على مجموعة النخيل المنعزلة، التى كانت عبارة عن بقعة صغيرة خضراء وسط امتداد غير محدود من الرمال المتموجة، تناهى إلى مسامعنا صوت مكتوم انبعث من

الكوفية متعددة الألوان التى كان حسانين يلفها على أنفه وفمه. قال ذلــك الــصوت: "عزاؤنا الوحيد هو إما الوصول إلى جغبوب فى غضون اثنى عشر يومًا أو الوفــاة!" سألته بطريقة رقيقة "هل يؤلمك حذاؤك من جراء وجود ذلك السلك النحاسى فيه؟".

حدونا إبلنا مدة ساعة سرنا خلالها ببطء عبر أرض حجرية وعــرة تنتــشر فيها القراميد الكبيرة السائبة هنا وهناك. ثم أسلمتنا التلال إلى رمال بيضاء، ونظرنا إلى الكثبان الرملية فى الأسفل فبدت لنا مثل كاسرات الأمواج فى بحر عاصــف. ألقى يوسف نظرة أخيرة على آخر الأحجار الداكنة الموجودة خلفنا. قال يوســف: "نحن محظوظون لمغادرتنا هذه المنطقة الحمراء دون تبادل للبارود. لكن أصــدقاء السادة يكونون دومًا مباركين. وأنتم بصفة خاصة، كنــتم فــى حمايــة الله ﷻ لأن الزواوين أناس غير طيبين". لم نكن نرى المتين جادًّا بحق إلا عندما يتهدد الخطــر طعامه أو منامه، وعليه خمَّنا أنه ربما يكون لديه ما يقوله أكثر مما قاله لنــا. أدت ريح الشمال الشديدة إلى تقليل الكلام والحوار، وقبل وصولنا إلى الصف الأول من الكثبان الرملية تحولت تلك الريح إلى شيء شبيه بالعاصفة الرملية مثلما حدث فــى اليوم السابق. كانت الريح قارسة البرودة. إذا ما ركب واحد منا دابته، فإن الــريح كانت تخترق كل البطاطين التى يلف نفسه بها، وتكاد تطيح به من فــوق الجمــل. وإذا ما سرنا (بجرد) ملفوف فوق رأسنا، تسرب الرمل من خلال القماش الصوفى داخلاً إلى أعيننا، وأفواهنا، وأنوفنا، وكنا نترنح ونحن نــصعد الــسلاسل الجبليــة الواحدة بعد الأخرى، وكنا نلاقى العاصفة الشديدة عند قمة كل سلــسلة مــن تلــك السلاسل. كنت أحاول الكفاح مسافة ميل أو ميلين ثم أحاول دفن نفسى تقريبًا تحت الجانب غير المعرَّض لهبوب الريح فى كثيب من الكثبان، إلى أن تلحق بي القافلــة المتعثرة، شبه العمياء.

أنفقنا يومًا مرهقًا فى تكرار هذه العملية، إلى أن بدأ الجميــع ينظــرون إلــى المرشد غير المتعثر باعتباره عدوًّا شخصيًّا، لن يتوقف عن الــسير فــوق الكثبــان

الرملية والمنخفضات، التى جعلته دومًا بعيدًا عن متناول احتجاجاتنا. كنا فى كل مرة يتوقف المرشد فيها برهة، بحثًا عن أفضل الأماكن لعبـــور سلـــسلة مـــن الـــسلاسل الجبلية، نتطلع إلى أن نسمع منه نداء تبريك الإبل، لكنه كان يواصل - على العكـــس من ذلك - سيره الرتيب بلا كلل أو ملل وهو يرتدى حذاءه المقطع. هدأت الريح عند غروب الشمس، لكننا واصلنا السير فى الضوء الرمادي الخافت، فى وجود ومـــيض خافت ليمونى اللون فى اتجاه الغرب، ولم يسمح لنا سليمان بالدخول فى أكياس نومنا ونحن شبه متجمدين وشبه جوعانين، إلا بعد أن أكملنا سيرنا مدة اثنتى عشرة ساعة؛ نمنا لأن الجميع كانوا قد بلغوا من التعب مبلغًا منعهم من طهى الطعام.

أعتقد أني خلعت حذائى، ولم أخلع أى شيء آخر، لأني أعلم جيدًا مدى كبر حزامى أحمر اللون فى هذه المساحة الضيقة؛ لكنى نمت مدة تسع ســـاعات جيـــدة وأكلت أكثر من نصيبى من السردين والتمر فى الصباح. كان الأرز غريبًا، إذ كان لونه رماديًّا يميل إلى الإسمرار، والسبب فى ذلك ماء القربة. كان لون ورائحة ماء هذه القربة بعد مرور بضعة أيام حائلين كبيرين ضد العطش. كنا قـــد عـــدنا إلـــى تموينا القديم الذى يقضى بتناول ثلاثة أكواب من الماء فى اليوم الواحـــد، إضـــافة إلى كوب رابع فى عملية الطهى. وسرعان ما اكتشفنا أن القهـــوة الحـــارة تـــسبب العطش، أما الشاى الثقيل بلا سكر فله تأثير معاكس إلى حد ما. طالعنا فى صـــباح اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير شديد البرودة اكتشاف شيء. كانت ثلاث من القرب قد جفت أثناء الريح المحملة بالرمل أو بسبب تسرب الماء منها. تحدثنا إلى المجموعة بطريقة صارمة عندما وجدناهم يسرفون فى شرب الماء، لكننا احترنـــا بسبب قدريتهم. كان لا يزال لدينا ماء يكفى بواقع قربة واحدة فى اليوم وفنطاســـين على سبيل الاحتياط، وعليه رفض أفراد الجماعة أخذ احتمـــالات التـــأخير بعـــين الاعتبار. قال يوسف: "المكتوب مكتوب. ولن نستطيع الهرب منه. وهذا هو ما قاله النسر لسليمان عليه السلام." سألته متشككة "أى نسر تقصد؟".

كان سليمان ﷺ جالسًا على تل، كان يرى منه مدنا كثيرة عندما جاءه نسر وقال له: "تظن أنك حكيم لأنك تعرف حكمه الناس جميعًا، لكنى سوف آخذك إلى أنحاء الدنيا وأريك حكمة بلاد لم تسمع عنها". وبعد أن قال النسر هذا الكلام أمسك سليمان من حزامه بمنقاره وطار به شمالاً وجنوبًا، وشرقًا، وغربا، حتى يرى عجائب كثيرة. وبعد أن طارًا وتنقلا فى أصقاع بعيدة هنا وهناك، عاد الطائر إلى بلاد النبى وأسقط تلميذه فى حقل نُصبت فيه فخاخا. وقبل أن يعبر سليمان عن شكره رأى أن الطائر الكبير جرى الإمساك به فى واحد من تلك الفخاخ، وكان يناضل ضد القضبان. "أوه، أنت يا من أردت أن تعلمنى الحكمة، أين حكمتك يا من تعرف الدنيا كلها، ولا تعرف كيف تتحاشى فخًا صغيرًا؟" قال النسر آسفًا: "المكتوب مكتوب. ولا يستطيع الإنسان الفرار من قدره". نظر إلىّ يوسف منتظرًا تعليقى. قلت ليوسف بصورة قاطعة: "كان يتعين على النسر النظر أين هو ذاهب، وأنت يا ولدى يتعين عليك النظر إلى ما تشربه".

تأخر استئناف مسيرنا فى صباح ذلك اليوم نظرًا لأن أُذن سليمان كانت بحاجة التطبيب. هذا المرشد شبه الأصم، وشبه الأعمى أيضًا، كان لابد من تحاشيه، وعليه أعطيناه كل ملابسنا الداخلية الزائدة على حاجتنا، وكانت أوجاع ذلك المرشد تتركز فى الحقيقة التى مفادها أن الرجل فى درجة حرارة صفر المئوية، كان ينام علي الرمل فى قميص قطني مهلهل وجرد خفيف ورقيق ومهلهل. لقد بدأ الرجل فى مسيرة تزيد على الألف ميل (بما فى ذلك رحلة عودته بعد أن أخذ معه الإبل إلى إجدابيا) وليست معه سوى الملابس سالفة الذكر فضلاً عن أنه لم يكن معه قرش واحد من النقود! قال المرشد فى بساطة بعد أن لف سترتى القصيرة على رأسه وربط بنطالين من بناطيل حسانين القصيرة حول صدره تحت قميصه "الله كريم. وسيرزقنى". رغبة العربي الوحيدة تتمثل فى لف كل ما هو ممكن من الملابس —

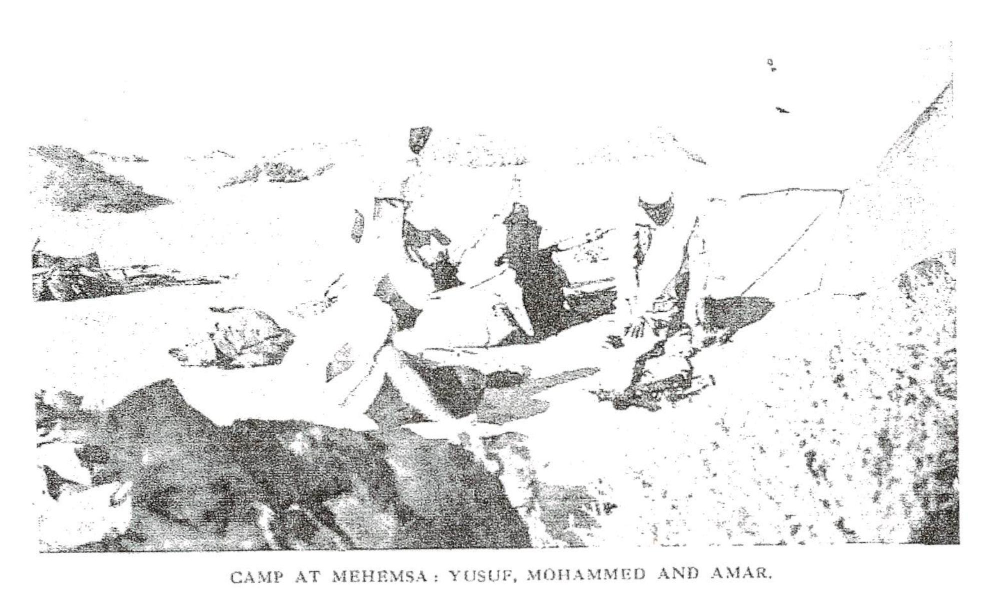
بغض النظر عن الجزء المخصص له من هذه الملابس ــ حول رءوسهم وأكتافهم ــ ويتركون كل ما عدا ذلك للمصادفة وريح السماء!.

كان واضحا أن الطبيعة كانت مصممة على أن ترينا كل ما فى وسعها من أحوال المناخ، ففى ذلك اليوم لم تتحرك نسمة ريح واحدة، وتسلطت علينا شمس موجعه إلى أن أحسسنا برقابنا وكأنها مكسورة وأحسسنا أيضًا برءوسنا ثقيلة غير صالحة للاستعمال. دعونا لليل، دعاء حارًا مثلما فعلنا فى اليوم السابق، وبخاصة عندما بدأت تظهر أمامنا فى اتجاه الشرق سلسلة أخرى من جبال الهوايش. قال محمد على سبيل التهدئة: "لن ترىَ أى شيء من هذه الجبال بعد يوم واحد من الآن. لكنهم يقولون إن الكثبان الرملية تمتد غربًا إلى أن تصل إلى مصراطه Misurata ــ والله وحده هو الذى يعلم!" بعد مسير دام ثلاث ساعات، أى على بعد حوالى ٦٠ كيلو مترًا من ذاكار، توقفت الكثبان الرملية تمامًا وتجاوزنا أرضًا حجرية غير مستوية، إلى أن وصلنا قبل غروب الشمس بساعة، إلى خط فردى طويل من الكثبان الرملية الكثيفة الضخمة التى تمتد من الغرب إلى الشرق. ارتفعت تلك الكثبان الرملية فجأة – مثل الدقيق الذهبى الصافى – بارزة من بين الأحجار الداكنة التى امتدت إلى سفوح تلك الكثبان، وعلى الرغم من تتبعنا لتلك الكثبان على امتداد أربعة عشر كيلو مترًا فى اتجاه الشرق فى تلك الليلة، وإلى مسافة ٢٤ كيلو مترًا فى صباح اليوم التالى، فإننا لم نر هذه الكثبان تندمج مع الأرض الصخرية الجرداء. كانت تلك الكثبان منعزلة دومًا، وضخمة الحجم، ومتموجة، ومكونة من سلاسل، وشبيهة بأمواج بحر يضيئه ضوء الشمس، علامة أرضية جميلة يمكن للرائى أن يراها على بعد مسافة فى الأمام تقدر بمسيرة نصف يوم.

كان الجو فى تلك الليلة أدفأ من سابقتها، وجلسنا نتسامر حول النار التى أوقدناها ورحنا نأكل عصيدة يوسف، التى يحبها الرجل أكثر من حبه للإبل، حكي

لنا، واستمع إلى قصص سليمان المرشد، عن الرحلات التى قام بها فى الماضى. ونظرا لأن تلك القصص كانت تحتوى على كل أشكال الهزائم التى يمكن أن تنزل بالإنسانية وتضعها فى قبضة الطبيعة التى لا ترحم، فقد حورنا الحديث إلى أن بدأ يتكلم عن الناس الذين كانوا يعيشون على هذه الأرض الجرداء "منذ زمن بعيد". كان الطعام والعلف وفيرين هنا، كما كانت هنا أيضًا أحجار متماسكة ببعضها بواسطة الملاط، وكنا نعثر فى بعض الأحيان على أحجار الطحن التى كانت تستعمل فى طحن الحبوب". تشككت فى روايات هذا الرجل لأنه أشار فى عصر ذلك اليوم إلى آثار لما اعتقده هو جدرانا مبنية بالملاط، لكنى أرى أن تلك الآثار كانت مجرد تشكيل من الحجر الرملى الذى له أشكال كثيرة غريبة. وأنا أرى أن أحجار الطحن التى تحدث عنها المرشد، يرجع تكوينها إلى الطبيعة، نظرًا لاستحالة وجود الماء فى الأرض الصخرية.

بدأنا تحركنا فى اليوم الأول من شهر فبراير عند الساعة السابعة صباحًا وبَركنا إبلنا عند الساعة الثانية والثلاثين دقيقة بعد الظهر، فى المهمسه Mehemsa، وهى من أراضى تغذية الحيوان، فقد جرى العرف على إطلاق الإبل ترتاح ساعات قليلة، وتتناول وجبة جيدة قبل الشروع فى عبور أرض جرداء ليس فيها عود واحد من العشب أو عود واحد من الحطب. هناك بضعة هياكل عظمية لإبل، هى بمثابة دلائل على الطريق الموجود أسفل الكثبان الرملية العالية، والمرء يصادف أثناء سيره فى هذا الطريق بعض الأحجار الكبيرة التى نصبها وأقامها الرحالة الذين جاءوا إلى هذا المكان. هذه العلامات المرتجله لها قيمة كبيرة وقد شاركنا نحن أيضا فى إقامة هذه العلامات بوازع من الدين. البدو أناس طيبون فى هذه المسألة بالذات. لقد رأيت محمد وهو يحاول الصعود إلى قمة تل وهو يحمل قرميذا من الصخر، بعد رحلة استغرقت يوما واحدا، لكي يضع علامة قد تدخل السرور وتسر خاطر قافلة قد يتصادف مرورها بهذا المكان بعد سنوات من الآن.



CAMP AT MEHEMSA: YUSUF, MOHAMMED AND AMAR.

المخيم الذى اقمناه فى مهمة: يوسف، محمد، عمّار

عبرنا الكثبان الرملية من منطقة فيها فتحة واسعة من الأرض الحجرية، وتمتد خلال سلسلة منخفضة متموجه، ووجدنا على الجانب الآخر من تلك الفتحة أعشابًا كبيرة وكتلاً من الأدغال الرمادية الجافة، وعلفًا ممتازًا وحطبًا ممتازًا، لكنها شديدة الحرارة فى وقت الظهيرة. استدارت الكثبان الرملية غربًا ثم شمالاً لتصل إلى مكان مفتوح يقدر بحوالى أربعة كيلو مترات. خلف هذا المكان، توجد أيضا منطقة من مناطق الحطب. خيمنا فى هذه المنطقة وتركنا الإبل ترعى. كان أفراد الجماعة مختلفين اختلافًا كبيرًا. قال يوسف: "سنصل - بمشيءة الله - إلي جغبوب، لكننا سوف نترك جملين أو ثلاثة علي الطريق". كنا قلقين تمامًا علي إبلنا، كانت الناقتان الصغيرتان نحيفتين تمامًا، وكان الجمل الكبير الأشقر مريضًا؛ وكان جملان آخران ضعيفين ومنهكين. كان مفترضا إراحة تلك الإبل وتغذيتها فى الكفرة لمدة لا تقل عن أسبوعين. كنا علي علم بذلك ونحن فى تاج، لكن السياسة المعقدة فى تاج حتمت رحيلنا عن المكان على وجه السرعة. قال لنا يوسف، إن القافلة المسافرة عن طريق الكفرة ـــ جغبوب تمضي ما لا يقل عن شهر فى الاستعداد لهذه الرحلة. ويجري اصطحاب ما بين أربعة وخمسين جملاً، ويجرى تغذية هذه الإبل عدة أسابيع قبل بدء الرحلة، إلى أن تصبح قوية وسمينة. طوال هذه الفترة لا تقوم تلك الإبل بأى عمل من الأعمال، لكن يجرى تدريبها بصورة متدرجة إلى ما قبل الثلاثة عشر يومًا الأخيرة، على عدم الشرب وذلك عن طريق إطالة الفترات التى يجرى بعدها عرض هذه الإبل على الماء. كانت إبلنا عندما وصلت إلى الكفرة قد قطعت رحلة طولها حوالى ثمانمائة ميل، إضافة إلى فترة زمنية تقدر بحوالى عشرة أيام لم تشرب خلالها تلك الإبل، واثنى عشر يومًا بلا غذاء كاف، وكانت الإبل تكاد تموت جوعًا خلال الأيام الثلاثة الأخيرة. وبعد فترة راحة دامت تسعة أيام تحتم علي تلك الإبل قطع واجتياز واحد من أصعب وأشق الطرق فى شمال إفريقية، وهى تحمل أحمالاً أكبر من طاقتها وفى فترة سيئة من العام، يكون المناخ

فيها فى أسوأ حالاته. من هنا، كان هناك مبرر لمخاوفنا، وعندما ابتعدت الإبل عن العلف الوفير فى المهمسه، بدأت جماعتنا الصغيرة تفقد شيئًا من روحها المعنويـــة العالية.

الفصل الرابع عشر

الكثبان الخادعة

يوجد على مقربة من أرض الرعى خزانان كبيران جرى تشييدهما بأمر من السيد المهدى. عندما كان واحد من أسرة السنوسى يود السفر من هذا الطريق، كان يجرى إرسال الماء بصورة مسبقة وتخزينه فى هذين الخزانين، اللذين يوجد بالقرب منهما عشة صغيرة بحاجة إلى الترميم. واقع الأمر أن وجود الماء فى المهمسة يجب أن يكون أمرًا لا شك فيه. الأرض هنا هى الأرض نفسها التي فى كل بطًفال وذاكار، كما أن فيها أيضًا عددًا وفيرًا من الأدغال الجيدة. سقوط المطر منعدم فى هذه المنطقة ولا يحدث فيها ندى حتى يمكن تعليل وجود هذه الأدغال الوفيرة. لاحظنا فى هذه المنطقة أيضًا بعض الطيور، التي برز من بينها نوع أسود أكبر من "أبى فصاده". حضر العبيد فى زمن سيدي المهدي بحثًا عن الماء ووصلوا إلى عمق ٢٠ قدمًا فى المهمسة، دون أن يصلوا إلى الرمل الرطب، لكن أحدًا لم يحاول الحفر بحثًا عن الماء منذ ذلك الحين.

بدأنا فى اليوم الثانى من شهر فبراير تحركنا صوب الشمال عند الساعة السادسة والنصف صباحًا، بعد جدل عنيف حول أفضل الطرق للاقتصاد فى الإبل. كنت أرى أن نتبع خطة الصيف التى تقضى، بأن نبدأ الحركة قبل غروب الشمس بساعة، ونسير الليل كله، ونخيم بعد الفجر بساعتين. وهذه الطريقة تمكن من يسير عليها من قطع مسافات كبيرة، لكن البدو كانوا مترددين فى مواجهتهم لبرد الليل. على الجانب الآخر، كان محمد خائفًا تمامًا من هبوب عاصفة رملية أخرى، الأمر الذى سيعطلنا بلا أدنى شك. كان محمد يود لنا السير مالا يقل عن خمسة عشر ساعة فى اليوم. من سوء الطالع أن الجمل يمشى ثلاث عشرة ساعة، بمعدل ٤ كيلو مترات فى الساعة، وهذا يكون أسهل على الجمل من السير عشر ساعات

بسرعة ٥ كيلو مترات فى الساعة الواحدة. يمكن للجمل أن يسير متكئًا وبصورة منتظمة دون أن يتوقف، وكلما تباطأ الجمل زادت مدة سيره. لم يكن محمد حمالاً جيدًا. وكان متخوفا خوفا شديدًا من الطريق الطويل الذي ينتظرنا، والذي يتعين قطعه فى اثنى عشر يومًا، فقد كان من رأيه التعجيل فى البداية لضمان شيء لوقت الحاجة؛ هذا مع العلم، بأن الأحمال - وبخاصة علف الماشية - سوف تخف يومًا بعد آخر. وعليه، رفضت السير أكثر من اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة ساعة فى اليوم، نظرًا لأن إبلنا لن تتغذى غذاءً صحيحًا فى الظلام أو الطقس البارد. وأفضل طرق السفر هى البدء عند الساعة الخامسة صباحًا، وتبريك الإبل لمدة ساعات قلائل عند الظهيرة، ثم تغذية الإبل فى فترة العصر عندما يصبح الطقس باردًا، ثم السير فى ساعة متأخرة من الليل. وهذا يعنى التحميل مرتين ولم يكن معنا رجال تكفى للقيام بهذه المهمة، وعليه يتحتم على دوابنا أن تعتاد التغذى فى ضوء النجوم أثناء الليل وفى الصباح أيضًا.

هبت علينا فى ذلك اليوم من أوائل شهر فبراير ريح باردة، الأمر الذي جعلنا جميعًا نسير منشرحى الصدور عبر رقع متواصلة من الرمل الرتيب طحيني اللون. وهنا تحولت الدنيا من أمامنا إلى قرص مستو من جديد، ومنبسط بلا حدود، وكانت نعومة ذلك القرص المستوى تترقرق بفعل وهج الشمس، إلى أن بدأ السراب يكسر الحواف، التي بدت على بعد ياردات قليلة منا. سألت سليمان العجوز عن طريقة تعرفه الطريق. "تضعين برج الجدى فوق العين اليسرى وتسيرين مسافة طويلة علي هذا النحو. ثم تنحرفين قليلاً فى اتجاه القبلة ثم تقطعين مسافة أكبر، وبعدها تصلين بمشيءة الله". لم تكن هذه الإجابة مطمئنة بعد أوهام محمد، وعليه سألت سليمان المرشد من جديد، عن موقع برج الجدي فى تلك اللحظة. ورد عليَّ بصراحة كاملة "أنا لا أعرف أين ذلك النجم". سألني "أين هذا النجم؟" أريته النجم عن طريق البوصلة، وجرى بسرعة وهو مسرور ويقضم تمرة صغيرة كانت ملفوفة فى طرف شاله المهلهل.

عندما بدأ غروب الشمس يصبغ دنيانا بلون اللهب الأحمر، بدأت النجوم فـــي الظهور الواحد بعد الآخر لتثبت لنا البعد اللانهائي "لتلك الـــسلطانية المقلوبـــة التـــي نسميها السماء". كان محمد من أنصار بذل المزيد من الجهد. حثنا محمـــد - وهـــو يشير إلى أسطع نقطة في اتجاه الغرب - "هيا بنا نتجاوز ذلك النجم". بعد أن لاحظنا أن الإبل كلها كانت تتعثر وتنحرف عن الخط المحدد، أدركت أن الدخول في ســـباق مع نجم المساء يمكن أن يكون نوعًا من الخطأ، ولذلك أصررت على التوقف وتبريك الإبل. لم ننشيء زريبة وتركنا الأحمال في مكانها انتظارًا لطلوع النهـــار. كنّـــا قـــد أحضرنا من المهمسه قليلاً من الحطب نظرًا لكبر أحمالنا من ناحية والتخفف من هذه الأحمال من ناحية ثانية، وعليه أشعلنا نارًا صغيرة بكل المقاييس، وغالبنا النوم فـــي غضون ساعة، لولا النقاش الطويل الذي دار بين محمد وسليمان المرشد حول مسألة تقييد الإبل. قال سليمان "الإبل لم تتحرك يا ولدي. إنها مُتعبـــة مثلـــي، وأنـــا رجـــل عجوز". رد محمد في أدب "عجوز أيضًا في الخبرة. لكن أرح قلبي بتقييـــد الإبـــل". وراح محمد يحكي قصة الإبل السبعين التي استولى الـــذعر عليهـــا وهربـــت فـــي منتصف الطريق المؤدي إلى زايغن. عادت الإبل كلها سالمة إلى جالو، لكن بعـــض الرجال الذين بقوا لحمل الطعام قضوا نحبهم أثناء السير. وهنا أصبح ســـليمان مثـــل الفأرة النوّامه عندما تكون بين "حاويتين"(*) وراح يطلب العون والمساعدة. سألته هل تعرف ما قاله النبي ﷺ يا عم سليمان، عندما جاءه رجل يسأله ما إذا كان يعقل دابتـــه أو يتوكل على الله؟" جاء الرد "إعقلها أولاً ثم توكل على الله".

عرفت من مختلف الهمهمات والتمتمات التي اختلطت بنـــومي، أن ســـليمان المرشد تأثر كثيرًا بتعليمي اللاهوتي، ويبدو لي عندما صحوت بعد ذلـــك بـــدقائق معدودات على صوت يوسف وهو يقول: "قوّاك الله! هل أنـــت مـــستعد لـــلأرز؟"

(*) واحدة "حاوية" وهي كلمة عامية ليبية تعني "فتحة واحدة" من فتحتي سرج حمل الأمتعة. (المترجم)

حركت رأسي وأنا أحتج بأننا لازلنا في منتصف الليل، وأنا أخرجها من كيس نومي، ومحاولة إفراغ الرمل من بين ثنياتها، ورأيت على بعد ياردات قليلة تلك الصور الصغيرة الحية الغريبة، التي تومض فجأة في حياة الإنسان ولا ينساها مطلقًا. شاهدت نارًا تطقطق لها رائحة، وكبيرة بشكل مذهل في مثل هذه الظروف التي نحن فيها، محدثة دائرة ذهبية مرتجَّه وسط الرمل المسطح المظلل، المهمل الذى لا يعرف الحدود. ورأيت على خلفية النجوم الساطعة خيال شخص طويل يرتدي ثوبًا أبيض، ويداه مرفوعتان إلى السماء، ورأيت غطاء أبيض يحيط بذلك الوجه الأسمر، الذى كان صاحبه يؤذن لصلاة الفجر. دوت "الله أكبر!" حاملة إيمانًا خالصًا، وشجاعة واضحة، صاعدة إلى المرشد Guide الواحد الذى يثق به البدوى وبقدرته التي توجه القافلة السائرة عبر الصحراء والكثبان الرملية، لتصل بها إلى الواحة المرجوَّة. كان سليمان منحنيًا على قدر كبير، بجوار الحطب، وراح يقلب "عصيده" الصباح بصورة رتيبه، وكانت عصاه الطويلة تتحرك على إيقاع غنائه المرتعد، في حين كان عَمَار، يقوم وهو متدثر بتلفيحته الخشنة، بتقليب صلصة حمراء اللون لها طعم الفلفل. كان وجه يوسف الممتلئ يوحي بالاستياء على خلفية النار المشتعلة، وهو ملفوف بكل ما يخطر علي البال من ملابس ولفائف من القماش، وكان يقوم بتلقيم النار عودًا بعد عود. ثياب بيضاء، ونار، ونجوم شاحبة، ودائرة من الإبل الخائفة على خلفية من الظلام الدامس. تلك كانت الصورة التي رأيتها، لكن صوت يوسف أفسد عليَّ هذه الصورة عندما قال: "قربة الماء(*) سيئة للغاية. سيكون الأرز أسود اللون!". قلت وأنا أرتعد "معلهش!(**) سوف لا أرى الأرز!"؛ لكني تذوقت الأرز بعد ذلك بدقائق معدودات، وعندها مر عليَّ يوسف

(*) استعملت المؤلفة هنا girba water بدلا من water Girba، على لسان يوسف الطباخ لكى توضح للقارئ أن يوسف لا يتقن الإنجليزية. (المترجم).

(**) كلمة "ما عليش" العامية بمعنى "ما عليك من شيء". (المترجم).

المتين وهو ممسك فى يده بطاسة التحمير. كان هناك أثر من الرمل على أنفه وجبهته، لكي يثبت أنه أدى صلاة الفجر، لكن فى الوقت الذى كان أفراد الجماعة فيه يحنون رءوسهم ثلاث مرات فى اليوم على أقل تقدير، كنت أشك دومًا أن يوسف كان يرش دومًا على وجهه بعضًا من الحصى أثناء تحركه.

نفذ البيض المسلوق فى ذلك اليوم، ولذلك تعين علينا التغلب بالسردين على الأرز الذى يطعم القرية. تكونت وجبة غذائنا عندئذ من التمر وحفنة من "البقسماط"،(*) نظرًا لأننا أُهدينا كيسين من هذا البسكويت الناشف غير المخمور، المحلي بشيء من السكر مضافًا إليه نكهة بذور الكراوية،(**) أهديناهما للإخوان الطيبين فى تاج. وتقاسمنا فى المساء علبة من لحم البقر المحفوظ لكن، المؤسف! أن دعمنا ومساندتنا الكبيرة لرحلة تيسيربو Taiserbo خذلتنا نظرًا لأن التمر الذى أحضرناه من هوارى كان طازجًا تمامًا، ولدغ أفواهنا، وألهب اللثة فى أفواهنا وجعلنا نعانى أوجاع العطش وآلامه. كانت مخصصات الماء صغيرة على نحو لم يُسمح معه بالشرب إلا فى الصباح والمساء فقط، الأمر الذى جعلنا نتخلى عن نصيبنا من التمر. أصر يوسف على أكل تمره واحدة كل يوم، لأن المثل العربى يقول "**التمرة على الطريق أو الفتاة المبتسمة تجعل الرحلة ممتعة**".

بدأنا تحركنا عند الساعة السادسة والنصف صباحًا، فى اليوم الثالث من شهر فبراير وواصلنا سيرنا حتى الساعة السابعة مساء، إلى أن جلست الجماعة كلها، رجال وحيوانات على حد سواء، وراحوا جميعًا يشكون وبدءوا يتأوهون. كان الجو شديد الحرارة، وخال من الريح تمامًا. بدأ حجم قراب الماء يصغر شيئًا فشيئًا بشكل واضح، وبدأ صوت الماء فى الفناطيس يوحى بأن قدرًا كبيرًا من الماء قد تبخر. من سوء الطالع، أن الطقس كان شديد البرودة بعد العاصفة الرملية التي

(*) استعملت المؤلفة هذه الكلمة بلفظها العربى bucksumat. (المترجم).

(**) استعملت المؤلفة هذه الكلمة أيضًا بلفظها العربى caraway. (المترجم).

هبت علينا مساء اليوم السابق قبل رحيلنا عن بئر ذاكار إضافة إلى أن الإبـل لـم تشرب كما ينبغى أن يكون. كان يوسف قد عبر طوال اليوم عن بعض التكهنـات الكئيبة، وعندما وصلنا إلى ربوة من الرمل، انجرفت علىَّ بعض الأوانى القديمـة التى تخلصت منها قافلة سابقة، وراح يقلب تلك الحاويات بطريقـة رذيلـة. وراح يسأل عن القدر "كم من الأوانى سيتعين علينا التخلص منها بهذه الطريقة؟".

طقس الصحراء لا يعرف المنطق. فبعد حرارة الظهيرة دخل علينا ليل شديد البرودة. أذكر أنى تناولت عشائى البارد وأنا أرتدى قفازى، ولـم أنـدهش عنـدما اكتشفت وجود صقيع، عندما هبت عاصفة مفاجئة من البرق والرعد، تسببت علـى الفور فى إخراجى من كيس نومى وَوجدتني أسقط فوق الترمومتر فـى الظـلام. كانت الإبل قد جُن جنونها، لأنها وعلى الرغم من عقلها (تقييدها) كانت تدور وتلف حول نفسها محدثة ضوضاء شديدة، فى حين كان أفراد الجماعة يحاولون إبعادهـا عن قرب الماء التى رتبناها ترتيبا أنيقًا وحميناها كعادتنا بسياج من الأمتعة.

بدأنا تحركنا فى اليوم الرابع من شهر فبراير عند الساعة السادسة والربـع صباحًا، وأبلينا بلاء حسنًا، نظرًا لسباق التحميل بين كل من عمّار ويوسـف فـى مواجهة المرشد سليمان ومحمد. وأنا أعتقد أن الاثنين الأولين هما الفـائزان، لكـن الأحمال كلها كانت مترجرجة إلى حد ما فى ذلك اليوم. طارت بطه سوداء علـى ارتفاع منخفض معترضة طريقنا ومتجهة صوب الشمال. قال سليمان وهو يـشير إلى الأمام "لقد ذهبت إلى البلد المقلوب رأسا على عقب" وشاهدنا عند الأفق كثبانًـا رملية شاحبة وسلاسل جبلية، واضحة المعالم، ولها ظلال بنفسجية عند أسفل القمة والجرف المنحدر. بدت لنا هذه الكثبان وتلك السلاسل وكأنها تبعد عنـا سـويعات قليلة، وفرحنا كلنا على الرغم من أننا نعلم أنها على بعد مسير يوم منا.

وتزداد حرارة الطقس من جديد، لكن يوسـف الـذي كـان يتمتـع دومًـا بالشمس الحارقة، أخذ على عاتقه مسألة التهوين علـى المجموعـة كلهـا. كـان

يوسف كلما برك جملاً من الإبل وراح يتأوه ويقوم بعمل صف من "العصيدة" اللعبة فى الرمل، بحيث يجعل الفتحة العلوية الصغيرة للصلصة. كان يوسف يقول وهو مبتسم "هذه العصيدة له كى يأكلها وبعدها يصبح قويًا من جديد". وعندما اشتكى سليمان المرشد قال يوسف المتين: "سوف أركب وأتقدم كى أستطلع الطريق". ثم ركب عصاه، وأخذ يلف ويدور مقلدًا كل حركة من حركات الفروسية تقليدًا محكمًا. أخيرا وبعد أن غلبتنا الحرارة على أمرنا، وعلي نحو لم نعرف معه ماذا يمكن أن نخلعه بعد ذلك، وجدنا يوسف يملأ فى صمت تنورة قميصه بالرمل وراح يبذره يمينًا وشمالاً مثل البذور. قال محمد متعجبًا: "ماذا تفعل أيها الرجل، بحق السماء؟" قال ببساطة: "سيعثر الرحَّالة التالى على رقعة خضراء وسوف يسعد بها". ومع ذلك، وبعد أن فشلت الكثبان الرملية المضللة فى أن تصبح حقيقة واقعة، حتى ولو علي سبيل الظلال عند الأفق، بدأ القلق يتسرب إلى نفوس الجميع. وهذا هو حسانين وقف موازنًا نفسه علي ظهر جمل من إبل التيبو، لكنه لم يبلغ عن أى شيء، وعليه راح يهدئ نفسه بأن بدأ يعيد إصلاح حذائه الأصفر.

دار طوال فترة العصر جدل طويل حول ما إذا كان يتحتم علينا الاتجاه إلى الشرق أو الغرب من بعض الكثبان الرملية غير المرئية لنا، واختلفت الجماعة اختلافًا كبيرًا حول مدى سعة رؤيتنا لتلك العلامات الأرضية أو تبين اتجاهها. وعليه لم أندهش عندما سمعت خلفى جدلاً شديدًا. كانت اللعنات واللوم ينصبَّان على سليمان، الذى رد على ذلك بقوله: إذا كان كبير السن ولا يستطيع الرؤية جيدًا. صاح محمد "لقد ضل ....ويتحتم علينا الوقوف. نحن لا نستطيع مواصلة السير". شارك يوسف فى النقاش. "هل هو متأكد من أنه ضل الطريق؟ فكر، أيها الرجل! أقول لك، دعه يفكر!" توالى العتاب والمقترحات على شكل جلبة كبيرة

كنت قد سبق لي التعامل مع نزاع من هذا القبيل ذات صباح، حول مسألة وجود أو عدم وجود سلسلة من الجبال على الشمال أو اليمين! صممت أن يكـون لحسانين نصيب في هذا النزاع. لما كان حسانين يعاني ضعفًا بسيطًا في السمع، فقد انكب على حذائه ــ بعد أن سبقنا بمسافة كبيرة راكبًا جمله الرمـادى. انـدفعت نحـوه غاضبة. قلت وأنا غاضبة وممسكة بالجمل من عنقه إمساكًا شـديدًا، وقـد بـدت الدهشة علي وجه الرجل "أنزل فورا". وأمسك حسانين بأقرب الحبال إليـه، وهـو ممسك بحذائه، استعدادا لتبريك الجمل عنوة! "أمسك نفـسك، لقـد ضـل سـليمان الطريق. وهم يتشاجرون حول هذا الموضوع. إذا كانت العلامة الأرضـية التـى ضلها من العلامات المهمة، فالأفضل لنا الانتظار لحين طلوع النهار. وأسـتحلفك بالله أن تسرع!".

أسفرت نظرة القلق التي ألقاها حسانين علي الجماعة الغاضبة فى المؤخرة، والذين كانوا جميعًا يشيرون إلى الخلف، عن جعل الرجل يعـود أدراجـه دون أن يقول كلمة واحدة. راقبته وهو يقحم نفسه فى الجدل عندما سـمعته يقـول: "والله! ويكررها مرارًا وهو غاضب، ورأيت أيدى مرفوعة إلى السماء، واندهشت عنـدما رأيته يخلّص نفسه من يدى محمد اللتين كانتا تحاولان تعطيله، ويسير ببطء عائـدًا إلى جمله، وهو يلم المُقتنيات التي بعثرها عندما داهمته بحضورى إليه. سألته وأنا قلقه: "حسن، ماذا حدث؟ ما الذى فقده سلميان؟" أنتظر حسانين إلى أن أقترب منـى تمامًا ثم نظر إلى نظرة توحى بالازدراء، ثم قال بصوت خفيض، لاقطًا كل كلمـة على انفراد: "هى ــ مجرد ــ حقيبه ــ صغيرة ــ من الجلد ــ التى ــ أعطـاه ــ إياها ــ القائمقام ــ لكى ــ يبيعها ــ فى ــ جغبوب. لقد ــ تركها ــ سـليمان ــ خلفه ــ هناك!".

قوضنا مخيمنا عند الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم الخامس مـن شهر فبراير، ولم أعبأ بالقهوة المخلوطة بالشمع والأرز، والتى فيها شعر من الجلد

المصنوع منه القربة، لم أعبأ بذلك طمعًا فى مشاهدة سراب الصباح. كانت الكثبان الرملية تبدو لنا أقرب فى هذه المرة. استطعت رؤية الخطوط المتموجة علي طول السلاسل الجبلية وعلي امتداد كل ربوة من الروابى المنعزلة، ومع ذلك، وبعد ذلك بساعة اختفى كل شيء، وراح القرص المنسبط طحينى اللون يمتد من جديد، بلون سنجابى رتيب على كل الجوانب. كان سليمان واثقًا، من حتمية نومنا فى الكثبان الرملية فى تلك الليلة. وكان يوسف متأكدًا تمامًا من أننا مادمنا لم نر سلسلة جبال ماسول Masul فى الناحية الغربية، فذلك يعني أننا يجب ألاّ نرى الأرض" يومًا آخر. البدو أثناء ترحالهم عبر الصحراء الخالية من الدروب يطلقون اسم "الارض" علي المناطق المعروفة لهم. الأمر شبيه هنا برحلة بحرية طويلة والمرشد يلعب فيها دور الرّبان. هذا يعني أن المرشد يحاول دومًا توجيه رأس القافلة صوب الاتجاه الصحيح عن طريق النجوم وعن طريق الوقفات حتى يهتدى إلى علامة أرضية معروفة قبل أن يتجه مباشرة إلى واحته. عند الساعة العاشرة صباحًا نطق المرشد بشيء شبيه بالصرخة ثم ألقى بنفسه على عنق يوسف. تعجب المرشد قائلاً. "أنا أرى سلسلة جبال ماسول Mazul! والسلسلة قريبة، إنها قريبة جدًّا". بعد أن تركنا خط الروابى البعيدة الشاحبة على يسارنا، يممنا سيرنا صوب الشمال قاصدين كثبانًا رملية أخرى بدأت تظهر أمامنا، على شكل وهج خافت فى الأفق. شردت الناقتان الصغيرتان بعيدًا متجهتين صوب الغرب طوال النهار فى طريق معروف لهما. قال يوسف: إن الناقتين الصغيرتين عرفتا أن أميهما اللتين فصلناهما عنهما فى تاج Taj، تسافران الآن على طريق زايغن ـــ جالو، وأن العزيزه هى التى تدفعهما نحو قافلة الجنود العبيد.

كانت شخصية المتين (يوسف) لها ميزتها فى الظروف الصعبة. فعندما تسير الأمور على ما يرام يتجهم وجهه علي نحو يكشف عن تحمل مشوب بالقلق وعدم الرضا. تراه وقد تحولت عيناه إلى شفين طويلين وتحول صوته إلى ما يشبه

التوجُع. وعندما تنشأ ملمات صعبة، وعندما تتعب الإبل ويصبح الجميع متعبين، نرى يوسف يهب للتخفيف والتسرية عن القافلة كلها. كانت أغنياته القصيرة المضحكة تتقاطر علينا ساعة بعد أخرى، إذ كان يروي لنا حكايات طويلة عن المرده والأميرات، وكان يلقي نكاتًا لطيفة كنا نقبلها منه كل يوم باهتمام كبير. وعليه، عندما كانوا هم أحد من الناس، كنا نحييهم دومًا عندما ينضمون إلى القافلة، كما لو أنهم جاءوا من غياب طويل، وكان هم بدورهم يردون علينا بأنهم جاءوا من إجدابيا وجالو خلال يومين أو ثلاثة، وكنا نحييهم على مسيرتهم، ونسألهم عن أدق الأخبار الخاصة بأصل المكان. لم نمل هذه اللعبة مطلقا، وكنا جميعًا نتفنن في اختراع الكلام على حساب أهل إجدابيا الطيبين.

يحسب الإنسان أنه في مسيرة تدوم ثلاث عشرة ساعة يوميًا، أن يكون لديه متسع من الوقت للدخول في المزيد من الحوار، لكن الصحراء تولد التَّحفُّظ. كبر حجم الصحراء يجعل من مخططات الإنسان ومشروعاته شيئًا يبلغ من الصغر حدًّا يصعب معه الحديث عنها قياسًا إلى حجم الصحراء الشاسعة الواسعة. كنا نسير ساعات دون أن نقول كلمة واحدة، إلى أن يقوم يوسف المتين بكسر ذلك الصمت بفكرة عن زواجه القادم أو مرضه الذي رآه في عين جمل من الجمال. عند هذه المرحلة كنت قد تعلمت كيف أجعل الناس يفهمونني. الأسماء تكاد تكون كلها مختلفة، لكني بعد أن تعلمت قائمة من الأسماء استطعت التحسن تمامًا باستعمال فعل أو فعلين. التعبير عن العمليات المسالمة من قبيل التوقف، التحميل، التنزيل؛ الإسقاط، البدء ....الخ يكون باستعمال الكلمة "شيل " shil. وإذا ما أراد المرء أن يعني العمل الهجومي العامر بالحيوية، مثل القتال، والهجوم، والتسلق السريع، الأكل، الحرق، أو الغضب فان الفعل "عقل " كاف للتعبير عن هذه المعاني.

وصلنا إلى الكثبان الرملية في نهاية المطاف قبل غروب الشمس بساعتين، ومن يمن طالعنا أننا تجاوزنا كثيبين رمليين يعدان علامتين أرضيتين معروفتين

للجميع. كان من رأى يوسف أن ندور من خلف هذين الكثيبين، لكن سليمان أصـــر علي السير فى خط مستقيم، الأمر الذي ترتب عليه وصولنا رقعة واسعة منبسطة من الأرض طولها حوالى اثنى عشر كيلو مترا. برّكنا إبلنا فى نهاية هذه الرقعـــة المنبسطة الواسعة وسط ريح آخذة فى التزايد، عجّلت بإطفاء فانوســـنا الـــصغير، الأمر الذى نجم عنه ضياع كل شيء فى الظلام بما فى ذلك فتاحة العلـــب، كانـــت ليلة بائسة، نظرا لان الحطب الذي أحضرناه معنا من مهمسة كان قد نفد، وبالتالى باءت بالفشل محاولتنا عمل شيء من الشاى على نار صغيرة أوقدناها فى بعـــض من "الليف"(*) الذى انتزعناه من حاويه (خرج) من الحاويات.

كان الماء الذى حصلنا عليه من القربة التي فتحناها فى تلك الليلـــة ســـيئًا للغاية. كان طعم الماء ولونه غريبين تماما وعليه قررنا استخدامه فى الطهى فقط. كان سليمان ينظر إلى هذا الماء باهتمام كبير. قال سليمان: "لدينا مـــا يكفينـــا مـــن الماء، الحمد الله. وأنا، فى كل الأحوال، يمكننى البقاء بلا شـــرب مـــدة أســـبوع." وعندما راجعناه فيما قال رد علينا قائلا: جرت العادة أن يرسل ســـيدى المهـــدى قوافل لاستكشاف المنطقة المحيطة بالكفرة. كان سليمان هو ورجل عجوز قد شكّلا واحدة من تلك الجماعات وأنهم تجولوا إلى أن وصلوا إلى مرج merg، التي تبعـــد مسيرة ثلاثة عشر يومًا جنوب شرق النقطة التي بدأ منها سيرهم، وان إبلهم سُرقت فى احدي الليالى بواسطة عصابة من اللصوص. ولابد أن يكون أمر ما قد حـــدث لقرب الماء، نظرا لان جماعة الاستكشاف وجدت نفسها فى فترة الصباح ولـــيس معها من الماء والتمر سوي ما يكفيها مدة يوم ونصف اليوم، وان الجماعة كانـــت تبعد مسافة تقدر بمسيرة ستة أيام إلى أقرب الأبار وهى بئر العوينـــات oweinat. يزاد على ذلك، أن الثلاثة بدءوا السير وصولا إلى تلك البئـــر، وكـــانوا يحملـــون

(*) استعملت المولفة كلمة " ليف " leaf بلفظها العربي لتعنى بها " ليف النخيل " (المترجم).

بنادقهم بطبيعة الحال ومرض الرجل كبير السن بعد مسيرة يوم واحد وأصر على أن يتركه الباقون وراءهم. وبعد يومين تخلى رفاقه المخلصون عن بنادقهم. وبعد ثلاثة، أصيب سليمان بالحمى، ورقد أرضًا وكاد يلقى حتفه، لكنه واصل سيره إلى أن وصل إلى البئر بسلام. وشفي مرشدنا من مرضه بطريقة غير متوقعة بعد أربع وعشرين ساعة، وبدأ مسيرته من جديد، بأن راح يسير أثناء الليل ويتوقف عن السير أثناء النهار. ووصل مرشدنا إلى العوينات في اليوم السابع مجهدًا وعطشانًا إلى الحد الذي عجز معه عن إدخال الماء في حلقة، وعليه ألقى بنفسه في ماء البئر مدة يوم كامل وبعدها استطاع شرب الماء. ومن حسن الحظ أن قافلة كانت قد تخلصت من بعض التمر، وبمخزون بسيط من هذا التمر والماء القليل الذي استطاع حمله، واصل سليمان سيره في اتجاه الكفرة، في رحلة استغرقت أسبوعًا آخر وكان العجوز الذى تركوه يلقى حتفه على الطريق قد وصل بعد ذلك بيوم حاملا بندقيته. هذه القصة شيء لا يصدقه عقل، لكن يوسف أمَّن على صدق هذه القصة، وحكي لنا عمار أنه لم يشرب سوى مرة واحده طوال اثنتين وسبعين ساعة عندما تلف الماء الموجود في القربة وبعد ذلك، حكى لنا محمد، الذي لا يفوقه أحد في القدرة على التحمل، أنه سافر من جالو إلى جغبوب في غضون أربعة أيام وأربع ليال، بلا نوم، وأنه كان يأكل أكل الإبل طوال مسيرته، نظرا لأن القرب كانت كلها يتسرب منها الماء، وأنه كان يتخوف من نفاذ الماء الذى معه.

عند هذا الحد أحسسنا أن جهدنا الصغير لوضع خط أحمر جديد علي خريطة المسح، تضاءل كثيرًا جدًا وأصبح غير ذى بال، وأننا يتعين علينا أن نكون قادرين على السير إلى جغبوب حاملين معنا فنطاسًا وعليه من اللحم المحفوظ إذا تطلب الأمر ذلك! وثقنا بذلك الكلام في صبيحة اليوم التالي عندما أدارت الإبل أنوفها لوجبة التمر التي قدمناها لها وهربت منا عامدة متعمدة. لم يكن أمام الإبل مكان تهرب إليه بين الكثبان الرملية، وعليه تمكنا من استعادة الإبل، بعد مجهود

استمر ساعة، ولكننى شعرت أن كلمة "عُقال" agal ليست كلمه الكُفرة، هي التــي سترسخ فى قلبى مستقبلا! لم نوقد النار فى ذلك الصباح، ولم يكن الأرز المنقــوع غير المطهى فاتحًا للشهية. أذكر أننى كنت أربط بقايا جوربى حول قدميَّ عنــدما سمعت صوتا كئيبا يقول: " لقد أكلنا آخر كرتونة من كراتين السردين فــى الليلــة الماضية لأنك نسيتِ فتّاحة علب اللحم فى الرمل كما أن الأرز أسود سواد الفحــم. أتمنى ألا تكونى بخيلة أو مقترة معنا فى فناطيس الماء!" لم الق بالا لما قيل لأنى لم يعد معى أى شيء من الجوارب. من الواضح أن الحذاء الوردى القرمزى اللــون الذي اشتريته بأربعة مجيديات (حوإلى ستة عشر شلنا) من الجوف لم يعد صــالحا للمشى، نظرا لأننى كنت ألبس طول الوقت زوجين من الجوارب الصوفية الواحــد فوق الأخروهذان الجوربان الآن متلمعان حول قدميَّ. ومع ذلك؛ وجدتني أنظر إلى الأعلى عندما تواصلت تلك الشكوى. "لقد عثرت علي سردينة واحدة. لابد أن هــذه السردينه سقطت عندما قلبت أدوات المائدة على الأرض فى الرمل" أصابني الفزع عندما وجدت كتله سوداء ومن فوقها كتله صفراء شبيهة بالسمكه، لكني لــم أكــن ممن يثبطون الهمم. سألت وأنا مستاءة "هل أنت متأكد أن هناك سردينه فــى هــذا الرمل؟" استاء حسانين هو الأخر "هل ستنحتينها أنت أم أنحتها أنا؟".

دخلنا فى اليوم السادس من شهر فبراير مباشرة فى منطقة الكثبان. وكانــت تلك الكثبان بصفة عامة، تمتد من اليسار إلى اليمين على طريق سلاســل كبيــرة متموجة، يصعب أو يستحيل على الإبل تجاوزها. كانت توجد فيما بين الكثبان رقع واسعة من الأرض المدورة التى كانت ترتفع بصورة متدرجة صاعدة إلى الكثبــان المنخفضة التي راح سليمان يشق طريقه خلالها بثقة واقتدار. كان الرجل صــغير الجسم شديد الهدوء. قال سليمان: "أنا لم يسبق لى مطلقا المرور من هذا الطريــق، لكنى إن أبقيت على نجم الجدي jedi فى عينى اليسرى سنــصل، بمــشيءة الله! " وعندما اشتكى يوسف شكوى شديدة من عدم وجود الحطب ــ كانــت القافلــة قــد

أكلت دقيقا خاما وشربت ماءا فى ذلك الصباح ــ رد عليه سليمان قائلا: "سـيرزقنا الله بالمؤن". بعد ذلك بدقائق قليلة صادفنا هيكل جمل، وذلك منظــر يرحــب بــه الجميع، لأنه أثبت لنا أننا كنا نسير فى المسار الصحيح؛ كان بداخل هيكل الجمــل العظمي، وبين الضلوع بعض القراميد الكبيرة من الروث الجاف. سحب محمد تلك القراميد وهو فرح. "سنوقد النار! سنوقد النار! الحمد لله!" وهنا تهلل الجميع إلى أن جاء عمَّار بخبر مرض يوسف. كنا قد رأينا يوسف المتين وهو يرقد فى مكان مــا فى مؤخرة القافلة، لكننا حسبناه ينتظر مدة ساعة، وهذا الأمر نفعلهِ نحــن جميعًــا بالتناوب، وهنا تجلى الفارق بيَن طبيعة الشرق وطبيعة الغرب، ففى الوقت الــذي كان البدو ينامون فيه آمنين فى المؤخرة ثم يروحون يجرون بعد ذلك وراء الإبل، كنت أنا أسبق القافلة وأسترخى فى طريقها، حتى أستيقظ على أصــوات مجيئهــا. اتضح أن يوسف سقط على الأرض مغشيا عليه لمدة ساعة؛ وكان الرجل محظوظًا لأنه استطاع اللحاق بالقافلة. أركبنا يوسف على الجمل التيبي الذي كان أقوى إبل القافلة، لكنه بدأ يكشف عن دلائل العطش، وراح يواصل السير.

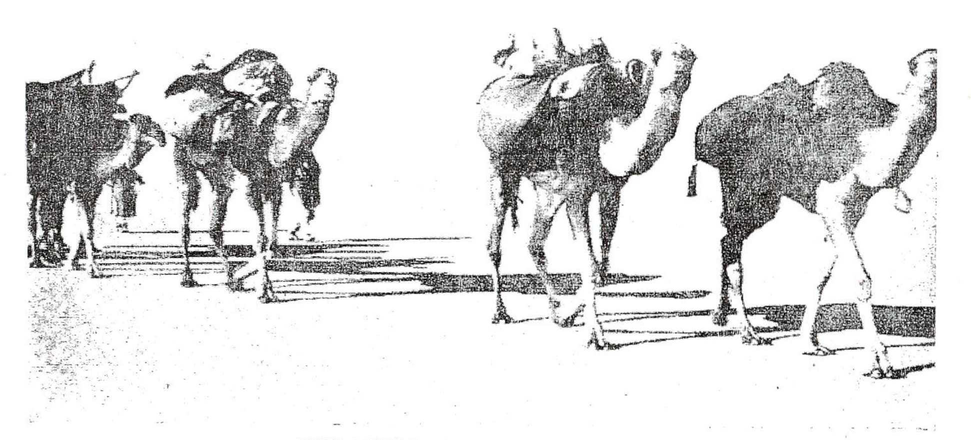
كان السير فى الكثبان الرملية أكثر مشقة وصعوبة، نظرًا لأن الرمل كــان ناعمًا وعميقا فى بعض المناطق ، لكن السلاسل الجبلية المتموجة، الصفراء صفرة الزبد الأيرلندى، والتي كان ويوسف ينظر إليها نظرة حب ووله؛ لأنها كانت تذكره بمحبوبته "العصيدة"، جاءت بمثابة الأرواح الخيرِّة بعــد الأيــام الأربعــة الــشاقة السابقة. كانت لحظات مثيرة، وبخاصة عندما يتسلق الإنسان غردا (كثيبا) مرتفعا، أملا فى رؤية منظر من المناظر. منطقي أن يتوقع الإنسان قمما صفراء متموجة، ومساحة واسعة من واد يسقط عليه ضوء الشمس، وجبل يمتد فى كل الاتجاهــات، لكن المستحيل قد يحدث فى بعض الأحيان. قد يرى الإنسان قافلــة أو واحــة – أو شيئًا من الحطب فى أضعف الأحوال!

ولهذا السبب كنا نسارع دوما بصعود المرتفعات الكبيرة لكى نلقـــي نظـــرة على السلاسل الجبلية التي تهب عليها الرياح، ومع دخول المساء كوفئنـــا علـــى جهدنا بظهور بعض القمم السوداء الصغيرة وفى تجويف مـــن التجـــاويف. قـــال يوسف: "حطب" وهنا شُفى يوسف جراء هذه الكلمة – وربما كان شـــقاؤه بـــسبب الصفة التى أعطيناها إياها فى اليوم السابق ! تسابقنا علي تلك السيقان الهشة مـــن الخشب، التي انطوت على أمل إشعال النار، والطعام الحار فى تلك الليلـــة، وراح الجميع يتحدثون عما سيأكلون فى تلك الليلة!

وصلنا عقب غروب الشمس مباشرة إلى كثيب رملى شبه عمودي رفـــضت الإبل صعوده. وتعين علينا حفر مجرى منحدر فيه، ورحنا ندفع الإبل فيه الواحـــدة تلو الأخرى. تعب الجميع وكانت فكرة غبية بشكل لا يُعقل. نزلت النوق الـــصغيرة نحو الأسفل، مطيحة بأحمالها أمامها، ونفذ صبر محمد لهذا المنظـــر وزاد الأمـــر سوءًا بان راح يضرب الحيوانات، التي كانت لا تزال مترددة عند القمة، تعثـــرت الإبل وهى تتحرك إلى الأمام وتكومت، وهنا وجدت قرب الماء يتهددها الخطـــر. من يمن الطالع أن الجمل التيبى كان يحمل القسم الأكبر من تلـــك القـــرب. نـــزل الجمل على قدميه الكبيرتين، وكنت قد استنفدت طاقتى ولم يعد بوســـعى الإمـــساك برأسه وجره بعيدا عن تلك الفوضى برّكنا الإبل قبل أن يأخذنا قصير النظر عبـــر جرف آخر، ونظرا لان الإسراف يعد معلما من معالم الفرح فى تلك المرحلة، فقـــد أشعلنا مالا يقل عن ثلاث نيران، بل إننا وضعنا كل ما وصلت إليـــه أيـــدينا فـــى المقلاة – وضعنا فيها أرزًا، ولحما محفوظا، ولفتا محفوظا – لدرجة أننـــا أكلنـــا وجبه حارة، بل حارة جدا. شربنا أيضا كوب الشاي وهو حار أيضا، ونحن نتناقش ما إذا كانت القهوة هى الأفضل، لأنها على الرغم من أنها تسبب العطـــش فإنهـــا تخفى مذاق ماء القرية.

عند هذه المرحلة كانت الأشياء كلها لها بعض من طعم الشمع ، والسبب فى ذلك أن الأيام شديدة الحرارة أدت إلى صهر الشمع فى أوانى المائدة. صحيح أن الرمل يمكن أن يستعمل فى تنظيف الأوانى تنظيفا جيدا ، لكنه يحتاج إلى طاقة كبيرة، وأنا أتحدى أى إنسان أن تكون لديه الطاقة التي تمكنه من القيام بذلك بعد عملية تحميل وتغذية الإبل قبل مسيرة قد تستمر اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة ساعة، وتنزيل الأحمال وتغذية الحيوانات المتعبة التى تفوح منها رائحة خاصة بعد نهاية مثل هذه المسيرة، ثم ربط هذه الإبل، وهى تحاول الإصرار على الهرب، ثم القيام بعد ذلك بتجهيز وجبة، والأدهى من ذلك كله، العواصف الرملية التي كانت تكدر صفو ليالينا! لعل أولئك الذين يحلمون بالصحراء الشاعرية التى صورها سوينبرن، يأتون إلى ليبيا! نحن لم نغسل أى شيء سوى أيدينا منذ أن غادرنا هوارى قبل ثلاثة عشر يوما، أو بالأحرى منذ أن غادرنا بئر ذاكار، هبت علينا منذ ذلك الحين عاصفة رملية ملأت كل مسامنا بحبات الرمل الدقيقة الناعمة، الأمر الذى ترتب عليه أننا كنا نتحمل ذلك الحال أثناء النهار، لكن أثناء الليل، وفى ظل الدفء والمكان المحدود داخل كيس النوم، يصبح التَّهيُّج أمرا لا يطاق. تعودت على ألا أسمح أو أتحمل إهدار الماء، مادمت باقيًا على قيد الحياة.

قسا علينا القدر من جانب واحد، لأننا فى اليوم الذى قضيناه عند بئر ذاكار، عندما كنا نحلم بحمامات رملية فى غطاء خزانة أدوات المائدة ونحن خلف نخلة صديقة، أرسل القدر علينا أول عاصفة رملية، ولذلك اقتصرنا علي كوب من الماء لغسل أصابعنا. وكنت أسترخى أثناء الليل، وأنا قلقة، واتهرش، وأروح أطيل النظر إلى النجوم، وأروح أتعجب كيف يمكن للمرء أن يتماشى مع الصحراء فى هذا اللغز الأخير من ألغازها. ومع ذلك، وفى البرد الشديد، الذي يصاحب طلوع الفجر، كان التعب والإرهاق يختفيان، وعندما يقوم المرء بإشعال نار كبيرة لتجهيز الإفطار، وأكل الأرز أسود اللون بشهية مفتوحة. كان يوسف فخورا بمهارته



THE AUTHOR ASLEEP ON A CAMEL.
(Second Camel from the left. Note the stick.)

المؤلفه قائمة فوق جمل (الجمل رقم ٢ من الناحيه اليسرى – لاحظ العصى

كطباخ، وعليه لم نود إخباره بالأجسام الغريبة التى كنا نجدها فى طعامنا – قطع من ليف النخيل، والقش الذي يأتى من سُرُج الأمتعة، والحصى، والشعر والفقاقيع، والرمل – كان ذلك هو الصلصة الليبية، وأنا أعتقد أن حسانين كان هو الآخر يعانى فى صمت، لأن هذه كانت أول رحلة صحراوية له، وكان لا يزال يعول كثيرًا على مسألة النظافة وكنت قد اعتدت على مشاهدة حسانين وهو يروح يدعك فى السر طبقه بطرف ردائه الحريرى، وعندما كان يتأخر عن تناول الإفطار، كنت أعلم أن ذلك بسبب انشغاله بكوبه أو شوكته قبل أن يقوم باستعمالها.

بدأت المساحات المسطحة تقل فى اليوم الثانى من وجودنا بين الكثبان الرملية، الأمر الذى جعلنا نصعد وننزل السلاسل الجبلية معظم الوقت. بدأت الإبل تكشف عن أعراض تعبها وإرهاقها وهذه واحدة من النوق كانت تُخَشّب عنقها معظم الوقت. وهذا هو الجمل الأشقر كبير الحجم، يتعين إعفاؤه من حمولته. كانت الإبل تفوح منها رائحة كريهة، وهذا هو أول مؤشر من مؤشرات إرهاق الإبل؛ ومن يمن الطالع وجدنا بقعا من الحطب الأخضر، وذلك الدغل الشوكى، الشبيه بأدغال مبعثرة عند سفوح الكثبان الرملية، راحت الإبل تتسابق فيما بينها على الوصول إلى القضمات الطازجة الأولى. أصيب عمار بالحمى وكان لابد من السماح له بالركوب، فى الوقت الذي كنت أحس أنا فيه بالتعب والإرهاق مما جعلنى أضع نفسى فوق مشابك سُرُج الأعمدة، بحيث تكون ركبتاى ملفوفتين حول مشبك من المشابك ورأسى على المشبك الأخر. ونمت وأنا فى هذا الوضع غير المريح تماما فى الوقت الذى كان يوسف يتجول فيه حولى متشككا. قال يوسف فى أدب" أنت فارعة الطول، أظن انك ستسقطين من فوق الجمل" وراح يوسف يحاول تثبيت قدم متدلية كما لو كانت قطعة من أمتعتنا أوشكت على السقوط.

لم أفهم معنى وجود الأدغال الخضراء إلا بعد أن وجدت مخدتى مبللة بندى نقي فى تلك الليلة. هنا أدركت أننا غادرنا الأراضي الجنوبية وخلفناها وراءنا،

وفي اليوم التالي المصادف لليوم الثامن من شهر فبراير شاهدت سحبًا قليلة في السماء، مجرد بقع بيضاء منقوشة في السماء، لكننا كنا قد اعتدنا على اللون الأزرق المنصهر الذي يخيم على ارض الكفرة حمراء اللون والأراضي الجرداء المحيطة بها. كان ذلك اليوم بمثابة أتعس الأيام عندي. في ذلك اليوم أصرت الإبل الصغيرة على التخلص من أحمالها مختلَّة التوازن نظرا لأن العلف خف وزنه. وهبت أيضا في ذلك اليوم ريح شرقية باردة، أدت إلى تقرُّح البشرة من ناحية، في حين أحرقتها الشمس من الناحية الأخرى. يزاد على ذلك أن الإبل لم تتجمع مع بعضها، ولكنها تفرقت متجهة إلى كل بقعة من البقع الخضراء. وبدت الكثبان الرملية لنا أكثر انحدارًا من سابقتها، كما بدا الرمل لنا أكثر نعومة وأكثر ثقلا. لم يكن أحد منا على يقين بالطريق. كما أن سليمان نفسه بدا مكتئبا بعض الشيء في مسالة العثور على العلامات الأرضية التي سبق أن تعرف عليها في الرحلات السابقة. أصر سليمان على مواصلة السير في اتجاه الشمال، على الرغم من معرفتنا أن جغبوب تقع في الشمال الشرقي، وكان تفسير سليمان الوحيد لمواصلة السير في اتجاه الشمال هو أن الوصول إلى المكان المطلوب من ناحية الغرب أسهل وأيسر. أما أنا فكنت أرى أن من المنطقي السير في اتجاه الشرق من باب أن تجاوزنا لجغبوب يمكن أن يوصلنا إلى سيوة في أسوأ الأحوال. كما أنه لا يوجد في الناحية الغربية سوى ذلك الجزء من الأرض الخالية من الماء والمؤدي إلى جالو، ويقطعه المسافر في غضون سبعة أيام.

على كل حال أصر سليمان على موقفه ، وواصلنا سيرنا ونحن مرهقون ، وكنا نحرك أقدامنا بحزم مشوب باليأس ، وكنا نلقي بأنفسنا منبطحين على وجوهنا على الأرض، لنحصل على بضع دقائق من النوم الجميل كلما كانت الإبل تتطفل بحثا عن الغذاء. اذكر أني كنت أسأل نفسي بعد تعسيلة من تلك التعسيلات القصيرة، عن عدد الآلام والأوجاع التي يحسها جسم الإنسان في كل لحظة من هذه

اللحظات. اهتممت أكثر بهذه المشكلة عندما بدا لي وجه حسانين البرونزي اللون، مجوفًا خلال الأيام القلائل الأخيرة. كان حسانين يحاول تحريك قدميه الملتهبين بعد مسيرة دامت اثنتى عشرة ساعة في اليوم السابق. قال حسانين: "عندما نعود إلى القاهرة سيقول الجميع " يا ليا من متعة تلك التى لابد أن تكون قد تمتعت بها"!

صحيح ، أنه كان ذلك اليوم عبوسًا، لكنه انتهى فى نهاية المطاف بالتعرف على بضعة أماكن من الحصى أسود اللون، والتى تعد علامة أكيدة على اقترابنا من الحافة الشمالية للكثبان الرملية. يزاد على ذلك أن الطبق الشهى الذى نجم عن الجهد الذى بذله حسانين فى تنظيف المقلاة، لم يفلحا فى بقائى مستيقظة فى تلك الليلة، فقد نمت نومًا عميقًا إلى أن استيقظت على صوت يوسف الشكاء، وهو ينادى فى نفس واحد قائلا: "الله يقويك النار جاهزة لاستقبال الأرز!" استيقظت والنجوم طالعة والجو شديد الرطوبة، لكننى أتصور أن حبات الندى الثقيلة هذه أفادت الإبل العطشى إفادة كبيرة، لذلك لم أندم على الشال المبتل الذى كان يلف نفسه حول كل شيء إلا انا.

يعد اليوم السابع من شهر فبراير واحدًا من الأيام المشهورة التى لا تنسى، وسبب ذلك أننا عندما تسلقنا الكثيب الرملى الذي كنا مخيمين تحته، شاهدنا من قمته عند الأفق الشمالى الشرقى سلسلة من الجبال زرقاء اللون الخافتة. تعجب محمد "أخيرا، هذه هى الأرض! لابد أن هذا هو الجبل الموجود بين جغبوب وسيوة! لم يدفع هذا التنويه التأكيدى مرشدنا إلى تغيير اتجاهه صوب الشمال، لكنه كان مؤشرًا على أننا بدأنا نغادر الصحراء المحيطة بنا. كانت الكائنات الحية التي لقيناها حتى هذه المرحلة عبارة عن خنافس كبيرة الحجم كريهة الشكل، سوداء اللون، وكائنات حيه لونها بني فاتح، ويصل طول البعض منها إلى ما يقرب من أربع بوصات، بدت لنا كما لو كانت أحجارًا مبعثرة إلى أن بدأت ترفع نفسها علي

أرجل طويلة ثم فرت هاربة؛ علي كل حال، شاهدنا فى ذلك الصباح كثيـرًا مـن الطيور السوداء والطيور الرمادية، وبعد أن بدأت مناطق الحطب خضراء اللـون فى التحول إلى ما يشبه الأعشاب الصغيرة بُنّية اللون، ثم أثار أقدام الغزال. عثرنا أيضا على جمجمتين كاملتين وقرونهما بحالة جيده بدأت ملامح المكان تتغير بشكل ملحوظ. فى اليوم السابق، كنا قد شاهدنا بين الرمال بعضا مـن أحجـار جغبـوب رمادية اللون، الأمر الذى شرح صدور أفراد الجماعة، وفى اليوم التاسع من شهر فبراير بدأت كتل كبيرة من تلك الصخور تظهر على شكل كتل رائعة راحت ترتفع أمامنا من بين الكثبان الرملية ومن التجاويف. لاحظنا أيضا قطعًـا مبعثـرة مـن الحفريات الخشبية، التي اتضح أن البعض منها كان عبارة عن أجزاء من جـذوع أشجار كبيرة. بدأت المناطق التي بدت لنا وكأنها حصى أسود اللون ـ تـومض فى أقصى المكان خلف سلسلة من السلاسل الجبلية .

أخيرا، وبعد أن صعد محمد فوق قمة رملية هائلة، عند الظهيرة، قام بخلـع عباءته، وربطها حول عكازه، وراح يلوح بها مثل العلم من فـوق رأسـه، وهـو يصيح بصوت " أنا أرى بلادى. الأرض أصبحت قريبـه! "كانـت الإبـل هـي المخلوقات الوحيدة فى القافلة التي لم تلق بالا لذلك الكلام. كانت الإبل قد بلغت من التعب مبلغا يمنعها من تسريع خطوها الذي انخفض معدله بواقع ميلين فى الساعة خلال اليوم أو اليومين الأخيرين. هزلت الإبل، وأصبح شكلها كئيبًا، لكن من حسن الحظ أن كانت هناك فرص طفيفة لالتقاط الأنفاس من الحرارة المحرقـة، عنـدما كانت الإبل تنزل للرعى فى أحد المنخفضات. بدأنا نلاحظ خطوطا مـن الـسحاب الأبيض فى السماء الشاحبة، وتخيلت أنا وجودى فى ذلك النسيم الـشمالى، الأمـر الذى جعلني أحس فجاه بحنين جارف إلى الوطن ونحن نغـادر هـذه الـصحراء الكبيرة، التي لا تعرف القانون، والتي ليس لها حدود. كنا نرى أمامنـا الأراضـي

المريحة التى يخيم فيها البدو الرحل بنُجّاتهم(*). المهلهلة، يرعون قطعانهم هذا هــو جبل أخير Gebel Akhbar وبرقة وترحيب سكان الخيام بكل القوافل التى عبرت "المسارات الكبيرة".

فى مكان ما، "فى الناحية الشرقية منا" على حد قول البوصلة، إلى الــشمال منا "على حد قول سليمان المرشد، يقع أخر موضع من مواقع الأرض الخراب، إذا لم يكن هو محل ميلاد الحركة السنوسية، فهو فى أضعف الأحوال منطقة التــدريب على هذه الحركة، لكن سحر المكان هو الذى أرجع الذهن إلى الماضـــى. كانــت مخالب الصحراء تمزق السلام الذى يجب أن يتمثــل فــى نهايــة الرحلــة. وأنــا لا أظن أن إحساسى بالتسطح الذهنى قد زاد، قبل الساعة الثانية صــباحا، عنــدما مررنا عبر المنخفض الصغير الأخير الذى اختلط فيه اللونان الأخضر والــذهبى، وأصبح حزام الكثبان الرملية العتيد إلى الخلف منا. كانت أمامنــا منطقــة جــرداء رمادية اللون مثل الإردواز، الذي تتخلله خطوط من الرمال والحــصي الأبــيض بياض الطباشير، وبعض الغرود (الكثبان) الكثيبة أو القمم الصخرية. أُضفيت علي هذه اللحظة مسحةُ من الأهمية التي مفادها أن أحدا من أفراد القافلة لم يكن يعــرف أين نكون، لكن نظرا لأنى كنت مصممة على أننا يتعين علينا الــسير فــى اتجــاه الشرق، بغض النظر عن كلامهم جميعا، فان الأمر لم يكن يهم كثيرًا.

اعتلى سليمان كثيبًا رمليا وقال: إننا كنا بين هتيتى(**) بوعاليــه BU Alia وبو سلامة علي الطريق المؤدية إلى جالو .اعتلي محمد كثيبًا آخر وقال: إن هذين المكانين يقعان إلى الشرق منا. جلس يوسف أرضًا على مكــان نــاعم وقــال: إن المنطقة المعروفة كلها كانت لا تزال على يسارنا، وأنه سوف ينام إلى أن يحــسم المرشد موقفه من جديد.

(*) واحده "نجه" بضم النون وتشديد الجيم وفتحها ، وهي كلمة عامية تعنى "خيمة" المترجم

(**) واحده "هاتيا" وهى عامية ليبية تعنى " منخفض عامر بالاشجار المتشابكه " المترجم

COUNTRY BEYOND THE DUNES ON THE WAY TO JAGHABUB.

البلاد فى المنطقه الواقعه بعد الكثبان الرمليه على الطريق المؤديه إلى جغبوب

تملكتنا جميعًا روح السعادة البدوية أثناء المسيرة، ولذلك لم يندهش أحد، بعد السير على الطريق الذي بيّنته البوصلة وأصررت أنا عليه، بعد أن اهتدينا إلى مدق محدد غرست فيه بعض الأحجار لتكون علامات أرضية. واقع الأمر أننا كنا قد اهتـدينا إلى طريق جالو – جغبوب، الذى يبعد عن المكان الآخر بمعدل مسيرة يوم واحـد فى اتجاه الغرب، لكن أحدًا لم يكن على يقين من موقعنا الحقيقى. يزاد على ذلـك، أن عمَارًا أعلن هو الأخر أن بو عاليه تقع خلفنا بلا شك، وبعد أن وافقت الجماعة كلها على هذه النقطة، بدأت تظهر أمامنا بداية الهاتيا (المنخفض) التي تحمل هـذا الاسم على مئات من الياردات وأصبحت فى مرمى أبصارنا! " قال محمد متعجبًـا، وراح يُسرّع من خطو القافلة على الرغم من تحفظات يوسف: "الحمد لله! سـنخيم الليلة فى بلادنا! بدأت تكثر أمامنا آثار أقدام الغزال، وحاولنا تتبع أثر أربـع مـن الغزال، على أمل اصطياد أى منها، لكن سليمان كان قد أصبح شبه ميـت، قـال سليمان: "الكلمة الفيصل بيدك انت. ولكنى رجل عجوز ومُتْعَب تماما. هيا بنا نبركْ ابلنا هنا".

كانت الهاتيا (المنخفض) فى واقع الأمر عبارة عن واد يمتد مسافة خمسة كيلو مترات من الشمال إلى الجنوب، ويصل عرضه إلى حوالى أربعة كيلو مترات. كـان الفراغ الذى بين الصخر الرسوبى الأبيض والضفاف الرملية مملوءا بالربى وأعشاب الحطب خضراء اللون فى معظمها، فى حين كانت هنا وهناك كتل كبيرة من الحجر الرملى التى يضرب لونها إلى اللون الرمادى، تبرز على شكل أشكال غريبة. وبينما يتجول الإنسان تجوالا بطيئا خلال الأدغال المنخفضة الموجودة على مسافة بعيدة فى اتجاه الشمال، كانت هناك سلسلة طويلة من الجبال التى يميـل لونهـا إلـى اللـون القرمزى، وفيها ربوة عند نهايتها، شبيهه بضريح مسجد من المساجد، تمسك بـأول حُمْرة من احمرارات شمس الغروب. قال يوسف متعجبا: "هذا غرِد "(كثيب) القبّـة. وظهر البِشْر على وجيه المُتْعَب المدوَّر. "انظروا، هذه هى قارة السيد المهـدى فـى

الأمام!" كانت هناك كتله هائلة من الحجر الرملي, في الطرف البعيـد مـن الهاتيـا, ومرفوعة إلى أعلى بفعل أيدي مارد غير معروف, فوق قاعدة قويه لونهـا أبـيض برّاق, إلى حد أنها بدت وكأنها مذبح بدائي لإلهي الأرض والسماء. تعود سيد المهدى التوقف بقوافله الكبيرة في رحلته إلى جالو, والصلاة في ظل هـذا المـلاذ الفطـري الطبيعي طلبا للمغامرات الناجحة أو شكرا لله على سلامة العودة.

وحتى سليمان نفسه لم يطرق بعد موضوع تبريك الإبـل. ودون أن ينطـق أحد بكلمة واحدة, أحس الجميع أن صلاة المغرب يجب أن تؤدى في المكان الـذي سترحب فيه روح المهدى بالمترحّلين القادمين من الواحة البعيـدة، التـي حـوّل حمرتها ولونها الكهرماني إلى ثروة من الحبـوب والفواكـه والزهـور. وجـرى التعجيل بإحضار الإبل المرهقة التي كانت ترعى بين الشجيرات الجافه. وعنـدما أضاء الغرب الذهبي بنور روعته ذلك المذبح الغريب, المتوازن بين السماء وظهر من بين ذلك الوهج هلال فضي خافت لقمر جديد متوهج توهجًا خافتًا وسـط هـذا اللهب, وعندما التففنا حول ناصية الصخرة ورأينا أبسط شكل من أشـكال القبلـة، التي تُرى أن المؤمنين عندما يولون وجوههم شطرها يكونون مـستقبلين للكعبـة (المشرفة). كانت تلك القبلة عبارة عن ثلاثة جلاميد صخرية رمادية اللـون ومـن حولها دائرة من الأحجار تحدد شكلا لمسجد خيالي, ومع ذلك كان المكـان مقدسـا وتعين علينا خلع أحذيتنا في الخارج، قبل أن نحني وجوهنا لرمال الصحراء. وأنـا لا أعرف الدعاء الذي كان محمد ﷺيقوله عندما يبدأ البـسملة "بـسم الله الـرحمن الرحيم". وأنا لا يمكن لي تخمين الشكر الذي كان مرشدنا يتمتم به, أو الدعاء الذي كان يقوله عمار تلميذ الزاوية صغير السن عندما كان ينجو من الأخطار, أو عندما يدرك يوسف للحظة انه ليس هناك من شيء بعد أسلوبه العملي المريح؛ لكنني أعلم أني في حياتي كلها لم أقدم المزيد من الشكر الصادق للقوة, التي تـسمى بأسـماء مختلفة في كثير من المدن المختلفة, والتي يسمونها في الصحراء القوة القادرة على كل شيء.

الفصل الخامس عشر

نهاية الرحلة

خيمنا فى تلك الليلة فى بو سلامة، الذى هو الهاتيا (المخفض) الثانية على الطريق إلى جغبوب. كان الخشب أخضر إلى الحد الذى تعذر معه استعماله فى إشعال النار، على الرغم من نجاح كل من حسانين ومحمد فى إشعال النار على الرمل. كان باقى أفراد القافلة قد بلغوا من التعب حدًا جعلهم عاجزين عن الاهتمام بما جرى ، شريطه أن نرقد على الأرض ولا نتحرك طوال ساعات. كان واضحًا أن الجمل الرمادي يشاركنا المشاعر نفسها، لأنه هو أيضًا كان قد سقط باركًا على الأرض، وراح عمار، وهو يدور حول الجمل مكروبًا، دون أن يقدم أدني مساعدة للراكب، يتوسل مرارًا باسم سيدى المهدى، هذه الثقة الكاملة التى يوليها السنوسيون لقوة السادة الروحية والفكرية تعد أمرًا مدهشًا بحق. عندما هربت النوق الصغيرة، كان سليمان العجوز يقف بلا حراك ويروح يكرر على الفور، يا بركه سيدى إدريس! يا بركة سيدى إدريس! حدث ذات مرة أن كنت نائمة فى وضع غير عادى تماما، وترتب على ذلك أن أوشكت على السقوط عندما تعثر جملى فى كثيب من الكثبان الرملية، وهنا وجدت يوسف يتمتم ذاكرًا أسماء كل السادة الأحياء منهم والأموات، متوسلا بهم لضمان أمنى وسلامتى.

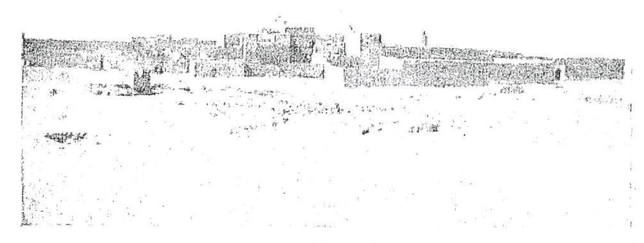
لم يسبق لى التجوال فى بلد موحَّد فى إخلاصه لحاكمه كما الحال فى ليبيا .. من المسلم أن سيدى إدريس اقل قوة من الله ﷻ فى عيون السنوسيين، لكنه هو الأقرب إليهم! ثقتهم بلا حدود فى قدراته وأن هذه القدرات قد تشمل السيد نفسه. هذه القدرات تتدرج من شفاء جمل على بعد حوالى ألف ميل إلى توقيف العاصفة الرملية، ومن غزو العالم إلى ظهور بئر فى مكان ليس فيه ماء، كل هذه الأمور داخله ضمن قدرات ولد سيدى المهدى، وقد انخفض نفوذنا كأصدقاء لشخصية مهمة

من هذا القبيل، انخفاضاً كبيرًا عندما اقترحنا قيام القافلة بترك أسلحتها فى جغبوب؛ لأننا لا نضمن إن كانت سلطات الحدود المصرية ستسمح أو لا تسمح لهم بدخول سيوة، بدا يوسف أبله. قال: "ستكتب رسالة..." كان يوسف يعرف التأثير القوي، وربما السحرى الذى للرسائل التى تأتي من سيدي إدريس فى ليبيا، وقال إن ضيوفه يمكنهم تدبير أمر البنادق البسيط هذا فى بلدهم عن طريق الورقة والقلم. وعندما اعترفنا بعجزنا، راح يتشكك إلى أبعد الحدود فى مكانتنا وفى احترامنا أيضًا!

كنا قد قررنا إرسال محمد ليسبقنا إلى جغبوب قبل طلوع الشمس حتى نتمكن من النوم فى منزل الليلة التالية، وعليه – وبعد فترة طويلة من دخولي فى كيس نومى – رأيت حسانين ويوسف وهما يحلقان لرفيقنا على ضوء نار المخيم مستخدمين فى ذلك موسي موضوعًا بين فكي زرّادية. وراح كل من سليمان وعمار يسوقان ملاحظات مهمة تتخللها بعض الملاحظات عن الشعر الأشيب الذى نتج عن الرحلة.

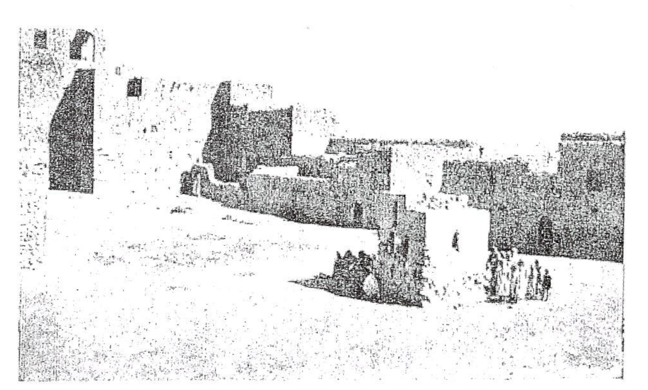
وعلى الرغم من الرحلة التى استغرقت ثماني ساعات، فإن محمدًا ارتدى أبهى ملابسه لكي يقدم نفسه إلى الزاوية التى تلقى تعليمه فيها ، وعليه، اندهشت فى صبيحة اليوم التإلى عندما ارتدى يوسف قميصه الأبيض المهلهل ومعطفة المرقع، قال يوسف بصورة قاطعة، وهو يركب أقل الإبل إرهاقا: "أنا أركب دوما اليوم الأخير من كل رحلة من الرحلات التى أقوم بها".

قوّضنا مخيمنا عند الساعة السابعة صباحًا ومشينا الهوينا بين الغرود (كثبان منخفضة) الموحشة ومناطق رملية وحجرية غير مستوية وعديمة اللون إلى هاتيا (منخفض) صغير، يسمى باحة هافان Bahet Hafan ، الذى ينمو فيه بعض النخيل بين جلاميد صخرية رائعة الجمال. كان الحر شديدًا عندما دخلنا منطقة من الروابى البيضاء المنخفضة، فيها قراميد من الصخر الرسوبي الرخو تسببت فى تعثر الإبل أكثر من ذى قبل، لكن النهاية جاءت بسرعة غير متوقعة، لأن المرشد بعد أن قال لنا فى شمس الظهيرة، إن اليوم سيكون بمثابة مسيرة طويلة إلى



JAGHABUB.

جغبوب



WELL IN ZAWIA AT JAGHABUB.

بئر فى الزاوية فى جغبوب

جغبوب، استطاع يوسف رؤية قبة الزاوية بيضاء اللون من فوق غرد (كثيب) من الغرود الصديقة، وإن هى إلا دقائق معدودات حتى إنفتح الوادي المستدير بكامله أمامنا، بكل خطوط نخيله وأدغاله، ومن بعده صف من صخور الحجر الرملى مربعة الشكل، والتى تشكل جدران جغبوب بيضاء اللون، والتى بدت لنا قريبة جدًا والتى استغرق وصولنا إليها أكثر من ساعتين.

يعد منزل سيدي بن على، إلى حد بعيدًا، أبهى ما فى الواحات السنوسية، نظرًا لان هذا المنزل بلونه الأبيض يبهر الأعين فى ضوء الشمس – هذا المنزل له قبه ناعمة لامعة، ومئذنة عاليه، وبه رواق ذو عقد مفتوح، هو رواق منزل سيدى إدريس الذى يرتفع فوق جدران الزاوية الضخمة الشبيهة بجدران القلعة، هذه الجدران كلها بيضاء اللون – بيضاء مثل طواحين الهواء التى تشبه الأعمدة الرخامية، عندما تنظر إليها من بعد، أو الطوب الرملى الشاحب الذى تبني منه المنازل القليلة الكبيرة التى تحيط بالزاوية. جغبوب ليست بلده أو مدينة بالمعنى المتعارف عليه لهذه الكلمة، جغبوب عبارة عن مبنى واحد ضخم له جدران سميكة بلا نوافذ ويحيط بمتاهة من الأحواش والممرات، والمدارس والمساكن الخاصة بإقامة الطلبة، والمنازل الكبيرة الخاصة بالأسرة السنوسية، هذا بالإضافة إلى المسجد الكبير وقبة سيدى على، هذا المبني الضخم مقام على صخرة عليها سلالم (درج) نازلة إلى حدائق النخيل، وإلى بئر كبيرة تستعمل فى إمداد المستوطنة كلها بالماء، توجد خارج مجموعة المنازل المجمعة متعددة الطوابق والخاصة بالزاوية قليل من المنازل المبعثرة، ولكن جغبوب تعد جامعة خالصة وبسيطة، عندما نقل سيدى المهدى مركز رئاسته إلى الكفرة، حرر حوالى خمسين عبدًا وأعطاهم الحدائق التى زرعوها، وأمر من جاءوا بعده باحترام حقوق العبيد، وعليه توجد الآن مستوطنة من هؤلاء السود المُحَرَّرين يعيشون فى الوادى بين أشجار النخيل، وهم يعملون بجد فى بساتين الخضروات المملوكة لهم، والتى يجرى ريها من

منظومة القنوات والخزانات الممتازة التى تعتمد على العين الموجودة تحت الزاوية، ويبيع هؤلاء العبيد المحررون تمورهم ومنتجاتهم إلى الكلية.

التقينا فى منتصف الطريق أثناء عبورنا الوادى طالبين كانا يحملان مذكرة من محمد تفيد أنه كان يجرى لنا تجهيز محلات إقامة فى الزاوية وهنا سارع يوسف إلى تبديل ملابسه، مزق يوسف قميصه المهلهل، كاشفًا بذلك عن بنية عضلية أمام أعين المجتمع، ثم تناول يوسف لفَّة عجيبة من داخل جوال كان على جملي، وأخرج من تلك اللفة صديريًا مطرزًا، وشالاً من الحرير، وحذاءً أصفر اللون، وقميصًا شديد النظافة من الكتان الأبيض، وارتدى كل هذه الأشياء أثناء سيرنا على الطريق. وعندما اقتربنا تمامًا من الجدران بيضاء اللون رحنا نفتح نيران مسدساتنا فى الهواء معلنين عن وصولنا وجاء محمد لاستقبالنا، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، مررنا خلال عقد كبير أبيض اللون، لندخل مكانًا واسعًا مفتوحًا فى منتصفه بئر ، تجمَّع حوله جمع من الطلاب الذى رحبوا بنا ترحيبًا حارًا. رأينا عن يميننا جدارًا صلبًا شبيهًا بجدران القلعة، كان ذلك الجدار لواحد من منازل سيدى إدريس، الذى تطل شرفته العليا – فى الجانب الآخر – على حوش القبة المربع الجميل ببواكيه المعتمدة ذات العقود الواسعة. تخترق الواجهة القريبة من المربع عددًا قليلاً من النوافذ ذات الدرف، هى والباب الرئيسى المحفور، الذى يمر الداخل من خلاله ليصل إلى حوش القبة. كان المربع محدودًا من الناحية اليسرى بصف من الأبواب الصغيرة التى لها عوارض أفقية مدورة، ومن فوق هذه العارضة يوجد شق صغير على سبيل النافذة، وتلك هى محلات سكنى الطلاب، كان هناك بعد ذلك منزل كبير مكون من طابقين، التقانا عند باب هذا المنزل رجل كبير السن يسر الناظر إليه، وكان وجهه نحيفًا وشاحبًا، وكانت لحيته الطويلة بيضاء مثل بياض شاله، وإن شىءت فقل الجدران عديمة اللون الموجودة خلفه.



OUR HOST AT JAGHABUB.

مضيفنا فى جغبوب

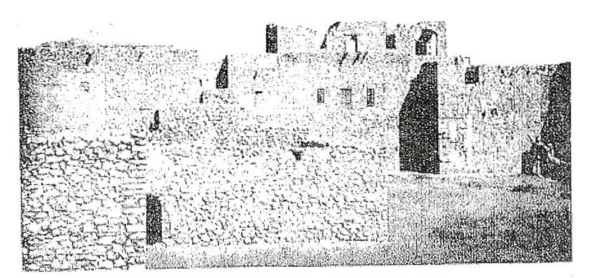
قال مُضيِّفنا " حياكم الله ، وعليكم السلام " ثم أدخلنا إلى مسكن أكثر تعقيداً من منزل القائمقام المكون من أحواش عده في تاج . صعدنا ونزلنا سلالم بدت وكأنها لا لزوم لها، تحت العقود المنخفضة، ومررنا إليها من خلال ممرات صغيرة عجيبة الشكل، وأحواش لها جدران مبنية من الطوب اللبن، إلى أن وصلنا إلى درج (سلم) رئيسي أدخلنا بدوره إلى سطح منبسط، سرنا فيه خلف مضيفنا إلى أن وصلنا غرفة عالية كبيرة، مفروشة بالحصير والسجاد، لكنها خالية من الأثاث. ولأول مرة وجدتني أعيش فى منزل عربى تطل نوافذه على المنظر الخارجي، نظراً لعدم وجود فناء يعزل الإنسان ويحبسه داخل عالم عجيب صغير له خصوصية شديدة جداً. من هذه النوافذ المركب عليها قضبان مستعرضة، والتى لها درف متحركة، يطل المرء على المربع الكبير ويرى الأشكال البيضاء وهم يتحدثون ويتسامرون حول البئر، أو يرى الإبل المرهقة وهي تمتلئ بعد أن شربت حتى الشبع، أو النظر إلى الطلبة وهم يجلسون على أبواب غرفهم ومع كل واحد منهم مصحف ومسبحة.

كان مضيفنا، سيدى يادم بو حميره، أحد الإخوان المهمين، متشوقا لسماع القصة الكاملة لرحلتنا، إلى حد أنه لم يتركنا إلا بعد أن نشرب القهوة الحلوة، ونحن جالسون على أفخر سجادة، وبعد أن نجيب على كل أسئلته عن السبب الذى جعلنا نأتى من الكفرة الى جغبوب من ذلك الطريق الوعر. وقبل أن نشبع فضول سيدى يادم، كان سيدى الفقيل، الممتلئ والذى يحمل وجهه سُمْرة الأبنوس، وله شارب دب فيه الشيب، ويشغل منصب إمام المسجد، وهو أيضا من الإخوان، قد سارع إلى زيارتنا، كنت قد بلغت من الإرهاق مبلغاً عز على معه المحافظة على توازنى، كان أنفي ملتهبًا ويتقشر، وكان وجهى كله ملتهبا، وعيناى تدمعان، وكنت جوعى تماما، كان كل عصب من أعصابى ينبض ويؤلمنى، يزاد على ذلك كله أني كنت أحس بالقذارة، أحسست بالغموض تماما وأنا أتكئ على الجدار، وعندما سمعت

همهمة الأصوات فى الأسفل، عن إمكانية القيام بزيارات أخرى، تركت حسانين بصفة أساسية ليقوم هو باستقبال الإخوان والترحيب بهم، وانسحبت أنا ونزلت من سلم صغير إلى غرفة غريبة الشكل كانت موجودة تحت عقد من العقود المتعددة، وأظن أنها لم تخطر على بال المهندس المعمارى، الذى ربما كان ذهنه ملتويا ومعقدًا إلى أبعد الحدود كانت تلك الغرفة مليئة بالتراب والطين، لكنى أحسست بأن المزيد من القذارة أمر لا يهم، وقد عثر علىَّ يوسف الحنون فى هذا المكان بعد انصراف الزائر الأخير، وأنا غارقة فى النوم على شال حسانين المتسخ.

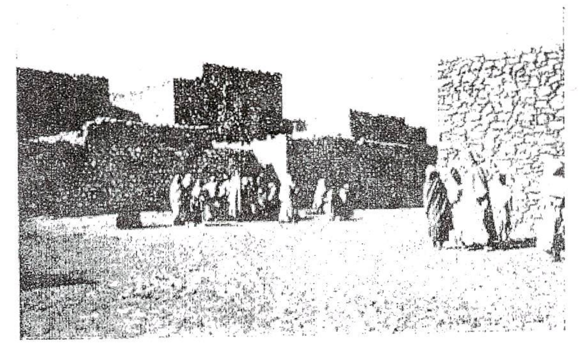
قال: يتحتم على الست خديجة أن تأكل. لقد أرسل وكيل سيدى إدريس إليك عشاء. أثارتنى هذه الكلمة السحرية ، وجاء منظر الصينية اللامعة المصنوعة من النحاس الأصفر، والموضوعة على طاولة صغيرة ارتفاعها حوإلى ستة أقدام وسط بحر من السجاد المتصل، بمثابة العلاج لتلك الإثارة، عندما رفعنا الأغطية المصنوعة من سعف النخيل عن الأطباق وجدنا فيها بيضًا وحمامًا وخضروات مطبوخة فى مرق شهى عجيب، ومعها أكوام من الخبز اللذيذ، منه الأسمر والمثلثت، لكن، يا أسفاه ! كان كل صنف من أصناف المرق مشبعا بالفلفل الأحمر الحريف، إلى حد أننى كنت أنتشل الحمام وأروح أزيل عنه كل أثار الفلفل الأحمر قبل أن آكله، وقمنا بعد ذلك بدفن قسم كبير مما تبقى من الوجبة، فى حفرة حفرتها بعناية فى الفناء الخلفى مخافه أن أجرح مشاعر المضيف، كنا قد أزلنا بالفعل عن أنفسنا كل آثار الخبئة عندما جاءنا المضيف لتناول الشاى معنا.

كان سيدى حسين – الوكيل، دون سائر المضيفين – هو أكرم من استقبلنا نيابة عن السادة ، وكان أكثر الناس بشرًا وبشاشة لأنه كان أبسط المضيفين كلهم، جغبوب ليست مركزًا سياسيًا أو تجاريًا، مثل الكفرة أو جالو. تتمتع جغبوب بالسلام الحالم الذى يحيط بأية مدينة جامعية صغيرة، زملاء هذه الجامعة وحدهم هم الذين يحظون بالتقدير والاحترام، وهم عبارة عن شيوخ ملتحين يرتدون شيلانًا بيضاءَ



SIDI IDRIS'S HOUSE AT JAGHABUB.

منزل سيدى إدريس فى جغبوب



LOADING CAMELS AT JAGHABUB.

تحميل الإبل فى جغبوب

اللون فضفاضة من فوق ثيابهم الخضراء خضرة الحشيش الأخضر، أو الزرقاء زرقة نيلية. طلبة هذه الجامعة، شخصيات جادة، يتعاملون مع الكتب والتسبيح، وهم أكثر جدية من طلبة كليات الثالوث أو الكليات اللاهوتية الأخرى، أما خدم تلك الكلية، فهم على حد معرفتي، العبيد السود بشعو المظهر، الذين يعيشون فى حوش خاص من أحواش الزاوية، لكنى على يقين أنهم أوفر جهدًا وأكثر عملاً من نظرائهم الإنجليز الذين يعيشون على ضفاف نهري إيزيس وكام Cam.

أعد سيدى حسين شايًا رسميًّا على الشاكلة نفسها التى أعدها لنا القائمقام الشاى عليها عندما كنا فى تاج، لكن حديث سيدى حسين لم يكن احتفائيًا مثل حديث القائمقام. لم يكن الحديث قائمًا على قواعد الإتيكيت التى جرى اتباعها فى حديث القائمقام وفى أسئلته وأجوبته. وما إن اختفى تيار الشك والقلق حتى فردنا هوائياتنا الذهنية إحساسًا منا بالامان الكامل. هذه البلدة الصغيرة، البعيدة عن العالم فى واديها المنعزل، كانت مفرخة لجماعة كبيرة، يجرى فيها تفريخ قوة يستشعر الناس نفوذها وتأثيرها على امتداد شمال إفريقيا، وكانت تتمنى لنا الخير والسلامة. سادت الجمع كله روح من الود والصداقة الحميمة فى دُجى الغرفة المضاءة بالشموع. كانت لحية الوكيل الضخمة تنساب ناعمة ورمادية اللون على جبّته السوداء، التى يلبس تحتها صديريًّا متعدد الألوان، لم يكن هناك استعراض للحرير أو المطرزات، نظرًا لأن إخوان جغبوب كانوا أكثر انكبابًا على العلم أكثر من الترف. قال أحدهم بطريقة بسيطة للغاية، ونظرة حالمة من عينيه العجوزتين الذاويتين "نحن أناس على قدر حالنا نمضى وقتنا فى الصلاة". كان الإخوان يتباهون بقبتهم، وقد انعكس أثر ذلك على وجه يوسف عندما جاءنى، ليلة وصولنا وهو يحمل شمعة يسيل شمعها على جانبها، عندما انتهيت من إزالة الطبقة الأولى من الأوساخ، وكنت أفكر فيما إذا كان من اللياقة أم لا، أن أطلب إلى عمار أن يُسخّن لى مكيالاً أو مكيالين من الماء، ليقترح على الذهاب فورًا إلى المكان المقدس. قال يوسف: "لن يكون هناك بشر فى هذه الساعة". لكن بعد أن عبرنا المربع الذى تضيئه النجوم

وبعد أن تركنا أحذيتنا داخل أول ممر من ممرات بواكى المسجد، سمعنا ترتيلاً رتيبًا منخفضًا يتناهى إلى مسامعنا قادمًا إلينا من خيالات وظلال فى المنطقة الواقعة خلف الحوش الأبيض الكبير! كان ذلك الترتيل ينسجم مع روح الليل الوقورة ومع المشهد الوقور، والسعادة البادية على وجه يوسف، وهو يقتادنى عبر طرق طويلة معتمة، كان يمشى خلالها بلا تعثر، إذ كانت مترسخة فى خياله منذ أيام الصبا، التى كان طوالها متعلمًا تقيًا ومخلصًا، شأنه فى ذلك شأن الطلبة الذين مروا علينا فى الميدان المربع.

مررنا خلال باب منحوت نحتًا دقيقًا ومدهون دهانًا أنيقًا، لندخل بعد ذلك إلى المسجد، شديد الهدوء، شديد البياض ووافر الاحترام، ويشكل السجاد داكن اللون المفروش على الأرض، العلامة الوحيدة التى تشذ عن بساطة هذا المكان المتناهية. بدأ الصمت يطرق على طبلتى أذنىَّ بانطباع الصلوات العديدة، والآمال، والقرارات التى يرددها هؤلاء الشبان بهمة ونشاط فى تلك الأروقة المنخفضة، والتى يتذكرونها ثانية عندما يزورون أول مركز من مراكز عقيدتهم. لم ينقطع يوسف عن ذلك المركز. الأعين هنا فى هذا المركز فيها بريق نور لم أره من قبل فى حياتى، أشار إلىَّ يوسف للدخول فى القبة نفسها، ووقفنا فى غرفة مدهونة، مزينة باللون الذهبى وألوان أخرى كثيرة، تحت القبة الضخمة التى تتدلى منها مصابيح زجاجية ضخمة الحجم رائعة الشكل. غمغمت ببعض الدعوات العربية السريعة أمام تقفيصة مربعة الشكل من البرونز المطوى، كانت تحيط بقبر السنوسى العظيم. كنت خائفة حتى من مجرد الهمس بقراءة "الفاتحة"، مخافة أن يخل ذلك بصمت المكان، نظرًا لأن أصوات أقدامنا كانت مخنوقة بفعل السجاجيد الكثيفة، لكن الرجل الذى تخيلت أن ذهنه مثبت دومًا على الأشياء الأرضية، الأشياء الدنيوية، كسر ذلك الصمت بصوت مفاجئ، شبيه بالصرخة، وشبيه بالتأوه، وهو ينحني منفعلاً مقبلاً القضيب البرونزي ثم قبّل بعد ذلك اليد التى لمس بها ذلك القضيب البرونزى!

ذهبت فى الصباح مرة ثانية وألقيت نظرة على قبور سنوسية أخرى، بعد تناول الإفطار الممتاز الحريف الذى أحضره مبارك، ذلك العبد الذى له وجه شبيه بالمحشّة، والذي اعتدنا على مراقبته وهو يجرى عبر الميدان حاملاً سلطانية كان يدس إصبعه خلسة فيها ليرى، ما إذا كانت لا تزال حارة أم لا. اكتشفت أن العقود الواسعة البيضاء كانت أكثر جمالاً فى ضوء الشمس، لكني لم أنعم مطلقًا مرة ثانية بتلك الروح الصوفية التى التمعت وتوهجت فيها قوة الإسلام أمام عينىَّ.

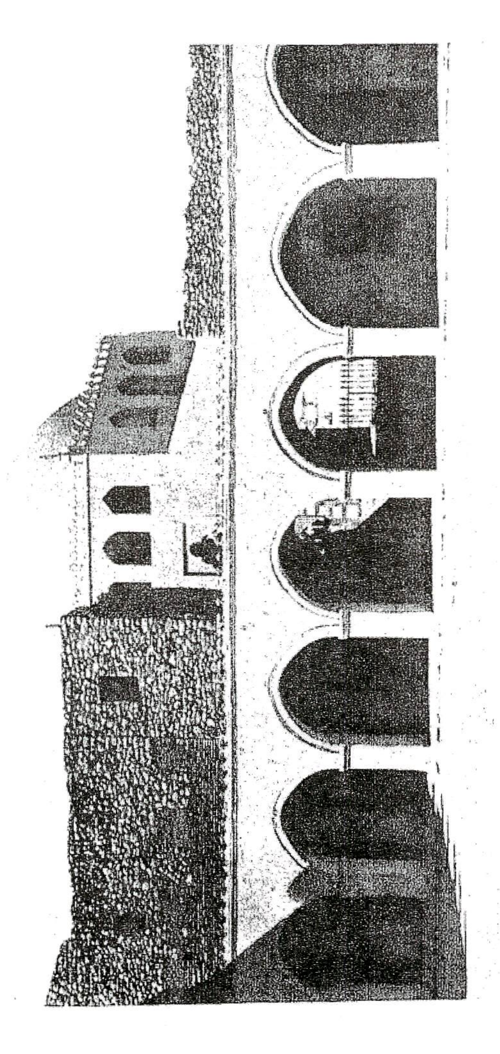
أثبت يوسف أنه كان مرشدًا ممتازًا لنا فى الرحلة التى قمنا بها إلى جغبوب. فقد اصطحبنا يوسف بكل فخر عبر متاهة مبانى الكلية، وهو يحدد لنا فى كل منزل من منازل آل ــ السنوسى، سيدي رضا، سيدى إدريس، سيد أحمد الشريف، سيد هلال، والسيد صفى الدين، تلك المنازل التى تشكل مربعًا سكنيًا كبيرًا حول الكعبة البيضاء. ثم أعلن يوسف فى الميدان الكبير الذى يقيم فيه طلبة الزاوية "كل واحد منا له منزل فى هذا المكان. عمَار له منزل. وأنا لي منزل أيضًا. بوسعنا المجيء إلى هنا كلما أردنا ذلك إنه بلدنا". هذا يعنى أن الزوايا تُبقى على تلاميذها إلى فترة طويلة بعد خروجهم إلى المدن والصحراوات. الإخواني البدين، والتاجر الميسور، والشيخ البدوى، أو حتى الكاتب الجائل، كل هؤلاء يحق لهم أن يعرجوا على الزوايا التى تلقوا تعليمهم فيها، وهم على ثقة من أنهم سيجدون فيها مكانًا ويلقون فيها ترحيبًا. يزاد على ذلك أن المترحل العابر يحق له المطالبة بضيافة الأيام الثلاثة السنوسية، وكلما زاد فقر المترحل ازدادت تلك الضيافة كرمًا وسخاء.

أمضينا يومين فى البرج العالى فوق الميدان، ونحن نتحاور مع الإخوان فى أشياء بسيطة، وفى تطبيب بعض الطلبة باستعمال أدوية وعلاجات غير كافية، مستخدمين فى ذلك اللّت والعجن الكُفارى اللت والعجن المصري مع قليل من التجار المتجهين صوب الغرب. وقمنا بعد ذلك بالمرحلة الأخيرة من رحلتنا، عازمين على التنقل البطيء الآمن، بحيث نعطى الإبل فرصة الرعى ونحن على

الطريق، وأن نركب فترة قصيرة أثناء الليل لمجرد التمتع بالنجوم، وتبريك الإبل طلبًا لعمل الشاى المنعنع فى الأماكن التى تغرينا بحطبها وظلها.

لابد أن القدر سخر منا، لكن صدي ذلك الضحك لم يصل إلينا، عندما كنا نُحَمِّل جمالنا الأربعة داخل الزاوية، أو لأننا كنا ننتظر وراء الغرد (الكثيب) الأول فى الوقت الذى كان سيدى حسين يقرأ "الفاتحة. أنا وحدى أدركت أن تلك كانت البركة العربية الأخيرة التى ستصيبها رحلتى، وفجأة أحسست بحنين إلى الأرض التى كنت أغادرها. الجدران البيضاء النمطية، والقبة البيضاء الموجودة خلف هذه القبة، كل هذه الأشياء تمثل الجهد الكبير الذى بذلناه، تمثل الهدف الذى ناضلنا من أجله، هذه الأشياء كلها أكبر بكثير مما أحدثته الكُفرة فينا. لقد أنهك محمد بالفعل بفعل هذه الرحلة وأصبح عاجزًا عن مواصلة السير معنا، وعليه وفى ضوء هذه الأرضية الصغيرة من الأمل والخوف، والنجاح والفشل، وعلى خلفية شهور الشتاء بالغة الإثارة، والقدرة الشديدة على التحمل، بدأنا نفقد صديقا! تملكنى ألم غريب ونحن نفترق فى النهاية وسط الرمل العاصف الناعم، والريح تُطيِّر شاله على وجهه بطريقة هو جاء، ساعة أن كان يوسف يقول وهو معجب بذاته: "الست خديجة سعيدة. ستصل إلى بلدها بعد فترة قصيرة". وهنا عرفت أن الصحراء هى التى انتصرت أولاً وأخرًا. هؤلاء الذين يستخفون بأسرار الصحراء هم الذين يقعون فى إسارها إلى الأبد. أعتقد أن صوتى كان يوحى بشيء من التردد عندما رددت على كلام يوسف" لا ، لا، أنا حزينة لأني أُخلِّف ورائي بلاد السنوسى!" سرعة التعاطف العربيى، وسرعة الاستجابة العربية الفطرية هما اللذان جعلا وجه يوسف يعكس تعبيرى الحزين. أسر يوسف إلى عَمَار "لقد مسَّت قلبى. لو بكت السيدة خديجة لبكيت معها لأن لديها مشاعر رقيقة كثيرة".

هبت فى ذلك اليوم ريح شمالية غربية قوية، لكنها كانت إلى الخلف منا، وعليه سرنا ببطء راكبين راحلاتنا خلال المنطقة الرملية المشوهة، وخلال



MOSQUE AND QUBBA OF SIDI BEN ALI AT JAGHABUB.

مسجد وقبة سيدى بن على فى جغبوب

الصخور الرسوبية الرخوة الموجودة فى الجانب الشرقي من جغبوب. أنـــا لا أدرى إن كان المردة اللعوبون ينقبون هنا عن الكنوز، أو أن الآلهة الشبان يبنون قلاعًـــا هيكلية وتحصينات فى تلك الأرض الجرداء، لكن ترتفع فى كل ناحية هنا أشـــكال رائعة ناتجة عن الرمل المحمول بواسطة الرياح. هذه طبقات يميـــل لونهـــا إلـــى الإحمرار من فوق قواعد بيضاء لامعة شبيهة بالطباشير. وتلـــك سلاســـل جبليـــة الواحدة بعد الأخرى، وهي عبارة عن غرود (كثبان) لامعـــة بفعـــل العواصـــف، محصورة داخل متاهة من الروابى الغريبة التى تختفى بين الحين والآخر ترحيبًـــا بالمنخفضات الخضراء. انكمشت القافلة إلى أن أصبحت ثلاثـــة أفـــراد: يوســـف، عمّار، ومرشد جديد، يدعي أبو بكر منفي، شبيه تمامًا بذلك الخليفة الـــشرير، فـــى الرسوم التى رسمها دولاك بوحي من قصص ألف ليلة وليلـــة، نظـــرًا لأن هـــذا المرشد له أنف كبير يشبه المنقار، من تحت عمامة كبيرة غيـــر محكمـــة اللـــف، ومنحنية حتى تلتقى لحيته المدببه وفكه الـــشبيه بكـــسارة البنـــدق. كانـــت عينـــاه الفضوليتان تسألان دومًا، لكن لكنته كانت صعبة على فهمى.

مشينا ببطء شديد نظرًا لأن الإبل كلها كانت مُتْعبة، إضافة إلى أن المرافقين لنا كانوا قد زادوا بطريقة سرية، أحمال تلك الإبل كانت جرارًا ضخمة من الفخار كي يملئوها بالزيت من سيوة، لكن ذلك لم يهم كثيرًا، نظـــرًا لأن هـــذه صـــحراء صديقة كريمة وسخية فى حطبها ومائها. توقفنا فى العَمْره El Amra التـــى بنـــى فيها المهدي خزانين كبيرين يصل طول الواحد منهما إلى ما يقرب مـــن خمـــسين قدمًا ولهما سقفان على شكل قبتين، ومن خلال ثقوب فى الـــسقفين يتقـــاطر المـــاء نازلا إلى الغرفة الكبيرة الموجودة فى الأسفل. أعد أبو بكر شايا سريعًا على نحـــو يوحى بأن الخليفة سلفه أورثه خدمات صديقة من الجن. ثم واصلنا مـــسيرتنا بعـــد ذلك ببطء، ماشين أحيانًا، وراكبين أحيانًا أخرى، وقطعنا مسافة اثنى عـــشر كيلـــو مترًا أخرى وصلنا بعدها إلى مكتوه Maktuh، التى أطلقنا الإبل عنـــدها ترعـــى

وطبخنا أرزنا "وعصيدتنا" في ظلال دغل جميل ذكى الرائحة، في حين راحت الطيور السوداء المتطفلة، والتى لها بقع بيضاء على مناقيرها تقفز سعيدة من حولنا. وأثناء حمرة غروب الشمس بدأنا تحميل إبلنا، ولاحظنا أن أبا بكر كان ماهرًا في وصل صلاة "عصره" "وفجره" "وعشائه"(*) ببعضها البعض من باب تحاشى القيام بأى شيء فى الطريق.

كان هلال ذهبى يضيء عالمًا أبيض ونحن نغادر المنخفض، ونشق طريقنا خلال السبخة التى بدت لنا فيها كثبان رملية ضخمة عن يميننا. أحسست بأمن كامل وسط ذلك السكون الفضى البَّراق، ولم يكن شيء يقطع ذلك الصمت الرهيب سوى وقع أقدام الإبل أو عويل يوسف الغنائى المفاجئ، الذى يمتدح به قبته الحبيبة إلى نفسه "بيضاء مثل صدر العذراء". كانت الصحراء فى أقصى حالاتها السحرية، وكنت أنا أتشوق إلى الاتجاه جنوبًا مرة أخرى، وأعود من جديد داخلة إلى نطاقها الذى لا يعرف الحدود على الضوء الخافت الصادر عن نجمى الجدى وسهيل. ثم تلا ذلك صوت همهمة غريبة بين الكثبان. بدا الأمر وكأنه، ريح عاتية كانت تحمل طنين تشكيلة كبيرة من النحل مختلف الأحجام. قال يوسف متخوفًا. "الجن مستيقظ هذه الليلة! سيحدث لنا مكروه. الجان يأتون ضوضاء كبيرة فى الرمال!" ضحكت ساخرة من كلام يوسف، وتساءلت أن ذلك ربما كان الطين الناجم عن دوّي النسيم فى جرار الزيت الفارغة، أو أن ذلك ربما أزيز طائرة إذا ما كنا قد اقتربنا تمامًا من العمران. وهنا خطرت على بالى طبول الصحراء فى الصحراء الفرنسية، التى ليست من مسئولية أصابع البشر، وتساءلت عما إذا كان المرء يمكن أن يسمع نبض الأرض عندما يكون على مقربة تمامًا من روح Spirit الأرض(**) Earth.

(*) استعملت المؤلفة هذه الكلمات بلفظها العربى. (المترجم)

(**) أوردت المؤلفة هاتين الكلمتين بحروف عالية فى بداية كل منها، إشارة منها إلي مفهوم العناصر الخمسة المكونة للكون فى التاريخ الطبيعى القديم. (المترجم)

أدرت جملي الأشقر الكبير كي أسأل حسانين عن رأيه في ذلك الطنين الغريب، ورأيت بدلاً من الشخص الذى يترنح ترنحًا رتيبًا فوق الجمل التيبى، كومة تحاول رفع نفسها من بين مجموعة من الأحجار. قال صوت ضاحك هادئ: "أظن أن عظمة ترقوتى قد كُسرت". قلت له وأنا أستحضر فى ذهنى السقوط الناجم عن الصيد. "لو أن العظمة قد كسرت لما قلت لى هذا الكلام بهذه البساطة!" قال رفيقى وهو يصعد من جديد راكبًا جمله "ربما لا تكون قد كسرت. سواء كسرت أم لا، المكان متورم تورمًا كبيرًا. أظن أن هناك كسرًا". وعلي الرغم من أن الصوت كان لا يزال يضحك، فقد عرفت فجأة أنه يقرر حقيقة واقعة! جرى تبريك الإبل بصورة غير منظمة. وعندما علم يوسف بالخبر، راح يدور حولنا فى صمت عارضًا تقديم يد العون والمساعدة، ومقدمًا فى ذات الوقت القسم الأكبر من ملابسه لاستعمالها ضمادات. كان أبو بكر بحكم وحشيته وطابعه العملى يتمنى تدليك الورم كما لو كان التواء. وهنا وجدتنى سعيدة بطول الحزام الأحمر. فقد استعملته لفافات وحبلاً للرفع فى آن واحد، واستعملت أحد طرفيه فى تثبيت مخده تحت الإبط.

كان حسانين يشرح طول الوقت وهو منشرح الصدر، أن الجمل التيبى تعثر فى اللحظة التى كان حسانين يقوم فيها ببعض الأعمال البدنية لكي يُخرج بطانية من مكان غريب بين جوالات الأمتعه، لكننا لم نسمح له بكثرة الكلام. وعجلنا بوضعه فى "باسور"(*) جرى عمله على عجل، وواصل موكبنا العظيم سيره مرة ثانية، نظرًا لأن الليل الفضى تحول فجأة إلى وحشة مميته، وازدادت حدة طنين الجن، كما ازدادت صعوبة السفر إلى سيوة، فى ظل وجود إبل مرهقة، ورجلين غير راغبين فى قطع هذه المسافة التى لا تطاق.

(*) كلمة عامية ليبية تعنى "الهورج" الذى تركب فيه المرأة على ظهر الجمل. (المترجم).

تحولت رحلتنا بعد ذلك إلى مجرد سجل زمنى لنوبة شجاعة من نوبات القدرة على التحمل. تلاشى الهلال الذهبى خلفنا، لكننا واصلنا المسير. لم تعد المسافة التى تنتظرنا وتقدر بحوالى خمسة وثمانين كيلو مترًا صحراء صديقة حتى نعبرها عبورًا بطيئًا ومريحًا. وأيًا كانت الظروف يتعين علينا الوصول إلى سيوة وزيارة طبيب قبل أن تبرز العظمة المكسورة من الجلد وتتسبب فى إذلال الجسد. كانت المشكلة الكبرى تتمثل فى المرافقين لنا، الذين لم يصدقوا أن "أحمد بك" الذى كان يضحك والذي كان يحثهم على الغناء يمكن أن يصاب بكسر فى العظام. قال يوسف وكله أمل "إنه مجرد ملخ بسيط. نشعل نارًا وندلكه بشيء من زيت الياسمين وسوف يُشفى". لكنى رحت أستحثهم جميعًا على السير إلى أن بدأت الأرض الصخرية الوعرة الموجودة غربى القصيبية Kusebeya، تتسبب فى تعثر الإبل أثناء سيرها فى الظلام. كرهت أبا بكر عندما راح يشعل لنفسه نارًا، وراح يدفئ رجليه على لهبها. وراح يرتل القرآن بصوت عال منفر.

لم نتمكن من إدخال حسانين التعيس فى كيس نومه، ولم نتمكن أيضًا من ابتكار وضع يكون مريحًا لكتفه، الذى بدأ يتحرك بالفعل نتيجة للارتطامات والاهتزازات المستمرة الناجمة عن سير الجمل. تمثل كل ما استطعنا عمله فى مجرد تكويم وسائدنا وبطاطيننا كلها تحت حسانين وقمنا بتغطيته بأكياس النوم. تصرف يوسف تصرفًا نبيلاً ففي الليلة الباردة التالية، والتي لم ينم أحد فيها سوى أبى بكر، سمعت يوسف عندما جاء مرات عدة استعدادًا لتقديم يد العون والمساعدة إذا ما طُلب منه ذلك.

لم يطلع علينا فجْر أكثر إشراقًا من فجر ذلك اليوم، لكنني عندما كنت أعاون رفيقى الشجاع على ركوب الجمل، ودون انتظار لتناول الإفطار سوى شيء من القهوة فقط، كنت أسأل نفسى ما إذا كان التحمل البشرى يمكن أن يستمر مدة ثمان وأربعين ساعة على هذا النحو. كان كتف رفيقى قد التهب بالفعل، وازدادت وعورة

الأرض بشكل مخيف إلى حد أن الراكب كان يهتز ويترجرج بطريقة مؤلمة كل بضع دقائق. تجاوزنا بحيرة القصيبية المالحة زرقاء اللون، التى كانت على شكل شريط ملون عن يسارنا، ثم نزلنا بعد ذلك إلى المنخفض المغطى بالعشب، الذى تركنا الإبل ترعى فيه. عثرنا على تجمع من النخيل وطبخنا أرزًا فى الظل، وأصبحت ابتسامة حسانين مقتضبة بعض الشيء، على الرغم من الجهد الكبير الذى بذلته فى عمل الضمادات وحبال الرفع.

لم أترك المرافقين لنا حتى ينتهوا من شرب الشاى صحت فيهم قائلة: "ما الذى يمكن أن يحدث إذا مرضتم؟ هذه العظمة يتعين ردها ليلة غد" قال يوسف بصوت حزين "المسافة من جغبوب إلى سيوه تقدر بمسير ثلاثة أيام ونصف. سنسير معك طوال الليل، لكن الإبل لا يمكن أن تواصل السير". قلت محتدة "لابد أن تواصل الإبل السير"؛ لكنى كنت أعلم أن إبلنا مرهقة. فقد قطعت الإبل أكثر من ألف ميل، وكانت فى بعض الأحيان تحمل أكثر من حمولتها ولا تحصل على ما يكفيها من طعام. هذه الإبل لم تنل من الراحة على امتداد ثلاثة أشهر، سوى ثمانية أيام فى واحة الكفرة، ونحن بدورنا كنا نأمل دومًا فى ترك الإبل تتغذى وتسمن فى جغبوب. ومن سوء الطالع لم يكن فى جغبوب أية دابة من دواب الحمل فى الزاوية حتى يمكن الاستفادة بها، وعليه تحتم علينا انتقاء الإبل الأربعة الأقل إرهاقًا وتعبًا ثم نترك كل ما عدا ذلك للحظ والنصيب.

كان مساء ذلك اليوم أطول الأمسيات التى أمضيتها فى حياتي كلها. وعندما رأيت حسانين يستغني عن بوصلته عرفت أن الأمور قد ساءت جدًا وتحولت التلال الرائعة إلى متاهات مؤلمة كنا نتجول خلالها إلى أبد الآبدين! أشار يوسف إلى "الشبكة" Grid. التى هى عبارة عن ثلاثة غرود يمكن أن تستعمل فى حمل أوانى الطبخ الخاصة بالمردة العمالقة. قال يوسف "سوف نخيم فى زيزب Zaizeb". ودعوت الله أن تكون زيزب هذه قريبة منا. قال أبو بكر ونحن نصعد تلا "الله

وحده هو الذى يعلم المسافة التى بيننا وبين هذا المنخفض". خيل إلى أن زيزب هذه عبارة عن ارتفاع صغير، لكننا لم نر فى الأسفل سوى رمل يميل لونه إلى الاحمرار، من فوق رواب بيضاء، وبأشكال مخيفة أوحت لعمار الخيالى، أنها دواب ومأكولات. كان حسانين آخر من التزم الصمت بيننا.

غربت الشمس دون أن تكشف عن أية علامة أو إشارة إلى المنخفض الموعود. كانت الإبل عاجزة تمامًا عن المضي قدمًا أبعد من ذلك. قال يوسف من باب التعاطف معنا: "لقد سرت مدة سبعة عشر يومًا من الكفرة على هذين القدمين، وها هما الآن متعبتان تمامًا. "لكن حسانين لم يقل أى شيء. لم أستطع مقاومة القوة الدافعة التى انتابتنى إلا عندما تسلقت تلاً ضخمًا من الحجارة بجوار المدق الذى كنا نسير عليه ورأيت الأمل مشرقًا فى وجه حسانين وأنا أنظر عبر هذه المساحة الكبيرة من الأرض المموجة. كذبت قائلة: "أنا أرى المنخفض. إنه قريب جدًّا". دخل علينا الظلام ونحن ننزل إلى الوادى، وكان كل حجر من الأحجار المستديرة، وكل سقوط مفاجئ يجعلنى أدرك أن تمضية يومين آخرين من هذه الأيام تعد ضربًا من ضروب المستحيل. أدى الظهور السريع للمنخفض إلى تبرير كلامى الذى جاء على شكل نزوة، لكن الجو كان قد أظلم تمامًا عندما برّكنا إبلنا خلف ربوة مناسبة. أصررت على حتمية تناول الطعام على وجه السرعة وأن نستأنف السير إلى أن يغيب القمر. اعترض المرافقون لنا على ذلك اعتراضًا كبيرًا. قال يوسف "يتعين عليكم التخلى عن بعض الأحمال". أما أبو بكر فقد لف نفسه لفًا محكمًا فى بطاطينه وبطريقة جعلتني أظن أن هناك نوعًا من التمرد المنظم. يزاد على ذلك، أنى بعد هذه الوجبة البائسة، ونظرًا أيضًا لعجز شجاعة رفيقى عن إخفاء ألمه، رحت أحث المرافقين لنا على النهوض والوقوف على أقدامهم، وأجبرتهم عن طريق قيامى أنا شخصيًا بتحميل نصف الأحمال على الإبل، على الاستعداد للقيام بمسيرة أخرى.

سحب حسانين نفسه فى صمت وركب الجمل التيبى رمادى اللون، الــذى لا يزال أقوى جمل فى الحملة(*) كلها، لكنى عندما رأيت الجماعة كلها تزحف مبتعدة عن منطقة التخييم عرفت أنى لن أستطيع تسريع الخطى أكثر من ذلــك. وعرفــت أيضا أنى فى الغد سوف أنصب الخيمة وأترك رفيقى فيها مع كـــل مـــن يوســف وعمار. وآخذ معى جمل الكفرة وأبا بكر، الذى هو على اســتعداد، مقابـــل حبـــه للمجيديات الثقيلة، لتولى مسألة إرشادى فى الرحلة الطويلة إلى سيوة التى يمكننـــى العودة منها ومعى المساعدات المطلوبة. قلت ليوسف: "هذه هى النهاية. اســتجمع قوتك!" بعد ذلك، وبفضل من الله، اندفع كلب إلى الخارج وراح ينبح، وبدأت تظهر لنا خيالات بعض الأشخاص. جاء الرد على تحدى عمار "صديق". قال لهم يوسف ولى أيضا "الصديق لا يسير هكذا أثناء الليل. جهزى مــسدساتك!" لكنـــى ســمعت صوتا إنجليزيًا! واندفعت إلى الأمام غير عابئة بالشال الذى ينبغـــى أن ألــف بـــه نفسى، وغير عابئة بالتقاليد الإسلامية، ولا بأى شيء آخر فى هذه الـــدنيا، اللهـــم باستثناء أيدى إخوانى المواطنين التى تستطيع تقديم العون والمساعدة على نحـــو لا تستطيعه الأيادى الأخرى فى هذا العالم، التقيت دورية من دوريات الإبـــل، التـــى أرسلتها إدارة سلاح الحدود للبحث عنا!

أنا لا أتذكر مطلقا ذلك الذى قلته لذلك الظل صاحب العينين الهادئتين الـــذى يرتدى زيًا كاكى اللون والذى برز من بين الأشخاص ذوى البشرة الداكنـــة الـــذين يرتدون عمائم محكمة اللف، ومن بين صف مزدوج من الهجن الباركـــة بطريقـــة أنيقة ومنظمة، لكن آه! أنعم وأكرم بالكفاية الإنجليزية! لقد لُمت انجلترا فـــى كثيـــر من الأحيان، متوخية فى ذلك كثيرا من العدالة. لقد هربت من ســلطات إنجلتـــرا، عندما كنت أريد الاختراق للوصول إلى أماكن مستحيلة وغير مسموح بها، لكننـــي فى تلك الليلة قيمتها وثمّنتها بأكثر من ذى قبـــل! تغيـــر الموقـــف خـــلال دقـــائق

(*) الحملة: بفتح الحاء وتسكين الميم، هي "الإبل المخصصة لحمل الأمتعة"، وهى من الكلمات العامية الليبية. (المترجم).



MY LONELY PICNIC IN KUFARA WADI.

رحلتى الخلوية الوحيدة فى وادى الكفره



A GLASS OF MINT TEA ON THE WAY TO SIWA.

كوب من الشاى المتعنع فى الطريق الى سيوه

معدودات. تراني، تنازلت عن قيادتى أم أنها أُخذت منى على غيـر وعـى منـى بواسطة بنفسنت خاكى Beneficent khaki؟ أنا لا أعرف ماذا حدث بالـضبط، لكن ما أتذكره هو تحول غمغمه المرافقين لى إلى صمت مخيف أمام القـوة التـى هبت لملاقاتنا. جرى صرف الحملة لتقوم بالتخييم فى مكان معلوم وعادت أسـرع الإبل إلى سيوة، بلا توقف أثناء الليل، كى تحضر طبيبًا وسيارة إلى جربه Girba، التى تبعد مسير نصف يوم فقط.

كان القدر عنيدًا مع المحافظ الإنجليزي الموجود فى سيوة فى ذلك الوقـت، نظرًا لأن جماعة الإنقاذ خيمت على بعد حوالى مائتى ياردة مـن المنطقـة التـى تناولنا فيها عشاءنا الحزين، وضلت الجماعة طريقها، نظرًا لأن الكلب الجوَّال قـد أعلن عن وصولنا، ولولا نباح الكلب لضعنا فى غياهب الليل.

وجدت نفسى - قبل أن أتمكن من الوقوف على تغيير الحياة - فوق جمـل أبيض يعدو ومن فوقه جلد خروف ضخم يشهد على بعد النظر شديد اللطف، كـان بنفسنت خاكى بجوارى، ومن خلفى مخيم جرى تقويضه على وجه السرعة، كـان وهج رماد النار لا يزال موجودًا، وكان هنا أيضًا طابور مـن الأشـخاص سـمر البشرة راكبين الهجن الرشيقة التابعة لسلاح الهجانة. بدت لى المسافة التى يتعـين علينا قطعها، شيئًا بسيطًا، كما بدت لي أيضًا المـسافة الطويلـة التـى قطعناهـا وخلفناها وراءنا، وكأنها لا شيء، لأننا رحنا نتحدث عن الحروب العالمية، وعـن أمم لا تزال فى البوتقة. كنت مشغوفة وأنا أسأل عن الأخبار! لقد سقطت حكومات، وبرزت إلى الوجود جمهورية جديدة، واختفى جنرال شهير مع جيش كبير! وقبـل أن أملأ الفجوة كانت أخبار تلك الأشهر الصحراوية قـد تناهـت إلـى المعرفـة الصحفية، كنا قد أدركنا الحملة وكان بنفسنت خاكى يبحث عن مأوى مناسب. قـال بنفسنت خاكى بصورة قاطعة "اعتقد أن الجانب غير المعرَّض لهبوب الـريح يعـد ملجأ مناسبًا. أعتقد أن ذلك الزميل الضخم سيقوم بكل شيء. وهنـا قـام بنفـسنت خاكى بتوجيه جمله الأبيض إلى أسفل التل.

نصب المخيم على وجه السرعة! أحسست بالخجل من تحميلنا أشياءنا بطريقة غير منظمة، ومن وقفاتنا المتخشبة، عندما جرى تبريك كل جمل من الإبل الطويلة في المكان المحدد له في الصف المزدوج. قال يوسف من باب الغيرة "يا له من أمر طيب، أن ينتمي الإنسان إلى حكومة من هذا القبيل. يا لها من إبل جيدة وتنظيم جيد!" لم تحدث همهمة أو غمغمة عند عمل الزريبه في تلك الليلة. كانت هناك مجموعة من المرافقين الذين كانوا يعملون من تلقاء أنفسهم، بتوجيه بسيط، في الوقت الذى كان فيه بنفست خاكى يتولى الإشراف على الأمر كله. وبصورة عجيبة وعلي وجه السرعة جرى وضع حسانين داخل كيس من أكياس النوم، كامل الملاءات، وجري وضع مخدة تحت كتفه، وأدت الزريبه المحكمة إلى عدم تسرب الريح، وجرى إشعال نار جميلة أمامنا. وبينما كنت أقوم بنفض ملاءات فراشي سمعت صوتًا يلومني: "يجب ألا تفعلي ذلك! تذكرى أن لديك العديد من البشر الذين يمكن أن يقوموا بذلك نيابة عنك". ابتسمت لأني كنت قد نسيت الأساليب المتبعة في إنجلترا.

قال الصوت نفسه: "شاى ساخن مع الحليب". لاحظت بعد ذلك غلاية كبيرة على النار. وجاءت الأكواب من سلة رحلات كبيرة عامرة بكل أصناف الأشياء الطيبه. وهنا جاءت السجاجيد وجلود الغنم من فوق الإبل الإضافية التي جرى إحضارها لنركب عليها. هل كان هناك أى شيء لم تستطع إدارة سلاح الحدود إحضاره عندما طلبناه؟ ثم نادى شخص آخر "مقانق"،(*) وكان حسانين هو الآخر متحمسًا لهذا الشيء. طبخنا المقانق مع صلصة الطماطم على نار حطب ذكي الرائحة، وتناولنا المقانق وهي ساخنة، ومعها خبز أبيض طازج جيء من سلة كريمة ثم رحنا نتحدث بعد ذلك — ويا له من حديث! دخن بنفسنت خاكى مستعملاً غليونه، غير مبال بالقوانين السنوسية الصارمة التي حرمتنا من التدخين بضعة

(*) المقانق: السُجق (المترجم).

أسابيع، ورأينا رؤى، وحلمنا أحلامًا مع الدخان أزرق اللون الفاتح عن أول سيجارة ندخنها بعد هذه المدة الطويلة.

لابد أن الساعة كانت قد وصلت إلى الثانية صباحًا، عندما دفعنا أنفسنا داخل كيس نومنا، لكن أحدًا منا لم ينم، أحسست أن ذلك الذى نحن فيه لم يكن النهاية. **كنت أحس أني فى وقت ما، وبطريقة ما، على الرغم من أنى لم أعرف متى أو أين، وبمشيءة الله، سوف أعود ثانية إلى الصحراء، وأن المدقات الغريبة غير الموقعة على الخرائط سوف توصل إبلي إلى الجنوب.**

أقول لهؤلاء الذين يودون معرفة النهاية أن الكفاءة التى بملكتنا لم ترفع قبضتها عنا إلا بعد أن أودعتنا حيارى يائسين خارج المكان، فى فندق من فنادق الإسكندرية، بعد رحلة تقدر بحوالى ٤٣٠ ميلاً بالسيارة من سيوة.

كان الشاى الحار إلى جانب كيس نومنا قبل أن يخرجنا الفجر من ذلك الكيس. وبخطى أسرع من خطانا على المدق المؤدى إلى ذاكار، وصلنا إلى المنخفض الموجود فى جربه Girba، حيث جلسنا تحت أكبر نخلة، انتظارا لطبيب ومعه كل التجهيزات المطلوبة المصنوعة من الألومينوم. وصلت السيارات فى اللحظة المطلوبة والمناسبة. كان الطريق على عكس ما توقعنا، ناعمًا، ويا إلهى! وكم كان الماء وفيرًا وساخنا فى دورة المياه!

فى الحمام بدّلت شالى الممزق وأنا أتنهد علامة عن الارتياح، ومع ذلك، وأثناء تجوالى فى سيوة الشبيهة بخلايا النحل، هى ومنازلها المكومة إلى جوار بعضها، ومتاهتها المكونة من أنفاق مظلمة، والتى يستعملها الناس استعمال الشوارع، كنت أحس بالخجل وأنا على مرأى من العرب الذين كانوا يطيلون النظر إلىّ. كنت أرى أن مسألة أن يرى مسلم وجهى بلا حجاب، أمر لا يطاق. كنت بطريقة عزيزية تمامًا أجذب حافة قبعتى إلى الأسفل أو أستر وجهى بطرف

عباءتى الفضفاضة، نظرًا لأن روح هؤلاء الناس أصبحت هى روحى إلى حد أني كنت أشعر بالاستياء لافتقارى إلى الخصوصية إلى أن تذكرت أن الست خديجة لم تعد موجودة بعد!.

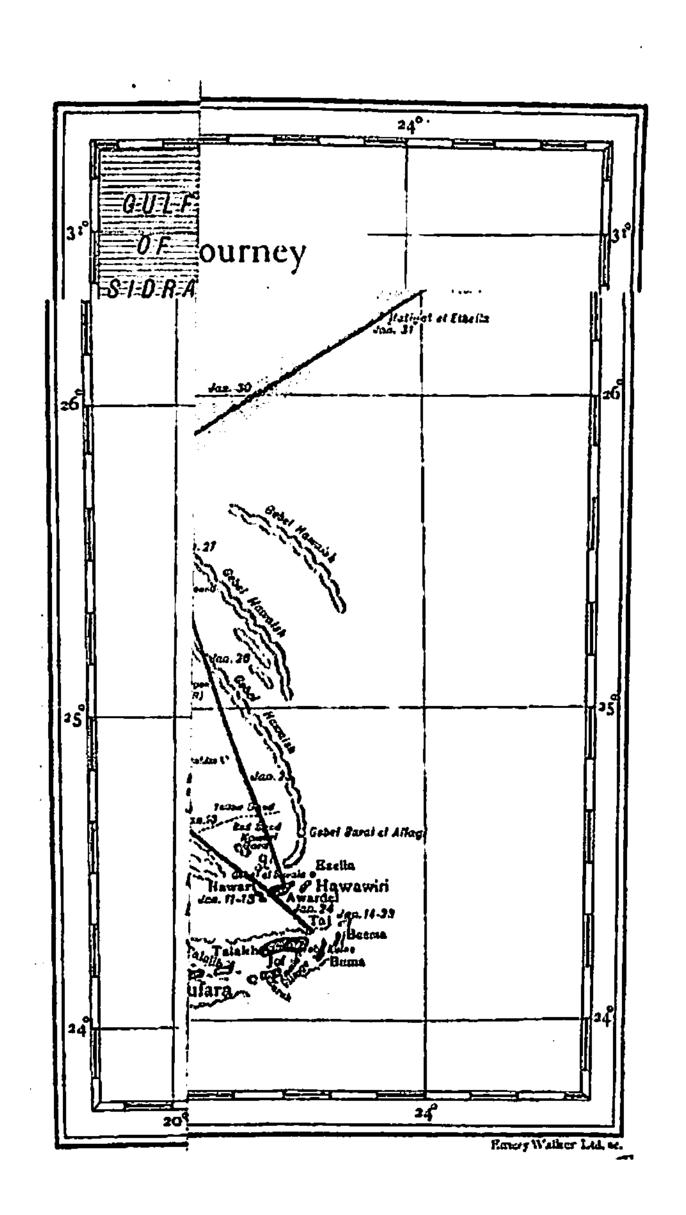
أمضينا ليلة أخرى فى الصحراء، لكن فـى حمايـة مُـشمع معلـق بـين سيارتين، كانتا معدتين لنقلنا إلـى مطـروح، وهنـا بـدت الـصحراء مستأنـسة وفيها قوافل صديقة وخزانات للمياه أنـشيءت حـديثًا تبـرهن علـى المـشروع الذى تقوم به محافظتها. ومع ذلك كان القمر الفـضى هـو نفـسه الـذى حـول لون رمال هوارى إلى اللون الكهرمـانى المنـصهر، الـذى تتخللـه نُـدب مـن لون النخيل الأزرق الياقوتى، وكنـت أنـزوى خلـف الملجـأ وأحـس بارتيـاح وأنا أراقب النجوم التى كان محمد يود دومًا أن "يطفئها!".

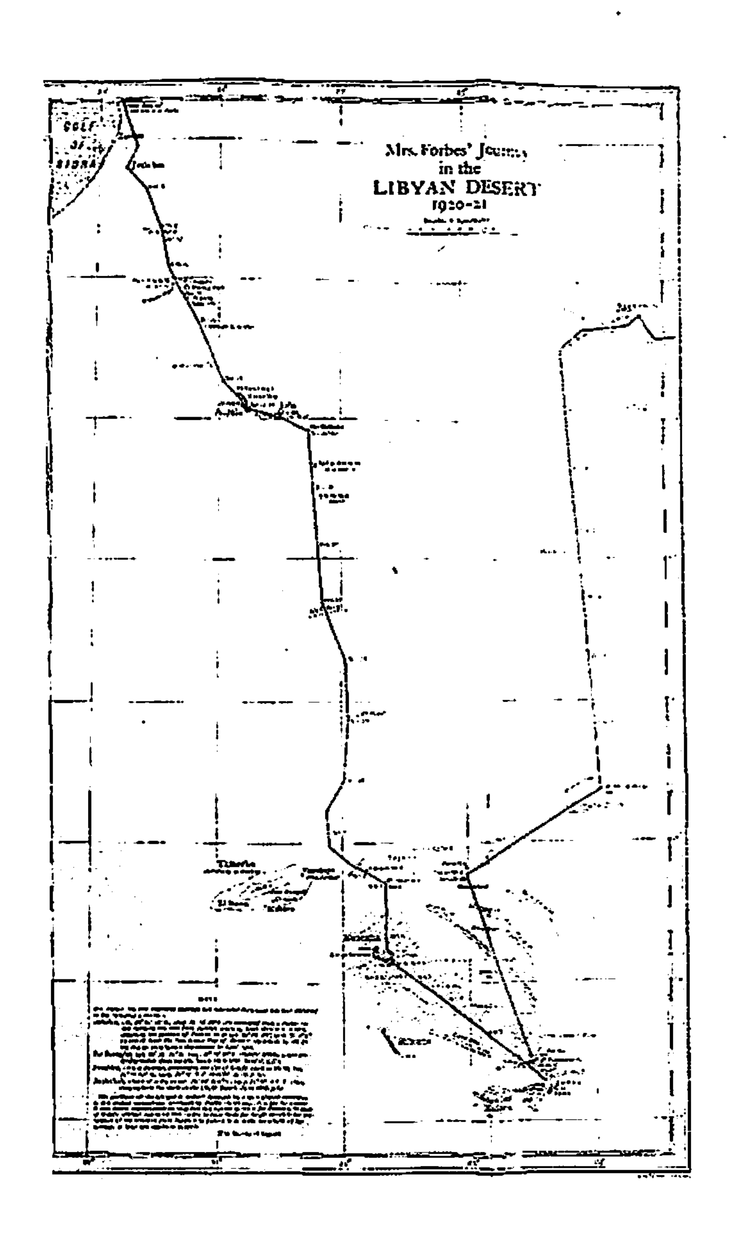
قال المسئولون الكرماء فى كل من سيوة ومطروح، وهم يولونا مزيدًا مـن الترحيب "تهانينا الخالصة بنجاحكم".

قال مواطن على الساحل "لقد زرتم الكُفرة. إنها جزيرة، إنها غير ذلك، لكنى كنت أظن دومًا أن هجاءها كورفو! Korfu.

التقيت بعد ذلك امرأة إنجليزية. كان القلـم الـذى يزيـد تنورتهـا يناسـب المُعَرَّق الفرنسي الذى ترتديه، وكانـت تفـوح مـن بـشرتها الورديـة رائحـة عطر "ميل فليـرز" Mille Fleurs. كانـت أظـافرى متقـصفة، وكـان أنفـى متقشرًا. كان ثوبى الأوروبى الوحيد مخبأ طيلـة أشـهر فـى قـاع جـوال مـن جوالات علب اللحـم المحفـوظ، لكنـى كنـت صـادقة عنـدما رددت مقولـة حسانين "المدنيَّة، الحمد لله!" عندما كان يدس كوفيتـه فـى ركـن مـن أركـان الحقيبة التى يحملها على ظهره، ويخرج منها طربوشًا!

الضَّبعه ١٩ فبراير من العام ١٩٢١.


GULF
OF
SIDRA
ourney
24°
31°
26°
25°
24°
20°
Jan. 31
Jan. 30
Gebel Hawaish
Jan. 28
Jan. 24
Gebel Barat el Allag
Ezella
Hawawiri
Awardel
Jan. 11-13
Jan. 14-23
Taj
Buma
Taiakh
Jof
Emery Walker Ltd. sc.



GULF
OF
SIDRA
Mrs. Forbes'
in the
LIBYAN DESERT
1920-21

الملحق رقم (١) جدول المسيرة

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
						العظمى	الصغرى				
٨ ديسمبر	٦ صباحاً ١١.٣٠صباحاً	٩.٣٠ صباحاً ٢ بعد الظهر	٢١كم	١٤٠°	ريح شرقية باردة قوية. شمس	٢٦°	٢.٧٧°	٤٠ متر	أرض مستوية- حصى- عشب كثيف		فى إجدابيا. زاوية حديثة. الشيخ محمد كريم وحوالى ٤٠ من الاخوان هناك زاوية غير مستخدمة من زوايا عمر زير.
٩ ديسمبر	٨ صباحاً	٥ مساءً	٣٦ كم	١٦٥°	مطر عند الساعة التاسعة صباحاً. سحب	٤٣°	٥.٥٥°	٦٠ متر	أرض مستوية . رملية. حشائش كثيرة. مرتفعان خافتان		
١٠ ديسمبر					شمس حارة	٣٢°	٣.٨٨°				
١١ديسمبر	فى الوادى الفارغ				ريح جنوبية قوية	٤٤°	٦.٦٦°		الوادى الفارغ	الوادى الفارغ منخفض طويل يمتد شرقاً وغرباً. لا توجد حياة نباتية أو نخيل. بئر واحدة كبيرة عمقها ١٥ قدم. ماء دائم. شاهد المتوحة فى الصيف ولادع الطعم دوماً إلى حد ما.	
١٢ديسمبر	١.٣٠ مساء	٣ مساء	٨كم	١٧٠ و١٧٥°	رياح شرقية صباحاً.رياح شمالية مساءاً.	٣٠°	٥.٥٥°	٣٠ متر	أرض متموجة من الشرق إلى الغرب حياة نباتية نادرة.		

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
						العظمى	الصغرى				
١٣ديسمبر	٨,٤٠ صباحاً	٢,٤٠ مساء	٢٤ كم	١٧٠° و١٧٥°	زخة مطر عند العاشرة صباحاً.مشمس. رياح شمالية غربية	٤٠°	٣.٨٨°	٣٠ متر	أرض رملية مبسطة سلاسل جبلية طفيفة شرقاً وغرباً.لا وجود للأشجار القصيرة الكثيفة.		
١٤ديسمبر	٦,١٥ صباحاً ١,٣٠ مساء	٨,٤٥ صباحاً ٤ مساء	٢٢ كم	١٥٥°	مشمس — لا رياح	٤٢°		البئر عند مستوى سطح البحر	أرض مستوية سلاسل جبلية مربعة. لاوجود للحياة النباتية، إنخفاض نحو السهل تل العريضة عند الافق.	بئر رسام. بئر واحدة فى رمل ناعم. حزم عشبية. نخيل – ماء دائم لاذع الطعم. بئر واحدة فى صحابى، على بعد ٤ كيلو مترات فى الجنوب الغربى، وماؤه لاذع الطعم.	
١٥ ديسمبر	٧,٣٠ صباحاً	٢,٣٠ مساء	٣٠كم	١٥٥°	رياح جنوبية باردة. قبلية أثناء الليل.	٢٤°		٣٠ متر	رمال متحدرة. حياة نباتية شحيحة.روابى مربعة حارة وصلنا ربوة العريضة عند الساعة ٨,٣٠صباحاً	بئر واحدة ماؤها لاذع الطعم. بئر حارق ويقع شرقى الطريق ويبعد حوالي ١٠كم عن بئر رسام.	
١٦ديسمبر	٧,٣٠ صباحاً،٥,٣٠ مساءً	٣,٣٠ مساء، ٩ مساء	٣٨ كم، ١٦ كم	١٦٠°	رياح جنوبية باردة.مشمس	٢٢°	٥,٥٥°	٩٠متر على ربوة قريبة من قارة الملح	شديدة الاستواء. لاتوجد حياة نباتية إلا فى هاتية بوزفّار. رمل متحدر عند الساعة٢ مساءً.		

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
						العظمى	الصغرى				
١٧ديسمبر	٨,٣٠صباحاً	٣,٣٠ مساءً	٣٠كم	١٣٥°	رياح جنوبية غربية قوية. مشمس	٣٢°	٥°	٧٠ متر عند أعلى مرتفع	رمال عميقة. أرض منبسطة آبار بين الحين والآخر	واحة مسوس. آبار كثيرة، وبئر سبيل في الوادي	زاوية بنيت في العام ١٨٧٢ وبها مسجد. ثمانية مساجد صغيرة. يقع برج بوفاطمة المربع على أحد التلال. عدد من الإخوان يتردد بين ٣٠، ٤٠ الشيخ عبد القاسم. وقبة عبد الله القماحي كاتب محمد.
١٨ديسمبر	في عجيلة				حار جدا . لا رياح	٤٥°	٣,٣٣		واحة بها نخيل وأشجار سنط	عجيلة. آبار كثيرة. ماء طيب.	
١٩ديسمبر	٩,٣٠صباحاً	٣,٣٠ مساء	٢٤كم	١١٠°	بارد – سحب	٣٢°	٤،٤٤		مستوية. حصى صغير. لاتوجد حشائش	جالو. آبار، ماء ردئ في شروف	
٢٠ ديسمبر ٢١ديسمبر					حار. غائم لارياح	٤٢°	٥°	٨٠ متر على أعلى سلسلة تلال رملية قريبة من المدينة	واحة كبيرة متخلفة عن باقي الواحات نخيل، أشجار سنط زراعة	آبار في المنشية، والعراق، ولبّة- الماء على عمق ١٥٠ قدم تحت سطح التربة في معظم أجزاء الواحة	زاوية العرق. الشيخ محمد السنوسي. عدد الإخوان: ٤٠- يوجد ٧ مساجد. قبتان غير مهمتين: سيدي صالح وسيدي مختار. زاوية لبّة ومؤسسها سيدي بن علي، والشيخ بن عمر. عدد الإخوان ٨٠ وعدد الطلبة ١٥٠.

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
						العظمى	الصغرى				
٢٤ديسمبر ٢٥ديسمبر	في بُطافل				ريح شمالية قوية. غائم	٢٦° ٣٨°	٦,٦٦° د		لاتوجد حياة نباتية أو نخيل، رمال متحركة، حطب على بعد ٢٥ كم شرقا.		
٢٦ديسمبر	٨,٣٠ صباحا	٧,٣٠ مساءً	٤٦كم	١٨٠°	غائم. رياح شمالية. مشمس	٣٩°	٣,٨٨°		جرداء. مستوية. قفر. مملة. كثب المتمة إلى الشرق من طريق زايغن. راجع الملاحظة أ.		
٢٧ديسمبر	٨ صباحا	٧ مساء	٤٤كم	١٨٠°	غائم. مشمس، رياح شمالية	٢٨	٧,٧٧°		جرداء. مستوية. لاوجود للحياة النباتية. مملة. تقع الخميمات ناحية الشرق على طريق زايغن.		
٢٨ديسمبر	٧,٤٠ صباحا	٧,١٠ مساء	٤٦ كم	١٨٠°	غائم. مشمس، رياح شمالية	٣٠°	٦,٦٦°		أرض مستوية جرداء، بلا حياة نباتية. مملة		
٢٩ديسمبر	٦,٤٠ صباحا	٦,٥ مساءً	٤٦ كم	١٦٥	حار. رياح شمالية. زخة مطر في الليل	٣٤	٧,٢٢°		أرض مستوية جرداء. الوادي الفارغ. منخفض وهي يمتد شرقا وغربا.		
٣٠ديسمبر	٧ صباحا	٦,٣٠ مساءً	٤٦ كم	١٨٠°	شديد الحرارة	٤٦	٦,١١	٢٢٠ متر	مستوية،أمواج رملية طفيفة، تقع الزول ناحية الشرق على طريق زايغن.		
٣١ديسمبر	٦,٣٠ صباحا	٧ مساء	٤٦ كم	١٩٠	بارد. مشمس، رياح شمالية	٣٦	٦,١١		مستوية بلا حياة نباتية.مناطق من الحصى الأسود.		

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
						العظمى	الصغرى				
١يناير	٧ صباحا	٧مساء	٤٨كم	٣٠كم ٢٢٠ ١٨كم ١٨٠	حار. غائم	٤٢°	٥،٥٥°	٢٤٠ متر	مستوية، بقع من الحجر الاسود الكبير.		
٣يناير	٨،٣٠ صباحا	٢ مساء	١٨ كم	١٣٠	ضبابي في الصباح، مشمس. لاتوجد رياح	٤٢٠°	٤،٤٤°		يوجد قليل من النخيل في الفاتيا القرية من زايعن رواني. كثبان رملية صغيرة. مستنقع مالح. تين. إثل. سنط أنقاض تيبة. حجر رملي(نوبي). صوان. قليل من الكوارتز على القشرة التحتية للحجر الجيري.	المراشي. يمكن حفر الآبار في الفاتيا بالقرب من النباتات. ماء جيد. العنف نادر جداً.	
٤يناير	٧،٣٠صباحا	٦مساء	٤٠كم	١٨٠°	ضبابي في الصباح. مشمس. رياح جنوبية.	٣٧°	٣،٣٣°	٢٨٠ متر	رملية قاحلة بعد الفاتيا. موجات رملية طفيفة. رأينا جبل سسمة عند الساعة ١٠ صباحا.		
٥ يناير	٧،٣٠ صباحا	٢،٣٠ مساء	٢٨كم	١٨٠°	بارد. ريح جنوبية. شمس حارة	٢٦°	٤،٤٤°	٣٠٠ متر	حجر رملي نوبي أسود؛ أكسيد حديد. وصخور مغنسيوم، كثبان رملية كبيرة	آبار كثيرة: بئر النصراني ماؤها رائق وله طعم سلفات المغنسيوم	لا توجد زاوية. الشيخ محمد المدني هو رئيس السنوسيين.
٦ يناير ٧ يناير	في بسيمة في بسيمة				بارد، صحو؛ بلا رياح، بلا رياح، حار	٣٢° ٤٣°	٢،٧٧° ٣،٣٣°	٣٨٠ متر (فوق الكثبان الرملية)	واحة يتراوح طولها من ١٠،٨كم، نخيل جبال، بطول ١٥ كم. عين مائية واحدة، رواني، كثبان رملية صغيرة، مستنقع مالح. تين. أثل، سنط، أنقاض تيبة. حجر رملي (نوبي). صوان. قليل من الكوارتز على القشرة التحتية للحجر الجيري.		

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
						العظمى	الصغرى				
٨يناير	٨,٣٠ صباحاً	٥ مساء	٢٥ كم	١٣٠°	حار . لاتوجد رياح	٤٥°	٣,٣٨	٤٦٠ متر	كثبان رملية كبيرة، مخروطان من الحجر الرملى الاسود شرقى الطريق تسمى غور سب العابد، أو سُعار الخادمة.		
٩ يناير	٨ صباحاً	٣ مساء	٢٥ كم	١٣٠°	بارد- رياح شمالية شرقية	٣٠°	٣,٣٣	٥٠٠ متر (على الكثبان الرملية)	كثبان رملية كبيرة، أعلى رف صخرى ويسمى انبيرم.		
١٠ يناير	٦,٣٠ صباحاً	٦ مساء	٤٤ كم	١٣٠°	شديد الحرارة	٤٥°	٣,٨٨	٥٢٠ متر (على الكثبان الرملية)	كثبان صغيرة متدرجة، جبل نيرى فى الجنوب، وجبال هوايش فى الغرب الكثبان الرملية		
١١ يناير	٦,٣٠ صباحاً	٤ مساء	٣٨ كم	١٣٠°	حار خامد	٤٣°	٥,٥٥	٥٠٠ متر (فوق الكثبان)	جبال أرض صخرية.		
١٢ يناير					شديد الحرارة	١١٢° فى الخيمة	٥	٤٤٠ متر (على الكثبان)	جدباء (؛) سلاسل صخرية، كرات وأنابيب من الحجر الرملى الأسود، تجاوزنا غرب قارة هوارى عند الساعة ١٢ ظهراً. واحة على شكل شريط طويل، نخيل، نباتات، بساتين.	آبار هوارى. ماء جيد	زاوية صغيرة. الشيخ موسى سكابرين. مسجد صغير.
١٣يناير					بارد	٣٠°	٤,٤٤	كما سبق	-	-	-

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
						العظمى	الصغرى				
من ١٤ يناير إلى ٢٣ يناير	١١ صباحاً في تاج	٤ مساء الكفرة	٢٠ كم	١٤٠°	بارد، رياح شرقية، مشمس، لطيف من حين لآخر رياح شمالية.	٢٣° ٣٥° متوسط درجة الحرارة	٥° ٢,٢٢° متوسط درجة الحرارة	-- ٤٩٠ متر في تاج	الكفرة، تاج على قمة صخرية تطل على الوادى. لايوجد نخيل او نباتات يصل طول الوادى إلى ٦٨ كم، ويتردد عرضه بين ١٥ او ٣٠ كم وتحيط به القمم الصخرية من الشمال والجنوب والشرق، وتوجد غرود أيضاً يتراوح أرتفاعها بين ١٠٠ و ١٦٠ قدم. يمتد الوادى الى الرمل المسطح فى الناحية الغربية والجنوبية الغربية. توجد بارات نخيل فى بوما وبويما، زروق، الجوف، طولاب، طليب، توجد أيضا بعض احزمة الحطب التى فيها روابى يصل ارتفاعها إلى ٢٠ قدم، يزرع بعض الشعير والقمح، والخضروات، والعنب، والخوخ، والزيتون والتين والأثل، والسنط، الشوك البرى، بحيرات مالحة فى بوما والجوف، وبحر العامراء، ومستنقعات مالحة كبيرة، فى كل من الجوف وبوما، وهناك أيضا أنقاض التو.	آبار فى تاج عمق الواحد منها ١٢٠ قدم، ماء جيد، لا توجد عيون فى الوادى، لكن الماء فيه على عمق ١٩ قدم تحت سطح التربة. آبار فى كل مكان. فى الجوف، تلالخ، زروق، بوما، بويما، طولاب، طُليب، منظومة رى صناعى عن طريق السواديف والقنوات.	فى تاج، توجد زاوية الأشباء. قبة المهدى، مسجد منهم. لايوجد مصابيح. محل سيدى صالح البكاري محل الشيخ يوجد ٣٠ من الاخوان. توجد زاوية قديمة فى الجوف. الشيخ محمد البسامة. قبة بنات المهدى. مسجد كبير. ٢٠-٣٠ من الاخوان.

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
						العظمى	الصغرى				
٢٤ يناير	إلى هواوير عند الساعة ٥ مساءً	أواردل عند الساعة ١١ مساءً	قربة على بعد ٣٥ كم	شمالي غربي إلى هوارى ثم شمال شرقي شرق ٣ كم إلى أواردل.	بارد . رياح شمالية	٣٦°	٢,٧٧°		أرض جرداء غير مستوية، سلاسل من الحجر الرملي. تصبح رملاً عند الواحة.	آبار في أواردل. الماء جيد	
٢٥يناير	٨ صباحاً	٦ مساءً	٤٠ كم	٣٤٥°	بارد. رياح شمالية.	٣٠°	١,١١°	٥٠٠ متر	جبل السرايا وقارة هوارى في الغرب على بعد ٢٦ كم رمل أحمر، ثم رمل أبيض. سلاسل حجرية بين الحين والآخر. تجاوزنا ثلاثة علامات ارصفة على الطريق المؤديه من زايغن إلى قارة الجارديا، مهجن وقارة الشريف. تلال صغيرة.		
٢٦ يناير	٧ صباحاً	٨,٣٠ مساءً	٤٥ كم	٣٤٥°	بارد، رياح شمالية	٣٣°	٢,٢٢°	٤٨٠ متر	خيمنا في جبال هوايش تلال صخرية متحدرة يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠ و ١٨٠ قدم.		
٢٧ يناير	٤,٣٠ صباحاً	٥,٤٥ مساءً	٤٥ كم	٣٤٥°	بارد- رياح شمالية	٣٢°	١,٦٦°	٤٠٠ متر	في جبال هوايش ارض مستوية ٦ كلم بين سلسلتين جبليتين . حصى أسود. ارض حجرية.		

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة العظمى	درجة الحرارة الصغرى	الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
٢٨ يناير	٦ صباحا	٢ مساء	٣٢ كم	٣٤٥°	نسيم شمالي غربي	٤٣°	١,٦٦°	٣٦٠ متر	توجد ألواح حجرية مستوية خلف سلسلة هوايش الجبلية الثانية موجات رملية، ثانيا سلسلة هوايش الجبلية الثالثة في الشرق.		
٢٩ يناير	عند بئر في ذاكار				عاصفة رملية قوية	١٦°	٢,٢٢°	٢٥٠ متر	مجموعتان من النخيل. هاتيا مكونة من زوايا منخفضة.	بئر ذاكار. ماء جيد على عمق ١٤ قدم. عرض البئر ٢½ قدم موجات رملية. رمال متدحرجة. عزود حجرية في الشمال، ونخمن أن تكون استمرار لسلسلة جبال هوايش الثالثة جدران من الحجر المحشو بالرمل. ملاحظة: يجب [illegible] الرمل بالماء قبل الحفر منعا لانهياره داخل البئر.	
٣٠ يناير	٧ صباحا	٧ مساء	٥٠ كم	٦٠°	بارد- ريح شمالية عاصفة رملية	١٢°	١,٦٦°	٣٤٠ متر	كثبان رملية عريضة، مستوية الظهر ومتحدرة- سلاسل جبلية قليلة- يحتمل ان تكون امتدادا للكثبان التي بين زايغن وجبل فاضل، الذي يربط بين كثبان بسيمة الرملية.		

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
						العظمى	الصغرى				
٣١ يناير	٧,٣٠ صباحاً	٨,٣٠ مساءً	٥٢ كم ٢٢٤	٦٠°	شديد الحرارة. لاتوجد رياح.	٥٠°	٢,٢٢°	-	كثبان رملية بطول ١٢ كم، ثم منطقة حجرية غير مستوية، احجار بين الحين والآخر. شاهدنا كثبان مهمة عند الظهر في الشمال الشرقي.		
١ فبراير	٧,٢٠ صباحاً	٢,١٥ مساءً	٢٨ كم	٦٠°	ريح جنوبية غربية	٤٣,٣٣°	صفر	٢٨٠ متر	مهمسه: منطقتين من "الخطب" بين كثبان رملية كبيرة تمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي. خزانات فارغة.		
٢ فبراير	٦,٣٠ صباحاً	٧,٣٠ مساءً	٥٤ كم	٣٦٠°	رياح شمالية غربية	٤٠,٥٥°	١,١١		رملية مسطحة بنية اللون، حصى صغير، لاتوجد نباتات		
٣ فبراير	٦,٣٠ صباحاً	٧ مساءً	٥٢ كم	٣٦٠°	شديدة الحرارة	٥٢,٢٢°	١٠,٥٥° شرق البارومتر		رملية مسطحة بنية اللون، حصى صغير، لاتوجد نباتات		
٤ فبراير	٦,١٥ صباحاً	٦,٤٥ مساءً	٥٠ كم	٣٦٠°	شديد الحرارة، نسمة خفيفة	٥٠,٥٥°	٣,٣٣°	جري قياس الارتفاعات من اعلى النقاط في منطقة التخييم.	شاهدنا كثبان مازول الرملية في اتجاه الغرب عند الساعة العاشرة صباحاً. دخلنا منطقة الكثبان الشمالية عند الساعة الرابعة بعد الظهر.		

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
						العظمى	الصغرى				
٦ فبراير	٦ صباحا	٦,٣٠ مساءً	٥٤ كم	٣٦٠°	رياح جنوبية شرقية	٤٦,١١°	١,٦٦°		سلاسل رملية كبيرة تمتد من الشمال للجنوب. مناطق مستوية فيما بين "الحطب" الجاف.		
٧ فبراير	٦,٣٠ صباحاً	٧ مساء	٤٨ كم	٣٦٠°	رياح شمالية شرقية باردة	٢٦,٦٦°	٢,٢٢°		كثبان رملية قريبة من بعضها البعض - حطب أخضر بين الحين والآخر.		
٨ فبراير	٦,٣٠ صباحا	٦,٣٠ مساءً	٤٢ كم	٣٦٠°	رياح شرقية	٣٢,٢٢°	٢,٢٢°		كثبان رملية "مع حطب" أخضر.		
٩ فبراير	٦,٢٠ صباحاً	٦,٢٥ مساءً	٤٨ كم ١٠ كم ٢٨ كم ١٠ كم	٣٦٠° ٤٢° ٨٠°	شديد الحرارة، خالى من الريح	٥١,١١°	١,١١°		كثبان رملية ، حطب كثير، مناطق من الحجر الاسود والصخور الرمادية، هاتيان(منخفضات)، وصلنا هاتية بو عاليه عند الساعة ٤,٣٠ مساءً، وهاتية بوسلامة عند الساعة ٥,٣٠ مساءً، قارة المهدى عبارة عن صخرة كبيرة عند الطرف الشرقى من هاتية بوعالية.	هاتية بو سلامية أدعال قصيرة وفيرة، وعلف. وبئر مردومة.	

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة العظمى	درجة الحرارة الصغرى	الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقباب
١٠ فبراير	٧ صباحاً	٣،٣٠ مساءً	٣٤ كم ٢٩ كم ٥ كم	٨٤° ٤٨°	رياح جنوبية شرقية	٤٨،٨٨°	صفر		عروق من الحجر الرملي رمادي اللون. منطقة صخرية غير مستوية، وصلنا هاتية بو بطال. وفيها نباتات، عند الساعة ١١ صباحاً.	وصلنا جغبوب	زاوية كبيرة من زوايا سيدى السنوسي وقبة وقباب أسرته.
١١ فبراير ١٢ فبراير	في جغبوب في جغبوب	جغبوب جغبوب							وادى جغبوب المدور. نخيل معتبر. زراعة أسفل الزاوية. كتل كبيرة وقمم عالية من الحجر الرملي.	آبار في وادى جغبوب - الماء مالح وقريب من السطح. منظومة للري بالخزانات والقنوات الاصطناعية في الحدائق	مسجد كبير. كنبات ومحلات إقامة لعدد ٢٠٠ طالب. يشغل الأمام سيدى الفقيه منصب شيخ الزاوية.
١٣ فبراير	بداية السفر واحة سيوة										

ملاحظات خاصة بدليل خط السير

الملاحظة أ :- يجب عدم النظر إلى الروابى الرملية الثلاثة, كلب المتهمة, الحميمات, والمازول على أنها علامات أرضية محددة , لأن هناك جدلاً كبيرًا بين البدو حول هوية هذه الروابى وموقعها .

الملاحظة ب:- تسكن قبيلة – المغاربة Mogharba واحة إجدابيا التي فيها عدد قليل من الزّواويين، أما واحة العجيلة فتسكنها قبيلة العجيلة , أما واحة جالو فتسكنها قبيلة المغاربة , أما واحة تيسيربو, وواحة بسيمة هى وربيانة والكفرة فيسكنها الزواويون Zouia الذين يتخللهم عدد من التبو. أما الفواخير فيسكنون فى واحة زوتينه zuetina؛ وفى واحتى سلوك وغمنيس ghemines حيث يعيش الأواغيز.

يقدر عدد سكان الكفرة التيبيين وبسيمة بحوالى ٣٠٠٠ من الزواويين وعدد يتردد بين ١٠٠ و١٥٠ من التبو. يضاف إلي ذلك عدد كبير من العبيد الزنوج من كل من واداى Wadai ودارفور. ولا توجد قبيلة فى جغبوب وهى مركز دينى لإخوان السنوسى.

الملاحظة ج :- المسافة المسجلة بالميل هى المسافة التى سرناها بالفعل . قد يتحتم فى مناطق الكثبان الرملية إجراء بعض التحويلات الصغيرة التى تمكن من جعل المنطقة التى جرى اجتيازها على شكل خط مستقيم على الخريطة .

الملاحظة د :- يرجع فشلنا فى الوصول إلى يتسيربو فى الرحلة الجنوبية إلى الحقيقة التى مفادها أننا فشلنا فى السماح بحدوث تباين بين الشمال المغناطيسى والشمال الحقيقى , فى الوقت الذي بالغنا فيه فى المسافة التي قطعناها . وفى الوقت نفسه , وبعد مقارنة الخريطة المنشورة فى هذا الكتاب بخرائط المساحة المصرية

المنشورة فى العام ١٩١٢ والتى أعيدت طباعتها فى العام ١٩١٥ , نجد أننا سـرنا خلال المنطقة الخضراء المزروعة وتجاوزنا القصيبيَّة Kusebeya كما هى موقعة على خريطة العام ١٩١٥ , دون العثور على أية علامة أو اشارة من العلامات أو الإشارات الدالة على تيسيربو . كشفت حركة البوصلة عن خطأ يقدر بحـوالي ٢٠ ميلاً فى المرحلة الأخيرة من مرحلة الوصول إلي جغبوب - بلغت المـسافة التـي قطعناها بخلاف الدوران حول وادى الكفرة , حوالي ١٠٠٩ أميال , وعليـه فـإن الخطأ الذى يقدر بحوالي ٢ فى المئة جرى توزيعه على الرحلة كلها .

الملحق ب
ملاحظات عن تاريخ الإخوانية السنوسية

ولد سيد محمد بن علي السنوسي بالقرب من مستا غـانم Mastaghanem في الجزائر في العام ١٧٨٧ الميلادي٠ كان سيدي محمد واحدا مـن أولاد سـيد يوسف , وهم من البربر , لكنهم من نسل النبي ﷺ من خلال إدريس مؤسس الأسرة المالكة المراكشية (المغرب). ومن المسلم به أن بن علي أخذ اسمه من رجل طاهر توفي في العام ١٤٩٠- سيدي محمد بن يوسف بـن عمـرو بـن شـات shat السنوسي , من بن سنوسي- لكن يقال أيضا إن الأسم يشير فقط إلى جبل سـنوس الذي كانت تعيش فيه عائلته. وبعد أن تشاجر محمد بن علي شجارا خطيرا مع ابن عمه , انتقل إلى فاس Fez في العام ١٨٢١ ودرس في جامعة القيروان الشهيرة . كانت مراكش في ذلك الوقت محلا لميلاد كثير من الجماعات الدينيـة , وطـوال السنوات السبعة أو الثمانية التي أمضاها محمد بن علي في مراكش , انضم الرجل إلى الطريقة القادرية , والطريقة الـشاذلية , والطريقـة الجازويـة , والناصـرية والطريقة الدرجانية , في الوقت الذي ذاع فيه صيت تقشفه وأنه كان يطمـح إلـى إقامة مذهب من المذاهب الإسلامية على أساس من الإسلام البسيط الذي يقوم على الالتزام بنصوص القرآن وتعاليمه , وأن يكون ذلك الأساس خاليا من الاستطرادات والإضافات الحديثة كلها .

عرض مولاي سليمان , إمبراطور مراكش الترقية على سيدي محمـد بـن علي لكن الرجل رفض هذه الترقية وعاد إلى الجزائر في العام ١٨٢٩ المـيلادي, حيث قام بتدريس النحو والفقه في لقواط Laquat. تزوج محمد بن علي في مساد Masad إمراة من بني توابة Tuaba المخلصين له, الأمر الـذي يـدل علـى أن الرجل أصبح له عدد من الأتباع والمريدين . غادر محمد بن علي الجزائر عـشية

الاحتلال الفرنسى لها , وقوي تطرف الرجل وتشدده , بلا أدنى شك , عندما وجـد وطنه فى أيدي الكفار, وعلي الرغم من أن تعاليم الرجل كانـت تـدين كـلا مـن الأتراك والمسيحيين , فإن كراهيته الشديدة كانت تنصب على المسيحيين .

بعد أن طلق محمد بن على زوجته فى بوسعاده Bu Saada , راح يتجـول فى شمال أفريقيا داعيا إلى نظريته الصوفية عن الإسلام الخالص إلـى أن وصـل القاهرة , التى قرر فيها مواصلة دراساته فى جامعة الأزهر • وفى جامعة الأزهر, أكسبه تقشفه , وتشدده وكراهيته للتجديد كثيرًا من الأعداء من بين العلماء , وفـي العام ١٨٣١ الميلادي أدان الشيخ الحامش El Hamish, ذلك العـالم المرمـوق, تعاليم محمد بن على .

وعندئذ انتقل محمد بن على إلى مكة, ليتتلمذ على يدى سـيدى أحمـد بـن إدريس الفاسى, العالم الديني الشهير , رئيس الطريقة القادرية , التى لها تأثير كبير فى مراكش (المغرب). وعثر سيدى بن على فى مكة فى نهاية المطـاف, علـى عقلية مماثل لفكره. وسافر الأستاذ والتلميذ إلى اليمن , وتوفى الأستاذ خلال هـذه الرحلة , بعد أن خلف وراءه لأتباعه تعليمات تقضى بنقل ولائهم لتلميذه الذى وجد نفسه رئيسا لجماعة محررة من المتقشفين المتحمسين – الطريقة المحمدية . لقيـت تعاليم سيدى محمد بن على نجاحًا كبيرًا بين القبائل البدوية فى الحجاز وفي اليمن , وسبب ذلك أن أهل مكه آثروا اتباع تلميذ آخر من تلاميذ إدريس , وهو محمد بـن عثمان المرجانى , وهو من الأشراف. بعد أن أسس سيدى بـن علـى زاويتـه الأولى فى جبل أبو قبيص , قام برحلة ثانية إلى اليمن التى أتصل فيها بالوهابيين , تلك الجماعة التطهرية التى تأسست فى العام ١٧٤٦ الميلادي . وفى كل الأوقـات كانت كراهيته للمسيحيين , والأتراك على حد سواء ومعارضته للـروح الوسـطية الحديثة , تروق للقبليين المترحلين أكثر من سكان المدن المستقرين.

وعليه وعندما أضطرته معارضة كبار المشايخ الذين أعربوا عن تـشككهم فى أصولية هذا الرجل, إلى مغادرة مكة فى العام ١٨٣٨ الميلادي , راح الرجـل يقيم سياسته بصورة محددة على الابتعاد عن مراكز الحـضارة , وبـذلك يمكنـه تحاشي الاتصال بتلك الدول الواقعة تحت الحكم أو الحماية الأوربية , فى الوقـت الذى راح فيه يوحّد مختلف القبائل البدوية على شكل منظمة دينية هائلة يتحـتم أن تشتمل فى نهاية المطاف على أعراف الجنوب الزنجية , وتمتد على شـكل خـط مستمر من الحجاز حتى واحات توات Tuat .

وأثناء مروره عبر القاهرة , قصد الرجل واحة سيوة التى مرض فيها مـدة ثمانية أشهر , ثم ذهب إلى جالو, وإلى سكيخرّا Skekherra التى التقى فيها ولأول مرة الزواويين , الذين كتب لهم أن يلعبوا دورًا هامًّا فى مشروع محمد بن علـى الخاص بتجديد الإسلام ووحدته , وسبب ذلك هو أن قبيلة الزواويين المحاربة كان الناس يخشونها فى سائر أنحاء صحراوات الشمال, وبعد أن غلب الزواويون التبـو فى واحتى تيسيربو والكفرة , أصبحوا يشكلون رابطة قوية مع كل مـن دارفـور ووادای .

تأسست فى العام ١٨٤٤ الميلادي أول زاوية أفريقية فى مدينـة البيـضا El Beda فى جبل أخضر, التى ولد فيها أكبر أولاد بن على فى العام التـالي , والتـي دخل الإخوان (اتباع الطريقة) منها إلى برقة وطرابلس , وفزان , بل إنهم وصـلوا إلى تبستي Tibesti , التى أقاموا فيها الزوايا وراحوا ينشرون فيها نظرية زعيمهم.

ويتحدث الناس فى بعض الأحيان عن السنوسيين بطريق الخطأ, على أنهـم مذهب, لكنهم لم يحدث فى أي وقت من الأوقات أن كانوا أكثر من جماعة متقشفة, تعارض الترف بكل أشكاله والاحتفالات بكل صورها, ولا تتسامح مع أى اتـصال مع يهودى أو مسيحى أو كافر. ولما كانت القوة الروحيـة والقـوة الدنيويـة فـى الإسلام مترادفتين بالضرورة, كان الناس ينظرون إلى سيدى بن على فى أواخـر

أيامه باعتباره الحاكم الفعلي للمناطق الداخلية من برقة, لكن هدف الرجل لم يـزد عن كونه ماسونية مسلمة, دينية فى المقام الأول لكنها تعتمد فى ثرائهـا وسـلطتها السياسية على تنظيم للطرق التجارية الصحراوية القديمة التى تأتى عـن طريقهـا تجارة السودان إلى موانئ البحر المتوسط فى الشمال. من هنا كانت زوايا محمـد بن على تبنى دوما فى نقاط استراتيجية يتحتم على القوافل التوقـف عنـدها بغيـة الإفادة من الآبار. وبينما كانت تسقى الابل كان الشيخ السنوسي يرفه عن التجـار, الأمر الذى كان يوفر له أنسب الفرص للدعاية, كانت الزوايا التى هى بمثابة كليات وأسواق فى ذات الوقت, تستضيف المسافر, أيا كان, لمدة ثلاثة أيام مجانـا, ومـع ذيوع صيت السنوسى بين القبائل بصورة متدرجة, جرى تعيين الإخوان لمرافقـة القوافل المهمة لمنع هجوم البدو عليها. من هنا انتقلت نظرية سيدى بن على فـى نهاية المطاف إلى كل من كانو, وبوركو, والي كومـاليس Comalis والـسنغال وجامبيا بدون وجود تعاليم مكتوبة وفى واقع الأمر , لم تكن هنـاك أيـة طقـوس سنوسية خاصة , كما أنى لم أسمع أية صلوات غير عادية أو أي طقس غير عادي يستعملونه فى مساجدهم. وكان استعمال الذهب أو المجوهرات أو أي شـكل مـن أشكال الترف كلها أمورًا ممنوعة عند السنوسيين وكذلك أيضًا التبـغ والمـسكرات الكحولية .

تتمثل الأفكار الأساسية التى تقوم عليها الإخوانية فى المـساواة والبـساطة والانعزال الكامل عن كل التأثير الخارجى, يزاد على ذلك أن الـشيوخ الـزواويين لهم سلطة دنيوية كبيرة نظرا لأن دعوى سيدى بن على كانت موجهة أصلا للبدو, الذين تشجعوا على تسوية مشكلاتهم فى الزوايا القريبة منهم, لكنهم كانوا مـسئولين أيضًا عن التعليم, وإلي يومنا هذا تعد الشهادة التى يحصل صـاحبها عليهـا مـن جغبوب أو الكفرة, شيئا ثمينا فى العالم الإسلامى .

في العام ١٨٥٢ عاد سيدى بن على إلى مكة حيث استطاع نشر نظريته بين الحجاج الذين يأتون من كل أنحاء العالم , والتي التقى فيها أيضًا عقيل الزواوى.

بعد أن أنشا سيدى بن على ستة زوايا فى كل من الحجاز وحده, عاد عن طريق مصر والعقبة إلى إيزلات Ezzlat, التى بقي فيها إلى العام ١٨٥٥, ومن إيزلات أرسل بعض الإخوان لبناء زاوية فى جغبوب. واقع الأمر أن ذلك كان من باب التحوط طبقا لسياسته المعتادة, التى تنص على عدم الدخول فى صراع مباشر مع الحكومات القائمة, نظرًا لأن تركيا بدأت تستاء من القوة السنوسية فى شمال أفريقيا. كانت تركيا قد ساندت هذه الجماعة فى البداية, بأن أعطتها امتيازات مهمة من قبيل قطع الأرض, وإعفاء الزوايا من الضرائب. ومع ذلك, لم تستطع تركيا كسب ود سيدى بن على ومنعه من إدانة التسيب الدينى التركى , وفي العام ١٨٥٢ الميلادي, أفتى سيدى بن على بعدم تدين السلطات. وأصبح من الضرورى جدا ل سيدى بن على أن ينقل مركز رئاسته من الأراضي الخاضعة اسما للولاية العثمانية. انتقل سيدى بن على إلى جغبوب فى العام ١٨٥٦ ونقلا عن دوفيمرير, فقد حول الرجل الواحة الصغيرة غير المهمة إلى مركز مهم للنشاط السياسي والتجارى. وقام وفد من الزواويين برئاسة عبد الكريم هلايج Helayig, وجاب الله وعقيل بزيارة سيدى بن على فى جغبوب وعرضوا عليه ولاء القبيلة له. ولابد أن سيدى بن على قد أدرك الأهمية الاستراتيجية للكفرة بوصفها قاعدة للدعاية بدءًا من السودان إلى بحيرة تشاد, نظرا لأنه قام على الفور بإرسال أربعة من الإخوان لنشر تعاليمه خلال الواحات الأربعة. الرسالة التى كتبها سيدى بن على إلى واجنجا Wajanga فى ذلك الوقت, والتي أوردناها ضمن الملحق د, تعد واحدة من أساليب الرجل التبشيرية الخاصة.

ومن المحتمل أيضا أن يكون سيدى بن على فكَّر فى مزيد من الانسحاب من منطقة النشاط التركي, ودليل ذلك أن الرجل أمر ببناء زاويتين بالقرب من غدامس , لكن الرجل وافته المنية بصورة مفاجئة فى العام ١٨٥٩.

كان ولدا سيدى بن على, محمد المهدي ومحمد الشريف صغيرين إذ كان عمر الأول ستة عشر عاما والثانى أربعة عشر عاما, ولذلك آثرت أغلبية الاخوان انتخاب سيدى عبد العلى بن أحمد بن ادريس الفاسى رئيسا لهم. وجرى فى نهاية الأمر إصدار قرار لصالح محمد المهدى لأن الإخوان تذكروا أن سيدى بن على كان قد طلب ذات مرة, من ابنه الأكبر أن يحل محله عقب دخوله مسجدا من المساجد, إذ سلم بنفسه الحذاء الذى خلعه, ولذلك فسّر الإخوان هذا العمل على أن سيدى بن على قد اختار ولده الأكبر ليكون خلفًا له.

هناك نبؤه قديمة مفادها أن المهدى الذى سيغزو العالم من أجل الإسلام وأنه سيبلغ سن الرشد فى اليوم الأول من شهر المحرم من العام ١٣٠٠ الهجري, بعد أن يكون ولد من أبوين يدعيان محمدا وفاطمة , وبعد أن يكون قد أمضى سنوات عدة فى العزلة .

في اليوم الثاني عشر من شهر نوفمبر من العام ١٨٨٢ وبعد فترة قصيرة أمضاها فى رعاية سيدى عمران و سيدى أحمد الريفى, الذى ظل بمثابة مستشاره الأمين, يكون ولد سيدى بن على قد حقق أولبّى كل هذه الشروط .

كانت هناك فى ذلك الوقت ٣٨ زاوية برقة وسرت Syrte و١٨ زاوية فى طرابلس كانت هناك زوايا أخرى فى سائر أنحاء الجزائر, وتونس وفزان, لكن مراكش (المغرب) لم يكن فيها سوى خمس زوايا فقط, ويحتمل أن يكون ذلك سبب المعارضة من قبل جماعة أخرى أقوى هى إخوانية أو طريقة المولال الطيب Moulal Tayyeb . وعن طريق الصحراء الغربية وتمبكتو – التى بنى الاخوان فيها زاوية – يكون الاخوان قد أخترقوا السنغال التى ربما وجدوا فيها تربة خصبة لتعاليمهم, نظرا لأن الحجاج السنغاليين قطعوا فى العام ١٨٧٩ الميلادى مسافة تقدر بحوالي ٤٥٠٠ كيلو متر عبر أفريقية لزيارة المهدى فى جغبوب, وعادوا إلى بلادهم دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الذهاب إلى مكة. وهنا يمكن القول – بصورة مؤكدة – إن

النفوذ السنوسي كان سائدا فى المنطقة من اير Air إلى جوندا Gonda, ومن بحيـرة تشاد إلى واجنجا وأيضا بين الثلاثة ملايين نسمة هم الذين كانوا يعيشون فى واداى.

كان من عادة سلطان واداي أن يعهد إلى "أخيه ورفيقه الحاكم" سيدى بـن على بحماية قوافله المتجهة إلى الشمال , الأمر الذى أدى إلى تقوية هذه الـصداقة عن طريق الهدايا الكثيرة من العبيد والعاج .

لم يكن تأثير تلك الاخوانية قويا فى مصر تحت أى ظرف مـن الظـروف, وذلك على الرغم من وجود سبعة عشر زاوية فى أنحاء مـصر باسـتثناء البيـت الرئيسى فى جغبوب. فى نفس الوقت كانت هناك زوايا آخرى فى كل مـن جـدة ومكة والطائف وما لا يقل عن تسع زوايا أخرى فى الحجاز واليمن. يقدر دوفيرير Duveyrier عدد الإخوان التابعين للإخوانيـة بمـا يتـردد بـين ١٥٠٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠٠٠ عندما بلغ المهدى سن الرشد. كان كل واحد من هؤلاء الإخوان مبشرًا نشطا , وكان كل واحد منهم على استعداد لجعل نفسه , بنـاء علـى أوامـر مـن رؤسائه, جنديا لمقاتلة الكافر المكروه. من هنا يمكن القول : إن القوة التى وضعت بين يدى الشاب محمد المهدى كانت قوة كبيرة. ربما يكون قد أعلن حربا مقدسـة , وأصبح له مستقبلٌ عمليٌ مدهشيّ وذائع الصيت شأنه شأن النجار المتواضـع فـى جزيرة آبا Abba فى نيل السودان , ولكن الرجل آثر تقوية مركزه فى جغبـوب وأن يواصل سياسة والده التى تقضي بالعزوف عن مراكـز الحـضارة وتجنـب الدخول فى عداء صريح مع الدول الأوروبية. والذي لا شك فيه , أن سيد بن على كان مسئولا عن المقاومة الصلبة من جانب لغوات Laghuat فى الجزائر فى العام ١٨٥٢ الميلادي, وبقيادة محمد بن عبد الله, الذى أنضم إلى الاخوانية أثناء قيامهـا بالحج إلى مكة, كما يعد سيدى بن على مسئولاً أيضا عن قسم كبير من معارضـة الاحتلال الفرنسي لكل من نيجيريا والسنغال وجامبيا. ويمكـن القـول أيـضا إن

المهدي كان له من حيث الشكل - أن لم يكن ذلك على المستوى الإمبراطــوري - منطقة نفوذ بين الأعراق الزنجية الموجودة فى المنطقة ما بين وادى وبحيرة تشاد, وهذا هو السبب وراء استعداده فى السر لمعارضة الاختراف الفرنــسي لنيجيريـــا, لكن انسحابه إلى الكفرة فى العام ١٨٤٩الميلادى, يكشف عن تصميم الرجل علـــى تحاشى أى شكل من أشكال العداء المعلن.

كان محمد المهدى أعظم شخصية فـــى الإخوانيـــة, وفـــى عهـــده وصـــل السنوسيون إلى ذروة قوتهم. ولما كانت مسأله قبول تعاليمه تعنـــى دفـــع ضـــريبة العشور , فإن زعيم الإخوانية في تلك الفترة كانت تحت تصرفه ثروة كبيرة. وبعد أن أرسى تجارة رابحة فى العبيد والأسلحة فيما بين الجنوب والشمال, كان يمتلـــك أيضًا نواة لجيش من الزنوج, ومع ذلك كان يستهدف الاختراق السلمى ولا يركـــز على الاحتلال العسكرى, كانت زواياه بمثابة أماكن اجتماعات محايدة يجرى فيهـــا تسوية المشكلات سواء كانت قبلية, أو تجارية أو شرعية أو دينية بواسطة سلطات غير منحازه. كان إخوانه قضاة ومبشرين أيضا. كانوا يحددون منـــاطق القبائـــل, ويحددون أيضًا الحقوق فى المياه وفى المرعى, وكانوا أيـــضًا يطبقـــون العدالـــة القرآنية على كل من يخرج على قواعد الأسلام.

ليس من العجب فى شيء , فى ظل التأثير الموكد والنفوذ الحقيقى لمثل هـــذه الاخوانية, أن يقوم بعض الرحالة الأوربيين بفعل تأثرهم بالأخطار التى نجـــوا منهـــا بنقل أفكار مبالغ فيها عن هذه الاخوانية , وقد غاب عن أذهانهم أن هـــذه الطريقـــة لابد وأن تكون مفتقرة إلى الترابط, وأنها انتشرت فى بلدان مختلفة الأعراق واللـــسان والعادات والتقاليد, ونظام الحكم, وأنها مطوقة من جميع الجوانب بدول أوروبية .

بقي المهدى - طوال مدة حكمة التى دامت ثلاثة عشر عاما - فى جغبـــوب بمنأى عن روح التمرد التى نشطت فى العالم الإسلامى.

وعندما أرسل مهدى السودان نائبه لطلب المساعدة فى طرد الإنجليز من مصر فى العام ١٨٨٤, أعرب مهدى جغبوب عن استيائه عندما قال: " قل لسيدك إننا ليس بيننا وبينه ما يربطنا به. ويتعين عليه عدم الكتابة إلينا بعد اليوم لأن طريقته خاطئة . ونحن لا نستطيع الرد على هذه الرسالة".

أدى انتقال المهدى إلى الكفرة إلى أن أصبح فى وضع شبه حصين يستطيع منه التحكم فى نصف الطرق التجارية الخاصة بالقارة . تمثل كبار مستشاري المهدى فى أستاذه القديم أحمد الريفى, وولده محمد الشريف, هو ومحمد بن حسّان البكاري. وترك المهدا بن أخيه محمد العابد, وكيلا له فى جغبوب .

أصبحت الكُفرة فى ظل حكم الزواويين أبرز مركز للعصابات على مستوى الصحراء الكبرى استبدل سيدى المهدي بنظام الجمارك, منظومة جديدة فرضتها على كل السلع والبضائع التجارية التى تمر من خلال الكُفرة.

بنى سيدى المهدى بلدتي الجوف وتاج, وبنى زاوية كبيرة فى كل منهما, واستطاع فى غضون سنوات قليلة تحويل الواحة إلى مركز حضارى مكتف اكتفاء ذاتيا , ومركز لرئاسة الإخوانية, كان يزوره عدد كبير من " الإخوان" من سائر أنحاء أفريقيا.

ومع ذلك, يجب أن نقر أن شمال أفريقية, لم يكن بصورة مؤقتة, مجالا لنشر وتوسع تعاليم سيدى المهدي. وهذا يعني أن أية محاولة من جانبه لاستعمال القوة مع فرنسا, أو تركيا أو مصر يمكن أن تسبب له مشكلة كبيرة, وعليه ركز سيدى المهدي جهوده على كل من بوركو Borku ووادای وکانم وعربي السودان. أوفد سيدى المهدي إخوانه إلى هذه المناطق ومعهم تعليمات لتسوية المنازعات بين القبائل, وبذلك يمكن إقناعهم بالاعتراف بسلطة السنوسى, وبناء زوايا فى تلك الأماكن, مما يساعد على التحكم فى الآبار والأسواق. وتأسيا بأتباعه ومريديه, غادر سيدى المهدى الكفرة فى شهر أغسطس من العام ١٨٩٩ بعد استقباله للنائب

على دينار ,الذي حمل له ولاء سلطان دارفور للإخوانية. وبعد مسيرة بطيئة دامت ثلاثة وستين يومًا, وصل سيدى المهدى إلى غيرو Ghiru التى راح منها يوجه المعارضة للاختراق الفرنسي من بحيرة تشاد.

جاءت هذه الخطوة بمثابة خرق مباشر للسياسة التى اتبعها سيدى بن على, والتى سبق أن التزم بها سيدى المهدى.

تحولت الجماعة إلى قوة عسكرية فى غمضة عين, فقد كان السنوسيون يعتمدون فى ثروتهم ونفوذهم على استقرار منظمتهم التجارية.

كان الفرنسيون أول الأوربيين الذين هددوا تجارة السنوسيين الرائجة فى العبيد والسلاح. جاءت أول شحنة بضائع من أسطمبول وجرى إنزالها فى طبرق وبنغازى.

ونظر لأن مراكز الاخوانية الرئيسية كانت فيما بين دارفور وكانم, فقد حتم ذلك على فرنسا عدم التقدم إلى أبعد من واداى, التقى الطوارق المتمردون أثناء فرارهم من شمال نجيريا, سيدى البرانى فى كانم, وجرى إدخالهم فى الحركة السنوسية, وانضموا إلى العرب الذين جاءوا من الكُفرة فى تحصين الزاوية الموجودة فى بير اللاهى BirAllahi.

أدى الانتصار الذى تحقق فى زجلبة Zuglba فى اليوم الثالث والعشرين من العام ١٩٠١الميلادى, إلى تحقق الضغط على الفرنسيين من ناحية الجنوب, الأمر الذى مكنهم من تثبيت أقدامهم فى مساكورى . ومع ذلك قام الطوارق الموجودون فى بير اللاهى بمهاجمة إحدي الجماعات المتقدمة وهزموها, وبذلك بقيت زاوية بيت اللاهى مركزًا للمعارضه والمقاومة إلى أن تم الاستيلاء عليها فى العام ١٩٠٢.

أدى هذا الغزو الصريح إلى أن ينذر سيدى المهدى نفسه بشكل واضح لشن حملة محددة على الفرنسيين, لكنه لم يكن لديه جيش نظامى. وكانت سياسته تهدف إلى توحيد القبائل فى مواجهة المسيحيين, وكان هو نفسه يقوم بتوريد الأسلحة

والذخيرة والأموال. كانت يوركو خاضعة لحكمه بطبيعة الحال. وكان له وزير فى واداى وزوايا فى نيجيريا والكميرون .

كان محمد السنوسي – وهو من أشهر الإخوان السنوسيين, والذي قام بكثير من الرحلات التبشيرية فى كل من السودان وغرب أفريقية – مستشارا لسلطان واداى, الذى جلب له محمد السنوسى معونات مالية من تجار طرابلس.

أدت وفاة المهدى المفاجئة فى اليوم الأول من شهر يونيو من العام ١٩٠٢ الميلادى إلى فقدان القوة الدافعة عن الإخوانية. ونظرًا لأن أبناءه كانوا تلاميذ فى مدارس جغبوب, فقد جرى تعيين ابن أخيه سيد أحمد الشريف خلفا له .

بقي الشيخ السنوسى الجديد فى غيرو Ghiru التى واصل منها معارضته للتقدم الفرنسى, إلى أن نزلت به هزيمة منكرة فى شهر ديسمبر من العام ١٩٠٢ الميلادى, جعلته يتقاعد فى الكفرة.

نقل الشيخ السنوسي الجديد مركز رئاسته بضع سنوات ليكون بين هذه الواحة وجغبوب ولذلك تمكن من المحافظة على اتصاله مع الزوايا الموجودة فى الشمال دون أن يقلل ذلك من إحكام القبضة التى كانت للمهدى على الأعراق الزنجية فى الجنوب.

ولما كانت المعاهدة الانجليزية – الفرنسية التى أبرمت فى العام ١٩٠٤ الميلادى قضت بالتنازل لفرنسا عن الطريق الواصلة بين زندر وتشاد, فقد انطوى تحرك القوات الفرنسية بطبيعة الحال على تدهور النفوذ السنوسى فى المناطق المحتلة كلها.

يزاد على ذلك أن قبائل أولاد سليمان الذين كانوا من أشد المناصرين للمهدى استسلموا فى العام ١٩٠٥ الميلادى.

وجرى فى العام التالى احتلال بلماBilma على الرغم من الهجمات العنيدة من جانب كل من الطوارق وعرب الكفرة .

وفي شهر مارس من العام ١٩٠٧ الميلادى جرى الاستيلاء على زاوية عين ملاكاMalakka في بوركو, وجرى قتل سيدى البرانى شيخ الزاوية والحاكم الفعلى لبوركو.

وفى شهر يونيو من العام ١٩٠٩, جرى الاستيلاء على عبيش Abeshe عاصمة واداى.

قامت القوات التركية فى شهر مايو من العام ١٩١٠ الميلادي باحتلال تبستي Tibesti, كما احتلت بوركو أيضًا فى شهر سبتمبر من العام ١٩١١, لكن البلدين جرى استعادتهما مع الحرب التركية الإيطالية فى العام ١٩١٢, الأمر الذى أسفر عن ترك السنوسى حرًا فى الاستمرار فى دعايته إلى أن جرى إخماده فى نهاية المطاف عن طريق التقدم الفرنسى فى كل من بوركو وتبستى , فى شتاء العام ١٩١٣-١٩١٤.

فى ذات الوقت – وبعد الاعتراف بكل من برقة وطرابلس على أنها من مناطق النفوذ الإيطالى – كان سيد أحمد مشغولا تماما فى الشمال .

عندما نزلت القوات الإيطالية فى ليبيا فى العام ١٩١١ الميلادى, كانت هناك مملكة داخل المملكة وكانت سيادة الأتراك سيادة اسمية فقط .كان الأتراك محتقرين – شأنهم شأن المسيحيين – من اخوانية سيدى بن على التقشفية, التى كانت تنأى بنفسها تمامًا عن الحكومة العثمانية .

وعليه وبعد أن تحالف سيد أحمد مع تركيا, راح يبتعد عن المبدأ الرئيسي الذى تقوم عليه جماعته. أقنع أنفر Enver باشا سيد أحمد بالسماح للقبائل بالمشاركة تحت قيادة تركية فى العمليات العسكرية الطويلة فى حرب العصابات التى جرى تنفيذها بنجاح كبير فى العام ١٩١٤ الأمر الذى جعل ايطاليا تسيطر على المدن الساحلية فى طرابلس, وعلى برقة فقط, فى الوقت الذى ظلت فيه المدن الداخلية فى أيدى السنوسيين .

على كل حال, لقد تغير هذا النجاح المادي نتيجة حل الكيان السنوسي. واختفى بذلك مبدأ الانعزال الديني, الذى هو الأساس الرئيسي فى الإخوانية, وحولت الإخوانية نفسها إلى سلاح سياسي فى يدى تركيا. ومن وجهة النظر هذه, أصبحت المسألة لا تبعد قيد باع عن إعلان الحرب على مصر.

لم يكن سيد أحمد معاديًا فى أى وقت من الأوقات, لبريطانيا, لأنه كان يعلم أن ليس لها مصالح فى ليبيا – يزاد على ذلك أن بريطانيا كانت تسهل تجارة سيد أحمد مع مصر, وتلك نقطة حيوية فى صالح البدو, نظرًا لأن الموانئ الليبية كانت مغلقة فى وجوههم.

كان كل من ما يتسمان Mannismann ونوري باشا – وهما عميلان المانى وتركى – يقدمان الاسلحة, والذخيرة والنقود, فى الوقت الذى كانا يبديان فيه أمام الشيخ السنوسى فكرة أن البدو المصريين سوف ينضمون إليه, وأنه سيصبح حاكمًا على مصر, ومع ذلك – وعلى الرغم من التنظيم التيتانى, وفكرة الجهاد واسعة الانتشار – فإننا نشك فى قدرة السنوسى على تجنيد أكثر من أربعة آلاف رجل.

أسس سيد أحمد مركز رئاسته فى بير الواعر Bir Wacr وانضم إليه حرس السواحل المصرى , بقيادة محمد صالح.

كان جعفر باشا – ذلك الجندى المحنك القدير, وهو عربى من بغداد – مدربًا على أساليب الحرب الألمانية, ويتولى قيادة القوات السنوسية.

كانت السفينة تارا Tara قد أغرقت فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر من العام ١٩١٥, وجرى إرسال طقمها أسرى إلى الصحراء.

جرى فى الشهر نفسه اخلاء السلوم Sollum, التى كانت تحت قيادة العقيد سنو Snow بك, وهو من حرس السواحل المصرى, وأثناء نزول الحامية إلى الشاطئ فى طراد شاهدوا سيدى برّانى والنار مشتعلة فيها .

أقيم مركز الرئاسة البريطاني في مرسى مطروح, وفي شهر ديسمبر جرى تجميع القوات الخارجية كلها تحت إمرة مركز رئاسة مطروح.

ويعتبر اسم العقيد سنو بك - هو واسم الميجور (الرائد) رويل بك - شهيرين في الصحراء الغربية, لكن العقيد سنوبك مات بطلق ناري أثناء عملية استطلاع جرت في اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر.

جرى في ليله عيد الميلاد إنزال الهزيمة بالسنوسيين في مدوا Medwa , ثم بعد ذلك في جراوله Jerawla في اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر, لكن المعركة الحاسمة كانت في حلاذين Halazin, التي كان سيد أحمد قد جمع فيها قوته الرئيسية.

وجري في اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير الهجوم على سيد أحمد وحقق الهجوم نجاحًا كبيرًا , واضطر سيد أحمد إلى الانسحاب بصورة متدرجة إلى السلوم , مخلفا وراءه ٧٠٠ قتيل في ميدان القتال .

أسفر الانتصار الذى تحقق فى أجازياAgazia في اليوم السادس والعشرين من شهر فبراير عن أسر جعفر باشا وهروب سيد أحمد, مما ترتب عليه فتح الطريق إلى السلوم, التي جرى احتلالها في اليوم الرابع عشر من شهر مارس.

في اليوم التالي المصادف لليوم الخامس عشر من شهر مارس , قام دوق وستمنستر باندفاعه الشهير إلى بير حكيم على طريق طبرق -جغبوب , على عمق حوالي ٦٠ ميلاً في الداخل , وعلي بعد حوالي ١٢٠ ميلاً عن السلوم, مستهدفا بذلك تحرير أسرى تاره .

وانسحب سيد أحمد عن طريق سيوة إلى الداخلة, في حين ذهب القسم المتبقى من قوته إلى الواحات البحرية وعلى الفور قام البريطانيون بإخلاء الخارجة, وبعد ذلك وفي وجود جيش ناجح يحتل الموقع, أصبح العدو المنهزم معزولاً عن كل المؤن في واحتين صحراويتين منعزلتين وهنا راحت برقة الثائرة

الجائعة, تعرب عن استيائها من سياسة حاكمها وتحولت بالفعل ناحية محمد إدريس, الذى كان موقفه الموالى للبريطانيين واضحا منذ البداية, وهنا بدأ مشروع تحصين مصر بتكاليف وصلت إلى حوالي ٦٠ مليون جنيه إنجليزى, حتى تستطيع الوقوف فى وجه عدو يقدر عدده بحوالى ٢٠٠٠ فرد.

جرى على وجه السرعة التخلص من معسكرات أولاد على المسلحين, والتى توجد خلف الخط البريطانى فى مطروح, ولكن صيف العام١٩١٦ أنفق كله فى تحصين خط وادى النيل, ثم جرى فى شهر أكتوبر طرد السنوسيين من الداخلة والبحرية عن طريق سلاح الإبل وداوريات العربات الحفيفة. وانسحب سيد أحمد عن طريق واحة الفرافرة إلى سيوة, التى ترك فيها محمد صالح لتولى القيادة هناك.

وفي شهر فبراير من العام ١٩١٧ الميلادى, وبعد اشتباك حاد فى جربة, حيث تحملت عشرون عربة مدرعة , كانت موجودة فى شرقي ممر مناسب Munasib, نيرانا كاسحة استمرت أربعًا وعشرين ساعة من حوالى ٨٠٠ فرد من السنوسيين كانوا مختبئين بين الصخور التى كانت تعلو تلك العربات , وجرى فى النهاية طرد السنوسيين من الأراضى المصرية .

أمضي سيد أحمد ثمانية عشر شهرًا متأرجحًا فى المناطق الداخلية فى برقة وفى شهر أغسطس من العام ١٩١٨ الميلادى انسحب إلى إسطمبول عن طريق غواصة .

جاءت فى الوقت نفسه , أي فى العام ١٩١٦ بعثة أخرى بقيادة الجنرال (كان عقيدا فى ذلك الوقت) مارشيز دى فيتا والعقيد تالبوت, جاءا إلى سيدى محمد إدريس السنوسى فى كل من طبرق وزوتينه Zuetina بغرض ترتيب حل مؤقت فى برقة.

لم يكن سيد إدريس قد شارك بأي دور فى الحملة التى شنها ابن عمه على مصر. لكنه على العكس من ذلك , ألقى بكل نفوذه باعتباره ابن المهدى فى الكفة المعارضة من كفتى الميزان .

وعندما قرر سيد أحمد القيام بالهجوم, تراجع السنوسى الصغير هو وأخوه سيد رضا إلى إجدابيا , التى كتبا فيها إلى الجنرال ماكسويل يبلغانه أنهما لا يؤيدان سياسة ابن عمهما؛ واصل سيره فى هذا الطريق بشكل حازم, على الرغم من أنه بعد هزيمة سيد أحمد جاء مانسمان غربًا ومعه بعض الأتراك وبعض من حرس السواحل المصرى, محاولا إقناع سيد أحمد بمواصلة الحرب. رفض سيد إدريس هذا العرض, وقتل مانسمان وهو فى طريقه إلى طرابلس, تلك الرحلة التى قام بها مانسمان معارضًا بذلك نصيحة السنوسى له بعدم القيام بهذه الرحلة.

كان من الطبيعى عندئذ أن تتوجه كل من برقة وايطاليا إلى الابن الأكبر من أبناء المهدى كيما يساعدهما فى مسألة إعادة التنظيم التى أصبحت ضرورة من الضروريات بسبب السياسة الفاشلة التى يتبعها سيد أحمد.

وفي العام ١٩١٧ الميلادي جري عقد اتفاق بين الحكومتين البريطانية والايطالية من ناحية وسيد محمد إدريس , من الناحية الآخري , بوصفه رئيسا للإخوانية , وجرى الاتفاق على ما يلي :-

(أ) سوف تحتفظ الحكومة الإيطالية بالمدن الساحلية , وبعض المدن التى جرى احتلالها بالفعل على بعد مسافة قصيرة نحو الداخل , لكنها لن تنشئ مواقع جديدة .

(ب) يجب عدم حظر التجارة بين الداخل وكل من بنغازى, وطبرق ودرنة.

(ج) سيجري بناء وصيانة الأحواش اللازمة طبقا للشريعة, كما ستنشأ المدارس لتعليم المواطنين, بواسطة الإيطاليين الذين سيقومون أيضًا بإعادة الزوايا وممتلكات الزوايا التى لا تكون مطلوبة لأغراض عسكرية, ويكون الإيطاليون مسئولين عن رواتب شيوخ الزاوية الذين يعينهم سيد إدريس.

(د) تقوم الحكومة الإيطالية بتقديم المساعدات المادية لمحمد إدريس, على أن تقوم بإمداده بالأسلحة, والذخيرة والمعدات والطعام اللازم لعدد محدود من الرجال,

ويقدر العدد فى الوقت الحالي بحوالي ٤٠٠٠ رجل , هؤلاء الرجال يتحتم استخدامهم فى مواجهة العدو من ناحية , والمحافظة على الأمن العام داخل برقة .

(ه) يتحتم دفع مخصصات شخصية شهرية لعدد محدد من الأسرة السنوسية.

(و) وفي مقابل ذلك , يصبح محمد إدريس شخصيًا مسئولا عن المحافظة على الأمن الداخلى, على أن يقوم بتشكيل مواقع جديدة, وأن يقوم بنزع سلاح السكان بصورة متدرجة, وألا يضع عقبات أمام الحكومة الإيطالية وهى تقوم بنزع أسلحة الجماعات المعادية عن طريق القوة, وأن يسمح للمندوبين الإيطاليين بالدخول إلى داخل البلاد لتسوية الأمور مع مندوب محلى, فى الوقت الذي يحق فيه للحكومة الإيطالية, أن تقوم فى أى وقت تشاء, بإرسال ممثل لها لمناقشة أمور معه هو شخصيًا.

واعتبارًا من ذلك اليوم نشأ تفاهمٍ ممتاز, وذلك بفضل النفوذ الشخصى لصاحب المعالى حاكم برقة, والسيناتور دى مارتينو والسيد محمد إدريس, الذى تتطلع برقة فى ظل حكمه إلى مستقبل تجاري وزراعي زاهر.

بعد موافقة الحكام فى شهر نوفمبر من العام ١٩٢٠ أقرت كل من إيطاليا والسنوسى الاتفاق الإيطالى – البريطانى سالف الذكر.

منح سيد إدريس لقب أمير وصلاحية "حاكم مستقل مناب عن إيطاليا" على واحات الكفرة, وجغبوب, وجالو وعجيلة, وإجدابيا. يجب على سيد إدريس تسريح "قراقولاته", ومعسكراته المسلحة فى برقة, ويتحتم على الإيطاليين إيجاد وظائف لمن سيجرى تسريحهم على أن يكون ذلك فى نطاق قوة الشرطة النظامية. تنص مواد الدستور الجديد الذى مُنح إلى ليبيا على أن يكون هناك خمسة أعضاء من بين الأعضاء الأربعة والاربعين الذين يشكلون الجمعية التشريعية , مختارين من الواحات الداخلية . ومن المنتظر بناء ميناء فى زيوتينة Zuetina , وأن تمر التجارة العابرة للصحراء والقادمة من واداى ودارفور من خلال كل من الكفرة , وجالو , و إجدابيا وهى فى طريقها إلى موانئ البحر المتوسط.

يحكم سيد إدريس حاليًا بواسطة قائمقام فى كل من الكفرة, جالو, وجغبـــوب, والابيارة وتاكنس Takness , وميراوا Merawa وخلاف. وهناك قاض تحـــت إمرة كل قائمقام, وهناك أيضًا محكمة شرعية مكونة من كاتبين, مـــدير الأمـــوال, وأمين صندوق وكاتب ومأمور تحصيل.

العدالة المعمول بها هي العدالة القرآنية, وضريبة العشور تدفع سنويًا علـــى النخيل وعلى الماشية. تفرض ضريبة جمركية بواقع خمسة فى المائة علـــى كـــل أنواع البضائع التى تدخل البلاد السنوسية , كما يفرض مبلغ صغير على بيع الجمل أو الخروف أو العنزة, لكن من المنتظر فى ضوء العلاقات الودية القائمة حاليًا بين الحكومة الإيطالية والأمير إدريس, أن يجري وضع منظومـــة للجمـــارك لتـــشجيع التجارة بين الداخل والمناطق الساحلية. وسيكون من المهم فى المستقبل ملاحظـــة الاتجاه الذى سيتوجه إليه السنوسى.

لقد ابتعدت الجماعة عن العناصر الأساسية التى تأسست عليها. هذه الجماعة التى بدأت كجماعة ريفية منعزلة, توسعت عن طريق النفوذ التجـــارى والـــسياسى متحولة إلى كيان ملكى, تحتم عليه رغبته فى الحضارة إجبار نفسه علـــى الـــسير على خطوط هى بعيدة تمامًا عن الخطوط التى أنشأها عليها مؤسسها. من المؤكـــد أن الأمير إدريس سيحظى بمساندة كاملة من البلاد, فى الطريق التى سيختارها هو للسير فيها, وفى ضوء التعاون التعاطفى الحالى من جانب الحكومة الإيطالية, قـــد يتولى الأمير إدريس قيادة مسيرة التقدم العربى فى شمال أفريقية.

الملحق ج

مضمون وثيقة الترحيب التى جرى الحصول عليها فى بُسيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فى يوم الجمعة الموافق ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٣٩، حضر لبلدنا بُسيمة الشريف أحمد بو محمد حسنين المصرى بن الشيخ محمد أحمد حسنين البولاقى العالم بالأزهر الشريف والسيدة خديجة وهما يحملان أوامر الوجيه أميرنا العظيم سيد محمد إدريس، ابن محمد المهدى السنوسى. وقد قابلناهم بالتعظيم والإكرام وهنأناهم على سلامة الوصول إلينا. ودعونا الله سبحانه وتعالى أن يمنحهم النجاح فى جهودهم وأن يعيدهم سالمين منتصرين وفى أحسن الأحوال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التوقيع

محمد على المردينى

سعد بن أحمد فقرون

يونس بن ماحى

عمر بن الجيد

صالح بن أحمد فقرون

وثيقة الترحيب التى جرى الحصول عليها فى الكُفرة (تاج)

إنه فى يوم الجمعة المبارك الموافق الثالث من جماد الأول ١٣٣٩، حضر إلــى بلدنا فى الكُفره الشريف أحمد بو محمد حسنين المصرى بن الشيخ محمد أحمد حــسنين البولاقى العالم بالأزهر الشريف والسيدة خديجة وهما يحملان أوامر الوجيــه أميرنــا العظيم سيد محمد إدريس المهدى السنوسى، وطبقًا للأوامــر الــسامية قابلنــاهم بكــل تشريف واحترام وشكرنا الله على وصولهم سالمين إلينا، وندعوه أن يعيدهما سالمين.

التوقيع:

المستشار الثانى للكُفرة، أحمد السنوسى، يرحمه الله

القاضى عثمان البراسى، يغفر الله له

المستشار، سيد محمد بن عمر الفاضل، يغفر الله له

وكيل سيد الكُفرة، محمد صالح البسكارى، يغفر له الله.

الملحق د

ترجمة مخطوطة الرسالة التى وجهها سيدى بن على السنوسى, مؤسس الإخوانية السنوسية ,إلى أهل واجنجا . اطلعنا على هذه المخطوطة فى الكفرة .

بسم الله الرحمن الرحيم , والصلاة على نبينا محمد وعلي آله وصحبه وسلم, رضي الله عنهم , هذه الرسالة ممن اختاره ربه محمد بن على بن السنوسى الخطّابى الحساني الإدريسى, إلى العالم الذكى الشيخ فرج الجنغاوى هو وكل أهل واجنجا , كبارًا وصغارا , ذكورًا واناثا حماهم الله وحقق الله لهم ما يبتغونه فى الدنيا وفى الآخرة ! آمين .

السلام عليكم ورحمته وبركاته وعفوه ورضاه .

هدفنا ومبتغانا فى المقام الأول هو السؤال عنكم وعن أحوالكم , أصلحها الله ويسرها لكم طبقا للكتابة وموروث نبيّه ﷺ محمد .

ثانيا, نو أن نطلب منكم باسم الإسلام طاعة الله ونبيه . قال ,سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول " وقال أيضًا " من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا " وقال أيضًا " من يطع الرسول فقد أطاع الله " وقال أيضا " من يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا "

نود أن نطلب منكم أن تطيعوا ما أمر به الله ورسوله, وأداء الصلوات الخمس, وصوم رمضان, وإيتاء الزكاة, والحج الي بيت الله المقدس, والابتعاد عما حرمه الله, وعن الكذب, والنميمة, وآكل أموال الناس بالباطل, شرب الخمرة, قتل الناس بغير حق, الشهادة الزور, والأشياء الأخرى التى حرمها الله .

وعندما تتبعون ذلك سيتنون خيرا أبديا ومغانم لن تضيع منكم مطلقًا.

طلب منا بعض من رجال بلدكم أن نرسل معهم بعضا من إخواننا لكي يذكّروهم بالله ويعلموهم ذلك الذى قال الله ﷻ ورسوله ﷺ ويهدوهم إلى سواء السبيل .وقد قررنا عمل ذلك , لأن هذه هى المهمة التى كلفنا بها الله ﷻ آلا وهى : تذكير المتناسين , وتعليم الجهلة , وهداية الضال • لكننا فى ذلك الوقت كنا فى " الحرمين " الشريفين • وعندما وصلنا إلي هذه المناطق شغلنا أنفسنا بهداية الناس إلي الطريق المستقيم , ولم نجد أي أحد من بلادنا كيما نرسل معه أولئك الذين سيقومون بتعليم الدين لهؤلاء الناس.

جاء إلينا الآن أبناؤنا من الزاوية , أقصد أولئك الذين يسكنون زاوية قازير(*), وتابوا وندموا وطلبوا منا بناء زاوية فى تازير. ونحن ننتوى أن نكون جيرانا لكم, ونعلمكم ونعلم أبناءكم القرآن وحديث النبى محمد ﷺ ونحن ننوي أيضًا إرساء السلام بينكم وبين العرب الذين يغزونكم ويأخذون أبناءكم وأموالكم . ونحن عندما نقوم بذلك نكون نتصرف طبقا لقول الله ﷻ " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما "• وقوله تعالى : " أتقوا الله , واصلحوا ذات بينكم وأصيعوا الله والرسول إن كنتم مؤمنين " • وقوله تعاى : "أعطوا الصدقات واصلحوا بين الناس ومن يفعل ذلك مرضاة لله فسيفوز فوزًا عظيمًا ".(**)

وبهذه الطريقة سيكون هناك تعاون على فعل الخير وعلى التقوى كما ورد فى قوله الله ﷻ: "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " • قال رسول الله ﷺ " يا عباد الله , كونوا إخوانا وساعدوا بعضكم بعضًا فى الدين "•(***)

(*) قازير: الاسم القديم لواحة الكفرة.

(**) أوردت المؤلفة هذا الجزء على أنه ترجمة لأية من أيات القرآن، وهو ليس بأية وإنما قد يكون تركيبه من بضع أيات. (المترجم).

(***) هذا معنى حديث وليس حديثًا. (المترجم)

وفيما يتعلق بالتمرد والنزاع فلا خير فيهما وقد حرمها الله فى كتابه العزيز " ولا تنازعوا فتفشلوا , واصبروا فإن الله مع الصابرين ".

وبمشيئة الله, وإذا ما أطعتم أوامرنا وعمل وعملتم بنصيحتنا, ستجيء نخبة صغيرة من أبنائنا ليعلموا الناس القرآن وحديث رسوله الله ﷺ وعندها لن تخافوا أحدًا وستنزل بكم نعمة الله ورحمته, بمشيئة الله.

بلغوا تحياتنا وهذه الرسالة إلى المحيطين بكم, الذين يودون طاعة الله ورسوله والذين يودون العمل بالقرآن وسنة النبي ﷺ.

أدعو الله, سبحانه وتعالى أن يجعلكم ممن يهدون ويهتدون , ومن أولئك الذين يبتغون الخير ويتبعونه!

أدعو الله أن يحفظ عليكم أمنكم وصحتكم !

بتاريخ الرابع من محرم من العام ١٢٦٦ الهجرى.

قائمة الصور

١٨- حسانين بك والمجابره يشربون الشاى

١٩- القطعان تشرب من بير رسام

٢٠- قافلة شيب فى طريقها بين الوادى الفارغ وعجيله

٢١- قافلتنا تقترب من عجيله

٢٢- عجيله

٢٣- مسجد عجيله، المدفون فيه كاتب النبى محمد ﷺ

٢٤- متفرجون مغرمون فى عجيله

٢٥- بئر صحراوية فى جالو

٢٦- المؤلفة مع الأمتين: زينب وحواء Hauwa

٢٧- مخيمنا فى بُطفال

٢٨- القافلة فى طريق سيرها بين بُطفال وتيسربو

٢٩- المكان الذى عثرنا فيه على الوقود لأول مرة: "الهاتيا" بالقرب من العطش

٣١- المنطقة الجبلية فى بُسيمة

٣٢- القافلة فى منطقة كثبان رملية بالقرب من بُسيمة

٣٣- أول لقاء بين أسرة فقرون وجماعتنا فى بُسيمة

٣٤- المؤلفة تركب جملاً فى بُسيمة

٣٥- امرأة زُويّه فى بُسيمة

٣٦- فى بُسيمة: تعليم أسرة فقرون طريقة استعمال نظارات الميدان.

٣٧- تاج، فوق الوادى

٣٨- جوف

٣٩- الأخوان الأربعة الذين استقبلونا فى تاج

٤٠- حسانين بك يتحدث إلى الأخوان فى تاج بينما تقــوم المؤلفــة بالتقاط صورة لهم.

٤١- 'القائم مكان' فى تاج

٤٢- منظر الجوف

٤٣- بحيرة الجوف

٤٤- زاوية البرج فى تاج

٤٥- منزل سيد أحمد شريف فى تاج

٤٦- وادى الكفرة فى تاج

٤٧- قرية تبيو فى الكفرة

٤٨- أنقاض قلعة تبيو فى الكفرة

٤٩- رحال معه مسبحة

٥٠- برًاكنج: منزل شديد الانحدار

٥١- تناول الغداء فى وادى الكفرة

٥٢- رحلة سليمان بو مطر الخلوية فى وادى الكفرة

٥٣- تِيبي فى أواردل فى الكفرة

٥٤- بحيرة بومه

٥٥- البحيرة والسمار فى الكفرة

٥٦- مخيمنا فى أواردل

٥٧- التحميل فى أواردل

٥٨- مخيم مهماسا: يوسف محمد وعمر

٥٩- المؤلفة نائمة فوق جمل

٦٠- المنطقة الواقعة خلف الكثبان الرملية فى الطريق إلى جغبوب

٦١- جغبوب

٦٢- بئر فى زاوية فى جغبوب

٦٣- مسجد وقبة سيدى بن على فى جغبوب

٦٤- رحلتى الخلوية الوحيدة فى وادى الكفرة

٦٥- كوب من الشاى المنعنع فى الطريق إلى سيوه

٦٦- تسليم وثائق الترحيب فى كل من بُسيمة والكفرة (تاج)

المؤلفة فى السطور

جوان روزيتا فوربس:

رحالة وكاتبة، تربت ونشأت فى لينكون. وتزوجت وترحلت مع زوجها إلى الهند، والصين وأستراليا، وجنوب أفريقيا. قامت روزيتا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بجولة حول العالم؛ انتهت فى شمال أفريقية، الذى يعد أول ملتقى لروزيتا بالعالم العربى. عاشت هذه السيدة مع الشخصيات المحلية وخالطتها وكانت تتردد على الأسواق الشرقية وتصادق العرب والأفغان والهنود، والتقت هذه السيدة بعض الشخصيات البارزة فى كل من القاهرة، ودمشق، وبيروت، واكتسبت اهتمامًا بالعرب دام معها بقية حياتها.

المترجم فى سطور:

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت في المجالات والصحف العربية المحلية والدولية منها:

مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية - الرياض - المملكة العربية السعودية، والمجلة العربية - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة الهلال - القاهرة جمهورية مصر العربية.

وله كتب مترجمة إلى العربية منها:

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية.

١- التفكيكية: النظرية والممارسة، تأليف كرسيتوفرنوريس، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٢- الشاعر والشكل، تأليف: جدسون جيروم، دار المريخ.

٣- الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه، دار المريخ.

٤- الأطفال والمخدرات، دار المريخ.

(ب) كتب نشرتها دار أفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١- الموظف المشاكس.

٢- عمل الفريق الفعال.

(ج) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال. القاهرة، جمهورية مصر العربية.

١- هارون الرشيد ، تأليف : فيلبى.

٢- الكاكائين والمرهقين.

٣- بنات مدمنى ومدمنات المسكرات.

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال.

١- حلم ليلة إفريقية.

(ه) كتب روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية .

١- سبعة أنماط من الغموض، تأليف : وليم أمبسون.

٢- وسط الجزيرة العربية وشرقها، تأليف : بالجريف (جزءان).

٣- حركات التحرر الإفريقى ، تأليف : ريتشارد جبسون .

٤- إرادة الإنسان فى علاج الإدمان.

٥- قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦- سيرتى الذاتية، تأليف : أحمد بللو.

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، جمهورية مصر العربية.

١- سكين واحد لكل رجل.

٢- نجوم حظر التجوال الجدد .

٣- المهمة الاستوائية.

المراجع فى سطور

أ.د/ يوسف عبد المجيد فايد

أستاذ غير متفرغ بكلية الأداب – ج القاهرة قسم الجغرافيا من أهم ترجماته : جغرافية المناخ والبنات.

جغرافية المحيطات.

جغرافية الامريكتين.

رئيس قسم ج بمعهد البحوث والدراسات العربية :

عضو مجلس إدارة الجمعية الجغرافية.

عضو لجنة الجغرافيا بالمجلس الأعلى للثقافة.

التصحيح اللغوى: موسى عجلان

الإشراف الفنى: حسن كامل